

# المعمار القصي في سورة مريم (دراسة بنائية جمالية تطبيقية)

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات  
نيل درجة الماجستير في اللغة العربية و آدابها (تخصص الأدب والنقد)

الطالبة  
كليثم سعيد ناصر الخاطري

المشرف  
أ.د. عبد الباسط عطايا

طبع بدعم من  
المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم

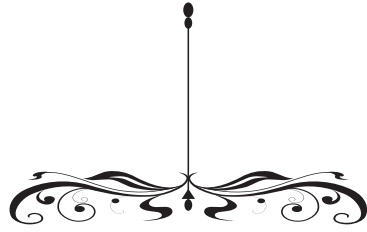
ISBN978-9948-16-637-5



1433 هـ / 2012 م



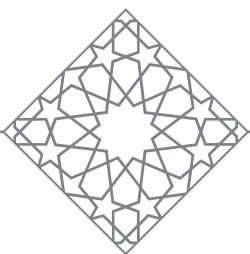




الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن  
رأي المؤلف وتحت مسؤوليته العلمية ولا  
تعبر بالضرورة عن توجهات  
المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم



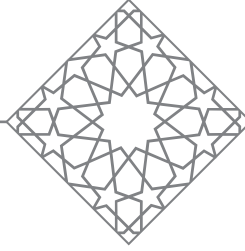




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
1434







## أعضاء لجنة المناقشة:

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٨

وقد منحت تقدير جيد جداً

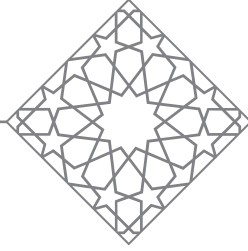
وتمت المناقشة من قبل اللجنة العلمية المكونة من:

- |                       |                          |
|-----------------------|--------------------------|
| رئيساً للجنة المناقشة | ١- أ.د. عمر عبد المعبود  |
| مناقشاً خارجياً       | ٢- أ.د. إبراهيم السعافين |
| مناقشاً داخلياً       | ٣- أ.د. محمد عيلان       |
| مشرفاً                | ٤- أ.د. عبد الباسط عطايا |









# شكرو وتقدير

﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي  
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾





# المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين سيدنا وحبیبنا محمد صلی الله علیه وسلم وعلى آل بيته وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾<sup>(١)</sup> أخط قلمي وأسطر كلماتي في بنائية قصص القرآن وجماليتها التي ارتقت بحسنها وإحكامها وإتقانها مدارج الكمال، كيف لا؟ وهي تتوشح وتكتسي حُلل الجمال والإحكام من كتاب وَصَفَهُ وَاضِعُهُ جَلَّ فِي عِلْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ كَتَبْنَا الْحِكْمَةَ آيَاتِهِ ثُمَّ قُضِيَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾<sup>(٢)</sup> والذي وَصَفَ عِنْدَ الْخَائِضِينَ غِمَارَهُ بِكَوْنِهِ: كتاب الكون، لا تقسره حق التفسير إلا حوادث الكون، وكتاب الدعوة، لا تكشف حقائقه العليا إلا تصاريف الدهر، وكتاب الهداية الإلهية العامة، فلا يفهمه إلا المستعدون لها، فهو القرآن الذي لا يبلى جديده ولا تتقضي عجائبه، ولا ينضب معينه<sup>(٣)</sup>، وكان حقاً كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾<sup>(٤)</sup>.

وبتسليط حدقة المجهر في القصص القرآنية وبنائيتها في القرآن، نجدها قد مثلت ما يقارب من ربع القرآن أو أكثر بقليل، وحوت نماذج من الإعجاز بهرت العقول وأعجزت أهل الحكم والأدب، وأبهرت النفوس فأعجزت أهل الشعر والخطابة، فخاطبت العقل والحس والنفس في توافق وتوازن عجيب، بواسطة الحقيقة التاريخية في أسمى معانيها، والفنية الجمالية في أرقى أساليبها.

والحديث عن قصص القرآن وما فيه من إعجاز وأسرار وجمال وبهاء متشعب الأطراف يحتاج لمجلدات وأسفار، سينبثق عنها الزمن بقدر معلوم بفضل من الله سبحانه وتوفيق.

ومن بين جواهر وزبرجد تلك القصص أثرت أن أتناول جانباً من جوانبها المعجزة وهو الجانب (البنائِي الجمالي)، الذي تملك على المتلقي عقله وقلبه بتأمله طويلاً في معماريتها وبنائيتها، فأثار القرائح تساؤلاً عن سر هذه البنائية المعجزة في قصص السور، وسر ذلك الانتقاء لبعض قصصها المتنوعة لتجتمع جميعاً في سورة بعينها دون غيرها، وسر اختيار حلقات خاصة فيها دون باقيها،

١- سورة يوسف، آية ٣.

٢- سورة هود، آية ١.

٣- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م، ط ١، ج ٤، ص ٢٢٦.

٤- سورة النساء، آية ٨٢.





لترصع في سمائها في تلاحم مكين، و تواشج متين في بنايات صغرى تمثلت في حروفها وكلماتها وجمالها، و بنايات كبرى تمثلت في مقاطعها وأجزائها ومقاصدها الكلية، التي تستظل بها في معمارية بديعة فريدة من نوعها، كما أثارت القصص القرآنية تساؤلات في كيفية تأدية وظائفها عن طريق جمالها فالمعروف هو تأديتها ذلك عن طريق أغراضها الدينية والتشريعية والنفسية، وهذه إشكاليات كثيرة ما تزال في طور التبلور والنشوء ويحق لها ذلك، أليست تتناول هذا الكتاب المعجز العظيم؟!

وبالنظر إلى الدراسات التي تناولت القصص القرآنية من هذا الجانب أجدها قليلة حسب علمي، فالكثير منها ما يتناول القصص بالتحليل والبحث والاستقصاء، ولكن أغلبها كان بشكل لغوي أو تفسيري أو موضوعي أو ديني أو دعوي أو نفسي، وتعتمد أكثرها على السرد النظري والمنهج الوصفي التفسيري، وقلما أجد تلك الدراسات المتخصصة في المنهج البنائي الجمالي التطبيقي الذي يدرس هذا الجانب في قصص السورة الواحدة على حده، فأغلبها دراسات عامة تعطي أمثلة سريعة ومختصرة تشير لمباحث بنائية وجمالية تحتاج لنوع من التفصيل.

وإنني لأغفل تلك الدراسات الجزئية في هذا المجال عند السابقين والمعاصرين، التي وإن ظهرت فيها بعض ملامح الدراسة البنائية إلا أنها لم تتبلور بشكل واضح وجلي إلا عند القليل منهم.

ولرغبتني الملحة في سبر أغوار القصص القرآنية من هذا الجانب بالذات، ولهدفي في تطبيق (منهجية معرفية بنائية جمالية) بما يتناسب مع تخصصي وقدراتي معتمدة فيها على الله سبحانه في توفيقه وهدايته، ومن ثم مستخدمة تقنيات العصر ومستجداته بشكل يتناسب مع قداية القرآن بحيث لا يتعدى حرمة، ومهتدية من تلك الدعائم الراسخة التي خلفها لنا سلفنا الصالح قديما، التي تعد نقطة انطلاقية لكل باحث في هذا المجال، ومستفيدة من تلك الملاحظات المتناثرة في البحوث المختلفة والدراسات القرآنية المتنوعة في هذا النطاق، لبث رؤية إدراكية جديدة مكتملة لمن سبقوني في هذا المجال، اخترت موضوع بحثي لنيل درجة الماجستير بعنوان:

## (المعمار القصصي في سورة مريم)

### دراسة بنائية جمالية تطبيقية.

و لكون سورة مريم قد زخرت بقدر وفير من النماذج القيّمة ذات البناء القصصي المحكم، والعلاقات القوية ذات التلاحم والتداخل، والقضايا المتنوعة ذات التشابك والترابط، التي تدفع الدارس إلى التساؤل عن سر هذا البناء المتلاحم في لبناتها المتنوعة، وسر هذا التشابك في حلقاتها المتعددة، وسر ذلك التناسق والتناغم في دقائق أجزائها وكليات مقاطعها، والمجتمعة جميعها تحت

معمار قصصي متلاحم ومتناسق في سورة قرآنية واحدة، جعلني أختارها من بين السور القرآنية لتكون موضع دراستي التطبيقية مع يقيني بعدم وجود تفاضل بين السور القرآنية.

## ولقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه على النحو الآتي:

- التمهيد: وفيه مدخل لمصطلح المعمار ومسوغات الدراسة فيه.
- الفصل الأول: وتناولت فيه المعمار الموضوعي لسورة مريم والذي ضم أربعة مباحث، هي:
  - المبحث الأول: بين يدي السورة.
  - المبحث الثاني: تحديد موضوع السورة.
  - المبحث الثالث: الوحدة الموضوعية في السورة.
  - المطلب الأول: موضوعات السورة.
  - المطلب الثاني: قضايا ومقاصد السورة.
  - المبحث الرابع: موقع السورة بين السور وتناسبها مع ما قبلها وما بعدها من السور.
- الفصل الثاني: وتناولت فيه المعمار الهيكلي ووحدته العضوية في السورة وقسمته لأربعة مباحث:
  - المبحث الأول: مقدمة السورة (المطلع).
  - المبحث الثاني: وسط السورة، وفيه مطلبان هما:
    - المطلب الأول: البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية.
    - المطلب الثاني: البنية الهيكلية الخطابية ووحدتها العضوية.
  - المبحث الثالث: جسور الانتقال.
  - المبحث الرابع: خاتمة السورة (الانتهاء).
- الفصل الثالث: ويدور حول المعمار الفني والجمالي وخصائصه في سورة مريم، وتناولت فيه مبحثين هما:
  - المبحث الأول: العناصر القصصية في السورة:





- المطلب الأول: الحدث.
- المطلب الثاني: الشخصيات نماذج للقدوات والتحذيرات.
- المطلب الثالث: النسيج القصصي (الحوار- السرد- الوصف)
- المطلب الرابع: أوعية الحدث (الزمان والمكان)
- المطلب الخامس: عنصر القوى الغيبية.
- المبحث الثاني: أدوات المعمار الجمالي والأسلوبي في السورة:
- المطلب الأول: الأدوات اللغوية والتعبيرية والأسلوبية.
- المطلب الثاني: الأدوات البديعية والتصويرية.
- المطلب الثالث: الأدوات الإيقاعية والصوتية.

ومن ثم تأتي نهاية البحث وفيها:

- الخاتمة التي تضم النتائج والمقترحات الخاصة بالبحث.
- المصادر والمراجع.
- الفهارس وتناولت فيها فهارس (الآيات والموضوعات).
- ملخص الرسالة باللغة العربية والإنجليزية.

وأما بالنسبة للمنهج المتبَّع فهو (المنهج البنائي) الذي قد عُرف قديماً بمسميات مشهورة ومتعددة مثل (علم المناسبات) الذي يبحث في علاقات التجاور في البنيات الصغرى، أو يسمى آخر وهو (علم النظام) الذي يبحث في العلاقات الكبرى من خلال تفسير الجزء في إطار الكل.

أي أن المنهج يركز على (نظرية النظام وعلم المناسبات) بالدرجة الأولى، لما فضل هذا المنهج من القدرة على كشف سر تلاحم واتصال وتعالق لبنات البنيات القصصية المتنوعة والمتعددة في السورة الواحدة، وما يعكسه من جماليات وفنيات قصصية محكمة ومؤثرة، للوصول إلى الهدف المنشود من القصص القرآنية في السورة خاصة و سور القرآن عامة.

إلا أنني قد احتجت في بعض الأحيان أثناء معالجاتي لبعض المطالب والمسائل إلى الخروج على بعض المناهج مثل:

- المنهج التاريخي: في تتبع معنى المعمار عند الأقدمين والمحدثين والمعاصرين.

- المنهج الوصفي التحليلي: في تتبع مواطن الشواهد لإثبات وجود الوحدات الثلاث الموضوعية والعضوية والفنية في السورة عامة والقصص خاصة، إضافة إلى حاجتي له أكثر لتحليل الشواهد في الدراسة الجمالية في الفصل الثالث من البحث.

- المنهج النفسي: في ملاحظة أحوال الشخصيات وردود أفعالها في القصة، وكذلك تصور حالة المتلقي في أثناء استقبال معمارية القصص ككل أو في جزء من أجزائها.

- المنهج الإحصائي: في إحصاء بعض من الألفاظ والمعاني التي تكررت في السورة عامة والقصص خاصة، والتي دفعنا المقام لإثباتها للوصول إلى الأهداف والمقاصد الكبرى التي تبني عليها السورة الكريمة معمارية قصصها وتحوم عليها.

### وأما بالنسبة لتوثيق المعلومات في البحث فلقد اتبعت الآتي:

- الترتيب المنطقي في فصول البحث ومباحثه بما يخدم المقصود والهدف لمعالجة إشكالية البحث.

- جعلت للفصول والمباحث وبعض المطالب توطئة أو مدخلا مختصرا تعين القارئ على أخذ فكرة عن الهدف المقصود من تناول في الجزئية المُمهد لها.

- قد ألجأ أحيانا لأسلوب التركيب بين الأفكار والمعاني المستوحاة من أقوال العلماء وبين الملاحظات التي اجتهدت فيها للوصول إلى معرفة سر التلاحم والترابط بين البنيات القصصية بعضها مع بعض، وبينها وبين السورة الكريمة، مما ألجأني إلى الاستعانة بالخرائط الذهنية والرسوم التوضيحية لإعطاء صورة ملمة عن الفكرة أو الموضوع المقصود منه ذو الجوانب المتعددة في مطلب معين.

- ضبط الآيات في أصل البحث بالشكل على الرسم العثماني، معتمدة على نسخة مصحف المدينة المنورة للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

- عزو الآيات الواردة في البحث في الهامش مع بيان رقم الآية من السورة، إلا إذا كانت الآية أو الآيات من سورة مريم فإني تعمّدت عدم عزوها في الهامش ولا في فهرس الآيات، وذلك لكثرة تعاملها في البحث، كما أنني قد أذكر بعض مناسبات الآيات من كتب التفاسير للإعانة على فهم أبعاد بعض الومضات القصصية في السورة الكريمة.

- لقد قمت بعزو الأقوال المتضمنة في المتن لأصحابها في الهامش بذكر المؤلف، ثم عنوان الكتاب





فدار النشر فتاريخ النشر فعدد الطبعة فالجزء ورقم الصفحة من الكتاب، وأما بالنسبة للكتب التي لم تتوفر فيها شيء من معلوماتها أشرت لها على النحو التالي: (د-دار نشر)، (د-ت) أي دون تاريخ، (د-ط) أي دون طبعة.

- ذكرت المعلومات كاملة عن الكتاب المضمن منه في الهامش في أول ذكر له في البحث.

- في استشهادي لبعض أقوال العلماء قد أضطر إلى ذكر أقوالهم كاملة دون تدخل مني بتصريف أو تلخيص لضرورة اقتضاها المقام، قد يؤدي تدخلها فيها إلى خلل أو نقص في المعنى المطلوب، أما بعض الأقوال التي تصرف فيها فقد أشرت إليها في الهامش بنحو (بتصرف)، أما الأقوال التي استعنت منها بفكرة أو معنى معين فإني أشرت لها بنحو (ينظر - يراجع).

- في بعض الأحيان أضع علامة الترقيم ( ) لبعض الكلمات والجمل التي أجدها في اعتقادي مهمة ومثيرة لانتباه القارئ والمطلع.

- قد لجأت إلى ترجمة بعض العلماء الذين ذكرت أسماءهم في متن البحث.

- اعتمدت في بعض الأحيان على تعريف بعض الفنون الأدبية والأسلوبية للحاجة إليها في التمهيد قبل الدخول في بعض المطالب والمسائل، كما استعنت ببعض اللطائف البيانية والفنية لبعض العلماء الأجلاء استئناساً بها لتوضيح فكرة معينة أو توكيدها.

- قد استعنت في بعض المواضع ببعض المصطلحات الحديثة استئناساً مني لاستخدام أصحابها لها في بعض الحقول اللغوية والبلاغية والنقدية، بكونها مفاتيحاً تستعمل لدراسة النصوص البشرية، غير أنه لم يكن الهدف من هذه الاستعانة تطبيق مناهج ومصطلحات بشرية قاصرة على النص القرآني، بل كان الهدف الأسمى هو محاولة الوصول إلى مفاتيح معرفية وفنية للتوصل إلى عظمة هذا النص المعجز، بشكل لا يمس قداسته، مع يقيني بحقيقة قصور هذه المفاتيح في استيعابه والإحاطة به، مثل: البنائية - البنيات - الهيكلية - الهندسية - الوحدة العضوية - الوحدة الفنية - الومضة القصصية - اللقطة الفنية..... إلخ

- في تناولي للمعالجة الجمالية والأسلوبية اعتمدت في بعض المسائل على الجداول تسهيلاً للتمثيل وعرض الشواهد من الآيات على الأدوات الجمالية والأسلوبية المرغوب إثباتها وبيان دورها ووظيفتها في الوحدة الفنية داخل المعمار القصصية في السورة.

- قد ألجأ أحياناً إلى تكرار بعض الألفاظ والمعاني والتعليقات على الآيات والمقاطع للحاجة إليها لبيان مفهوم أو مطلب معين قد تعددت أبعاده وتكررت أهدافه في عدة مواضع.



- قد أوردت بعض المسائل النحوية والصرفية واللغوية لاحتياجي إليها في فهم محور معين أو تركيب غامض.

**ولقد رجعت في هذه الدراسة إلى الكثير من المراجع والمصادر التي أعانتي في تأسيس قواعد ثابتة للبحث، ومن أهمها:**

- كتب التفسير القرآنية ومنها: التفسير الكبير أو المسمى بـ (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي، الكشاف للزمخشري، روح المعاني للألوسي، في رحاب القرآن في سورة مريم لبيوض وغيرها كثير.

- الكتب التفسيرية التي اعتمدت على الربط بين الآيات والمقاطع ومنها: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، في ظلال القرآن للسيد قطب، التفسير البنائي في القرآن الكريم لمحمود البستاني.

- كتب خاصة بعلوم القرآن وإعجازه مثل: كتاب الإعجاز للباقلاني وإعجاز القرآن والسنة النبوية للرافعي، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، البرهان في علوم القرآن للزركشي، النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز.

- كتب فنية وجمالية وبلاغية خاصة بالقرآن مثل: التصوير الفني في القرآن الكريم لسيد قطب، الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، البلاغة فنونها وأفنانها لفضل حسن عباس.

وأما الدراسات السابقة والرسائل الجامعية القيّمة التي أسعفتني في بعض من جزئيات البحث فهي:

- أسس بناء القصة في القرآن الكريم لمحمد دبور.
- الوحدة الموضوعية في سورة مريم لحده سابق.
- التشابك القصص في سورة الكهف، دراسة في البناء والموضوع لذكية محمد.
- دراسة أسلوبية في سورة مريم لمعين رفيق أحمد.
- البديع في سورة مريم (دراسة جمالية) سهام صياد.
- النظم القرآني في سورة مريم، لسارة بنت نجر العتيبي.





## وأما بالنسبة للصعوبات التي واجهتني فهي متعددة، في مقدمتها:

- جِدَة البحث في تناول البنائي الدقيق الذي يحتاج إلى عناية فائقة وطول تدبر ورهافة حس إلى جانب الاهتمام الفائق بالدرس والملاحظة والاستنباط والتركيب للوصول إلى سر التلاحم بين البنات المكونة للمعمارية القصصية داخل السورة الكريمة.
  - قلة المراجع التي تتبنى الدراسة البنائية المنهجية للسورة القرآنية، فأغلب الدراسات تقوم على تطبيق البنائية على نماذج شعرية أو نثرية تعتمد بالدرجة الأولى على المنهج البيوي الذي يجزئ النص إلى بنيات متعددة يعالجها الدارس بصورة مستقلة عن واضعها، على أساس من التفكيك والتجزئ الذي قد يخل أحيانا بمضمون النص المدروس وأهدافه، والذي حرصت تمام الحرص على الحذر والدقة والابتعاد عن هذه الطريقة التي لا تتناسب مع قداسة القرآن وجلال واضعه سبحانه.
  - إلى جانب ضيق الوقت الذي قد يعانيه أغلب الباحثين الذبن يجمعون بين الدراسة والعمل الوظيفي، ولكن توفيق الله وبركته كان أوسع لي من هذا الضيق الزمني.
  - اعتمادي على ثقافتني ومعرفتي المنهجية المحدودة، التي تجعلني في أكثر الأحيان أحجم كثيرا عن خوض بعض المسائل المتشعبة العلوم والمعارف التي أجهل دقائقها.
- ولا أدعي في كتابة هذا البحث إمامي بجميع جزئياته، فأنا على يقين بأنني مهما حاولت الإمام بجوانب وأبعاد هذه الدراسة فلن تزيدني إلا نقصا وقصورا عن استيعاب هذا النص المعجز، لذلك فإن قصرت وأخطأت فمن نفسي، وإن أصبت ووفقت فمن معية الله تعالى وتوفيقه، جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.
- ومن منطلق قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ <sup>ط</sup> ﴾<sup>(١)</sup>، أثبت شكري وتقديري لصاحب النصيحة الجليلة والتوجيه المشجع والمشورة الصائبة لأستاذي المشرف القدير (الدكتور عبد الباسط عطايا) صاحب النفس الهادئة والذوق البناء الذي لم يأل جهدا ولا وقتا من التصويب والتوجيه والمساعدة بالرأي السديد والكتاب المفيد، فجزاه الله عني خير الجزاء.
- كما أرسل شكري وامتناني لأستاذي الفاضل (الدكتور أحمد رحمانى) المشرف السابق للبحث، الذي لم أنس فضله عليّ في تفتيح مداركي وفكري لمواضيع عدة من بينها هذا الموضوع لهذا البحث، فلقد خط معي أبعاد هذه الدراسة وشجعني للخوض في غمارها بالجهد والاجتهاد المعتمد على الله تعالى، وفقه الله وبارك في عمره.

١- سورة إبراهيم، آية ٧.

كما أشكر الشخصية المخلصة والصادقة التي جادت عليّ بالمشورة وبالكُتب القيّمة، إلى جانب تعميقه في نفسي معنى الإخلاص في منهجية البحث الدكتور الفاضل (محمد عبد الله دبور) من دولة مصر الشقيقة جزاه الله على جوده وكرمه خير الجزاء.

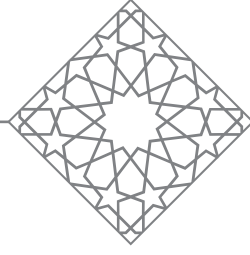
كما أشكر كلية الدراسات الإسلامية والعربية ومركز جمعه الماجد للتراث، وجميع إداراتها والقائمين عليها على كل التسهيلات والخدمات المتاحة للباحث، إلى جانب شكري وتقديري لمدرسة سمية بنت خباط للتعليم الأساسي والثانوي (مقر وظيفتي) وإدارتها على تسهيلاتهما لي وإعانتها، فبارك الله فيها وجعلها منارا للعلم دائما.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يوم الجمعة، بتاريخ: ١٥ / ذي الحجة / ١٤٢٩ هـ.







# التمهيد





## مدخل إلى المعمار

قد يتساءل القارئ ما المقصود بالمعمار؟ ومن ثم يتساءل عن سر استعارتنا لهذا اللفظ في هذه الدراسة للسورة القرآنية؟ ومن ثم يتساءل عن المسوغات الفكرية والفنية للدراسة المعمارية لقصص السورة القرآنية؟

- فأجيب عن التساؤل الأول، بتعريف المعمار لغة: فالمعمار من أصل (عَمَرَ)، وأَعَمَرَ الأرض: وجدها عامرة، والعمارة ما يعمّر به المكان لقوله تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾<sup>(١)</sup>، وهي نقيض الخراب، وقيل هو: الحي العظيم الذي يقوم بنفسه، يتفرد بظلعنها وإقامتها ونجمتها، والمعمورة: الدار المبنية والدار المسكونة، والتعمير: جودة النسج وغزله<sup>(٢)</sup>.

وأكد أرى في التعريف الأخير أكثر قرباً ووضوحاً للمقصود من المعمار الذي نحن بصدد دراسته في السورة القرآنية وقصصها.

وأما في الاصطلاح: (فالمعمار والعمارة) على الرغم من استخدامه في مجال معين من البناء والتشييد والنسج بمقصوده المادي المحس، إلا أنه له استعمالات مجازية متعددة الأبعاد والرؤى كلاً على حسب المقام مقتضى له.

ومصطلح المعمار بمفهومه المجازي من (البناء والإحكام والإتقان) وارد عند الكثير من العلماء في شتى العلوم المختلفة، غير أنني أقصد في هذه الدراسة ذلك المدلول المتعارف به عند علماء الدراسات القرآنية من مفسرين وأدباء وبلاغيين وباحثين في نواتج دراستهم، وفوائد تفاسيرهم وإشاراتهم وملحوظاتهم في علم المناسبات، وعلم النظام، وعلم مقاصد السور، ونظرياتهم في الوحدة الموضوعية والعضوية والبنائية والفنية، وكذلك في أحاديثهم عن التناسق والتناظر والتداعي والتقابل وغيرها من المصطلحات التي زخرت بها صفحات تفاسيرهم بشتى أنواعها، وكذلك حواشيهم باختلاف أشكالها،

١- سورة التوبة، آية ١٩.

٢- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥، ط٤، مجلد ٩، ج ١٠، (عمر)، ص ٢٧٨-٢٧٩. والفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥، (د-ط)، (عمر)، ص ٤٠١. والراغب الأصفهاني: في غريب القرآن، ضبطه وراجعاه: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، (عمر)، ص ٣٥٠-٣٥١.





و التي تصب جميعها في جعبة واحدة تحمل معنى البنائية والوحدة والإحكام للسور القرآنية. وبما أنني لست بصدد تناول هذه العلوم والمصطلحات بالدراسة التفصيلية إلا أنه يحسن الإشارة إليها لأهميتها في:

- توضيح أصول الدراسة البنائية والمعمارية ومعالمها الهندسية المعجزة.
- بيان مدى تكاتف هذه العلوم للوصول إلى الهدف المنشود في بنائية السور القرآنية.
- تحديد مصطلح المعمار والبناء في السورة القرآنية عامة والقصص خاصة.
- معرفة أبعاد مصطلح المعمار والبناء، ومقارباته المجازية في أقوال العلماء وملاحظاتهم، وإن لم يتعرضوا له بوصفه مصطلحاً.

فعلى سبيل المثال أجد بذور هذا المعنى عند المتقدمين أمثال:

❖ **عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)**<sup>(١)</sup>، في كتابه (دلائل الإعجاز) عند تعريفه لمصطلح النظم، الذي يشير فيه إلى أهمية مراعاة العلاقات الكبرى في الكلام بصورة منتظمة، من خلال حسن تأليف الكلمات والجمل، التي تترتب معانيها وتناسب دلالاتها، على حسب ما يقتضيه علم النحو، فيقول: «أعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تحل بشي منها، وذلك أن لا تعمل شيئاً بيتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجه كل باب وفروقه»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «واعلم أنك إذا رجعت لنفسك علمت علماً لا يعتريه الشك، أن لا تنظم الكلام ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس، وإذا كان كذلك، فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها، ما معناها وما محصوله»<sup>(٣)</sup>.

١- يعد أول من فسر نظرية النظم تفسيراً قائماً على أسس قوية من المنطق والتفكير، وتلاه بعد ذلك علماء الإعجاز والمفسرين والبلاغيين والأدباء كلا يضيف على قواعده.

٢- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ص ١.

٣- المرجع السابق، ص ٤٥.



❖ كما أجد ابن عربي (٥٤٣هـ)، في (سراج المريدين) يشير إلى معنى البناء المنظم المتسق في تعليقه على أهمية علم المناسبات<sup>(١)</sup>، قائلاً: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متمسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»<sup>(٢)</sup>.

❖ والأحظ معنى مقاربا في حديث الزركشي (٧٩٤هـ)، في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، وهو يوضح فائدة علم المناسبات بقوله: «المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول وفائدته جعل أجزاء الكلام، بعضها أخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»<sup>(٣)</sup>.

ولو تجاوزت العصور السابقة إلى أقوال المحدثين، لكي أقارب مدلولاتهم في معاني المعمار والبناء، فإنني أجد وصفاً دقيقاً للسّمات المعمارية في السورة القرآنية، إذ تعد السورة في تركيب مقاطعها وآياتها كالبنيان الواحد المركب من بنيات مترابطة وتماسكة إلى درجة التلاحم.

❖ كما في قول محمد عبد الله دراز (١٣٧٧هـ)<sup>(٤)</sup>، في كتابه (النبأ العظيم) قائلاً: «أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضعافاً من المعاني حشيت حشواً، أوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنية واحد، قد وضع رسمه، مرة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين أحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، كل ذلك من غير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً...»<sup>(٥)</sup>.

١- يُعد أبو بكر النيسابوري أول من أظهر علم المناسبات، حيث إنه كان غزير العلم في الشريعة والأدب، وتلاه من بعده علماء من أبرزهم: الشاطبي (٧٩٠هـ) في كتابه (الموافقات)، البيهقي (٨٨٥هـ) في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والدرر)، السيوطي (٩١١هـ) في كتابه (أسرار ترتيب القرآن) و(تناسق الدرر في تناسب السور) ومن المعاصرين: عبد الله محمد الصديق الغماري في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، محمد عبد الله دراز (١٣٧٧هـ) في كتابه (النبأ العظيم)، ينظر: مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ، م، ٢٠٠٠، ط ٢، ص ٦٦-٦٧.

٢- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ط ٢، مجلد ١، ص ٣٦.

٣- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، مجلد ١، ص ٣٥.

٤- هو محمد بن عبد الله دراز: فقيه متأدب مصري أزهري، كان من هيئه كبار العلماء بالأزهر، له كتب منها (الدين) دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام، توفي عام ١٣٧٧هـ الموافق (١٩٥٨م).

ينظر، الزركشي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ط ١٥، ج ٣، ص ٢٨٩.

٥- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار طيبة، السعودية، الرياض، ط ٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص ٢٥.





وهذه السمات في صميم الدراسة المعمارية، لما حوته من وجود (وحدة عضوية)<sup>(١)</sup> جمعت آيات السورة الواحدة تحت هذه الخصائص والمميزات، وإن كان هذا المصطلح يستعمل في القوائد الشعرية حديثاً، وليس هنا مجال مقارنة مع كلام الله، الذي لا يدانيه أحد من الخلق.

وتمتد المعاني والإشارات في مفهوم المعمار البنائي كذلك عند العلماء المعاصرين:

❖ أمثال محمود البستاني (١٩٣٧م)<sup>(٢)</sup>، في كتابه (المنهج البنائي في التفسير) حيث أتلّس النظرة الجديدة في تناوله للسور القرآنية، قائلاً في تعريفه لهذا المنهج: «هو دراسة النص القرآني من خلال السورة، بضمئها (وحدة) لغوية لها بناؤها الخاص المتمثل في نص تتربط آياته وموضوعاته وعناصره وأدواته بعضها مع الآخر»<sup>(٣)</sup>.

❖ وكذلك استشف معنى البنائية المحكمة شكلاً ومضموناً عند طه جابر العلواني (١٣٥٤هـ)<sup>(٤)</sup>، الذي يوضح لنا معنى الوحدة البنائية في القرآن قائلاً: «أما وحدته البنائية فقد أردنا بها أنه بكل سورة وآياته وأجزائه وكلماته يعتبر كأنه جملة واحدة. وأما وصفنا لهذه الوحدة بـ (البنائية) أو إضافة هذه (الوحدة) إلى البنائية فقد أردنا به الإشارة إلى ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿كُنْتُ أُحْكِمُ آيَاتَهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾<sup>(٥)</sup>، فالإحكام - هنا - من إحكام البناء بحيث يمتنع أي اختراق له لمتانته وقوته..... وعلى هذا يكون المراد بالمركب (الوحدة البنائية) للقرآن: أن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه أو التجزئة في آياته، أو التعضية بحيث يقبل بعضه ويرفض بعضه

١- حيث تعرف (الوحدة العضوية) في القصيدة بأنها: بنية حية، وبناء متكامل وعملاً فكرياً وشعورياً متنامياً، وليست خواطر مبعثرة أو أفكار متفرقة، داود غطاشة - حسين راضي: قضايا النقد العربي قديمها وحديثها، دار القدس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، ط ١، ص ١٣٥-١٣٦.

ويؤكد هذا المفهوم قول الحاتمي (٢٨٨ هـ): "فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، وبأنه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعطي معالم جماله"، جابر عصفور: النقد الأدبي، مفهوم الشعر "دراسة في التراث النقدي"، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠٠٢م، ط ١، ص ٧٨، ينظر، علي مرشدة: بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني)، جدار للكتاب العالمي، عمان، الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٦م، ص ٧٩-٨٠.

٢- محمود البستاني: من مواليد النجف الأشرف ١٩٣٧ م، تخرج من كلية الفقه في النجف الأشرف ١٩٦٤ م ماجستير في كلية دار العلوم في القاهرة ١٩٦٩ م، ودكتوراه في البلاغة والنقد الأدبي من كلية دار العلوم في القاهرة ١٩٧٢ م، وله آثار منها: (في النظرية النقدية، في التعبير القرآني، دراسات فنية في قصص القرآن، الإسلام والفن، المنهج البنائي في التفسير، التفسير البنائي في القرآن الكريم)، ينظر، محمود البستاني: المنهج البنائي في التفسير، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ط ١، ص ٢٢٩.

٣- المرجع السابق، ص ١٢.

٤- طه جابر العلواني (ولد عام ١٩٣٥، في العراق) وهو رئيس المجلس الفقهي بأمريكا منذ عام ١٩٨٨، ورئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية (SISS) بهرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على الدكتوراه في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر في القاهرة بمصر، عام ١٩٧٣ م، كان أستاذاً في أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٧٥ حتى ١٩٨٥، وفي عام ١٩٨١ شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة، كما كان عضواً للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة، هاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٨٣ م، يرأس طه العلواني الآن جامعة قرطبة الإسلامية في الولايات المتحدة. من مؤلفاته: (الاجتهاد والتقليد في الإسلام - أدب الاختلاف في الإسلام - أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة - الأزمة الفكرية ومناهج التغيير - الوحدة البنائية في القرآن المجيد)، ينظر، الموقع الإلكتروني: (موسوعة وكبيديا الحرة).

٥- سورة هود، آية ١.

الأخر، كما لا يقبل التناقض أو التعارض وغيرها من عيوب الكلام فهو بمثابة الكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره وأجزاؤه وأحزابه....»<sup>(١)</sup>.

وبعد سرد الأقوال السابقة لهؤلاء العلماء الأجلاء الذين أشرنا إليهم مثالا لا حصرا، يمكن الوقوف على معنى موصول لمفهوم (المعمار) الذي جعلناه عنواناً لهذا البحث وهو:

ذلك البناء المحكم للسورة القرآنية عامة والقصص خاصة بما احتواه من (أبنية مميزة) جامعة لأبنية صغرى لغوية وإيحائية، ذات ترتيب وتناسق عجيب، تحت أبنية تركيبية كبرى، منتظمة الأفكار والمعاني، متسقة الأجزاء والمقاطع، لها هيكلتها البنائية الهادفة، ووظيفتها الجمالية المؤثرة، التي تتشكل جميعها فكريا وفنيا لخدمة مقاصد الشريعة والدين بالدرجة الأولى، وتتباين بإعجازها ونظمها عن غيرها من أبنية كلام البشر القاصرة.

**ثانيا: وتأسيساً على ما سبق تجدر الإشارة إلى سبب استئناسنا لاستعمال لفظ (المعمار) مع السورة القرآنية، ذلك لأن تعريف السورة لفظياً ضم عدة معانٍ<sup>(٢)</sup>:**

- فمنهم من يشبهها بسور البناء، أي القطعة منه، أي: منزله بعد منزله.
- وقيل: من سور المدينة، لإحاطاتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالبيوت، ومنه السور لإحاطته بالساعد.
- وقيل: لارتفاعها، لأنها كلام الله.
- وقيل: لتركيب بعضها علي بعض، من التَّسْوَر بمعنى التصاعد والتركيب، ومنه: ﴿إِذْ سَوَّرُوا آلَ مِخْرَابَ﴾<sup>(٣)</sup>.
- وقيل: حد السورة قرآن يشتمل علي أي، ذي فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات.
- وقيل: الطائفة المترجمة توقيفا، أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم.

لذلك ف (المعمارية) صفة تدل على بنائية السورة القرآنية وهيكلتها الداخلية والخارجية.

١- طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، دراسات قرآنية، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ط ١، ص ١٤.  
٢- بتصرف، السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق عصام فارس الحرساني، دار الجيل، بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ط ١، ج ١، ص ١٧٥، وينظر، محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ج ٢، ص ٣١٧.  
٣- سورة ص، آية ٢١.





**وأما تركيزنا بالدراسة على معمارية القصة بوجه خاص،** فذلك لأن القصة تشغل حيزاً كبيراً في السور القرآنية، وتمتزج بموضوعاتها امتزاجاً معجباً لا يمكن الفصل بينهما، وذلك لأن القرآن كله - بما فيه من قصص - يمثل كلاً واحداً، في موضوعاته وأسلوبه ومقاصده، وبما أن القصة تمزج بين (الفن والدين) كما تبيننا عليه في إشارات الباحثين والأدباء الذين يشيرون إلى فنية القصة القرآنية باعتبارها سمة ملازمة لأغراض الشريعة والدين، فإنها أداة تعبيرية تدرج تحت قضية كبرى لأساليب القرآن وطرائقه «فالتعبير القرآني في كل ما يورده من صور وقصص ومشاهد، يؤلف تأليفاً متمزجاً امتزاجاً عضوياً بين الغرض الديني والغرض الفني»<sup>(١)</sup>.

وكما قال سيد قطب<sup>(٢)</sup>: «والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس، وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوي الرفيع وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال»<sup>(٣)</sup>.

فتقررت حقيقة القصة في القرآن بأنها «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وسير حوادثه، كما هو الحال في القصص الفني، إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل، وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع»<sup>(٤)</sup>.

والقصة لها معالم هندسية ومعمارية خاصة بها، تتنوع على حسب الغرض والمقام المصوغه فيه ولأجله، فهي تقدم لقرائها عوالم زاخرة بحيوات متغيرة، وبأجواء مختلفة، وبأشخاص متنوعة، وبصراع يدور بين الخير والشر، والعدل والظلم، فتثير في النفس العواطف، وتجذب القلوب إليها، وتهيئ العقول إلى السماع والترقب والفعل، وشتان في المقارنة بين قصص البشر وقصص القرآن التي تختلف اختلافاً جوهرياً<sup>(٥)</sup>.

وبهذه المميزات الخاصة لقصص القرآن بجمعها الأغراض الدينية المتنوعة والأساليب التعبيرية الفنية المؤثرة، كان نتاجاً طبيعياً أن تخرج لنا القصة بقلب مميز له سماته المعمارية والفنية المميزة من حيث الشكل والمضمون، لتخترق القلب الإنساني فتوجهه الوجهة السليمة، وتدعو كل متأمل فيها للتساؤل عن سر هذا التأثير وهذا الإقناع لأساليب القرآن وفي مقدمتها القصة !!

١ - محمد قطب: نظرات في قصص القرآن، (دعوه الحق) سلسلة شهرية تصدر في كل شهر عربي، إدارة الصحافة والنشر برباطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، العدد (٥٩)، طبعة ٦، ص ١١.

٢ - هو سيد بن قطب إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، ولد سنة (١٣٢٤)هـ، تخرج بكلية دار العلوم، وكتب في مجلتي (الكتابة والرسالة)، انضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة، وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، وعكف علي تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلي أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم سنة (١٣٨٧)هـ من مؤلفاته: (النقد الأدبي أصوله ومناهجه - التصوير الفني في القرآن - الإسلام ومشكلات الحضارة - في ظلال القرآن) وغيرها من الكتب القيمة، ينظر، الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ١٤٧ - ١٤٨.

٣ - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن دار الشروق، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧، ط ١٩، ص ١٤٤.

٤ - محمد قطب: نظرات في قصص القرآن، ص ١٠.

٥ - بتصرف، المرجع السابق، ص ١٠ - ١١.

ومما سبق ندرك حقيقة استعمال (مفهوم المعمار القصصي في السورة القرآنية) وما مثلته من هندسة قرآنية مبدعة.

## ثالثاً: لابد من أن يدور في ذهن كل متصفح أو ناقد التساؤل عن المسوغات الفكرية والفنية للدراسة المعمارية لقصص القرآن؟

فتجيب:

١- إن الدراسة المعمارية للسورة القرآنية عامة وقصصها خاصة، ذات أهمية كبيرة وخطوة جديدة للنهوض بـ (علم المناسبات وعلم النظام) في القرآن الكريم، والذي يتجاهله بعضهم، من أمثال بعض المستشرقين الذين يعتقدون أنه لا توجد علاقة بين ترتيب الآيات وبين معانيها، فأدى بالضرورة إلى أن يقف ذلك عائقاً عن فهم القرآن، فأودى بهم إلى أن يتوصلوا إلى استنتاجات خاطئة، من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم، أو غير منتظم، أو غير محكم، وأدى ببعضهم إلى محاولة إعادة ترتيب القرآن بحسب الترتيب النزولي الزمني، في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذه المحاولات ليست مقتصرة على المستشرقين وحدهم بل تكاد تعم الكثير من المسلمين أنفسهم، وبخاصة حديثي العهد بالإسلام منهم<sup>(١)</sup>.

ولكن أفضل رد على هؤلاء هو الرجوع إلى جهود العلماء في دراساتهم القرآنية واللغوية والبلاغية في (علم المناسبات) الذي عُرّف بـ «ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها وفي الآيات يعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها»<sup>(٢)</sup>، لمعرفة الحقائق الإعجازية في مضامين طرائق القرآن الكريم وأساليبه.

والذي يقول فيه برهان الدين البقاعي (٨٨٥هـ): «وعلم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسباته من حيث الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب»<sup>(٣)</sup>.

لذلك إن لم يكن الباحث عالماً بهذه الارتباطات فلزاماً أن تختل موازينه وأحكامه، وبخاصة إذا واجهته تلك الآيات أو البنيات الصغرى التي يظهر فيها تنافر وعدم تطابق.

وأجمل ما قيل في هذا الصدد قول محمد عبد الله دراز: «وكلمة أخرى تمس حاجة الباحث في

١- لجهلهم ببلاغة اللغة العربية وأسرارها وطرق التعابير والأساليب فيها، بتصرف، محمد فاروق الزين: بيان النظم في القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م، ط١، ص٩.

٢- مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط٣، ص٥٨.

٣- البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرازق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م، ط٢، ج ١، ص٥.





هذا النسق إذاً أقبل على تلك المناسبات الموضوعية بين أجزاء السورة: وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية وحسب... فلو أن ذاهباً ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه، إذاً لجرده من أولى خصائصه وهي إنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يردّه إلى الإطالة المملة، كيف وهو الحديث الذي لا يمل؟ ولو أنه - من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني - ذهب يفرقها، ويقطع أرحامها، ويزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها، إذاً لجرده من خاصته الأخرى، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالاً طفرياً يخرجّه إلى حد المفارقات الصبائية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام.

والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام كيف وهو القول الرصين المحكم؟ كلا، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون، ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لا تلافها وهذا التأليف بين الاختلافات ما زال هو (العقدة) التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات، فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراساً وأشدّ عناءً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد<sup>(١)</sup>.

وكذلك بالنسبة لـ (علم النظام)<sup>(٢)</sup> فالجهل به يجعل الباحث يتخبط في المعاني المتعددة للسورة الواحدة، فلا يستطيع الربط بين العلاقات القائمة بين المقاطع المختلفة والمقاصد المتنوعة التي تنطوي جميعها تحت السورة القرآنية، كما قال عبد الحميد الفراهي في كتابه (دلائل النظام): «وبالجملة فمرادنا بالنظام: أن تكون السورة كلاً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعد ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة، وعلى هذا الأصل نرى القرآن كله كلاماً واحداً، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر...»<sup>(٣)</sup>.

وما أجمل تلك المعمارية للسورة القرآنية حينما تأخذ شكلاً وهيئة من حسن ترابطها وتناسقها

١- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ٢٠١-٢٠٢.

٢- وأول المؤلفات التي ظهرت تضم هذا المعنى في القرن الثاني الهجري على يد أبي عبيد الله بن معمر المثنى (٢١٠) هـ في كتابه (مجاز القرآن)، وجاء بعده أبو زكريا بن زياد الفراء (٢٠٧) هـ في كتابه (معاني القرآن) الذي درس العبارة القرآنية على أساليبها وتراكيبها، ولعل أول من صنف كتاباً في النظم بغرض الرد على من ادعى الصرفة هو: الجاحظ (٢٥٥) هـ في كتابه (نظم القرآن)، والذي سقط من يد الزمن، ثم ظهرت (رسالة النكت في إعجاز القرآن) لعلي بن عيسى الرمانى (٤٨٢) هـ، وكتاب (بيان إعجاز القرآن) لأحمد بن إبراهيم الخطابي سنة (٢٨٨) هـ، وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (٤٠٢) هـ في كتابه (إعجاز القرآن)، ثم عبد الجبار الأسد آبادي المعتزلي في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) وهو موسوعة كبيرة تضم عدة مباحث، ثم يأتي عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) بتفسير نظرية النظم تفسيراً علمياً قائماً على أسس قوية من المنطق والتفكير، كما ذكرنا ذلك سابقاً.

٣- عبد الحميد الفراهي: دلائل النظام، الدائرة الحميدية، ١٩٦٨ م، ط ١، ص ٧٤-٧٥.

وتلاحمها بفضل نظمها، وكأنها صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة، رأينا ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة، ولكننا إذا توغلنا في أعماقه، وذهبنا نبحت في بنائه، رأينا العجب في هذا النظام والنسق، الذي تقوم عليه السورة بآياتها، وجملها، وكلماتها، في أصغر بنية فيها وكذلك ما حوته من تشعبات وارتباطات ما تكوّن به شبكة يُحار الناظر في نظامها ومعمارها<sup>(١)</sup>.

٢- **وتكتسب الدراسة المعمارية أهميتها** من أهمية (الوحدة الموضوعية) للنص، وذلك بكونها نتيجة طبيعية لما أفضى إليه العلماء في دراستهم لعلم المناسبات وعلم النظام والتفاسير باختلاف أنواعها، من أجل الوصول إلى محور السورة والغرض منها، ومن أجل ما قيل في هذا المقتطف قول محمد محمود حجازي<sup>(٢)</sup> في كتابه (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم): «فلا تحس بنشاز أو نفور، ولا تدرك انقطاعاً أو انفصلاً، بل تجد السورة كأنها صورة رائعة جميلة أو بناء تام متكامل لا نقص فيه ولا زيادة»<sup>(٣)</sup>.

وقول سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن)، الذي يوضح اندراج السورة بكل أقسامها في محور واحد يضمها جميعاً، قائلاً: «يلحظ من يعيش في ظلال القرآن بكل سورة شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها محور خاص ولها جو يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينه تحقق التناسق وفق هذا الجو»<sup>(٤)</sup>.

ومنهم من تجاوز معنى الوحدة في السورة لتشمل القرآن الكريم بأكمله ليبدل على الهندسة المعمارية الكلية والشاملة في الكتاب المنزل وهو الأستاذ سعيد حوى<sup>(٥)</sup> صاحب تفسير (الأساس في التفسير)، حيث يقول: «استطعت بتوفيق الله أن أبرهن على أن كمال القرآن في وحدة آياته في السورة،

١- بتصرف، زكيه محمد خالد أحمد: التشابك القصصي في سورة الكهف (دراسة في الموضوع والبناء) (رسالة ماجستير)، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص٧.

٢- محمد محمود حجازي، من علماء الأزهر ومدير معهد المنصورة، درس في الأزهر الشريف وتخرج فيه، عُين مديراً لمعهد المنصورة، أهم آثاره: (التفسير الواضح - الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم (من علماء الأزهر الشريف ومن رجال التفسير البارزين. كتابه): التفسير الواضح) تفسير قريب التناول لدارسي القرآن الكريم وقرائه وحفاظه، موقع الألوكة، المجلس العلمي، بقلم الدكتور: مروان، ١٧-٥-٢٠٠٩م.

٣- محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م، ط١، ص٥٨.

٤- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق ن بيروت - القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ط١، مجلد ١، ج١، ص٢٧-٢٨.

٥- هو سعيد بن محمد ديب بن محمود حوى النعمي - المعروف بسعيد حوى - ولد في مدينة حماة بسورية في (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م)، ونشأ في حماة لعائلة معروفة، وقد انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين سنة (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م) وهو لا يزال في الصف الأول الثانوي، وتعين بعد ذلك رئاسة هذه الجماعة، ولقد تميز سعيد حوى بفهم عال يجمع إلى جانب الدعوة الإسلامية التحرك السياسي المعتدل، والتصوف السني المتقيد بالقرآن والسنة النبوية، مع فقه الواقع وترتيب الأولويات، وقد عني الشيخ أيضاً بالدعوة إلى توحيد الأمة الإسلامية وإقامة «دولة الإسلام العالمية»، وصياغة الشخصية الإسلامية صياغة صحيحة، وكانت وسيلة سعيد حوى في نقل أفكاره هي الخطب واللقاء المحاضرات، وكان كثير الحركة والتنقل في البلاد العربية والإسلامية والأوروبية، بالإضافة إلى طول باعه في التأليف، وحيويته المتدفقة، وكان يميل في عرض موضوعاته وأفكاره إلى السهولة والسلاسة بلا تزويد أو تعقيد أو ميل إلى تميق العبارة، من مؤلفاته: (كتاب الرسول - كتاب الإسلام - الأساس في التفسير - الأساس في السنة وفقهها) ينظر، الموقع الإلكتروني: موسوعة ويكيبيديا الحرة.







وكماله في الوحدة الجامعة التي تجمع ما بين سوره وآياته، على طريقة لم يعرف لها العالم مثيلاً ولا يمكن أن تخطر على قلب بشر»<sup>(١)</sup>.

٣- وكما أن المعمار يبرز لنا بهذه الكيفية في أبعاده المضمونية داخل السورة القرآنية، فإنه كذلك له الدور الفاعل في التأثير وجذب النفوس، وذلك من خلال تقرير حقيقة متصلة بهذا الجانب ف «من الحقائق الواضحة في حقل الإدراك أو الاستجابة حيال المعرفة وتمثلها، أن الذهن البشري يدرك الظواهر من خلال (الكل) وهو أمر قد انتهت إليه بعض الاتجاهات النفسية: كما نعرف ذلك جميعاً، يستوي في ذلك أن يتم الإدراك لـ (الكل) من خلال (جزئياته) أولاً، ثم الانتقال إليه، أو من خلاله أولاً ثم الانتقال إلى جزئياته، وفي الحالتين ثمة إدراك لا ينفصل كله عن جزئه ولا جزؤه عن كله»<sup>(٢)</sup>.

ويترتب عن تقرير هذه الحقيقة أن النص أياً كان نمطه، بما أنه يستهدف توصيل أفكاره إلى الآخرين، فإن الاستجابة لا تحقق هدفها إلا من خلال تكاتف عدة استثارات عقلية وعاطفية، تستلزم معرفة بطرائق الاستجابة، وما يواكبها من العمليات النفسية التي تقضي إلى تحقيق هذه الإثارة المطلوبة، كافتتاح النص بظاهرة ما أو إجمالها أو تفصيلها أو حذفها أو اختزالها أو التدرج أو التصاعد بها أو توشيحها بعناصر تخيلية أو عاطفية..... أو أدوات قصصية أو حوارية<sup>(٣)</sup>.

وفي ضوء هذه الحقائق المألوفة يمكننا إدراك أهمية الدراسة البنائية للسورة القرآنية، والدراسة المعمارية لأبعاد القصص المنطوية تحتها، فما دام المتلقي يستجيب للنص من خلال الكل، فسيظفر بحصيلة نهائية مقصودة بعد تلاوته للسورة القرآنية، أي سترك انطباعاً أو تأملاً أو معرفة جمالية حتى لو كانت غائمة أو غير متضحة مسيطرة على قلب وعقل المتلقي، وهذا على حسب درجة وعيه وثقافته، والذي سنلاحظه من خلال دراستنا لهذا الموضوع إن شاء الله.

وهذه الطريقة من التناول تصور لنا أهمية الأدوات، والعناصر الفنية المتنوعة التي تساعد على التصور الشامل، والنظرة البنائية، وفهم الهندسة المعمارية المرسومة، بحول من الله وقوته، لإظهار كتابه المعجز، وإيضاح قدراته البيانية على التوصيل والتأثير بكل ما احتواه من ألفاظ، ومعان، وتراكيب، وأساليب...

٤- إن أهمية الدراسة المعمارية للقصص القرآني بـ (الطريقة الكلية) لا بد أن توضع نصب عين كل باحث في الدراسات الجمالية والفنية لأساليب القرآن، وذلك لأن القرآن حير الجميع باستخدامه أشد الوسائل استثارة وتشويقاً في النفس، وجعلها تمتزج في موضوعاته ذات

١- سعيد حوى: الأساس في التفسير، دار السلام، للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ط١، ج١، ص ٢٧.

٢- محمود البستاني: المنهج البنائي في التفسير، ص ١٥.

٣- بتصرف، محمود البستاني: المنهج البنائي في التفسير، ص ١٥.



المقاصد المتنوعة امتزاجاً يدعو للدهشة والحيرة فجمع بذلك ما بين (الدين والفن) بصورة بديعة وعجيبة.

فمن تأمل طريقة تناول القصص القرآنية، وجدها تأتي على شكل حلقات تتناسب مع موضوعها ومحورها وأهدافها و سياق السورة المدرجة تحتها، بشكل قد لا تلتزم بالترتيب الطبيعي، فمرة تعرض حلقة من أول القصة، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض بكاملها، كما أنها قد تجتمع مع مثيلاتها من حلقات قصص أخرى تحت مظلة سورة واحدة، فتظهر لنا نوعاً من التناسب قد يظهر جلياً أحياناً، وقد يختفي أحياناً أخرى، وبشكل لا يخل بالسمعة الفنية إطلاقاً.

فما سر هذا الأسلوب؟ وكيف طبّقه القرآن في سورة؟ وما سر انتقاء تلك القصص؟ وكيف تلاحمت معاً في سورة واحدة؟ وكيف استطاع القرآن توظيفها فنياً لخدمة مقاصده؟

هذا ما سأحاول البحث عنه بتطبيقي هذه الدراسة على قصص سورة مريم التي ضُمَّت أمثال هذه القصص بإذن الله.

إن الدراسة المعمارية البنائية للسورة القرآنية تجعلنا نضع سؤالاً وجيهاً هنا هو:

- ما أفضل الطرق والأساليب المتاحة لتطبيق الدراسة المعمارية البنائية في السورة القرآنية عامة وقصصها خاصة؟

فمن خلال اطلاعي على عدة كتب في إعجاز القرآن وكتب التفاسير والكتب النقدية والأدبية والبلاغية المتنوعة، وجدت بعضاً من هذه الطرق والوسائل المعتمدة عند السابقين والمحدثين والمعاصرين في أن واحد، كما وضع ذلك جلياً في بداية التمهيد، والذي يفتح باب الاستزادة منه على حسب قدرة الباحث وتمرسه وثقافته المتنوعة ورؤيته الثاقبة، ونوع المنهج المتبع والدراسة المركز عليها.

لذا سأحاول جمع بعضاً من هذه الطرق من أجل رسم الخطة البحثية التي وضعتها للدراسة، اجتهاداً مني للوصول إلى دراسة بنائية جمالية، بما وفر لي من أدوات تتناسب مع مستوى دراستي وخبرتي..

لذا أقسم طرق التناول للدراسة المعمارية القصصية في سورة مريم على النحو الآتي:

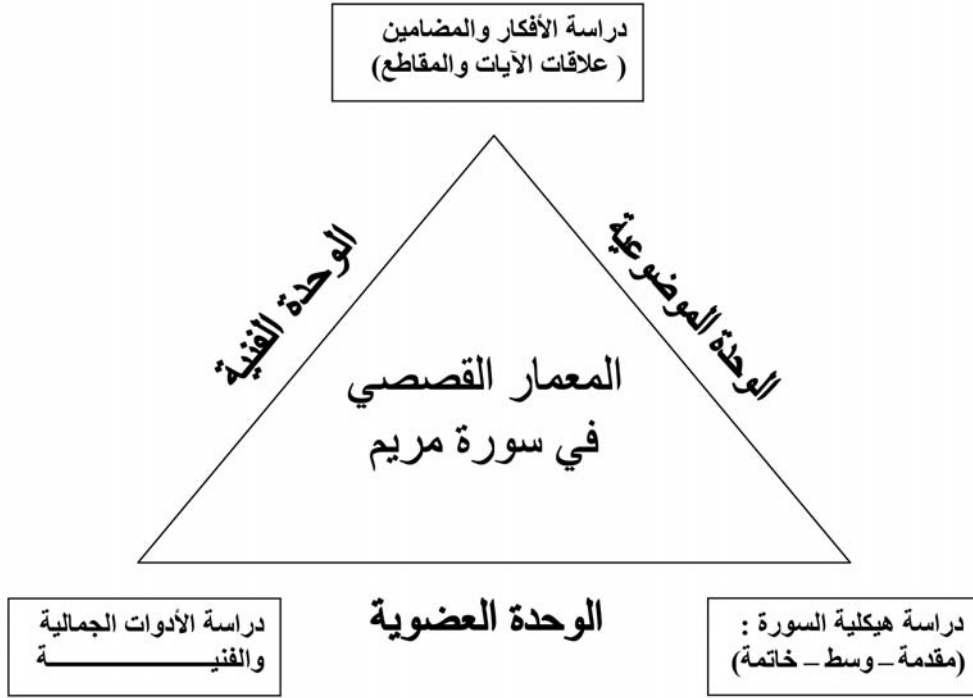
**أولاً: دراسة علاقات الآيات والمقاطع والموضوعات مع بعضها البعض استناداً**

على: (دراسة البنيات الصغرى في علم المناسبات، والبنيات الكبرى في علم النظام)، للكشف عن أفكار ومضامين السورة القرآنية، والذي تمثل في (الوحدة الموضوعية).



ثانياً: دراسة هيكلية السورة القرآنية من<sup>(١)</sup>: (ابتداء - عرض - قصص - حسن - انتقال - خاتمة) وأدوات الربط بينها، والذي تمثّل في (الوحدة العضوية).

ثالثاً: دراسة ما يتصل بالسورة القرآنية من عناصر فنية و أدوات ثانوية،



يوظفها النص لإثارة الهدف المطلوب وبخاصة العنصر القصصي، ومعرفة سر الربط بين حلقاته، والكشف عن طبيعة الوظيفة المسخرة فيه، لإثارة الأفكار والمضامين، وإثارة النفوس والعقول نحو الإحساس بالجمال والتأثر به، والذي تمثّل في (الوحدة الفنية).

ويمكن تلخيص هذه الطرق في الشكل الآتي:

وبهذه الطريقة يمكنني تطبيق الدراسة المعمارية البنائية للسورة القرآنية، مع تخصيص قصصها بالدراسة في الدرجة الأولى، والتي ستتضح من خلالها الأبعاد الهندسية الرائعة التي تدل

١- أي المرحلة التي يقطعها النص، والمحطات التي يقف عندها، والجهة التي يسير إليها إلى المحطة الأخيرة التي يقف عندها، ومنها: × ما يظهر بصورة واضحة في السورة ذات الوحدة الموضوعية الظاهرة حيث جميع أجزائها وتفرعاتها وتنظيماتها تخضع لأهداف النص، وتخضع لتسلسل زمني أو موضوعي أو نفسي واضح في (المقدمة والوسط والخاتمة). × ومنها ما تعددت مواضعها تحت بناء عام يجتمع في الوحدة العضوية، ويخضع بناءها إلى الزمان النفسي في الغالب، ومن ثم فإن الرحلة التي يقطعها النص تتقاطع أو تتوازي (بدايتها ووسطها ونهايتها) بحسب متطلبات الاستجابة الكلية التي يستهدفها النص في هيكلتها. بتصرف، محمود البستاني: المنهج البنائي في التفسير، ص ٣١-٣٤.

على إعجاز القرآن البنائي والفني، والذي يكشف عن أسرار المعجزة في كل عصر وزمان.

## «كلمة قبل البدء»

- ليس الغرض من هذه الدراسة تقديم منهج نظري أو تطبيقي متكامل، للمعمارية الهندسية للسورة القرآنية وقصصها على ضوء معايير فنية حديثة، أو مقاييس بشرية قاصرة عن الوصول لكمال القرآن وأسلوبه.
- كما أننا نخرج أنفسنا من تلك المحاولات التي «تستهدف إخضاع القصة القرآنية للمقاييس الحديثة التي تمخض عنها تطور الفن القصصي إلى صنعته الحالية، وإصدار الأحكام والتقارير على ضوء هذه المقاييس، إنما هي محاولة تعسفية فاشلة لا تأخذ بنظر الاعتبار طبيعة القرآن الكريم، والأهداف التي تخدم موضوعاته وتصوغها بالاستناد إلى مستلزمات ومقتضياتها...»<sup>(١)</sup>.
- كما أن القرآن لم يقدم لنا بين دفتيه قصصاً غايتها إمتاع القارئ، كما تستهدف ذلك القصص الحديثة - من جملة ما تهدف إليه - كما أنه لم يستهدف في قصصه (القصة) بحد ذاتها أو تقديم عمل قصصي أو روائي (من ناحية المقاييس والصياغات الشكلية) كما يفعل ذلك كتاب القصة، أو الرواية المعاصرون، إذ يركزون ويستنفرون جميع جهودهم ومهاراتهم وقدراتهم، لتقديم عمل قصصي متكامل يخصصه لهذا الغرض دون غيره<sup>(٢)</sup>.
- كما أن القرآن الكريم ليس كتاباً قصصياً غاياته الرئيسة تقديم مقاييس ومعايير حول العمل القصصي «وإن كنا لا نعدم في ثنايا قصصه بعضاً من تلك المقاييس التي يمكن لكتاب القصة الإسلامية الهادفة أن يفيد منها في صياغة قصصه، ومثل هذه الإفادة تتطلب قدرة، ومهارة فائقتين في الاستنباط، وتعيين الموضوع المناسب، لتوظيف تلك المقاييس» فإذا اضطرت للموازنة بين القصة القرآنية والقصة الحديثة، فهي من قبيل المقارنة في موضوعين مشتركين في العنوان، وفي بعض التفاصيل، ولكنهما يفترقان عن بعضهما في الظروف والملابسات التي تحكم كلاً منهما وفي الهدف الرئيس الذي يتوخاها<sup>(٣)</sup>.

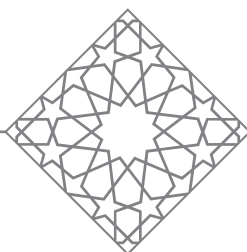
١- فالح الربيعي: القصص القرآنية (رؤية فنية)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥.

٢- المرجع السابق، ص٥.

٣- بتصرف، فالح الربيعي: القصص القرآنية، ص٦-٧.







## الفصل الأول

### المعمار الموضوعي في سورة مريم



٣٧





تحت هذا العنوان أضع كلمات ساقته إليها الضرورة في كيفية التناول الموضوعي لهذا الفصل، وهي «أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء جزء منه - وهي تلك الصلات الموثقة في مثاني الآيات، مطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بيّنة، فقديماً قال الأئمة<sup>(١)</sup>: (إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويطرأ بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية).

وبهذا يُعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها، فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم<sup>(٢)</sup>.

ولا تعنى هذه الطريقة في الدراسة أن تمنع من وجود خصوصيات للبنى الصغرى في الآيات تميزها، بل إن تلك الخصوصيات هي التي تسهم في تمية العمل في إطار البنية الكاملة من خلال وحدتها العضوية، وكل ذلك من أجل تحقيق الأهداف السامية للسورة<sup>(٣)</sup>.

وبناء على ما سبق بيانه، سأحاول الإجابة عن عدة تساؤلات يفرضها المقام في تناول المعمار الموضوعي للسورة هي:

- ما الموضوع الرئيس أو (المحوري) الذي دارت عليه السورة الكريمة؟ وكيف اختلف العلماء فيه؟

- وما الموضوعات الفرعية التي اجتمعت في السورة؟ وما أهم المقاصد والقضايا التي

١- يقصد بهم: أبو بكر النيسابوري، وأبي بكر بن العربي والشاطبي، والبقاعي، وغيرهم.

٢- محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

٣- بتصرف، زكية محمد خالد: التشابك القصصي في سورة الكهف، ص ١٤.

## عالجتها؟

- وكيف تحققت الوحدة الموضوعية فيها؟
  - وما علاقة هذه السورة بما قبلها وما بعدها من سور القرآن الكريم؟
- وللوصول إلى إجابات شافية لهذه التساؤلات، قمت بتقسيم الفصل إلى عدة مباحث متعاضدة ومتساندة على النحو الآتي:
- المبحث الأول: بين يدي السورة الكريمة.
  - المبحث الثاني: تحديد موضوع السورة، واختلاف العلماء فيه.
  - المبحث الثالث: الوحدة الموضوعية في السورة.
  - المبحث الرابع: علاقة السورة بما قبلها وما بعدها.
  - ومع أول هذه المباحث:







# المبحث الأول

بين يدي السورة الكريمة



٤١

المعمار القصصي في سورة مريم





## المطلب الأول: اسم السورة و ترتيبها وعدد آياتها:

### أولا - اسم السورة:

للسورة الكريمة ثلاثة أسماء هي:

- سورة (مريم) وهو اسم السورة التوقيفي المشهور<sup>(١)</sup> في كل المصاحف والتفاسير تقريبا.
- سورة (كهيعص) وهو اسم أطلقه بعض الصحابة رضي الله عنهم والعلماء من بعدهم مراعين بها فاتحة السورة من حروف التهجي<sup>(٢)</sup>.
- سورة (المواهب) وهو الاسم الاجتهادي للسورة، أطلقه بعض العلماء المعاصرين ليكون بداية لتفسير السورة تفسيرا موضوعيا<sup>(٣)</sup>.

### ثانيا - ترتيبها:

- سورة مريم هي التاسعة عشر حسب ترتيب المصحف، تسبقها سورة الكهف وتليها سورة طه<sup>(٤)</sup>.
- أما باعتبار الترتيب النزولي<sup>(٥)</sup>:

١- ينظر، الألوسي: روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د-ت)، (د-ط)، ص ٥٦.  
٢- ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص ٤٢.  
٣- ينظر، الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفاثس، الأردن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ط١، ص ٧٣.  
٤- وعليه المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ط١.  
٥- ولقد اختلف العلماء في الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم فمنهم: × من عده أمرا توقيفيا لا مجال للاجتهاد فيه؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه رضي الله عنهم بوضع السورة أو الآية من السورة في موضع معين دون غيره، وكان يراجع جبريل - عليه السلام - ويعرض عليه ما اجتمع عنده من القرآن الكريم × ومنهم من عده أمرا اجتهاديا لا يعتمد على دليل يصح إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى أحد الصحابة رضوان الله عليهم، ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى عدم الاعتداد به في إدراك أغراض ومقاصد السور القرآنية، ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص ٢٥٧، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٤٧.



فتعد الثالثة والأربعين<sup>(١)</sup>، وقيل الرابعة<sup>(٢)</sup>، وقيل الخامسة<sup>(٣)</sup>، تسبقها سورة فاطر وتليها سورة طه.

### ثالثا - أما عدد آياتها:

فتباينت فيه مواقف العلماء فعُدَّت «في عدد أهل المدينة ومكة تسعا وتسعين. وفي عدد أهل الشام والكوفة ثمان وتسعين»<sup>(٤)</sup>.

## المطلب الثاني: زمان ومكان نزول السورة الكريمة:

**أولا - زمانها:** لم يرد خبر نعتد عليه في تحديد الوقت الذي نزلت فيه السورة بدقة، إلا أن العلماء حددوا زمان نزولها مقربا من السنوات الأولى من البعثة النبوية.

ويؤكد ذلك قصة المسلمين المهاجرين الذين فرُّوا بدينهم من أذى كفار قريش، لأرض الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، حيث كانت الهجرة في السنة الخامسة، إذ قامت قريش بإرسال رجلين منها للنجاشي، من أجل أن يذكروا له: (بأن المسلمين يقولون في عيسى وأمه عليهما السلام قولا عظيما)، فاستدعى الملك جعفر بن أبي طالب وسأله: هل معك مما جاء به رسولكم شيئا؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص)، فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلت مصاحفهم، حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة<sup>(٥)</sup>، وهذا ما يدل دلالة واضحة على أن سورة مريم نزلت في وقت مبكر قبل الهجرة، بزمن يكفي لتناقل السورة بين المشركين وغيرهم.

**ثانيا - مكانها:** سورة مريم مكية النزول بإجماع العلماء، إلا ما وقع بينهم من اختلاف حول بعض آياتها<sup>(٦)</sup>.

**وأما أهم خصائص الآيات المكية التي اجتمعت في سورة مريم فهي<sup>(٧)</sup>:**

- كل سورة تفتتح بحروف التهجي تعد مكية ما عدا الزهراوين.

- ١- ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٢٦.
- ٢- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، (د-ت)، (د-ط)، ص ٥٨.
- ٣- ينظر، السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج ١، ص ٨٤.
- ٤- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ٥٨. و ينظر، السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٢٨.
- ٥- بتصرف، الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٢٨٣هـ - ١٩٦٤)، ط ٢، ج ٣- ص ٢٢٠.
- ٦- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ص ٥٧. حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٣٢-٣٣-٣٤.
- ٧- ينظر، بكري شيخ أمين: في التعبير القرآني، دار الملايين، بيروت، لبنان، (د-ت)، ط ٧، ص ٤٦، النظم القرآني في سورة مريم: سارة بنت نجر بن ساير العتيبي، رسالة ماجستير، البلاغة والنقد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، ١٤٢٥هـ - ١٤٢٦هـ، ص ٢٢.

- كل سورة فيها قسم يترجح مكيتها.
- الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله تعالى.
- إثبات الرسالة والبعث والجزاء، والتفكر في آيات الله تعالى، وقطع دابر خصومة المعاندين والمشركين بالبراهين العقلية.
- ذكر القيامة وأحوالها، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.
- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة.
- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة.
- كل سورة فيها سجدة مكية ولقد جاءت في السورة.
- كل سورة فيها لفظة (كلا) تعد مكية، ولقد توفرت في السورة.







## المبحث الثاني

تحديد موضوع السورة









«الكثير من سور القرآن الكريم متعدد الموضوعات، وذلك يبدو من النظرة الجزئية لكل موضوع في السور هذه، ولكن النظرة الفاحصة المتأملة للسورة ككل تضع فكر القارئ للقرآن الكريم أو التالي له عند موضوع واحد تدور حوله السورة، وتتشكل موضوعاتها الجزئية بجوهر هذا الموضوع وتسهم في جوانبه ومجالاته ليؤدي كل منها إلى غاية واحدة وهدف واحد، هي غاية هذا الموضوع الواحد وهدفه الذي تدور حوله السورة القرآنية»<sup>(١)</sup>.

ولقد تقدمت الإشارة سابقاً عن خصائص السور المكية التي تولي أهمية كبيرة لإثبات وحدانية الله تعالى، وكمال صفاته، وإثبات نبوة الأنبياء، والمرسلين، وإقامة الدلائل المثبتة للبعث والنشور، وسورة مريم تمضي كغيرها من السور المكية في هذا السياق، إذ تعالج موضوع (العقيدة) من بعض زواياها.

والوقوف على موضوع السورة بدقة، يتطلب النظر ملياً في آراء وأقوال المفسرين الذين اهتموا بإبراز مواضيع السور وأهدافها، فبعد النظر فيها، ومقارنتها ببعضها البعض، وجدناهم قد انقسموا إلى فريقين:

## أ - الفريق الأول: القائلون إن التوحيد هو موضوع السورة<sup>(٢)</sup>، ومنهم:

- ١- **فخر الدين الرازي** بقوله: «اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد و النبوة و الحشر»<sup>(٣)</sup>، وهذا بعد تعليقه على قصة إبراهيم عليه السلام مع والده.
- ٢- **ابن تيمية**: بعد استقراءه وتدبره في السورة، قال: «مضمونها تحقيق عبادة الله وحده، وأن خواص الخلق هم عباده، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة»<sup>(٤)</sup>.

١- رفعت فوزي عبد المطلب: الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، دار السلام، القاهرة، حلب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص٧.  
٢- الرازي: في كتابه (التفسير الكبير)، ابن تيمية في (التفسير الكبير)، الفيروز آبادي في (بصائر ذوي التمييز في لطائف العزيم)، الطباطبائي في (الميزان في تفسير القرآن)، محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتدوير)، سيد قطب في (في ظلال القرآن)، محمد البهي في تفسير سورة مريم (القرآن في مواجهة المادة)، و عبد الحميد محمود طهماز في (التوحيد والتنزيه في سورة مريم).

٣- الرازي: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ج ٢١، ص ١٩٥.

٤- ابن تيمية: التفسير الكبير، تحقيق: عبد الرحمن عميره، دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ط) (د، ت)، ج ٥، ص ١٨٢.



٣- سيد قطب يرى أن السورة تعالج «قضية التوحيد» بقوله: «يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد، و نفي الولد و الشريك، و يلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد، هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كشأن السور المكية غالباً»<sup>(١)</sup>.

كما يرى الرحمة التي تكررت كثيراً في السورة بأنها لمسات لطيفة يحسها القارئ، بقوله: «وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية و ديبها اللطيف في الكلمات و العبارات و الظلال كما تحس انتفاضات الكون و ارتجافاته لوقع الشرك التي لا تطيقها فطرته»<sup>(٢)</sup>.

## ب- وأما الفريق الثاني: القائلون إن موضوع السورة إثبات اتصافه تعالى بشمول الرحمة، أمثال:

١- الإمام البيضاوي: الذي وقف موضوع السورة في عبارة وجيزة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ إذ لفت انتباهه تكرر لفظ (الرحمن) كثيراً فيها، فقال: «و لاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن و لعله، لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام و شرح حال الشاكرين لها و الكافرين بها»<sup>(٣)</sup>.

٢- البقاعي: حيث استعان في تحديد موضوع السورة بالنظر في اسمها و مطلعها و خاتمتها و الدروس المستفادة منها، فقد بيان صفة شمول الرحمة لله تعالى موضوعاً للسورة مؤكداً هذا بقوله: «و لما بينت هذه السورة على الرحمة و اللطف و الإحسان بعباد الرحمن عبر باسم الرب الذي صُدِّرت به بخلاف سورة التوحيد آل عمران المُصدِّرة بالاسم الأعظم»<sup>(٤)</sup>.

٣- و كذلك نجد محمد الغزالي: يركز النظر في دراسته القرآنية في الألفاظ و العبارات المتكررة في السورة القرآنية، و يجعلها وسيلة مهمة لاستكشاف المحور الرئيس للسورة القرآنية، و هذا ما يؤكد قوله: «و لكي نستكشف المحور الذي تدور عليه السورة نوجه النظر إلى كلمة تكررت سبع أو ثمان و تسع مرات في هذه السورة...»<sup>(٥)</sup>، و قوله: «و قد لوحظ أن اسم الرحمن من أسماء الله الحسنی تكرر في هذه السورة ست عشرة مرة»<sup>(٦)</sup>، و هذا القول تلميح لرأيه في موضوع السورة.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٩٩.

٢- المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٣٠٠.

٣- البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمى [أنوار التنزيل و أسرار التأويل] مع حاشية الخفاجي، ضبط و خرج أحاديثه و آياته: عبد الرازق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج ٦، ص ٣١٤.

٤- البقاعي: نظم الدرر، ج ٤، ص ٥٢٨.

٥- محمد الغزالي: خطب الشيخ محمد الغزالي، إعداد عبد الحميد قطب، مكتبة رحاب الجزائر، (د، ت)، (د - ط)، ج ٣، ص ١٦٢.

٦- محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، دار بغداد للطباعة، الرويبة، الجزائر، (د-ت)، (د-ط)، ص ٢٤١.

٤- **وجاء رفعت فوزي عبد المطلب:** بنفس الإشارة حيث علق موضوع السورة بآية المطلع من خلال تصويره للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية حيث قال: «إن السورة في القرآن الكريم تشير في أوائلها إلى موضوعها، وتشير إليه في خاتمتها»<sup>(١)</sup>.

ورأى أن الآية الفاتحة تشير إلى إثبات رحمة الله لعباده المخلصين كموضوع أساس للسورة ويبيّن أن رحمة الله شملت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم عليهم السلام، والإشارة العابرة لموسى وإسماعيل وإدريس-عليهم السلام- لا تخلو من إبراز موضوعها العام<sup>(٢)</sup>، و يقول «لعلنا نلتفت إلى كلمة الرحمن والرحمة التي تكررت كثيراً في هذه السورة؛ لأن موضوعها الرحمة كما قلنا...»<sup>(٣)</sup>، وكما أنه استقى موضوع السورة من أولها في قوله تعالى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ كذلك استقى من خاتمتها، إذ يقول: «واختتمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من أن الرحمن عزوجل يجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات الود والحب... ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾<sup>(٤)</sup> فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا»<sup>(٤)</sup>.

وبهذا لاحظنا أن الفريق الأول اعتمد على إبراز موضوع السورة على صيغة العموم في معالجة محاور العقيدة المتعددة كقضية التوحيد و نفي الولد و بالبعث و النشور، وأما الفريق الثاني فكانت آراؤهم تحوم في إبراز موضوع إثبات رحمة الله لعباده المخلصين، وهي آراء واضحة من خلال استنباطاتهم.

**ولكن ما أجدّه في ترجيح أحد الرأيين هو:** أن كليهما يعالج محورا واحدا وهو إثبات العقيدة وتمكينها في النفوس، لذلك نجد أن القضايا التي تعالجها هذه السورة، تتناسق مع بعضها تناسق طرديا، فالتوحيد يستلزم رحمة الله تعالى لعباده المتقين، وكذلك رحمة الله تستلزم من العبد أن يكون موحداً لله تعالى، نافياً عنه الولد، مؤمناً بقضايا البعث و النشور، ومن ثم فالموضوعان واردان في السورة بشكل مترابط في بنيات لفظية ومعنوية، يتحقق وجود أحدها بوجود الأخرى و بالعكس، أي المقصد أو المحور الرئيس في السورة: وهو (توحيد الله وعبوديته الخالصة التي تستلزم رحماته وهباته لأولياءه الصالحين)، وهذا ما سنلاحظه من خلال معالجتنا لهذا المبحث إلى جانب مواضيع أخرى قريبة من الآراء السابقة.

١- رفعت فوزي عبد المطلب: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ص ٤٩.

٢- بتصرف، رفعت فوزي عبد المطلب: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ص ٤٦-٤٧.

٣- المرجع السابق، ص ٤٩.

٤- رفعت فوزي عبد المطلب: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ص ٤٩.







## المبحث الثالث

الوحدة الموضوعية في السورة



٥٣

المعمار القصصي في سورة مريم





لكي أتناول هذا المبحث بشكل دقيق لابد من معرفة مفهوم الوحدة الموضوعية أولاً:

- ف (الوحدة) لغة تأتي بمعنى: التَّوْحُدُ، وتَوَحَّدَ برأيه: تفرد به، والوحدة: الانفراد<sup>(١)</sup>.
- والوحدة الموضوعية بجعلها مركبا وصفيا معناها: «اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة، كما نقول بعبارة أخرى (وحدة الموضوع)»<sup>(٢)</sup>.
- وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها: «البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن في سورة المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبخته لتحقيق الهدف، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم»<sup>(٣)</sup>.

لذلك لكي نصل إلى هذه الوحدة في سورة مريم لابد من الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الموضوعات المتنوعة التي ضمتها السورة ؟
  - وما أهم القضايا و المقاصد التي قصدها لتحقيق الوحدة الموضوعية ؟
- وللإجابة عن هذين السؤالين أبدأ بالمطلب الآتي:

## المطلب الأول: موضوعات السورة الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿ كَهَيْعَصَ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ إِذِ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ إِنَّا نَبِّئُكَ يُعَلِّمُ اسْمَهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ

١- ينظر، ابن منظور: لسان العرب: مجلد ١٦، ج ١٥، مادة (وحد)، ص ١٦٤-١٦٥-١٦٦.

٢- محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، (د، ط)، ص ٣٣.

٣- المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤.



بَلَّغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عَصِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْبٍ وَقَدْ خَلَقْتَنَا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ الْأُولَىٰ كُلَّمَا نَسَاكَ النَّاسُ فَتِلْكَ لِسَالِ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبْحَثِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتِنَا لَكُمْ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرُكُودًا وَكَانَتْ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْبٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَتْ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكِ جِذْعُ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمَىٰ وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّ وَرَبُّكَ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلُومِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمَتِكَ وَأَهْجُرَنِي مِيلًا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا نَدَعُوتُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدْبَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٦٠﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦١﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦٢﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيًّا ﴿٦٣﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٤﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا



وَمَا خَلَقْنَا وَمَا يُبَدِّلُ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْلَا يَذُكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِن لَّبِئْنَا بِلَا إِلَٰهَ إِلَّا الْإِلَٰهُ الْأَحْسَنُ نَذِيرًا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيُرِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدُوا هُدًى وَابْتَدِئْتُ الصَّلَاةَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُبْرِئُ مَا لِي وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرَدًّا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطُرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكزًا ﴿٩٨﴾

اشتملت سورة مريم على عدة موضوعات ظهرت جليلة أحياناً، و خفية أحياناً أخرى من أهمها:

- ١- **التوحيد:** لقد اهتم القرآن الكريم بموضوع توحيد الخالق سبحانه وعبادته اهتماماً كبيراً، فهو أهم قضايا الإيمان و أعظمها، و تتمثل فيه أكبر جوانب المواجهة بين المسلمين الموحدين و بين أهل الكتاب الزائعين الضالين، و قد حشد القرآن لهذا الموضوع كثيراً من الأدلة و البراهين، في عدد كبير من آيات سورة<sup>(١)</sup>.

وسورة مريم إحدى السور التي تناولت جانباً كبيراً من هذا الموضوع، حيث جاءت متممة لسورة آل عمران<sup>(٢)</sup>، و مؤكدة على توحيد الله تعالى و كماله، و تنزيهه سبحانه عن الاتصاف بصفة الولادة، لأنها من صفات العجز و النقص و الضعف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما سنلحظه في مضمون القصص الواردة في السورة القرآنية و الخطاب الموجه للرسول الكريم، في كيفية التعامل مع أصناف البشر المختلفين في آرائهم و معتقداتهم، و الذي ظهر جلياً في

١- ينظر، عبد الحميد طهماز: التوحيد و التنزيه في سورة مريم، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ط١، ص ٥.

٢- ينظر، المرجع السابق: ص ٥، و لا بد من الإشارة أن علاقة سورة مريم بسورة آل عمران تحتاج لدراسة دقيقة متأنية للكشف عن بعض أسرارها الكامنة، و التي لا يسعنا المجال في هذه الدراسة لتناولها بشكل تفصيلي.

٣- سارة بنت نجر: النظم القرآني في سورة مريم، ص ٢٢.



تعقيبات السورة التي تقرر ربوبية الله تعالى، و تزرهه عن الولد، و تسرد أمثال أولئك الذين قابلوا نعمة التوحيد بالكفر و العناد، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّوا سُجَّدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥ ﴾ .

## ٢- رحمة الله لعباده و مواهبه لهم:

حيث تضمنت السورة بياناً لشمول رحمة الله لخلقه، و إحسانه لعباده، بشكل يمثل غاية الإعجاز و الرحمة، التي تقود العبد إلى استشعار مدى عجزه عن الرقي إلى مدارج الكمال، فيبقى موقناً بحاجته إلى الله تعالى، و فقره إلى فضله و رحمته.

ولقد تمثلت رحمته تعالى في عدة مواقع في السورة، و التي كانت نتيجة حتمية لصدق العبادة لله وحده، و منها:

- **كرامة الله لعبده زكريا وولده يحيى عليهما السلام** الذي وهبه الله تعالى إياه على الكبر، من امرأة عاقر، بعد أن كان زكريا أنموذجاً لكمال العبودية و التوحيد، فاستجاب الله لندائه الذي نم عن إخلاص صادق، و فرج عنه كربته، و استجاب للهفته، فرزقه بالعبد الصالح الرضي (يحيى عليه السلام) ، فأتم نعمته عليه و بورك له فيه، وهذا ما تمثل في الآيات من (٢-١٥).
- **كرامة الله تعالى لأمته مريم عليها السلام** و تشریفها بمخاطبة جبريل عليه السلام لها مباشرة، و هي من النعم الجليلة التي خص الله بها ثلة من عباده المخلصين، و كذلك كيفية رزقه إياها عيسى عليه السلام من دون زوج، ثم إغداقه عليهما من فضله و رزقه، و رحمته و حفظهما من كل مكروه، و هذا ما تمثل في الآيات من (١٦-٣٣).
- **رحمات الله تعالى و مواهبه على نبيه إبراهيم عليه السلام** و مجازاته خير الجزاء على توحيد له و الصبر على عبادته دون غيره، و دعوته الخالصة الصادقة مع أقرب الناس إليه و هو (والده)، و هذا ما تمثل في الآيات من (٤١-٥٠).
- **رحمة الله نبيه موسى عليه السلام** الذي اختصه بنعمة الإخلاص والتي أدت إلى استخلاص الله له باصطفائه و اختياره لكلامه مباشرة، و تبديد خوفه و روعة بتذليل الخطاب له، و تقريبه منزلة و كرامة دون غيره، كما أنه وُهبَ بأخيه هارون معيناً له في الدعوة توفيقاً من الله تعالى ورحمة، كما في الآيات (٥١-٥٣).

• **رحمة الله نبيه إسماعيل عليه السلام** بأن أعطاه النبوة والرسالة وكرمه بسكنى بجوار بيته (الكعبة المشرفة)، و شريكا لأبيه في بنائها، كما وصفه الله بالصدق في وعده<sup>(١)</sup>، عندما عزم والده بذبحه فاحتسب، وأوكل أمره لله، فأبدله الله بذبح عظيم، فورث هذا الخلق ذريته من بعده، إلى جانب مجازاته على إخلاصه في صبره على أهله، إذ إنه كان يأمرهم بالصلاة والزكاة فرضي الله عنه، ورفع من شأنه وقدره، وهذا متمثل في الآيتين (٥٤-٥٥).

• **رحمة الله تعالى نبيه إدريس عليه السلام** الذي كان يمثل الصدق والنبوة بكل إخلاص، فجازاه الله بالمكان العلي، والمنزلة المشرفة وهو «العلم الذي فاق به على من سلفه»<sup>(٢)</sup>، ويظهر جليا في الآيتين (٥٦-٥٧).

• **رحمة الله عباده الصالحين و المتقين** الذين ساروا على نهج أنبيائهم، فاستحقوا التبشير بالنعيم الدائم من الله تعالى وهي جنات الفردوس، وهذا ملحوظ في آيات متعددة في القسم الثاني من السورة الكريمة.

• **رحمة الله عباده المكذبين و الكافرين**، و ذلك بإنذارهم إلى عاقبة التكذيب و العناد، وإمهالهم لعلمهم يرجعون، و يرتدون عن سبيل غيهم و ضلالهم.

• وهذه المواقع الظاهرة لدينا والدالة على رحمة الله تعالى المتجلية في السورة، و التي أشار لها الله في الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُنزلنَّ عَلَيْهِمْ ءَأَنتَ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا ۝﴾.

### ٣- تحدثت السورة عن فريقين من البشر:

❖ **الفريق الأول هم:** المؤمنون المهتدون، أي الرسل و كل من اتبعهم و سار على نهجهم و خطاهم، فتمتعوا برضا الله في الدنيا بما أفضى عليهم من هداية و اصطفاء و رحمة و رفعة، ثم في الآخرة بدخول جنته كما في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝﴾.

١- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، المجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٩.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢١. و قيل: بأنه هو أول من وضع للبشر عمارة المدن، و قواعد العلم، و قاعد التربية، و أول من وضع الخط، و علم الحساب بالنجوم و قواعد سير الكواكب و تركيب البسائط بالنار فلذلك كان علم الكيمياء ينتسب إليه، و أول من علم الناس الخياطة، فكان هو مبدأ من وضع العلوم، و الحضارة، و النظم العقلية «ينظر، المرجع السابق، ص ١٢١. كما قيل بأنه أول من اتخذ الموازين و المكايل و الأسلحة فقاتل بني قاييل، و يدخل فيه أول نبي مرسل بعد آدم عليه السلام، و أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة. ينظر، الزمخشري: الكشاف عن الحقائق التأويل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٢٥٢. و أبو الحسن الموردي: النكت و العيون، مراجعة و تعليق: عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، (د-ت)، ج ٢، ص ٢٧٨.





## ❖ والفريق الثاني هم<sup>(١)</sup>: الضالون المكذبون الذين أثبتوا معبوداً سوى الله تعالى وهؤلاء

فريقان:

- منهم من أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلاً، وهم النصارى الذين يمترون في عيسى عليه السلام، حيث جعلوه إلهاً، أو ابن الإله، وأغمضوا أعينهم، وأصموا أذانهم متجاهلين الحق الذي نطق به، فلم يكن لهم من بصائرهم ما يهديهم إلى الصواب فرد عليهم الله تعالى بقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.
  - ومنهم من أثبت معبوداً غير الله: جماداً، ليس بحي ولا عاقل، وهم عبدة الأوثان من قوم إبراهيم عليه السلام الذين رفضوا الحق لما جاءهم، وأصروا على ما هم فيه من ضلال و ضياع، وهذا متمثل في قصة إبراهيم عليه السلام مع والده في الآيات من (٤١-٥٠).
- ويُقادان إلى نار جهنم جزاءً وفاقا.

## ٤- البعث و النشور:

تؤكد السورة الكريمة حقيقة البعث و النشور، وحقيقة الحساب و الجزاء، و ضرورة الإيمان بهذه الحقائق جميعها، فنجد السورة تعرض مظاهر تهكم الكفار بهذه الحقائق، وإنكارهم و معاندتهم لها، بجدلهم في استحالة العودة بعد الممات، كما في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾﴾، كما تعرض مدى استخفافهم بالنعمة الظاهرة و الباطنة التي أنعمها الله عليهم لهدايتهم للطريق القويم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿١٨﴾﴾ و في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُبْرِئُكَ مَا لَآ وَوَلَدًا ﴿١٩﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٢٠﴾﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٢١﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٢٢﴾﴾، ووضحت كذلك مدى استدراج الله لهم بهذه النعم لتكون شاهداً و دليلاً على بغيهم و معاندتهم، بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٢٣﴾﴾.

١- ينظر، سارة بنت نجر: النظم القرآني في سورة مريم، ص ٢٤-٢٥.

٢- ولقد قيل إن الآيات نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظاما بالية، يفتها بيده، ويقول زعم لكم محمد أنا نبعت بعدما نموت، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه، ينظر، وهبة الزحيلي: التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ط ١، ج ١٦، ص ١٤٣.

٣- فالآية تشير إلى قصة خباب بن الأرت مع العاصي بن وائل السهمي، " فقي الصحيح: أن خباباً كان يصنع السيوف في مكة، فعمل للعاصي بن وائل سيفاً، وكان ثمنه ديناً على العاصي، وكان خباب قد أسلم، فجاء خباب يتقاضى دينه من العاصي، فقال له العاصي بن وائل: لا أفضيحه حتى تكفر بمحمد، فقال خباب: "وقد غضب"، لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم بيعتك، قال العاصي: أو مبيعوت أنا بعد الموت؟ قال: نعم، قال (العاصي متهماً) إذا = كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك، فنزلت هذه الآية في ذلك". ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٥٨-١٥٩.

## ٥- الجنة و النار:

- ذكرت السورة الجنة و أوصافها بكونها دار الخلد و الإقامة، لا يتحول عنها أهلها أبداً، متمتعين فيها بسلام دائم منزه من كل سوء أو شر، و مشجعة طالبها و باغيها لمواصلة الجهاد لطلبها بالإخلاص و العبودية لله وحده. و ذلك بقوله الله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِي بُكْرَةٍ وَعَاشِيًا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ و قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ﴿٨٥﴾﴾.

- كما ذكرت النار و أوصافها و ما فيها من أهوال، إذ تكون جزاءً و مآلاً للكافرين المشركين الذين يساقون إليها صاغرين، في حالة مزرية قد أخذتهم الحسرة و الندامة، و هذه الأوصاف ظهرت جلية في تعقيبات الآيات الخطائية، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٦﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٧﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٨﴾﴾.

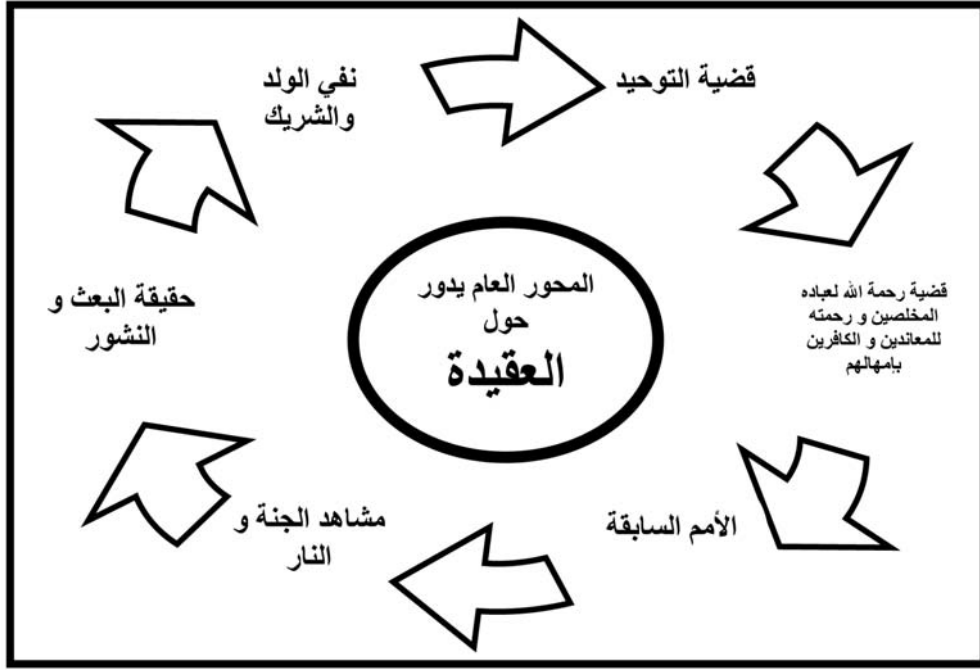
و مما لا يخفي علينا كذلك ما صورته الآيات من مشاهد يوم القيامة حيال أصحاب الجنة و النار و التي تدل على هول الأمر و عظم الخطب.

## ٦- الأمم السابقة:

بينت الآيات في السورة مآل الأمم السابقة التي أبادها الله تعالى بفعل تكذيبهم للرسول، و إنكارهم الوحي، و استنكار الكون لفعالهم كما في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ و كذلك بينت الآيات عظمة الله سبحانه، و غلبته على هؤلاء الأقوام بالرغم من قوتهم، و عظمة أمرهم، و هذا جلي في أواخر السورة الكريمة لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

و بعد هذه الجولة السريعة لموضوعات سورة مريم نجدها جميعاً تطرق باباً واحداً، وهو: (تثبیت العقيدة الصحيحة في قلب الإنسان و عقله، و الذي يتمركز في أساسها التوحيد و العبودية لله وحده لا شريك له، فيكون بذلك العبد قد استحق رحمة الله و فضله و هباته).





كما أننا نجد سراً واقعاً خلف تناول هذه المواضيع بالذات دون غيرها، و التي تتزامن فيها الحقائق الماضية للسورة الكريمة مع الحقائق الواقعة زمن النبي عليه السلام، مع الحقائق التي ستقع في العلم الغيبي و الآخروي، فما هذا السر؟ هذا ما سيتضح من خلال تناولي للمحور الثاني من دراسة الوحدة الموضوعية للسورة .

## المطلب الثاني: قضايا السورة و مقاصدها.

في سورة مريم مقصد رئيس واضح كما ظهر لنا من خلال تناولنا للموضوعات السابقة، و هو: (إثبات وحدانية الله تعالى، و عبوديته التي تستلزم بدورها رحمته لعباده)، ولقد احتاج هذا المقصد الشريف إلى عدة أمور عمدة إليها في سياق السورة كمقاصد فرعية مثبتة للمقصد الرئيس و مدعمة له، هي<sup>(١)</sup>:

- **المقصد الأول: إثبات وحدة الرسالة،** وأن الرسل جميعاً ما أرسلوا إلا لهدف واحد<sup>(٢)</sup> و هو: الدعوة إلى عبادة الله وحده منزهة عن الشرك، فقد ظهر هذا الهدف جلياً في قصة زكريا و عيسى و إبراهيم و موسى و إسماعيل وإدريس عليهم السلام، فها هو زكريا عليه

١- ينظر، سارة بنت نجر: النظم القرآني في سورة مريم، ص ٥٢-٥٨.

٢- ينظر، محمد قطب: دراسات قرآنية، دار الشروق، بيروت، القاهرة، (د-ت)، (د-ط)، ص ١٠٢.

السلام يدعوربه متضرعاً مستوهباً ربه ابناً صالحاً يقوم بأمر الدين، ويهتم به في ظل الفساد المنتشر و البعد عن الحق، ويتابع ما قام به من الدعوة، ثم تأتي قصة عيسى عليه السلام عبد الله و رسوله حيث جاء داعياً إلى عبادة الله وحده لقوله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ثم تأتي قصة إبراهيم - عليه السلام - الذي يدعو أباه، وقومه لنبيذ عبادة الأصنام، وعدم طاعة الشيطان، والعودة للحق بعبادة الله وحده بقوله تعالى على لسانه: ﴿ يَتَّبِعْ لَاتَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾، ثم يذكر الرسل الباقين و عباده الصالحين الذين يدعون إلى الله على نفس الوتيرة، من تطبيقهم لأحكامه و شرائعه على الأرض.

- **المقصد الثاني: تبرئة مريم عليها السلام:** من الافتراءات التي وصفها بها المشركون، وقد ثبت ذلك من خلال آيات السورة التي سردت الوقائع على حقيقتها لا كما زعمها الزاعمون، مما أثبت بذلك قدرة الله تعالى و عبودية عيسى عليه السلام لربه، و أدى إلى إثبات وحدانية الله سبحانه و تعالى كما هو في الآيات (١٦-٢١).

- **المقصد الثالث: إبطال بنوة عيسى عليه السلام،** وذلك من خلال سرد الأحداث و تتابعها التي تثبت لكل ذي عقل بأن عيسى ابن مريم عليهما السلام ما هو إلا عبد الله و رسوله، مؤيداً ذلك بالبراهين و الأدلة، فقد جعل أول ما نطق به الوليد عيسى هو إعلان عبوديته المطلقة لله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ «و هكذا يعلن عيسى - عليه السلام - عبوديته لله، فليس هو ابنه كما تدعي فرقة، وليس هو إلهها كما تدعي فرقة، و ليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة.. و يعلن أن الله جعله نبياً، لا ولداً و لا شريكاً. و بارك فيه، و أوصاه بالصلاة و الزكاة مدة حياته، و البر بوالدته و التواضع مع عشيرته، فله إذن حياة محدودة ذات أمد.. و هو يموت و يبعث و قد قدر الله له السلام و الأمان و الطمأنينة يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حياً.. و النص صريح هنا في موت عيسى و بعثه، و هو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً»<sup>(١)</sup>.

و يدعم هذه الأدلة كذلك التعقيب الذي تلا القصة في الآيات (٣٤-٣٧) فجاءت السورة بالحجة الدامغة و المسكتة لهؤلاء المفترين المكذابين.

- **المقصد الرابع: بيان قدرة الله سبحانه و تعالى و إعجازه،** و تظهر لنا هذه القدرة منذ أول آية في هذه السورة، فالحروف المقطعة في أول السورة (كهيعص) وجه من وجوه الإعجاز حارت فيه العقول، و دلت على الإعجاز اللغوي و البلاغي للقرآن، كما توالت المعجزات المثبتة لوحدانية الله و قدرته بولادة يحيى عليه السلام من أب و أم انعدمت لديهما الأسباب المؤدية للإنجاب، ثم ولادة عيسى عليه السلام من أم دون أب، كدليل أعظم على قدرة الله التي

١- سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد ٤، ج ١٦ ص ٢٣٠٨.





لا يعجزها شيء، فإذا أراد شيء لا يتعدى قوله عن (كن فيكون).

### المقصد الخامس: تحقيق وصف الله سبحانه وتعالى ب (الرحمن)، و بيان

شمول رحمته لعباده، فلما كانت هذه الصفة منكراً من قبل المشركين «إذ استبعدوا أن تلتقي صفات القوة والعزة والجبروت والعلم مع الرحمة والإحسان في حق الخالق سبحانه وتعالى، فمظاهر الرحمة في اعتقادهم من خصوصيات الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى»<sup>(١)</sup>، فقد ترددت في السورة الكريمة مثبتة بما لا يدع مجالاً للشك بأنها صفة من أهم صفات الله سبحانه، والتي فاقت قدرات البشر في الرحمة والتراحم، ولقد أبرزتها السورة في صور مواهب ونعم متعددة تفضل الله بها على عباده المتقين كما رأينا ذلك سابقاً، كما أن الرحمة لم تستثن الأسيقياء، بل شملتهم في الدنيا بنعم الحياة والرزق، و التمتع بنعمة العقل أداة التمييز بين الحق والباطل، و بين لهم سبيل الهداية و سبيل الغي<sup>(٢)</sup>.

### المقصد السادس: التنويه بالروابط الأسرية و دورها، فمثلاً:

- بر الوالدين ووجوب رحمتها كما في وصف الله تعالى ليحيى عليه السلام بقوله: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾، والإشارة كذلك إلى حمله الأمانة و همّ الدعوة مع والده بقوله تعالى: ﴿يَدْعِي حُذَّاءَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَايْتَنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾.
- و من ثم برّ عيسى عليه السلام بأمه، والتي صورت لنا تلك العلاقة الحميمة بين الأم وولدها، بحمله في بطنها و بعدها ولادته و من ثم حمله إلى قومها، وهي قلقة عليه و على نفسها، ولكن نطق الولد الرضيع مدافعاً عن أمه و عن شرفها، و مقراً بوحدانية الله و عبوديته له كما في الآيات (٣٠-٣٣).
- و من أمثلة البرّ أيضاً تلك المحاوراة الدعوية المتسمة بالاحترام و الأدب و الصبر و الحلم لإبراهيم مع أبيه، الذي عاند و أصر على عبادة الأصنام، فدلّت على خشية الابن على أبيه من سوء الخاتمة، و رغبته الملحة في إنقاذه من وحل الجاهلية، وكذلك نتلمس هذا البرّ في دعائه الصادق المغلف بعواطف الرحمة كما في قوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝١٧﴾ فغوضه الله بعدها بذرية صالحة تتبعه، فكانت قدوة للعالمين بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْرَضَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝١٩﴾ ووهبنا لهم من رحمنا و جعلنا لهم لسان صدق علينا<sup>(٣)</sup>.
- و من العلاقات الأسرية التي تدل على أهمية هذا الترابط بوصفها تمثل القوة و السند

١- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٠٠.

٢- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣.



أمام المصائب، نجد هبة الله لموسى عليه السلام بشد عضده بأخيه هارون عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ ﴿مما يدل على الدور الأخوي المهم في الأسرة.

• ومن جمال تلك العلاقات الأسرية التي توجتها الآيات الكريمة في القصص، بيان كيفية التربية الصالحة لسيدنا إسماعيل عليه السلام مع أبناؤه، التي أقامها على الأمر بالصلاة و الزكاة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾ فكان قدوة لمن بعده للسير على نهجه وخطاه من الاعتناء بالأسرة ووصلها بالله تعالى.

- **المقصد السابع:** إثبات حقيقة البعث و الحساب، التي تعد ركيزة أساسية للإيمان، واستشعار قدرة الله تعالى، الذي يستحق بحق الألوهية المضردة، فتوالدت الأدلة بإثبات هذه الحقيقة في عدة مواقع:

• على لسان يحيى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾

• على لسان عيسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣﴾

• وفي سياق الآيات المنذرة في قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَا تَوَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٣٨﴾ وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ٤٠﴾

• وسؤال المستكرين لقضية البعث في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذْ مَا مِئْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦﴾ و جواب الله الحاسم بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ٦٧﴾

• قسم الله تعالى بمصير هؤلاء المنكرين بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٦٨﴾

- **المقصد الثامن:** بيان منزلة القرآن و دوره في التذكير، سواء كان بالبطارة أو النذارة لجميع الخلائق، مع ما أيده الله من تيسير لفهمه و ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدُنَّا ١٧﴾ و بذلك وضحت رسالة القرآن عند العيان.

- **المقصد التاسع:** التسرية عن النبي صلى الله عليه و سلم و المؤمنين





الذين اتبعوه<sup>(١)</sup>، بضرب أمثال السابقين من الأنبياء له، الذين لاقوا ما لاقوا من أشكال التكذيب والأذى والافتراء والمعاداة وغيرها من أشكال الظلم والاعتداءات...، التي تستلزم إيماناً قوياً وصبراً على الابتلاء لا تزغزه الجبال، فهذا هو منهج الموحدين كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ و يوضح الله تعالى كذلك بأن العاقبة للمتقين، إما بنصر و غلبة في الحياة الدنيا بقدرة الله، وإما بالجزاء الأوفى في الآخرة، أو بهما جميعاً.

**المقصد العاشر: الدعوة إلى العمل الصالح،** و ذلك ببيان أن الجزاء من جنس العمل، و يتحقق ذلك عن طريق الترغيب و الترهيب بذكر أحوال المتقين، و أحوال المشركين و مصائرها في آخر المطاف، و بذلك تفتح هذه الطريقة أمام العقل فرصة للمقارنة و اختيار الطريق الصحيح و السليم، و السبل السليمة للنجاة بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٦﴾﴾.

وتلك هي أهم المقاصد و القضايا التي عمدت إليها السورة، و تناولتها بالشرح و التفسير و البرهان، و هي في كليتها تتلاءم موضوعاً و تترابط فكرياً لتكوّن وحدة متماسكة مع موضوعها الرئيس، برسمها أبعاداً من العلاقات المتنوعة، و المعاملات المختلفة التي بنيت بعضها على بعض في ترابط و شيع بين الله و عبده، و بين الإنسان و نفسه و أقربائه و الناس أجمعين، لتصل في النهاية إلى المنهج الواضح الذي يركز على (الإقرار بوحدانية الله تعالى و عبوديته، و التي تستلزم بدورها كما ذكرت سابقاً رحمته و هيبته لعباده الموحدين المخلصين).



## المبحث الرابع

موقع السُّورة بين السُّور و تناسبها لما قبلها و ما بعدها من السور







تتميز سور القرآن بالتناسب و التآلف فيما بينها، فكل سورة مرتبطة بالسورة التي تسبقها و التي تليها، سواء كان هذا الترابط ترابطاً لفظياً، أو ترابطاً معنوياً، أو بهما معاً، و هذا الترابط و هذه الوحدة تشمل جميع سور القرآن الكريم.

ومن أجمل ما قيل في أهمية هذا التناول: «قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة. و فصل الخطاب: أنها على حساب الوقائع تنزيلاً، و على حسب الحكمة ترتيباً و تأصيلاً، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبةً سورة كله و آياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة، و من المعجز البين أسلوبه و نظمه الباهر، و الذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شي عن كونها مكتملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، و هكذا في السور، يُطلب وجه اتصالها لما قبلها و ما سيقته له»<sup>(١)</sup>.

و يتبع طرائق العلماء و الباحثين في بيان وجه المناسبات بين سور القرآن نجدهم ينظرون إلى هذه العلاقة من زاويتين اثنتين<sup>(٢)</sup>:-

- الزاوية الأولى: موضوع كل سورة و الحلقات المشكلة له، و البحث عن الروابط الخفية، ووجه مناسبة أسبقية السورة للسورة اللاحقة من خلال موضوع كل منهما.
- الزاوية الأخرى: الآيات الخاتمة و الفاتحة، ووجه المناسبة بين بداية السورة و نهاية السورة السابقة لها.

والترتيب النزولي للسور القرآن أمر اجتهادي كما وضحنا ذلك سابقاً، لذلك ذهب كثير من العلماء إلى عدم الاعتداد به في إدراك أغراض و مقاصد السور القرآنية، ولهذا سأعتمد بالمعالجة في هذا المبحث للسورة الكريمة على ترتيب المصحف، إذ تأتي سورة مريم بعد سورة الكهف و قبل سورة طه.

١- نقله السيوطي عن ولي الدين الملوي، الإقتان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠١.

٢- بتصريف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٤٨.

## المطلب الأول: تناسب سورة مريم مع سورة الكهف.

تنتهي سورة الكهف بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

وتبدأ سورة مريم بقوله تعالى :

﴿كَهَيِّضَ ۙ ذُكِّرْ حَمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾

وإذا نظرنا في سورة مريم من حيث ارتباطها و تناسبها مع السورة السابقة لها، و هي سورة الكهف، فإننا نجد الترابط من عدة أوجه:

- سورة الكهف و سورة مريم مكيّتان تعالجان المواضيع نفسها.
- إن سورة الكهف قد اشتملت على قصص عجيبة و غريبة، شملت قصة أصحاب الكهف و قصة موسى و العبد الصالح عليهما السلام، و قصة ذي القرنين، و هي في مجملها قصص مثيرة و عجيبة، و كذلك نجد سورة مريم تحوي قصصاً لا تقل غرابة عن سابقتها، بل تزيد عليها في إثارة تعجب الإنسان و تفكره في قدرة الله سبحانه و تعالى، فبدأها بقصة نبي الله زكريا عليه السلام- و بشارته بيحيى عليه السلام بالرغم من كبر سن الأب ووهن عظمه و عقر امرأته و كبر سنهما.
- ثم اتبعها بقصة هي أشد غرابة، و هي قصة عيسى عليه السلام و كيف حملت به مريم العذراء الطاهرة و هي بكر لم تتزوج، ثم مجيء عيسى من دون أب، كما ذكرت القصة من الكرامات التي وهبها الله لعيسى و لأمه -عليهما السلام- ثم قصة إبراهيم عليه السلام و مجازاته من ربه الكريم بأن جعل النبوة في أبنائه من بعده<sup>(١)</sup>.

١- ينظر، أبو الفضل عبد الله محمد الصديق: جواهر البيان في تناسب سور القرآن الكريم، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٥٩، و الغرناطي: البرهان في ترتيب سور القرآن، تحقيق محمد شعبان، وزارة الأوقاف المغربية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (د-ط)، ص ٥٥١-٥٥٢، سارة بنت نجر: النظم القرآني في سورة مريم، ص ٣٤.

• كما قيل في وجه المناسبة بين السورتين: «إنه لما ختم سبحانه و تعالى سورة الكهف بذكر التوحيد و الدعاء إليه، افتتح هذه السورة بذكر الأنبياء الذين كانوا على تلك الطريقة، بعثاً على الاقتداء بهم و الاهتداء بهديهم»<sup>(١)</sup>.

• كما أننا نجد المناسبة بين قوله تعالى في آخر سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّثَلُّكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدُّكُمْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١﴾ و بين قوله تعالى في مطلع قصة مريم: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾، نجد المناسبة واضحة من حيث إن عيسى عليه السلام ليس إلا كلمة من كلمات الله التي لا تنفد<sup>(٢)</sup>، كما يقول سبحانه: ﴿يَتَّهَلَّ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَجِدُّكُمْ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكفى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾<sup>(٣)</sup>.

• ولقد جاء في نظم الدرر للبقاعي رأياً قد يعد من أفضل الآراء التي قيلت عن وجه التناسب بين السورتين؛ حيث جمع فيه أغلب الأقوال و أفضلها، فيقول: «و لما كان مقصود التي قبلها الدلالة على أن القرآن قيم لا عوج فيه، و به تمام الانتظام في نعمة الإبقاء الأول و دل على ذلك بأن ساق المسؤول عنه من القصص أحسن سوق، و كشف عن مخبأ القناع أبداع كشف - إلى غير ذلك مما خللته من بدائع الحكم و غرائب المعاني فاضحة لما ادعى لله سبحانه و ولداً، و ختمها بمثل ذلك من وصف الكتاب و التوحيد - النائي لقبول التعدد بولد أو غيره بكل اعتبار...»  
ابتدأ هذه بالكشف عن أغرب من تلك القصص؛ تحقيقاً لآية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيِّمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا مَجْبًا ۝١﴾<sup>(٤)</sup>، بسياق غير ما تقدم فيما مضى من السور، و جزئيات لم تذكر إلا فيها، مع عدم المخالفة لما مضى، تأييداً لأن كلماته لا تنفد، و عجائبه لا تعد ولا تحد، وأنه لو كان من عند غيره لاختلف، مع أن أهلها سادة الموحدين، و قادة المصلحين المتقين الذين عملوا الصالحات، و نفوا الشرك و شرعوا ذلك للناس، فرحمهم ربهم سبحانه، و كلهم ممن يعتقدده اليهود الأمرون لقريش بالسؤال عن أصحاب الكهف و ذي القرنين تعنتاً، أما من عدا عيسى عليه الصلاة و السلام فواضح، و أما عيسى عليه السلام فيعتقدون أنه ما أتى بعد وأنه سيأتي، و يكون الناس في أيامه على دين واحد تصديقاً لوعد التوراة الآتي بيانه، و ذلك على وجه مستلزم في أكثرها تنزهه تعالى عن الولد، و قدرته على البعث، و بدأها بقصة من خرق

١- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي و فضل الله الطباطبائي، دار المعرفة، ١٩٨٦م، ج ٦، ص ٧٧٢.

٢- ينظر، عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، دار الذكر، ج ٤، ص ٧٢.

٣- سورة النساء، آية ١٧١.

٤- سورة الكهف، آية ٩.





له العادة في الولد على وجه مبين أنه لا يحتاجه إلا فان حساً أو معنى يريد أن يخلفه فيما تعسر عليه فعله أو تعذر، و كان تقديم قصته أولى لأن التبكيت به أعظم لمباشرتهم لقتله و قتل ابنه يحيى عليه الصلاة و السلام، و إشارة إلى أن العمل الصالح المؤسس على التوحيد ضامن لإجابة الدعاء و إن كان فيه خرق العادة...»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يظهر لنا بعض الفتوحات الربانية لأصحاب هذه الآراء للدلالة على الارتباط التناسبي للسورة مريم بما قبلها.

## المطلب الثاني: تناسب سورة مريم مع سورة طه.

أواخر سورة مريم في قوله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدُنَّا ۗ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۗ﴾

وأوائل سورة طه في قوله تعالى:

﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَىٰ ۖ (٢) إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ (٣)﴾

وأما إذا نظرنا للتناسب الموضوعي بين سورة مريم و السورة التي تليها، و هي سورة طه، فإننا نتلمسه في عدة جوانب:

- سورة طه نزلت بعد سورة مريم.
- اشتراك السورتين في الافتتاح بالحروف المقطعة، وفي قدم النزول و كونهما مكيتين<sup>(٢)</sup>.
- إن آخر سورة مريم مرتبط بأول سورة طه، و متناسبة معها في المعنى و ذلك بأن «نزل القرآن الكريم باللسان العربي كان في سهولة و يسر و إبانة مع وضوح الدلالة، و جلال السياق و روعة الأداء، ليجد فيه العرب مجال التفكير، و فرصة التذكر، و مأخذ العبرة. ولقد جاء فيما قبل مختتم سورة مريم تأكيد أثر آياته البينات في النفوس فقال - جل و علا-: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

١- البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ج٤، ص ٥١٧-٥١٨.

٢- ينظر، سارة بنت نجر: النظم القرآني في سورة مريم، ص ٦٢.



بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿١٧﴾ أما تيسيره بلسانه - عليه السلام - فدليل على أن كل ذي إدراك يسمعه يعلم ما فيه، و يدرك مراميه و كان للمتقين الإخبار بما يسرهم، و للمكذبين الطاغين الإعلام بما يليق بتكذبيهم، و قوله تعالى: (قوماً لداً) أي ذوي جدال بالباطل أو خصومة شديدة مع الظلمة و الفُجْر و الصمم و الميل عن الحق. لقد ثبت أن في القرآن الكريم اليسر و التذكرة و شفاء النفوس، فجاء مفتتح سورة طه مؤكداً كل هذه المعاني بقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَذْكُرَكَ لَمَنْ يَخْشَى﴾ (١).

• و كذلك نجد ارتباط أول سورة طه بأواخر سورة مريم كما يوضح البقاعي بقوله: «علم أن المقصود من السورة - كما تقدم - تشریف هذا النبي الكريم صلى الله عليه و سلم بإعلامه بالرفق بأمته، و الإقبال بقلوبهم حتى يملؤوا الأرض كثرة، كما أنزل عليهم السكينة و هم في غاية الضعف و القلة، و حماهم ممن يريد قتلهم، و لين قلب عمر رضي الله عنه بعد ما كان فيه من الغلظة و جعله وزيراً، ثم حماه بعدوه، و تأمينه صلى الله عليه و سلم من أن يستأصلوا بعذاب، و بأنه يموت نبينهم قبلهم لا كما وقع للمهلكين من قوم نوح و هود عليهما السلام و من بعدهم - بما دل عليه افتتاح هذه بنفي الشقاء و ختم تلك بجعل الود و غير ذلك، و الداعي إلى هذا التأمين أنه سبحانه لما ختم ذلك بإهلاك القرون و إبادة الأمم بعد إنذار قوم اللدد، و لم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك، كان ربما أفهم أنه قد انقضت مدتهم، و حل بوارهم، و أتى دمارهم، و أنه لا يؤمن منهم - لما هم فيه من اللدد - إلا من قد آمن، فحصل بذلك من الغم و الحزن ما لا يعلم قدره إلا الله، لأن الأمر كان في ابتدائه، و لم يسلم منهم إلا نضر يسير جداً، فسكن سبحانه الروح بقوله: (ما أنزلنا) بعظمتنا (عليك) أي و أنت أعلم الخلق (القرآن) أي أعظم الكتب، الجامع لكل خير، و الدافع لكل ضير، الذي يسرناه بلسانك (لتشقى) أي يتعب قلبك بكونك من أقل المرسلين تابعاً بعد استئصال قومك و شقائهم بإنذارك (إلا) أي لكن أنزلناه (تذكرة) أي تذكيراً عظيماً (لمن يخشى)» (٢).

• و ربط بعضهم المناسبة بين الخاتمة و الفاتحة بالبشارة و النذارة الواردة فيهما، قال: «و مناسبة هذه السورة لآخر ما قبلها أنه تعالى لما ذكر تيسير القرآن بلسان الرسول صلى الله عليه و سلم أي بلغته، و كان فيما علل به قوله: ﴿فَاتَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٣) و التذكرة هي البشارة أو النذارة» (٢).

• و منهم من ربط بين قوله تعالى: (لتبشر به المتقين)، و قوله: (تذكرة لمن يخشى)، بتعليقه

١- أحمد عبد اللطيف بدر: الفتوحات الربانية في الربط بين السور القرآنية، دار التأليف، مصر، (د-ت)، (د-ط)، ص ٧٢.

٢- البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ج ٥، ص ٨.

٣- أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط (بهامشه النهر الماد)، دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م، ج ٦، ص ٢٢٢ - ٢٢٤. و ينظر: محمد فاروق الزين، بيان النظم في القرآن الكريم، ص ١٩ - ٢٠ - ٤١.





قائلاً: «إن أول هذه السورة متصل بالسورة السابقة و مناسب له في المعنى إذ ذكر في آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربي المبين، ليكون تبشيراً للمتقين و إنذاراً للمعاندِين، و في أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى»<sup>(١)</sup>.

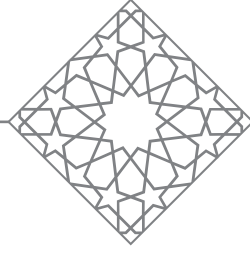
• ومن التناسب وجود إشارات من الارتباط القصصي بين السورتين، لأنه تعالى ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء و المرسلين، بعضها بطريق البسط و الإطناب كقصة زكريا و يحيى و عيسى عليهم السلام، و بعضها بين البسط و الإيجاز كقصة إبراهيم، و بعضها مجمل كقصة موسى عليه السلام، في حين أن ذكر في سورة طه قصة موسى التي أجملت فيما سلف، و استوعبها غاية الاستيعاب، ثم فصل قصة آدم عليه السلام التي لم يذكر منها في سورة مريم إلا اسمه<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يظهر لنا هذا الترابط و التناسب الموضوعي المتقن بين سورة مريم و السورة السابقة و اللاحقة لها، فيما يدل على ذلك التناسق العجيب و النظم المعجز الذي يتألف منه القرآن الكريم.

و الآن سأحاول الدخول إلى السورة نفسها لسبر أغوارها، و الكشف عن الهيكلية التي جمعت بين أجزائها و مقاطعها و قصصها في وحدة عضوية أعجب مما سبق..

١- أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، دار الفكر، ١٩٧١م، ج ٦، ص ٣٢.

٢- ينظر، الغرناطي: البرهان في ترتيب سور القرآن، تحقيق محمد شعباني، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (د-ط)، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.



## الفصل الثاني

### الهيكل المعماري للسورة ووحدته العضوية



٧٥





إن البنائية المحكمة للسورة القرآنية مطلب مقصود لأداء وظيفة النصوص ذات الأهداف و الغايات السامية، ف«لا تحسبن أن جودة السبك، وإحكام السرد، ليس أمراً بذي بال، ذلكم أن الكلام هو مرآة المعاني، فإذا اتسق واتحد و ترابطت أجزاءه، و تلاحمت أفراده، و أحكم سرده: صفت معانيه و انجلت، و إلا يكن الكلام كذلك فإن المعنى حتماً سيتبدد و ستتفرق أجزاءه كما تبدد الصورة على المرأة المشروخة.....، و رصف المعاني كرصف المباني يضعها البناء لبنة لبنة، و يضع بين اللبنة ما يربط بعضهما ببعض ثم يعود عليها كلها بما يغطي أحادها و يظهرها كالسبيكة الواحدة، ثم يكر أخرى يزيل ما خرج عن سمتها أو نبا عن حدها، و على قدر إتقانه تكون مهارته»<sup>(١)</sup>.

فإذا أدركنا ذلك في كلام البشر، فكيف بكلام خالق البشر، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و الذي أعجز الفصحاء و البلغاء بأن يأتيوا و لو بأية من مثله، نعم هو القرآن في سوره و آياته و بكل ما حواه من خصائص و مميزات في متانة سبكه و إحكام سرده، و أشكال هيكلية و أنواع وحدته، التي تغري كل قارئ أو سامع له بأن يتأمل فيه و يبحث عن سر هذا الجمال و هذا السبك.

ولقد أشار البقاعي إلى قول أحد المتأخرين<sup>(٢)</sup>: «الأمر الكليّ المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو: أنك تنظر إلى الغرض الذي صيغت له السورة، و تنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، و تنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب و البعد عن المطلوب، و تنظر إلى انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكليّ المهيمن على حكم الربط بين الجميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة».

وبهذا تتحقق الوحدة الموضوعية بالتناسب بين أجزائها و مقاطعها، و لكن هناك ما هو أكبر و أشمل، وهو ما ألمح له العلماء السابقون و المحدثون، من وجود تلك (الوحدة العضوية) الرصينة التي تضم جميع أجزاء السورة القرآنية بشكل فني بديع تحت هيكلية معمارية مميزة.

١- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط ١٥، ص ٤٠-٤١.  
٢- يقصد به: أبا الفضل محمد البجائي المالكي، شيخ الإمام البقاعي، و الذي نقل نصه كاملاً في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات و السور) المجلد ١، ص ١١.



فما معنى الهيكلية في السورة القرآنية؟ وما آليات الربط و الاتصال التي تجمع أجزاء السورة ككل؟ وكيف تمّ توظيفها؟

و ما الهيكلية التي برزت بها سورة مريم جليلة أمام العيان؟ وكيف تماسكت عضويًا و بنائياً داخل السورة؟ وهل لهذه الهيكلية المعمارية في السورة الكريمة أثر جمالي و فني على المتلقي؟ هذا ما سأتناوله بالبحث و الاستقراء و الاستدلال إن شاء الله...

وابتداءً قد تناولت سابقاً تعريف الهيكلية في التمهيد بكونها: «المرحلة التي يقطعها النص و المحطات التي يقف عندها، و الجهة التي يسير إليها إلى المحطة الأخيرة التي يقف عندها»<sup>(١)</sup> فإذا تصورنا ذلك استطعنا بعدها تحديد الأشكال الهيكلية التي تظهر فيها السورة، وهي تحديدات تعتبر محاولات و ملاحظات قيّمة و ثريّة لبعض الدراسين في العصر الحديث في هذا المجال<sup>(٢)</sup>.

حيث توصلوا إلى استنتاج هيئات خارجية للسورة تُفصح عن أشكال الربط في تعدد موضوعاتها و مدى خضوعها للوحدة العضوية، كما تسهم بنحو أو بآخر إلى تحديد الاستجابة الكلية تجاه النص القرآني و التي تهدف السورة إلى تحقيقها.

«و من هذه الأبنية:

- ١- البناء الأفقي، و هو أن تبدأ السورة بموضوع و تختتم بالموضوع ذاته عبر سلسلة من الموضوعات المتنوعة.
- ٢- البناء الطولي، و هو أن تبدأ السورة بموضوع تتدرج في عرضه، بحيث يختتم الموضوع في نهاية السورة.
- ٣- البناء المقطعي: و هو أن تطرح السورة جملة من الموضوعات، تنهي كل واحدة منها بآية أو أكثر تتكرر في المقاطع جميعاً، مثل: ﴿فَأَيُّ آيَاءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾<sup>(٣)</sup> «<sup>(٤)</sup>».

و أما بالنسبة لأهم آليات الربط و البناء الفنية التي تربط أجزاء هذه الهيكليات المتعددة في معمار هندسي واحد، فهي متنوعة و متعددة و قد تحتل وجهات نظر أخرى بالزيادة أو النقصان، غير أنني أورد ما وجدته متمثلاً في أغلب السور القرآنية و ما خطته أقلام الدارسين في نوعية العلاقات الفكرية و الفنية بين أجزاء السورة الواحدة، و منها آلية الربط:

١- محمود البستاني: المنهج البنائي في التفسير، ص ٣١-٣٤، وينظر لهامش صفحة ١٧ من البحث.  
٢- أمثال محمود البستاني، و دراساته القيّمة في: (عمارة السورة القرآنية و التفسير البنائي للقرآن الكريم).  
٣- سورة الرحمن، آية: ١٦.  
٤- محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، المكتب المركزي، مشهد، مجمع البحوث الإسلامية، ط ١، ١٤٢٢هـ، ج ١، ص ٩.

١- **ب (التمهيد)** الذي يتصدر السورة أولاً، وقد يتخلل مقدمتها، حيث يجمع عدة أفكار تطرح على نحو مجمل ثم تتصل لاحقاً، وفائدة هذه الطريقة لا تخفى عند الباحثين، بما تلقىه من تشويق وإثارة انتباه لدى المتلقي لبيان أهمية الموضوع المطروح منذ البداية، وما تثيره المقدمة كذلك من محاولة الربط بينها وبين ما طرح من موضوعات بعدها.

٢- **ب (التجانس):** أي التجانس بين موضوعات السورة الواحدة، من حيث تتناول السورة قسماً معيناً ثم انتقلها إلى قسم جديد، ولكن من خلال وجود عنصر تجانس بين هذين القسمين المتمثل في تجانس الموضوعات مع الأفكار والأدوات الفنية المستخدمة كعنصر القصة والصورة والإيقاع<sup>(١)</sup>.

٣- **ب (النمو العضوي أو التنامي):** ويقصد به أن الموضوع ينتقل أو يتحول أو يتطور من مرحلة إلى أخرى، ويقطع مراحل متنوعة حتى يصل إلى النهاية من خلال ما يغذيه النص من أفكار وموضوعات وحجج وأدوات فنية متعددة<sup>(٢)</sup>.

٤- **ب (السببية):** ويقصد بها أن الموضوعات في السورة تترتب أحدها على الآخر على نحو (السببية) بحيث يكون الموضوع (سبباً) للاحقه، و (مسبباً) عن سابقه<sup>(٣)</sup>.

٥- **ب (التداعي العضوي):** وهو الذي يحرك الأذهان تلقائياً للربط بين زمانين مختلفين يتداعي أحدهما من مجتمع سابق إلى مجتمع لاحق، وهذا يبرز جلياً في القصص القرآنية لقصص الأنبياء والرسل والأقوام السالفة مع مجتمع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أو التداعي الذي يمثله الشخص عن نفسه حينما يقرأ السورة القرآنية فتطرح قضايا وأموراً تكون واقعة سابقاً أو ستقع في المستقبل أو في الآخرة، فيُعقد التداعي بشكل تلقائي في ذهن المتلقي من خلال أخذ العبرة والعظة مما عُرض من أمثال وقصص وأحوال الآخرين.

وقد يُعد ما سبق ذكره من الآليات نوعاً من أنواع العلاقات التي تُوظف من أجل خدمة النص وتلاحم أجزائه ومقاطعته، وسأعمل على تتبع هذه الآليات أو العلاقات من خلال دراستي لهيكلية سورة مريم في هذا الفصل إن شاء الله.

وبعد تأملنا لسورة مريم نجدها برزت في بنائية هيكلية واضحة ترتبط فيما بينها بوحدة عضوية وشيخة سأتناولها على النحو الآتي:

#### ● المبحث الأول: مقدمة السورة (الاستهلال).

١- بتصرف، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج ١، ص ٩.

٢- بتصرف، المرجع السابق، ص ٩، ينظر، محمود البستاني: دراسات في علوم القرآن، ص ٤٩٨.

٣- محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ص ٩.



• المبحث الثاني: وسط السورة، والمُنقسم إلى:

- المطلب الأول: البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية.

- المطلب الثاني: البنية الهيكلية الخطابية ووحدتها العضوية.

• المبحث الثالث: جسور الانتقال (حسن التخلص).

• المبحث الرابع: خاتمة السورة (الانتهاء).


و سأعرض لكل جزء من هذه الأجزاء بالشرح و التفصيل لإدراك تلك الروابط الموضوعية و العضوية التي ربطت جميع أجزاء السورة في بناء معماري محكم.

و أوضح هذه الهيكلية المعمارية للسورة الكريمة مجملة في الشكل الآتي:





## (الهيكل المعماري لسورة مريم وقصصها)

<p>التقابل بين البنيتين</p> 	<p>عبد الله المحضين ورحمة الله الرحمة وهياته إليهم</p>	<p>المقدمة</p> <p>الحروف المقطعة (كهيعص)</p> <p>(ذكر رحمة ربك عبده زكريا)</p>	<p>نصف السورة تقريرا</p>	
		<p>قصة زكريا ويحيى عليهما السلام</p>		<p>القسم القصصي وتعليقاته</p>
		<p>قصة مريم وعيسى عليهما السلام</p> <p>قصة إبراهيم عليه السلام ووالده</p> <p>قصة موسى عليه السلام</p> <p>قصة إسماعيل عليه السلام</p> <p>قصة إدريس عليه السلام</p>		
<p>حلقة الوصل والاتصال بين القسمين (٥٨ - ٥٩)</p>		<p>نصف السورة تقريرا</p>		
<p>خطاب الله للمعاندن والمشركين ومن يقابلهم من المتقين</p>	<p>١- البنية الدلالية الأولى (التقابل بين معالم الرشد ومعالم الغي) وجزءاتهما.</p> <p>٢- البنية الدلالية الثانية (الرد على أمهات الكفر المسيطرة على البشرية) :</p> <ul style="list-style-type: none"> <li>- بنية دلالية صغرى وتضمنت ثلاث ومضات قصصية عن ( منكر البعث واليوم الآخر والمستهزئين به ) .</li> <li>- بنية دلالية صغرى وتضمنت ومضة قصصية عن عبدة الأوثان والمشركين .</li> <li>- بنية دلالية صغرى وضمت ومضة قصصية عن القائلين باتخاذ الله ولدا والتشنيع بهم .</li> </ul>		<p>القسم الخطابي (وما فيه من ومضات (قصصية سردية قصيرة)</p>	
	<p>الخاتمة : (التبشير والإنذار) رسالة القرآن الخالدة.</p>			





# المبحث الأول

مقدمة السورة (الاستهلال)



٨٣

المعماري القصصي في سورة مريم





**الاستهلال** يأتي بمعنى الابتداء، يقال: استهلت السماء، و ذلك في أول مطرها، و حسن الابتداء و الاستهلال: أن يبتدئ الشاعر أو الكاتب بما يدل على الغرض، و يجذب الانتباه به، و يأسر المتلقي سامعاً أو قارئاً له، مع حسن سبك، و عذوبة لفظ، و صحة معنى<sup>(١)</sup>.

وعن أثره في السامعين يقول أبو هلال العسكري: «وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، و لهذا يقول الله عز وجل: ألم، حم، و طس، و كهيعص، فيقرع أسماعهم بشي بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده»<sup>(٢)</sup>.

وعند النظر في سورة مريم، نجد مطلعها يتكون:

### أولاً - من خمسة أحرف مقطعة في قوله تعالى: {كهيعص}<sup>(٣)</sup>.

أما المراد بهذه الأحرف المقطعة فقد اختلف العلماء فيها على قولين:

- الأول: أن هذا علم مستور، و سر محجوب استأثر الله به، و لهذا قال الصديق رضي الله عنه: «في كل كتاب سر، و سره في القرآن أوائل السور.

قال الشعبي: إنها من المتشابه، نؤمن بظواهرها و نكل العلم فيها إلى الله عز وجل»<sup>(٤)</sup>.

و كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن لكل كتاب صفوة، و صفوة هذا الكتاب حروف التهجي»<sup>(٥)</sup>.

١- ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ م، ط ١، ص ٣٢٢. و عبد الفتاح أحمد لاشين: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، (د، ط)، ص ١٧٧، و إنعام عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ط ١، ص ٤٠-١٧، أبو العباس عبد الله بن معتز: البديع، تحقيق محمد خفاجي، دار الجيل، (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م)، ط ١، ص ١٧٦.

٢- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، حققه وضبطه نصه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ط ٢، ص ٤٩٦.

٣- و هي تفرد بهذا العدد من الحروف متصلة، و لا يشاركها فيها إلا سورة الشورى التي ابتدأت بقوله تعالى (حم عسق)، و التي تختلف عنها بعدم تواصل حروفها، و انفراد كلا منهما بأربعة حروف و اشتراكهما بحرف العين.

٤- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٧٣.

٥- بكرى الشيخ أمين: التعبير القرآني، ص ٦٨.



• الثاني: أن لهذه الفواتح معنى مقصوداً معلوماً، ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى، خاصة أننا قد أمرنا بتدبر القرآن الكريم والاستنباط منه، وهذا لا يكون إلا بفهم معانيه وإدراكها<sup>(١)</sup>.

وقد تعددت الأوجه والآراء في بيان المعنى المقصود بهذه الفواتح، أذكر بعضها على سبيل المثال:

١- إنها «فواتح للسور، كما يقولون في أول القصائد بل ولا بل، وقيل هي تنبيهها كآلاً، وأما التي يستفتح بها كلام العرب للتنبيه وإنما عدل عن الألفاظ المشهورة في التنبيه، لأن القرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتي بألفاظ تنبيه لم تعهد، ليكون أبلغ في قرع سمعه»<sup>(٢)</sup>، والغرض هو: «أن قرع السمع في أول الكلام بما يعي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب، دافع لها أن تصغي وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالاً»<sup>(٣)</sup>.

٢- كما ورد «أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه...، فأنزل الله هذا النظم البديع؛ ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفتدة»<sup>(٤)</sup>.

٣- كما قيل: هي أسماء للسور لتمييزها، فتكون علامة لها تميزها عن غيرها من سور القرآن الكريم<sup>(٥)</sup>.

٤- وقيل: إن المراد بهذا المطلع وأمثاله إشعار العرب أولاً بأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، أي حروف يعرفونها، ومن بينها الحروف التي يتكون منها مطالع بعض السور، فلا يذهبون بظنهم أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة من مثله، لأنه يتألف من ألفاظ وحروف يجهلون، إن كل ما جاء به القرآن الكريم من ألفاظ هو مما يعرفه العرب ولا يخفى عليهم، ولكن جاء من عندهم معجزاً متحدياً به أمثال هؤلاء فيقودهم إلى الإيمان والتصديق بهذا الكتاب، حيث يتوصلون بعد النظر فيه إلى أن القائل له ليس أحداً من البشر<sup>(٦)</sup>، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾<sup>(٧)</sup>.

٥- ومن المعاني ما روي عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما أنه قال: «كل حرف منها مأخوذ

١- ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٧٣، وبكري الشيخ أمين: التعبير القرآني، ص ٦٨.

٢- جلال الدين السيوطي: قطف الأزهار في كشف الأسرار، تحقيق أحمد الحمادي إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ط ١، ج ١، ص ١٥٩.

٣- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ط ٢، ج ١، ص ٢٢٢.

٤- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٧٥.

٥- ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٧٤. ومحمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ص ٢٢٢.

٦- بتصرف، حسن محمد باجوده: تأملات في سورة مريم، دار الاعتصام، (د، ت)، (د، ط)، ص ٢١.

٧- سورة الإسراء، آية ٨٨.

من اسم من أسمائه سبحانه»<sup>(١)</sup>.

٦- ومنها كذلك: أن المقصود من هذه الأحرف «بيان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، و من ناحية أنه ينطق بأسامي الحروف مع أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب، والمعروف أن النطق بأسامي الحروف من شأن القارئ وحده، لا سبيل للآمي إلى معرفتها ولا النطق بها، فإتيانه بها و ترديده لها، دليل مادي على أنه لا يأتي بهذا القرآن من تلقاء نفسه إنما يتلقاه من لدن حكيم عليم»<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة للآراء في سورة مريم فإنني أجد عدة معان لها في طيات كتب التفسير ذكر و تأويل، أذكر بعضاً منها على سبيل المثال:

- فلقد «روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في [كهيعص]: أن الكاف من كاف، و الهاء من هاد، و الياء من حكيم، و العين من عليم، و الصاد من صادق، ذكره بن عزيز القشيري عن ابن عباس، معناه كافٌ لخلقه، هاد لعبادته، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده، ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدي ومجاهد و الضحاك»<sup>(٣)</sup>.

- و من المحاولات الجديدة<sup>(٤)</sup> لتفسير الحروف المقطعة في فواتح السور، تلك التي توضح وجود علاقة تناسب بينها و بين موضوعات السورة عامة، باعتبار الحروف أسماء و أدوات لغوية لها معان ترمز إلى مضامين السور، فتعد بذلك من براعة الاستهلال للتناسب الواقع بينها و بين مضمون السورة.

من ذلك تفسيرها على النحو الآتي: «كاف: في» لسان العرب «بغير كاف: أكلت أسنانه و قصرت من الكبر حتى كادت تذهب. و معنى هذا أن أدوات الفعل قائمة و موجودة لكنها قاصرة. و في» كاف «رمز إلى قصة زكريا، التي جاءت في مطلع هذه السورة، و زكريا شيخ بلغ من الكبر عتياً، و امرأته عاقرة، و كان يرغب في إنجاب الولد. لكن أداة الإنجاب لديهما قاصرة، و مع ذلك وهبه الله ولداً.

ها: في اللغة: هاء الأمر: تأهب له و أعد نفسه لمزاولته و فيها أيضاً: كجاء، و معناه التلبية. و هي في فواتح السور ترمز في سورة مريم إلى قصة مريم العذراء التي استبد بها الخوف من أسنة الناس، و إلى استجابة الله و تبديل خوفها أمناً.

١- ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٧٣.

٢- ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٢٢.

٣- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب، القاهرة، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م، (د، ط)، ج ١١، ص ٧٤.

٤- قام بهذه المحاولة الباحث بدري عبد الجليل في كتابه بعنوان «براعة الاستهلال في فواتح القصائد و السور» وهو كتاب قد طبع مؤخراً، ولم يتسن لنا الوقت للوصول إليه و تناوله بالنظر.



يا: في اللغة: تنبيه و تذكير، وهي في النداء و الأمر، وقد تكرر الأمر بالتذكير في سورة مريم أربع مرات متوالية، تقدمت الإشارة إليها.

عين: في اللغة: حقيقة الشيء. و عين كل شيء خياره. و في السورة إشارة إلى خيار الخلق: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَةَ بِلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ أَإِنْتِ الْرَحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا ﴿٥٨﴾﴾.

صاد: من التصدي، و لذلك - يقول الباحث -: «جاء عنواناً لسورة كلها تخاصم و تصديات (يعني سورة ص)، و ترمز في سورة مريم إلى الخصومة القوية، و المعارضة الشديدة للذين قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٥٨﴾﴾، فقيل لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٥٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَسِرَ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٦٠﴾﴾»<sup>(١)</sup>.

و في نهاية المطاف لهذه الآراء التي عرضت بعضها، نفيد أن هذا الأسلوب من الفواتح لم يكن معروفاً عن العرب وقت نزول القرآن الكريم، و أن أقوال العلماء فيها لا تستند إلى دليل من الكتاب و لا من السنة، و ليس لها شاهد صحيح في لغة العرب، لذلك لا يصح أبداً أن يجزم أحد بمعناها لقصور العلم البشري عن الوصول لكنه معانيها.

ثانياً: و لتتضح لنا الرؤية أكثر يمكننا الإشارة إلى علاقة هذا الاستهلال بالآية التي تليه في قوله تعالى: ﴿ذَكَرْكُمْ رَبُّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ﴿٢﴾﴾.

- فما السر في تصدر هذه الآية في السورة ؟
- و ما الأفكار الأساسية التي احتوتها و أهلتها لهذا الموقع ؟
- و ما علاقتها كبنية صغرى بالبنية الأخرى في السورة ؟

**هذا ما سأجيب عليه في السطور الآتية:**

إن الغالبية في السور القرآنية يمكننا أن نتنبأ بموضوعاتها من خلال مقدماتها التي تستهل السور بها، حيث تُطرح المقدمة بنحو مجمل مقاصدها و أفكارها، كما أن هذا الإجمال في البداية سرعان ما ينحل إلى تفصيلات فيما بعد، أو تكرر في مواقع متقاربة أو متقابلة من النص<sup>(٢)</sup>.

لذلك لا بد من التعرف على المفردات المكونة للآية الكريمة ففي تفصيلها فائدة جمة و زاد قيم

١- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن (دراسة في النظم المعنوي و الصوتي) منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل و أطروحات رقم ١٩، نقلاً من كتاب: براعة الاستهلال في فواتح القصائد و السور لبديري عبد الجليل.

٢- بتصريف، محمود البستاني: دراسات في علو القرآن الكريم، مدينة العلم، إيران، ط ١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٧ م، ص ٤٥٤.



في الإعجاز البلاغي والنظمي تنبه إليه العلماء قديماً<sup>(١)</sup>.

فها هو الخطابي يقول: «اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا بدل مكانه غيره، جاء منه إما تبدل في المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب.. والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن كانتا قد تشتركان في بعضها..»<sup>(٢)</sup>.

كما أن لهذه الألفاظ ارتباط بالسياق وثيق يبرز من خلالها أحكام الاتصال والتناسق والتآلف والنظم البديع، وهذا ما تنبه له عبد القاهر الجرجاني بقوله: «وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا - لفظة متمكنة ومقبولة - وفي خلافه - قلقة ونايبة ومُسْتَكْرَهة - إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنُّبُو عن سوء التلاوم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفظاً لثانية في مؤداها»<sup>(٣)</sup>.

وبالتأمل نجد أن الآية المتصدرة للسورة الكريمة مكونة من أربعة ألفاظ، هي: (ذكر - رحمة - رب - عبد).

### أ- لفظ (ذكر):

تكرر لفظ الذكر ست مرات في السورة، المصدر (ذكر) مرة واحدة في آية الافتتاح، وفعل الأمر (اذكر) خمس مرات في بداية قصص السورة، وهذا ما تميزت به هذه السورة، فهي تعد أول سورة ورد فيها لفظ (و اذكر) في قصص الأنبياء عليهم السلام<sup>(٤)</sup>.

و الذكر بالكسر: الحفظ للشيء، و الشيء يجري على اللسان و الصيت.

و الذُّكْرَة بالضم: الثناء، و الشرف، و الصلاة لله تعالى و الدعاء، و الكتاب فيه تفصيل الدين و وضع الملل<sup>(٥)</sup>.

١- يدخل هذا تناول للمفردات اللفظية للآية الكريمة في الفصل الثالث من البحث تحت مبحث الأدوات الجمالية والأسلوبية، ولكن لضرورة اقتضاها السياق ارتأينا تقديمه في هذا الموقع.

٢- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني و الخطابي و الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، (د، ت)، ط ٤، ص ٢٩.

٣- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٩.

٤- بتصريف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٧٦. وينظر، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، راجعه: محمد عتياني، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ط ١، مادة (ذكر) ص ١٨٤.

٥- ينظر، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة ذكر، ٣٥٧ - ٣٥٨.





و لفظ الذكر يطلق و يراد به استحضار ما يحفظ من معارف، و تارة يراد به حضور الشيء القلب و عليه فالذكر أنواع<sup>(١)</sup>:

- ذكر باللسان، كقوله تعالى: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>.
- ذكر بالقلب و اللسان، كقوله تعالى: ﴿ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ وَأَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾<sup>(٣)</sup>.

والذي ينتزل من هذه المعاني على الذكر في آية المطلع هو ما يراد به الكتاب الذي فيه تفصيل الدين و الملل، و ذلك لاشتماله على المدلول اللساني و القلبى للذكر، وذلك لأننا إذا اعتبرنا ب (القول الراجح)<sup>(٤)</sup> في كون (ذكر) في الآية خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر، فيكون المعنى: هذا الكتاب فيه ذكر رحمة الله تعالى التي أنعم بها على عبده زكريا عليه السلام<sup>(٥)</sup>.

«ولما نزلت السورة في جو تملؤه الأحقاد و الضغائن المعلنة على النبي صلى الله عليه و سلم، مع قلة الإتيان، و اتساع دائرة الإنكار و الإيذاء، الحال الذي يتطلب معه التذكير بالرحمة و السرور و التسلية من أرحم الراحمين، و لما شابه حاله هذا حال عبد الله زكريا عليه السلام الذي ألمَّ به اليأس من الولد و بلغ تخوُّفه على أمر الدعوة إلى عبادة الله من بعده مبلغاً عظيماً، ذكره ربه عزوجل بأنه لن يتخلى عنه و يغمره برحمته التي غمر بها عبده زكريا و غيره من المصطفين عليهم السلام من قبله.

ولتحقيق هذه الغاية جاء نظم تأليف هذه الآية بأسلوب بديع موجز، مع ما يحمله لفظ «ذكر» من الليونة و الهدوء اللذين يتناسبان مع عرض ورود الرحمة في هذه الآية من تحقيق الطمأنينة و السكينة في نفس النبي - صلى الله عليه و سلم»<sup>(٦)</sup>.

## ٢- لفظ (رحمة):

تكرر هذا المصدر و مشتقاته في السورة عشرين مرة، و اسم الجلالة «الرحمن» ست عشرة مرة، و هو ما تفردت به السورة و تميزت به عن باقي السور الكريمة، وجاءت دالة على عدة ألفاظ و تراكيب

- ١- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ط٤، مجلد ٥، ج ٦، ص ٣٦.
- ٢- سورة الأنبياء، آية ٥٠.
- ٣- سورة البقرة، آية ٢٠٠.
- ٤- حيث أعرب (ذكر) بثلاثة أوجه:  
- هو خبر مبتدأ محذوف، أي «هذا ذكر».  
أو مبتدأ و الخبر محذوف أي: «فيما يتلى عليك ذكر».  
أو اعتبار «ذكر» مفعولاً مطلقاً نائباً عن عامله بمعنى الأمر، أي اذكر ذكراً، ثم حول عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات و يرجحه عطف «و اذكر في الكتاب مريم» و نظائره، ينظر: عمر محمد عمر باحاذق، سباحة إيمانية في رحاب سورة مريم، دار المأمون للتراث، دمشق، (د، ط)، (د، ت)، ج ١، ص ٢٩، و هبه الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سوريا)، ج ١٦، ص ٤٩. ينظر، ابن عاشور: التحرير و التنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ٦١.
- ٥- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٧٦ - ٧٧.
- ٦- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٧٧.

تستمد منها معناها مثل الهبة والحنان، والبر والسلام، والحفاوة والود وغيرها كثير.

ولقد مُيز استعمالان اثنان للرحمة، ف«الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلاناً. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإحسان، ومن الآدميين رقة وتعطف.... فركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتقرّد بالإحسان»<sup>(١)</sup>.

وكما نلاحظ أن «صفة الرحمة التي أرادت السورة بيانها وإثباتها لله عز وجل كان ورودها شاملاً لجميع الخلق دون استثناء، إلا أن الاستعمال الاصطلاحي لمشتقاتها في السورة يوحي بوضع المصدر (رحمة) في موضع ذكر نعم الله وفضله على أنبيائه ورسله وخلفهم من المتقين، والمشتق (الرحمن) في مواضع الدعاء والعبادة، والوعد والوعيد، أي في بيان وإبراز هذا الاسم لله تعالى الذي طالما أنكره مشركو العرب»<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - لفظ (رب):

معناها: المالك والخالق والصاحب والمصلح للشيء<sup>(٣)</sup>، والرب بمعنى التربيّة، وهو إنشاء الشيء حالاً فحلاً إلى حد التمام، يقال ربه، ورباه، وربيه.... و(الرب) مستعار للفاعل ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات.... ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة، والربوبية مصدر يقال في الله عز وجل<sup>(٤)</sup>.

والله تعالى هو رب كل شيء أي: مالكة ومستحقه، له الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له... والعباد مربوبون له تعالى بالاستسلام والخضوع وعبادته وحده، لاحتياجهم لإحسانه، وافتقارهم لنعمه وفضله<sup>(٥)</sup>.

«فرينا جل ثناؤه السيد الذي لا شبيه له، ولا مثل في مثل سؤوده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر»<sup>(٦)</sup>.

ولقد تكرر لفظ «رب» في هذه السورة ثلاثة وعشرون مرة، مما دل على استشعار معنى الربوبية والتوحيد له، وتبعات هذا الاستشعار من إسباغ الله على أصحابها النعم باعتباره المصلح لشؤون خلقه والمدير لهم.

١- ينظر، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، رحم، ص ١٩٧-١٩٨.

٢- حده سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٧٩.

٣- ينظر، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٨٢.

٤- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، رب، ج ٦، ص ٦٩، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، رب، ص ١٩٠.

٥- حده سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٨٠.

٦- المرجع السابق، ص ٨٠، ينظر، الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، ١٩٨٢م، (د، ط)، ج ١، ص ٧٨.





## ٤ - لفظ (عبد):

والعبد هو: الإنسان، حرا كان أو رقيقا، يُذهب بذلك إلى أنه مريبوب لباريه جل في علاه، وأصل العبادة الطاعة والخضوع<sup>(١)</sup>، وهذا المعنى يوضحه قوله تعالى في أواخر سورة مريم: ﴿إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١١﴾﴾.

كما أن إطلاق لفظ العبد يؤدي بالمرء إلى استشعار حقيقة بشريته المقتضية للفقر والحاجة لرب العالمين، كما أن إضافة الضمير الهاء في «عبد» العائد على الرب؛ يقتضي الخضوع والذل والافتقار والضعف والحاجة إليه عز وجل، وهذه درجة رفيعة ومرتبة عليا، لا يصل إليها غالباً إلا المصطفين من عباده، ولهذا جاء تخصيص أكثر من نصف السورة الأول لهؤلاء المصطفين<sup>(٢)</sup>.

وبهذا العرض السريع لمعاني مفردات الآية الكريمة: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٤٠﴾﴾ تتضح لنا أمور عدة، هي:

١. للافتتاحية في السورة خاصة مميزة في تركيز للأفكار والموضوعات، وحشدها في معان عميقة، تتفرع تدريجياً لتتسحب في وشائج عضوية تمتد لمساحات واسعة في السورة بأكملها، وهو الذي سنلاحظه بالدراسة والتفصيل في المباحث اللاحقة إن شاء الله.
٢. يُعد المطلع هنا مقدمة ذات (بنية كلية) مكونة من ألفاظ متلاحمة ومتماسكة، ومعان ذات ترابط فكري قوي، يجتمع الكل فيها ليعطي المتلقي هيئة تركيبية مميزة، لها وظيفتها الدلالية والجمالية في آن واحد.
٣. موقع الآية بعد الحروف المقطعة لتدل دلالة قوية على عظيمها وأهميتها الكبرى بالنسبة لباقي الآيات، كما لها القدرة على إثارة الانتباه وجذب العقول والقلوب بشكل لا يدرك إعجازه غير الله تعالى، وذلك نتمسه في استهلال السورة بآية هي بالأصل تقع وسط وقائع وحوادث قصة زكريا عليه السلام، مما دل على احتوائها على قضية كبرى ومقصود عظيم، تدور حوله آيات السورة للكشف عن المحور الرئيسي فيها، وهو (التوحيد والعبودية المؤديان إلى وجوب رحمة الله ورضاه)، والعبودية والرحمة متلازمان، يتوقف وقوع أحدهما بوقوع الأخرى، فعرضهما الله تعالى بأسلوب بديع ومؤثر.
٤. تشير آية المطلع إلى (أهمية التذكير) ودوره البارز في عرض القضية المطروحة في السورة، وبيان واضح لكيفية نشر رسالة الأنبياء والدعاة ومن سار على نهجهم واقتدى بهم، فالهدف واحد وهو عبودية الله تعالى وتوحيده وإتباعه، والطريقة واحدة وهي التذكير.

١- ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٩، ج ١٠، عبد، ص ٨-٩-١٠، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، عبد، ص ٢٦٨.

٢- ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٨١.

٥. كما أن التذكير يحتوي على دالتين واضحتين وهما (التبشير والإنذار) أو بمعنى آخر (الترغيب والترهيب)، أي التبشير برحمة الله تعالى ورضاه و عفوهِ على المتقين الصالحين، و الإنذار بالغضب والعقاب وسوء الخاتمة للعاصين والمُشركين، و حيث أن القرآن منزل من خالق العباد و أعلمهم بجوائجهم و قصورهم، تقدم التذكير بالرحمة التي تحمل دلالته الواسعة.

٦. إن تنكير لفظتي (الذكر و الرحمة) في الآية الكريمة، لدلالة لطيفة على العموم و الشمول، أي (ذكر) واسع بالبصر و البصيرة، و ذكر باللسان و القلب، ذكر شامل جامع لكل أبعاده، حدوده، و (رحمة) عظيمة واسعة في الدنيا والآخرة، لا يعلم كنهها ولا حقيقتها إلا الله تعالى. كما أننا نجد الآية من خلال هاتين اللفظتين تطلق عنان التفكير و التخيل لأبعاد هذا الذكر و هذه الرحمة على الخلق، حيث اختارهما الله عز وجل ليكونا في مقدمة جميع الأفكار المطروحة، فيتحقق بهذا ذلك الأسلوب الراقى في الترغيب و التشويق و الإغراء للاستغلال بهما منذ الوهلة الأولى.

كما أنهما تثبتان أهميتهما للبشر، بإضافتهما إلى عبد الله زكريا عليه السلام، فإن كان هذا حال النبي الكريم زكريا و حال الأنبياء كما في القصص التالية من الحاجة لتأييد الله تعالى من تذكيره لخلقه ورحمته لهم، و هم أقرب الخلق و أخشاهم له، فكيف بحال غيرهم من البشر أصحاب الزلل و الخطأ، هذا بالطبع ما سنلاحظ امتداد و شأجه و عضويته في مقاطع السورة، و قصصها إلى أن تصل لخاتمتها.

٧. تفتح آية المطلع (باب الرجاء و الرغبة، و باب المغفرة و التوبة) بإعطاء العباد الأمل المتعلق برحمة الله و كرمه، كما تعطيههم الإشارة إلى أن الجزء من جنس العمل، فيرتسم الطريق القويم لدى المتلقي محتفظاً بهيئته و إشارته منذ البداية فيعرف أصل الحقيقة و طريق الهداية.

٨. وقد يحتمل أن يكون المراد بالرحمة التي ذُكر بها زكريا عليه السلام وجهين:

- الوجه الأول: أن يكون رحمة الله على أمته تلك بأن هداهم إلى الإيمان و الطاعات.
- الوجه الثاني: أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، و على أمته بسبب كونه شُرح له طريقه في الإخلاص و الابتهاال في جميع الأمور<sup>(١)</sup>.

٩. للضماثر في آية الاستهلال دلائل قوية على جمعها زمانين متباعدين واقعاً، و متقاربين حالاً، فالآية تخاطب النبي محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (ربك) و هذا يدل على كرامة الله للنبي عليه السلام، و تذكير له بقصص الأنبياء السابقين عليهم السلام، و تسليية قلبه مما يجده و يعانیه من قومه في حاضره من صدود و تكذيب و أذى.

١- بتصريف، الرازي: التفسير الكبير، المجلد ١١، ج ٢١، ص ١٥٣.





كما نجد كذلك ضمير الغائب في لفظ (عبده) الذي أضافه الله تعالى إليه للدلالة على شخصية زكريا عليه السلام و سموها في ذلك الزمان الغابر، فتزيد من وصفه بالعبودية رفعة و تشرifaً «لأن مقام العبودية هو أعلى المقامات و أشرفها»<sup>(١)</sup>.

كما أن هذين الزمانين ينسجان خطين متوازيين يمتدان من أول السورة إلى منتهاها، ليشكلا أساساً زمنياً للمعمار في السورة و القصص بالشكل و المضمون و يقدمان وظيفية هندسية فائقة في تلاحم لبنات البناء العام للقصص و السورة الكريمة ككل.

و كما تعكس صورة تلك الخيوط الخفية ذات الروابط العضوية التي جمعت البنيات الصغرى في الآيات تحت البنيات الكبرى في نظم المقاطع و القصص.

١٠. كما أننا نجد التناسب بين مطلع السورة التي بدأت بمعجزة لفظية و الآية التي تلتها مباشرة و التي تمثل معجزة معنوية، وهي ولادة يحيى عليه السلام من أبويين عاجزين عن الإنجاب، ثم ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، و كلها معجزات تثبت القدرة الإلهية و الوحدانية المطلقة.

١١. و نجد كذلك تناسباً بين المقدمة و الخاتمة متقن، و الذي سأؤخر الحديث عنه لأتناوله في مبحث لاحق عند استقرائي لخاتمة السورة الكريمة.

١- صالح الخالدي: القصص القرآني عرض وقائع و تحليل أحداث، دار القلم، دمشق، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (د-ط)، ص ١١٥.



## المبحث الثاني

(وسط السورة)

- البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية
- البنية الهيكلية الخطابية ووحدتها العضوية









إن اتحاد مقاطع السورة و أجزاءها هو الأساس في تكوين البنى الكلية الكبرى للسور القرآنية، بوصفها بنايات صغرى متضامة مع بعضها البعض تتحد لتستكمل الهيكلية الأساسية للسورة الكريمة.

وللتوغل في أغوار هذه البنيات المتراسة و المتلاحمة، لابد من معرفة الأجزاء المكونة للسورة الكريمة، ومعرفة المساحات الفنية المبسطة فيها، و ما حوته من مضامين فكرية كان لها أبلغ الأثر في رسم خطوطها و علاقاتها العضوية و هيئتها الخارجية المكونة لهذه المعمارية الهندسية الفريدة.

فبعد تأملي لمقاطع سورة مريم أجدها متكونة من بنية قصصية تمثلت في نصف السورة تقريباً، و بنية خطابية تخللتها بعض الومضات القصصية السردية التي امتدت لآخر السورة، مع ما انطوت عليه البنى من تعقبات و تذييلات جليلة.

ومع أولى هاتين البنيتين أتناولها في المطلب الآتي:

## المطلب الأول:

### (البنية الهيكلية القصصية و وحدتها العضوية)

بداية هناك أسئلة تطرح نفسها في هذا القسم هي:

- ما المنهج السليم لدراسة القصة في القرآن؟
- ما وظيفة العنصر القصصي في السورة القرآنية؟ و هل تتأثر القصة القرآنية بالأغراض الدينية؟
- ما أهم القصص التي احتوتها سورة مريم؟
- وما سر انتقاء أو اقتطاع جزء معين من القصص دون الباقي ليوظف في مضمون السورة؟
- وما سر ذلك الترابط و التلاحم الفكري و الجمالي الذي جمع بين القصص من جانب و بين

## القصص و المقاطع الأخرى في السورة ؟

- ما أهم آليات الربط المعمارية التي وُظفت لخدمة هذا التلاحم ؟ وكيف تم توظيفها ؟  
سأحاول بواسطة الأسئلة السابقة طرق أبواب هذه البنية القصصية بالدراسة والتطبيق.

## أولاً: لكي يتضح لنا (منهج القصة القرآنية) في السورة لا بد من الإشارة إلى حقيقتين:

- **حقيقة وحدة السور في القرآن:** فإن كل سورة في القرآن تمثل وحدة متكاملة كما وضع لنا ذلك سابقاً، لها هدف واحد و وسائل متعددة، و ذات شخصية واضحة و سمات متميزة، موضوعاً و تعبيراً، تعالج كل سورة موضوعاً واحداً أو عدة موضوعات، و القصة هي إحدى وسائلها التي تعالج بها موضوعاتها علاجاً فنياً<sup>(١)</sup>.

- **حقيقة التوافق بين القرآن الكريم و حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم:** وهو أن القرآن نزل منجماً في ثلاثة و عشرين عاماً، مطابقاً لحياة و ظروف النبي الكريم، موجهاً لخطوات الحركة النبوية متضمناً لعناصر التربية الخلقية، ملبياً لحاجة المجتمع و الدولة التشريعية، فمنه مكي أنزل في العهد المكي و منه مدني أنزل في العهد المدني، فمنهج القرآن بهذا ارتبط بمراحل التنزيل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، و بالتالي كان لا بد من أن تستمد القصص القرآنية منهجاً منه، فهو الذي يحدد موضوعها و يحدد وظيفتها و هدفها، لأن كل قصة إنما جاءت لتعالج موضوع سورتها علاجاً فنياً من ثانياً ظروف التنزيل<sup>(٢)</sup>.

وبهذا تتضح وظيفة العنصر القصصي الذي يُعد جزءاً متمماً لبناء السورة، و وسيلة من وسائلها الفنية المتنوعة، حيث إنها إذا ذُكرت قصة في سورة فهي مذكورة لعلاج موضوعها خاصة، و إذا ذكرت نفس القصة في سورة أخرى، فهي قصة جديدة لعلاج موضوع جديد<sup>(٣)</sup>.

## ثانياً: أما بالنسبة للقصص المنتقاة في سورة مريم فهي:

١. قصة زكريا عليه السلام (١١ آية).
٢. قصة يحيى عليه السلام (٤ آيات) والتي يلحقها أغلب المفسرين بالقصة السابقة لشدة

□ ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م، ط١، ص ٦١.

٢- بتصرف، المرجع السابق، ص ٦٢-٦٤.

٣- بتصرف، المرجع السابق، ص ٤٦، و ينظر، محمد عبد الله عبده ديور: أسس بناء القصة من القرآن الكريم، دراسة أدبية و نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، بالمنوفية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ٢٤.



تلاجهما .

- ٣ . قصة مريم بنت عمران و عيسى عليهما السلام (٢١ آية) .
- ٤ . قصة إبراهيم عليه السلام مع والده (١١ آية) .
- ٥ . قصة موسى و هارون عليهما السلام (٣ آيات) .
- ٦ . قصة إسماعيل عليه السلام (آيتان) .
- ٧ . قصة إدريس عليه السلام (آيتان) .

إن من الملحوظ في هذه القصص التي وردت في مضامين سورة مريم أنها جاءت منتقاة في حلقاتها، و متناسبة مع غايات التنزيل كما ذكرنا آنفاً، (فالانتقاء والتناسب) ميزتان مردهما إلى علة واحدة هي علة خضوع القصة القرآنية للغرض الديني<sup>(١)</sup> «فالقرآن كتاب دعوة لا كتاب تاريخ حتى تأتي القصة في جملة واحدة في مكان واحد، بحيث يستخلص منها حوادث التاريخ مرتبة حسب وقوعها، ولكن للقصة هدفاً آخر غير الفن والتاريخ، وإن تحقيق هذا الهدف يقتضي أمرين: عدم الاستغراق في القصة بما يزيد في الحاجة، و أن يركز من أحداثها على ما جاء بها شاهداً عليه و لأجله»<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: نجد من آثار خضوع القصة في القرآن لوحدة السورة أو الغرض الديني:

- عدم التزامها بالترتيب الطبيعي لحلقاتها، فمرة تعرض حلقة من أول القصة، و مرة من وسطها، و مرة من آخرها، و تارة تعرض بكاملها، كل ذلك بحسب ما تقتضيه مقاصد السورة و موضوعاتها<sup>(٣)</sup>.
- و هذا هو الملحوظ في جميع أنواع القصص القرآنية سواء كانت قصص خاصة بالأنبياء، أو قصصاً تتعلق بحوادث غابرة، أو قصصاً تتعلق بالحوادث التي وقعت زمن النبي محمد صلى الله عليه و سلم من غزوات و أحداث<sup>(٤)</sup>.

و جميعها يجري عليها الأسلوب القرآني الذي يعتمد على اللقطات و الحركات السريعة.

- و من آثار خضوع القصة للغرض الديني أن تمتزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها و بعدها و في ثناياها كذلك، وهي ما تسمى (بالتعقيبات)، و التي سنجدها بكثرة في ثنايا

١- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٥٥.

٢- محمد دبور: أسس بناء القصة من القرآن الكريم، ص ٤٦، ينظر، كاظم الطواهري: بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، دار الصابوني، دار الهداية، ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م، ط ١، ص ٤١.

٣- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٦٢.

٤- بتصرف، خلدون سعيد صبح: التقديم و التأخير في القرآن الكريم، دار الينابيع، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢ م، ص ٢٥٩.





القصص و خواتيمها خلال دراستنا لها في السورة، و التي ضمت دلالات و مؤشرات تدل و تشير إلى الغرض الأساسي من سياق القصة<sup>(١)</sup>.

**رابعاً:** القصة القرآنية بهيئتها و بنائها الخاص تُعد أكبر من مجرد عملية بناء فني كالتي نعرفها في القصة كنوع من الأنواع الأدبية المعروفة، إنها نوع من الإعجاز البنائي أشبه ما يكون بنظام فني دقيق لعملية البناء هذه، يصعب على العقل البشري اختراق جميع أبعاده، و إن حاول الاجتهاد لإدراك بعض أسرارها..<sup>(٢)</sup>.

و القصة القرآنية تتحد و تتلاحم مع أجزاء السورة بشكل عجيب، يصعب فصله أحياناً، فالنص القصصي يمثل بنايات قصصية كبرى لها دلالتها الخاصة، التي كونتها لها البنيات الدلالية الصغرى، و التي كانت أساساً في وجودها، فأدى بذلك النص القصصي وظيفته الجامعة بين الغرض الديني و الفني في تناسق معجز، يظهر في أجمل هيئة و أرقى أسلوب.

**خامساً:** أنتقل إلى بنية القسم القصصي في القسم الأول من السورة، لسبر ما فيها من إعجاز هندسي و بناء عضوي، فتجدها تتكون من (سبع قصص خاصة بالأنبياء)، أربع منها جاء على سبيل التفصيل المجمل، و هي: (قصة زكريا عليه السلام و قصة يحيى عليه السلام، و قصة عيسى و أمه مريم عليهما السلام، و قصة إبراهيم عليه السلام مع والده)، في حين عرضت القصص الثلاث الأخرى بإيجاز واضح، و هي: (قصص موسى و إسماعيل و إدريس عليهم السلام).

و تدور جميع القصص في هذه البنية حول صلة هؤلاء الأنبياء الوثيقة بالله تعالى، من حب و طاعة و ولاء و عبودية من جهة، و حول صلتهم الأسرية (الاجتماعية) بذوي الأرحام من أب أو ابن أو أخ من حب و بر من جهة ثانية<sup>(٣)</sup>.

ومع أول هذه الأبنية القصصية:

## أولاً - البناء الهيكلي والعضوي لقصة زكريا عليه السلام:

### أ- المقدمة:

لقد بدأت هذه القصة ملتحمة مع مقدمة السورة ممثلة البداية القصصية من وسط (الوقائع)

١- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٦٨ - ١٧٠. و من آثار خضوع القصة للغرض الديني كذلك، «أن ترد القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضع شتى، و لكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، و معظمه إشارات سريعة لموضع العبر فيها، أم جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً، و لمناسبات خاصة في السياق» المرجع السابق، ص ١٥٥.

٢- ينظر، زكية محمد: التشابك القصصي في سورة الكهف، ص ٢١٨.

٣- ينظر، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء - الكهف - مريم - طه)، دار عمار للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ط١، ص ١٣٥.

و ليس من أولها و الوسط القصصي الذي بدأتها القصة هو قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ وهي تمهيد لاستقبال قصة زكريا عليه السلام بنوع من التشويق وإثارة الانتباه للتساؤل عن نوع هذه الرحمة وسببها، ونلاحظ أن المخاطب هنا هو (رسول الله صلى الله عليه وسلم)، و الخطاب يتضمن بياناً برحمة الله تعالى التي أحاط بها عبده زكريا عليه السلام تكريماً و تشريفاً.

وهذه الطريقة من (الاستهلال بالوقائع من وسط القصة) تنطوي على أهمية بالغة من حيث مقاصد القصة التي تهدف إلى إيصالها للمتلقى من حيث الرحمة المرتبطة بالعبودية لله تعالى.

وهذه ميزة تُعنى بها القصة القرآنية، «فمن قواعد القص الراسخة أن القصة لا تفاجئ القارئ مفاجآت غير محسوبة فنياً، فلا بد لكل حدث من تمهيد يسبقه مباشرة أو قريباً من ذلك، وأحسن ما يكون هذا التمهيد عندما يكون قليل الشفافية إلى حين، حتى إذا التأم في نسيج القصة العام، و كدنا نحس أنه لا يُمهّد لشيء محدد، وقع الحدث الذي جاء التمهيد من أجله في سياقه المخصوص، فيفاجأ القارئ بانكشاف المعنى المقصود أمام عينيه جلياً بورود جزئية تمهد لما سيكون»<sup>(١)</sup>.

## ٢- وسط القصة:

### والمشاهد في وسط القصة تنقسم إلى قسمين:

#### المشهد الأول - حال زكريا عليه السلام بين الرجاء والدعاء:

##### ❖ اللقطة الأولى: (التضرع والانكسار لله تعالى)

نجد القصة بعد تلك المقدمة من وسط الوقائع تترد إلى بداية الحدث و هو في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٤)

فبداية الحدث إذن هي: مناداة زكريا عليه السلام ربه، في تضرع و انكسار و خضوع، ملتصقاً و راجياً أن تمسه نفحات ربه، و لكن هذا الدعاء يوسم (بالخفاء) ليبدل على عدة أمور منها:

- ما يحمل في طياته الأدب و الحياء و الرجاء بعيداً عن أعين الناس و أسماعهم<sup>(٢)</sup>.
  - يدل على قرب زكريا عليه السلام من الله بإضافة الهاء إلى (ربه) مما يؤكد العبودية الخالصة لله تعالى، كما أنه يدعو الله تعالى عن قرب معنوي (رب) دون واسطة و لا حرف نداء، متيقناً بأن الله تعالى لن يردده و لن يخذله، فهو أعلم بحاله و أعلم بضعفه و بشكواه و دنو أجله.
- و نجده كذلك يسترسل بالانكسار و الخضوع شاكياً (ضعفه ووهن عظمه، واشتعال رأسه شيباً)،

١- سليمان الطروانة: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، (د- دار نشر)، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ط١، ص ١١٤-١١٥.

٢- بتصرف، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٢.





وكلتا الشكوتان تدلان على الشيخوخة وضعفها، فوهن العظم يدل على الضعف الداخلي، الذي يترتب عليه آثار خارج البدن، وهو الشيب باعتباره رمز للشيخوخة فتناسب تتاليها، كما أنهما كانا أحري باستدرار العطف والشفقة من الله تعالى لاستجابة نداءه.

### ❖ اللقطة الثانية: (اليقين بحقيقة التوكل وإسباغ النعم من الله)

نجد سيدنا زكريا عليه السلام يصرح بكرم الله الذي لا ينقطع عنه، والذي تعود عليه في صباه وشبابه، فكيف به الآن بعد أن صارت هذه حالته<sup>(١)</sup>، ويعد هذا التصريح توبيجاً وتعقيباً يعبر بوضوح عن:

- مدى أهمية هذا الجانب، وهو (الاهتمام العبادي) بشكر الله على نعمه السابقة، وراعيته التي تعود عليها ولسها مراراً وتكراراً منه، كما في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحًا﴾.
- مدى الرغبة والتشوق التي أثّرت في نفس المتلقي، لمعرفة ما بعد هذا النداء وهذا التعقيب.

### ❖ اللقطة الثالثة: (مسوغات الدعاء)

السؤال المثار هنا هو: ما الذي يدفع زكريا عليه السلام لهذا الدعاء الخالص الخفي؟ وما الذي كان يلتمسه ويرجوه؟

١- الجواب في الآية الكريمة: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وِرَآءِي وَكَانَتْ أَمْرًا نِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِرَبِّتِي مِنَّ عَلِيمٌ وَأَجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيحًا ۖ﴾ حيث نجد زكريا عليه السلام يستمر في بسط شكاته، بتكشف اللقطات قليلاً قليلاً عن سبب الدعاء ودوافعه الحقيقية المؤدية له، فلقد صور حاله، وقدم رجاءه، فأخذ يذكر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه وهو: (خشيتته من أقاربه وذوي رحمه من بني إسرائيل) على عدة أمور<sup>(٢)</sup> منها:

- بأن يقيموا على دعوته ما لا يرضاه، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين.
- أهله الذين يراعاهم، ومنهم مريم عليها السلام، الذي كان قيماً عليها، والتي كانت تخدم المحراب الذي يتولاه.
- ماله الذي يحسن تديره وإنفاقه في وجهه.
- فهو يخشى الموالي بأن لا يسيروا على سيرته، إذ إنه كان يعهدهم غير صالحين للقيام

١- بتصريف، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٢.

٢- بتصريف، سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٢.

على ذلك الإرث<sup>(١)</sup>.

وإن للفظ (خفت) لدلالة واضحة على «رَفَعَةَ التُّرْكَةَ وَثَقَلَهَا، وَضَعَفَ أَمْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَجَزَهُمْ عَنْ تَقْبِلِهَا وَتَحْمِلِهَا فِي حَيَاتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ»<sup>(٢)</sup>.

ثم يتابع بث همومه، و ما يختلج في صدره لبارئته عز وجل وهو واثق من الإجابة، موضعاً حقيقة أخرى، وهو عقم زوجته التي كانت عقيماً في شبابها، فكيف بها الآن وقد ضمت إلى عقمها شيخوختها.

هنا ومن **(الوجهة الموضوعية)** أجد لهذا الموقف من إظهار الخضوع والتذلل والرجاء ثم الشكر على النعم السابقة و التيقن بالإجابة من الله تعالى، إثبات لحقيقة العبودية الخالصة الصادقة، من حيث اليقين والاعتقاد بأن لا قادر ولا خالق غير الله سبحانه، وهذا ما كان من أهم مقاصد السورة الكريمة وقضاياها التي تهدف لعلاجها بواسطة الأسلوب القصصي.

٢ - و بعد هذه المقدمات الحسية والمعنوية من كبر سنه و شيخوخته، و خوفه من أقربائه و عقم زوجته تأتي المفاجأة بطلب الولي الصالح: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ فبِظَنِّهِ وَ تَوْفِيقِ يَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلِيًّا، وَ يَكُونُ الْمَوْلُودُ ذَكَرًا صَالِحًا، وَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ يَطْلُبَهُ هَذَا خَارِجًا عَنِ الْإِمْكَانِيَّاتِ الَّتِي رَسَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا قَوَانِينِ الْكَوْنِ، إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ سَهْلٌ أَمَامَ خَالِقِ الْخَلْقِ، كَمَا أَنَّ خُرُوجَ هَذَا الطَّلِبِ مِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالذَّاتِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، لِأَنَّهُ نَبِيٌّ صَادِقٌ خَالِصٌ فِي عِبُودِيَّتِهِ، مُتَوَكِّلٌ عَلَى رَبِّهِ، رَاضٍ بِقَضَائِهِ وَ قَدْرُهُ وَوَثِقًا مِنْ كَرَمِهِ وَ جُودِهِ.

فمن أين تعلم زكريا عليه السلام هذا الخلق وهذا اليقين وهذه الأهداف السامية ؟ ومن أين تعلم أن الله يعطي وينعم دون مقابل وإن امتنعت أسبابه ؟

بالتأكيد تعلمها من محراب العبادة، حيث كانت صلته قربية من الله، كما أنه قد رأى مريم عليها السلام في وقت كفالته إياها، ما يلفت انتباهه و يثير تعجبه، من وجود الرزق لديها على غير السنن المعتادة<sup>(٣)</sup>، حيث سألتها فردت قائلة: ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾<sup>(٤)</sup>، فكان رد مريم عليها السلام بمثابة تذكير لزكريا عليه السلام، فحركت في قلبه بواعث الرجاء والطلب والنظر في حاله، و عرض شكايته لله تعالى، «فالذي رزق مريم عليها السلام بالرزق دون أسباب مألوفة، قادر

١- وقد أشار بعض المفسرين إلى أن الوراثة إما في النبوة، و أما في الحكمة، و إما في المال، ولكن الأصح في الوراثة لدى الأنبياء هو وراثة النبوة والحكم لقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، و أما وراثة آل يعقوب فهي النبوة والحكم، و الحكم وإن كان دنيوياً، ولكنه من العوامل المساعدة في قبول الدعوة من الداعي. ينظر، ابن كثير: قصص الأنبياء، خرج أحاديثه: ماجد محمد، دار عالم الثقافة، عمان، الأردن، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ط١، ٤١٦، ١. و عمر محمد عمر باحاذق: سباحة إيمانية في رحاب سورة مريم، دار المأمون للتراث، دمشق، (د، ط)، (د، ت)، ص ١٤.

٢- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٩٥.

٣- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٩٢.

٤- سورة آل عمران، آية ٣٧.





على أن ينعم عليه بتحقيق ما قطع رجاء منه»<sup>(١)</sup>، ويرزقه الولي الصالح الرضي الموهوب من الله تعالى للسير على نهج آباءه آل يعقوب عليهم السلام «أي لا جباراً ولا غليظاً، ولا متبظراً ولا طموحاً، ولفظة (رضي) تلقي هذه الظلال، فالرضي الذي يرضى ويرضى، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تتضح الرؤيا القصصية في خضم تكاثف هول المفاجأة في طلب الولي، وبيان طلب الوريث لآل يعقوب وريث الدين والدعوة والعلم، إذ تتبين الغاية السامية من طلب الولد وهو حفظ الدين ورعايته.

ومن (الزاوية العضوية) نجد أن هذه التربية الروحية بكل ما اتسمت فيها من صدق الأقوال والأفعال، هي موضع أهمية كبرى لما ستتطوي عليه أفكار السورة بكاملها من ترسيخ عقيدة التوحيد والعبودية لله تعالى، والتي أساسها هذه السمات الروحية والنفسية، التي تدفع بالإنسان إلى أن يوقن إيقاناً تاماً بقدرته الله الأحد التي لا يضاهاها أحد.

وكذلك من (الزاوية الفنية) «نتوقع أن يتحقق الدعاء ما دامت القصة استهلت ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾<sup>(٣)</sup> حيث ترهص هذه المقدمة القصصية بإجابة الدعاء: ما دامت (الرحمة) من الله تعالى تسع كل شيء، وما دامت المقدمة قد خصصت ذلك من خلال الإشارة إلى زكريا»<sup>(٤)</sup>.

## المشهد الثاني – البشارة بالمعجزة وردود الأفعال:

### ❖ اللقطة الأولى: (البشارة بإجابة الدعاء وانتعاش الروح)

جاء المشهد الجديد في القصة معنياً برسم البشارة الخارقة بإجابة دعائه فأنته البشرية بقوله تعالى: ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾<sup>(٥)</sup>.

هنا نسمع الحوار بين زكريا عليه السلام وربه بعدما كنا نسمعه من طرف واحد، فينادي الله عز وجل زكريا باسمه مباشرة مع عدم إعطاء زكريا عليه السلام فرصة لاستجابة النداء لأمر استدعاه المقام، بل أتبعته البشارة سريعاً، لتدل على الأمر العظيم المنزل من خالق العباد، الذي يرسل رحماته ومفاجآته وبشائره لعباده المخلصين، فيهدئ بها من روعهم ويفرح بها قلوبهم.

ولهذه البشارة عدة مواهب لها دلالات ذات جانب مميز ومعجز في حياة زكريا عليه السلام منها<sup>(٤)</sup>:

- ١- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٩٢.
- ٢- سيد قطب: ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٢.
- ٣- محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٧٢.
- ٤- بتصرف، حدة سابق، الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٩٢، ينظر، محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٧٢.



- البشارة بالهبة، ومدى وقعها في قلب زكريا عليه السلام المتعطش لرؤية الهبة التي طلبها على الرغم من خروجها عن قوانين الكون المعروفة.
- تسمية الله تعالى (يحيى) باسم مبتكر<sup>(١)</sup> لم يشاركه فيه أحد من قبل.
- بَعَثَ يحيى مبشراً بدعوة عيسى عليه السلام، إذ إنه أول من آمن به، ومجيئه نبيا متصفا بالعلم والعبادة والحلم والتقوى على الرغم من صغر سنه، كما سيتضح لنا آنفا، فوَقَّرَ على زكريا عليه السلام عناء التربية ومشاقها.

### ❖ اللقطة الثانية: (ردود الفعل تجاه المعجزة)

لشدة فرح زكريا عليه السلام اعترته عدة مشاعر انفعالية لا يدركها إلا من كان في مقامه وحاله، دفعته إلى التساؤل عن كيفية الإنجاب قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ كَآنَتْ أَمْرًا قِيَّامًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۗ ﴾

ولكن هذا السؤال لا ينافي صدق الإيمان الراسخ في قلب زكريا عليه السلام اتجاه قدرة الله تعالى وعظمته، ولا يشككه في وعظائه، بل هو قد صرَّح سابقاً بقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۗ ﴾، لذلك كان السؤال ردة فعل طبيعية من زكريا عليه السلام مصحوبا بفرح عظيم، يريد به تسرب البشرى في أوصال قلبه وعقله، ليستطيع استيعاب عظمة ورفعة البشارة.

وما يلبث الجواب أن يأتي زكريا عليه السلام من الملك في نفس سرعة البشارة، وسرعة التساؤل: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۗ ﴾، ليطلق حقيقة طالما تناساها الإنسان وغفل عنها، لوجوده ونكرانه، فالله قادر على أن يغير قوانين الكون كيفما شاء وأينما شاء، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وهذه حقيقة جوهرية تدور على أساسها جميع مقاصد القصص، وتضرب في صميم الحدث، حيث يقول الرازي: «إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفى المحض كان قادراً على خلق الذوات والصفات والآثار، وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معا أولى أن يكون قادرا على تبديل الصفات وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبه القوة التي عنها يتولد الماءان اللذان من اجتماعهما يخلق الولد»<sup>(٢)</sup> ولذلك قال: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ ۗ ﴾<sup>(٣)</sup> وهذه الصفات لا تكون إلا لصاحب الإلوهية والربوبية المحضة، التي لا ينبغي أن يشاركه فيها أحد.

١- وللإسماء المبتكرة مزية قوة تعريف المسمى لقلة الاشتراك، وله مزية اقتداء الناس به من بعد، حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمنا واستجادة، ينظر، ابن عاشور، تفسير التحرير والتدوير، المجلد ٧، ج ١٦، ص ٦٩.

٢- الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٦١.

٣- سورة الأنبياء، آية ٩٠.



وهكذا تحقق الغرض الديني و الفني في ازدواجية واضحة من خلال هذا العرض الفني و هو: «تحقيق دعاء زكريا من جانب، و تقرير الحقيقة التي ينبغي أن يفيد منها المتلقي عبر قراءته للقصة من جانب آخر، و هي: حقيقة أن الله تعالى قادر بشكل مطلق على أن يبدع ما يشاء و على أن يستجيب للشخصية المؤمنة وملتزمة بمبادئه تعالى، يستجيب لها حتى لو كان الأمر خارجاً عن القوانين الكونية التي رسمها الله وفقها لنظام خاص»<sup>(١)</sup>.

### ❖ اللقطة الثالثة: (علامات الإجابة)

و تمتد القصة امتدادات متسارعة في تقارب من ردود الأفعال، حيث لم تقف التساؤلات عن السؤال في كيفية الإنجاب بل تجاوزه إلى السؤال عن العلامة، تعبيراً عن فرحة زكريا عليه السلام بهبة الله و شوقه إليها، فيقول: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَجَزَّ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾.

جاءت العلامة في القصة سمة مميزة أعطاها الله لزكريا عليه السلام لتوضح عدة وظائف منها: التناسب مع الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء و كانت فيه الاستجابة، فيؤدي بها حق الشكر لله الذي أكرمه بالغلام على الكبر، فينقطع عن الحديث مع الناس ثلاث ليال بدون آفة ظاهرة، وينطلق لسانه إذا ذكر الله وسبحه<sup>(٢)</sup>.

الإشارة إلى موجب مقابلة النعمة بالطاعة لكي تدوم و يبارك فيها، وهي إشارة لها أبلغ الأثر في تغذية هذا المفهوم وتعميقه وترسيخه في قلب و عقل المتلقي لها.

### ٣- خاتمة القصة - الخروج من المحراب:

وهكذا تختتم السورة قصة زكريا عليه السلام بخروجه من المحراب إلى قومه و شكر المواهب و النعم الربانية التي تتجانس مع ما افتتحت به من الطلب و المناجاة، «و يترك السياق زكريا في صمته و تسبيحه، و يسدل عليه الستار في هذا المشهد و يطوي صفحته ليفتح صفحة جديدة على ابنه يحيى - عليه السلام»<sup>(٣)</sup>.

و قبل الشروع في هذه الصفحة الجديدة أقدم صورة لكيفية جمع تفاصيل قصة زكريا عليه السلام بروابط عضوية، تجمعها علاقات بنائية لها أبلغ الأثر في إبراز وحدة القصة و تلاحمها مع بناء السورة الكلي.

١- محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج٣، ص ٧٣.

٢- ينظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٣.

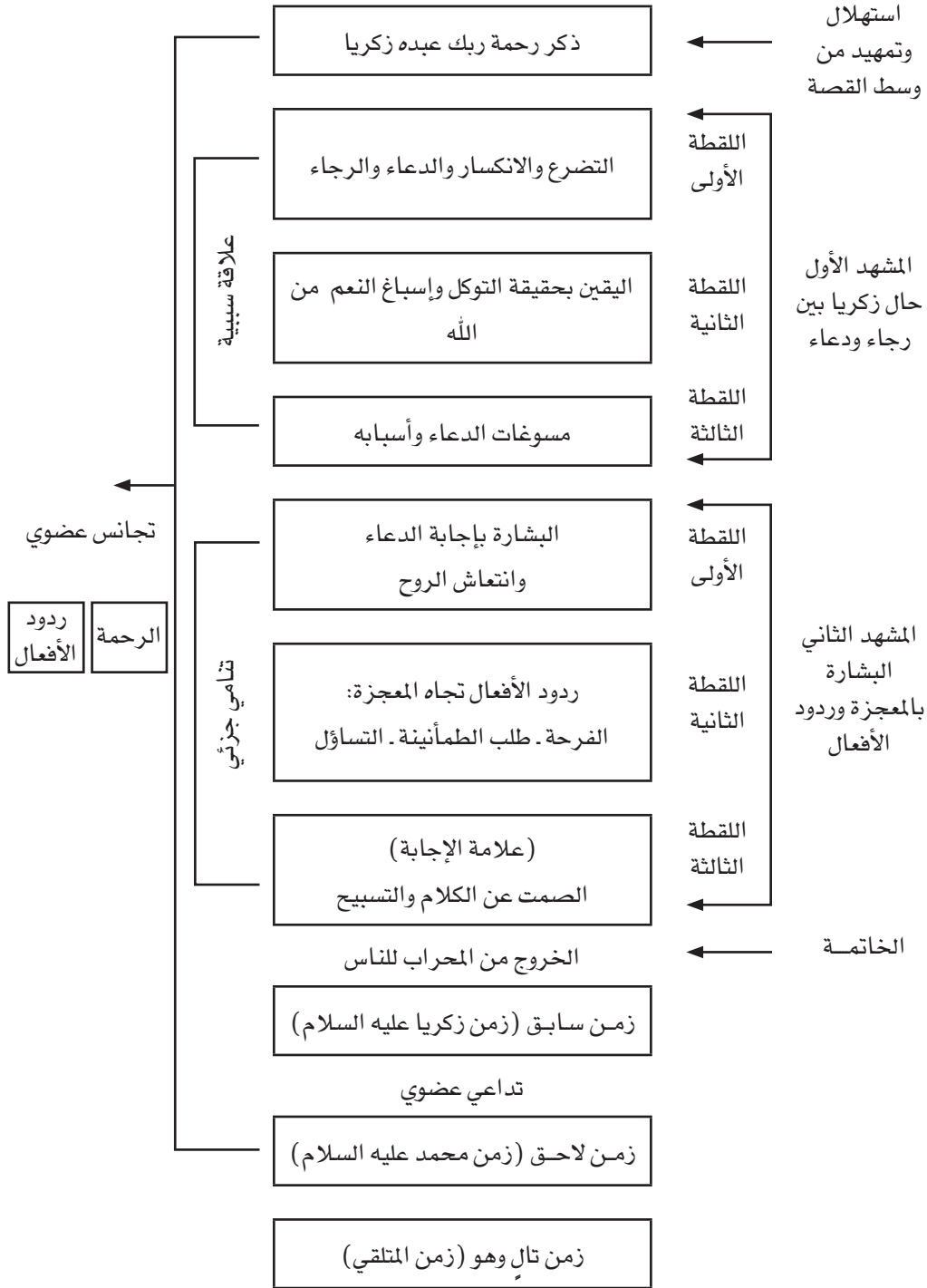
٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٣.

## ومن أهم الروابط العضوية التي اتضحت لنا في القصة:

- التنامي: الذي كان واضحاً في مقدمة القصة، و كيفية استرسالها في رسم حالة زكريا عليه السلام من خلال ظهور تفاصيل الحدث في القصة إلى الوصول لنهاية، و من ثمّ تداخلها فيما بعد مع نداء الله تعالى ليحيى عليه السلام.
- التجانس العضوي الظاهر بين مقدمة القصة في الاستهلال بذكر الرحمة، و بين خاتمها التي صورت أثر الرحمة على زكريا عليه السلام، و ردود الأفعال المصاحبة للبشرى الموهوبة.
- علاقة السببية بين مشاهد القصة و مضمونها، كما اتضح لنا من مسوغات طلب الولي الرضي.
- التداخيات العضوية و ظهورها بشكل مباشر و غير مباشر إذ ساعدت المتلقي على الربط بين: حقيقة ذلك الزمان و سمات شخصياته، و نفحات الله لهم برحماته و عطاياه، و بين حقيقة الزمن الواقعي للمخاطبين و سمات شخصياتهم، سواء زمن النبي محمد عليه الصلاة و السلام الذي خوطب به، أو زمن المتلقي المتأثر به فيما بعد.
- و لتتضح هذه الرؤية جيداً ألخص ما سبق في التخطيط الذهني الآتي:



## (هندسة البناء الهيكلي والعضوي في قصة زكريا عليه السلام)



## ثانياً- البناء الهيكلي والعضوي لقصة يحيى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ (١٣) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۗ (١٤)﴾<sup>(١)</sup>  
وَبِرًّا بَوْلِدِيهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۗ (١٥) وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۗ (١٦)﴾

تأتي القصة<sup>(١)</sup> القرآنية في هذا الموضوع سريعة وخاطفة، وقد تحمل سمات القصة القصيرة التي وضعت من قبل البشر، فنحن نجد النقاد والأدباء يشترطون لنجاحها «أن يركز الكاتب ويستفز جميع قدراته الفنية والتعبيرية في صياغتها، وأن يحاول - جهد الإمكان- أن تكون قصة معبرة موحية وذلك عن طريق استخدام الكلمات والعبارات الموحية التي تترك أثراً انفعالياً قوياً في نفس القارئ»<sup>(٢)</sup>.

ولكننا في القرآن نجد القصة تحمل هذه المميزات والخصائص وتفوقها زماناً وأسلوباً، مما يجعلها نموذجاً يحتذى به لدى الأدباء للسير على منهجها وطريقتها.

وهذه القصة الجديدة تجيء متداخلة مع القصة الأولى التي استهلكت بها السورة حيث تأخذ سمة (الاستقلال) و(التداخل) في آن واحد، فأما من حيث استقلالها فيتمثل في كون بطلها ذا شخصية يستقل السياق برسمها في هذه السورة، وهو يحيى عليه السلام الذي يُؤمَّر بتحمل تبعات النبوة ومهامها بعد وجود فجوات فنية تجاوزها السياق في ما بين القصتين<sup>(٣)</sup>.

وأما من حيث التداخل مع القصة السابقة، فلأن يحيى عليه السلام كان الهبة المعطاة لذكرياً عليه السلام بناءً على دعائه، فجسد البشارة التي كانت رحمة على والده، لذلك نجد أغلب الدارسين والمفسرين يجعلون من قصة يحيى عليه السلام خاتمة لقصة زكريا عليه السلام في بنائية هيكلية واحدة، غير أنني هنا فضّلت تناولها كبنية قصصية مستقلة لها سماتها الخاصة، دون إغفال الروابط الأساسية الجامعة بين القصتين.

١- القصة القصيرة أو الأقصوصة: هي التي تتناول قطعاً صغيراً من الحياة، أو حادثاً كبيراً من أحداثها، فتُعرض في صورة سريعة قوية، في تعبيرات مركزة مشعة، ومهمتها الإيحاء السريع والتأثير القوي، لتبلغ غايتها في أقصر وقت ومن أقرب طريق، ومن ثم كانت لا تتناول وقائع متصلة مترابطة، ولا تعني برسم شخصيات ولا بتفاصيل أحداث.

وللقصة القصيرة - بهذا المفهوم - في القرآن الكريم ألوان: فتارة تكون عبارة عن تلخيص مركز واف لأحداث طويلة تناولها القرآن في مواضع أخرى بالتفصيل كقصة موسى عليه السلام التي جاءت في عدة سور منها: (سورة طه والقصاص والأعراف) في صورة قصة طويلة، في حين أنها جاءت في سورة النازعات في صورة قصة قصيرة. أو تكون تصويراً لحادث كان معروفاً زمن التنزيل كقصة أصحاب الفيل.

تارة تكون في صورة مجموعة من قصص الأنبياء تجمع بينها وحدة الموضوع ووحدة الهدف، رغم اختلاف الأمم والأزمات والأمكنة، ولكنها تأتي في سياق السورة وكأنها قصة قصيرة واحدة كمجموعة قصص الأنبياء في سورة القمر.

أو تكون تشبيهاً لعنصر من عناصر الإيمان، فتصوره في صورة واقعية، كقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها في سورة البقرة، ينظر، محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٤٢، ينظر، عمر محمد عمر باحاذق: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، دار النشر، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ص ٢٢٢-٢٢٣.

٢- فالح الربيعي: القصص القرآني (رؤية فنية)، ص ١٩.

٣- ينظر، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ص ٧٤.





## - حيث لو فصلنا القصة بنائياً لوجدنا:

- تمهيدها واقعا في بشارة الرحمة في قصة زكريا عليه السلام.
- وبداية مضمونها واقع في الفجوة التي تركها السياق بين القصتين أو المشهدين<sup>(١)</sup>، والذي حَمَلَ في طياته ولادة يحيى ونشأته وترعرعه كغيره من الصبيان، وكما تعودنا مع أسلوب القرآن في تخطيه لكثير من الفجوات الفنية أثناء عرضه الفني للقصص، فإننا نجده يتجاوز بعض المشاهد والمواقف، ليسلط الأضواء على الأكثر نشاطا وحيوية منها لخدمة الأهداف المقصودة في القصة.
- والمضمون الأساسي للقصة واقع في نداء الله عز وجل ليحيى عليه السلام، والحوار معه من طرف واحد، في مشهد رائع يتسم بالعظمة والرفعة، ويدل على سمو مكانة يحيى عليه السلام<sup>(٢)</sup>، كما يدل على استجابة الله تعالى لزكريا عليه السلام ومكانته الرفيعة عند الله بأن رزقه الغلام الرضي.
- وخاتمتها السردية تمثلت في بيان السلام الشامل ليحيى عليه السلام عند الولادة والموت و البعث.

## - ولو فصلنا مشهد القصة موضوعيا نجده كالاتي:

بدأ المشهد الحواري بالنداء الإلهي ليحيى عليه السلام (يا يحيى)، ليعقبه تبعه كبرى وهي (خذ الكتاب بقوة) حيث يُؤمر يحيى بأخذ الكتاب، وهو (التوراة) كتاب بني إسرائيل الذي بقي معمولا به عندهم، لولا أن اليهود بدلوا وغيروا وحرفوا فيه، والأمر فيه حث بأن يأخذ الكتاب بقوة، أي أن يستعد تمام الاستعداد لحمله بالحكم بما فيه، ودعوة الناس إلى الإيمان به، بشكل يتحمل به الأمانة بعزم وصلابة، بعيداً عن الضعف والهوان<sup>(٣)</sup>.

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى عليه السلام من سمات تعينه على تحمل التبعة الكبرى وهي كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيحًا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ هذه هي المؤهلات التي زودها الله تعالى يحيى عليه السلام، وأعدّه وأعانته بها على احتمال المسؤولية العظمى التي كُلف بها لبني إسرائيل من بعد أبيه.

١- وذلك بكون قصة زكريا ويحيى عليهما السلام قصة واحدة. ينظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤ الجزء ١٦، ص ٢٢٠٣.  
٢- وذلك "لأن ذكر الإنسان باسمه فيه نشوة وسرور وفرح، وهو من الآداب الحسنة المنصوص عليها، وإذا كان هذا بين البشر أنفسهم، فكيف إذا كان بين الله تعالى وعباده" ينظر، بيوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن تفسير سورة مريم وطه، جمعية التراث، القرارة، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، (د.ط.)، ص ٢٤.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ٢٥، و سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٤.

كما أستشف لها دلالات فكرية وفنية تربط القصة بما قبلها وما بعدها في السورة مع التحامها في البناء الهندسي العام (موضوعياً وعضوياً وفتياً).

## ومن أهم هذه السمات البارزة في القصة:

- السمة الأولى: (الحكم) وهي سمة لا تأتي إلا مع الكبير، وتكتسب بالمعارف والتجارب، فلقد حظي يحيى عليه السلام بالنبوة وفقه الدين وفهم التوراة ورجاحة العقل وهو صبي، و «لما كانت النبوة لا يستضلع بأمرها ويقوى على حملها إلا عند استحكام العقل ببلوغ الرشد، وكان التطويق على أمرها قبل ذلك من العظمة بمكان دلت عليه النون في قوله (و آتيناها)»<sup>(١)</sup> أي عظمة وفضلا من الله.

وعليه فهذا فضل من الله تعالى أرادته ليحيى عليه السلام بأن يميزه «بالتبصر في الأمور، وحسن التدبر، وإصابة الرأي»<sup>(٢)</sup>، كما أنها امتداد لهبة الله تعالى ورحمته على زكريا عليه السلام بإعطائه الولد الرضي كما ذكرنا ذلك سائفاً، وصورة من صور الهبات المسرودة أمثالها في باقي القصص التالية في السورة.

- السمة الثانية: (الحنان اللدني) سمة تتناسب مع كلمة الرضي الذي يرضى عن نفسه، ويُرضى الناس عنه، فالحنان هو: الشفقة والرحمة التي لا بد من أن يتسم بها النبي المكلف، ليرعى القلوب والنفوس ويجتذبها إليه<sup>(٣)</sup>، ومن النكت العجيبة هو عدم إفراد سمة الحنان فقط بل خصصها بقوله (من لدنا) دلالة خاصة على «أن الله تعالى أرحم بعباده من الأم الرؤوم بولدها»<sup>(٤)</sup>.

كما أن يحيى عليه السلام قد انضرد باقتران ذكر لفظ (الحنان) معه مرة واحدة في القرآن الكريم<sup>(٥)</sup>.

- السمة الثالثة: (سمة الزكاة) الدالة على الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع، حيث يواجه بها أدران القلوب وذنس النفوس، فيظهرها ويزكيها، وهي سمة لا بد أن يتسم بها المؤمن، فمن كان مأكله ومشربه وملبسه حلالاً مطهراً من حقوق الآخرين، فلا بد أن يكون مجاب الدعاء، وهذا ما لا خلاف فيه في ارتباطه وإشارته لدعاء زكريا عليه السلام وسرعة الإجابة له.

١- البيهقي: نظم الدرر، ج ٤، ص ٥٢٤.

٢- بيوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن، ص ٢٦.

٣- بتصرف، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤ ج ١٦، ص ٢٣٠٤.

٤- بيوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن: ص ٢٨، وينظر، محمد محمد داود: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٨م، (د-ط)، ص ٥٥٨.

٥- ينظر، حده سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ٩٧.



- السمة الرابعة: (التقوى) فالتقوى سمة لا بد أن تتمثل في العبد الصالح، حيث يكون موصولاً بالله مراقباً له، مستشعراً لرقابته في سره ونجواه، يتجنب سخطه ويتحرى رضاه ليلبغه درجة التقى، وهذا هو أساس التوحيد والعبودية لله تعالى، التي تكون أصلاً في العبادة وطريقاً سهلاً لنيل رحمته وفضله.

- السمة الخامسة: (بر الوالدين) وهي سمة من السمات العظيمة التي يشدد الله تعالى عليها، حيث أوجب طاعة الوالدين بعد طاعته، وجعل عقوقهما بعد درجة الشرك منزلة<sup>(١)</sup>، فما أجمل هذا التجانس من التدرج في الإشارة إلى عبادة الله تعالى وخشيته ومراقبته التي هي أساس التوحيد إلى بر الوالدين الذي يعتبرهما سبحانه من قرائن طاعته، لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَلْعَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۗ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد السياق السردى هذا البر باستعماله الجملة الاسمية (وبراً بالديه) لتدل على الثبات والدوام، واللزوم على هذه السمة من التوقير والعطف والدعاء للوالدين العجوزين، فيضرب لنا مثال القدوة الصالحة والأنموذج الحسن.

- السمة السادسة: (سمة التواضع) التي هي ضد التجبر، فهو يتسم بلين الجانب وعدم التطاول أو التكبر على الآخرين، وعلى هذا الأساس كان من «رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال، ومن عرف ذلك كيف يليق به الترفع والتجبر»<sup>(٣)</sup>، كما أننا نجد أبعاداً دلالية وإشارية واضحة في هذه السمة، فمن تكبر وترفع انضم إلى المعاندين المتجبرين، الذين قد يعرفون الحق ولكن ينكرونه ويكذبونه، وهذه صفات أهل النار، و«لظالما يظل التطاول على الخلق يستجر الشخصية إلى إلحاق الأذى لهم: من قتل وظلم ونحوهما»<sup>(٤)</sup>.

وهذه السمة إشارة وإيحاء لمن جاء على عكسها، أمثال المشركين بالله والمعاندين لآياته البيّنات، كما سنتعرف عليهم في القسم الثاني من مضامين السورة الكريمة.

- السمة الأخيرة: (الطاعة) وهي الالتزام بمبادئ الله تعالى، وعدم الوقوع في المعاصي والردائل، وهذا واضح من صيغة المبالغة في النفي لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۗ﴾<sup>(٥)</sup>.

هذه هي السمات التي وسمها الله سبحانه ليحيى عليه السلام، سمات تمثلت في القصة بشكل

١- محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٧٥.

٢- سورة الإسراء، آية ٢٣.

٣- الرازي: التفسير الكبير، المجلد ١١، ج ٢١، ص ١٦٥.

٤- محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٧٥.



واضح ومعبر وواقعي لا تأويل فيها، و جسدت بها عدة جوانب<sup>(١)</sup>:

- جسدت مفهوم الرضا الذي اختاره زكريا عليه السلام سمة لابن المدعوبه.
- جسدت رسماً لسمات عامة يستهدف النص توصيلها إلى المتلقي كما يفيد منها في تعديل سلوكه، وهذا ما انطوى تحت أهداف القصص بصفة خاصة، ومقاصد السورة بصفة عامة.
- جسدت ترابطاً و تقابلاً عضوياً في القصة مع غيرها من القصص في القسم الثاني من السورة، حيث صورت سمة الشخصية الموحدة المخلصة لله تعالى بشكل واضح لا نقاش فيه، وسمة الشخصية الضالة المعاندة المشركة بنحو من التلميح والإشارة في القصة نفسها، وكما أنها حوت تمهيدا للتشهير والإعلان عن هذه السمات المعاكسة في القسم الخطابي من السورة، التي سأتناولها لاحقاً.



١١٣

١- بتصرف، محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٧٥.

هندسة التقابل العضوي في قصة يحيى عليه السلام مع قصص القسم الثاني من السورة



وفي نهاية هذا الحوار من طرف واحد من ذات الله العليا، يصرح ذو العزة والجبروت بالهبة العظمى ليحيى عليه السلام، بقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٥﴾ عجيبة هذه الهبة، سلامٌ في ثلاث مواطن<sup>(١)</sup>:

- سلام من الله يوم وروده للدينا من أن يناله الشيطان، فيعطيه الأمان.
  - وسلام يوم يرتحل عن الدنيا، فيؤمنه وحشة الفراق وهول العالم الغيبي.
  - وسلام يوم يبعث حيا في الآخرة، فيؤمنه من عذاب القيامة، حين يحشر الناس لرب العالمين.
- وهذه المواطن يكون العبد بها في أشد حالات الضعف والفقر وقلة الحيلة، ومحل العناية الإلهية من الرحمة والتفضل، فإن لم تقترن هذه المواضع بهذه العناية «فإن المصائر التي تنتهي إليها تظل موضع أسى لا حدود لتصوراته»<sup>(٢)</sup>.

وهنا يسدل الستار على يحيى عليه السلام كما أسدل من قبل على زكريا عليه السلام، وقد رسم الخط الرئيس في حياته ومنهجه واتجاهه.

وتعطينا قصة زكريا ويحيى عليهما السلام في سورة مريم عدة دلالات من حيث موقعهما في المقدمة والتمهيد) لبداية القصص في السورة محققة عدة أمور:

- حققت تناسبا للجو القصصي الواقعة فيه، سواء في السورة السابقة (سورة الكهف) أو قصص السورة نفسها، أو قصص السورة التالية سورة (طه).
- عمقت مفهوم العبودية والتوحيد الحق.
- أثبتت قدرة الله سبحانه وطلاقتها، وحرية المشيئة لديه، والتي تسحب على باقي القصص اللاحقة.
- أثبتت صفة الرحمة لله تعالى التي أنكرها العرب، باستبعادهم أن تلتقي صفات القوة والعزة والجبروت والعلم مع الرحمة والإحسان.
- رسمت سمات الشخصية المؤمنة المستحقة لرحمة الله سبحانه ومواهبه، ووضحت عطاءه الذي يأتي أبلغ من دعاء عبده.
- مهدت لقصة عظيمة ستأتي تالية لها وهي قصة عيسى عليه السلام، وولادته من أم دون أب

١- ينظر، الرازي: التفسير الكبير، ج ٢١، ص ١٦٠، بيوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن، ص ٣٠، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٧٢، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ٧٨.

٢- محمود البستاني: التفسير البنائي في القرآن الكريم، ج ٢، ص ٧٦.





ف «نظراً لقرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضفي على عيسى ابن مريم عليهما السلام صفات الألوهية، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد»<sup>(١)</sup>. بشيء، لأجل هذا كان تقديم قصة زكريا ويحيى عليه السلام (توطئة وتمهيداً) لبيان حقيقة عيسى عليه السلام وأمه وبراءتها مما نسب إليها، لأن كلا الفريقين من (يهود و نصارى) اعترف بأمر يحيى عليه السلام<sup>(٢)</sup>.

• ذكر البقاعي أن قصة زكريا عليه السلام، أعظم في تبيكيت اليهود لمباشرتهم قتله، وقتل ولده يحيى عليهما السلام فوقع تقديمهما<sup>(٣)</sup>.

• وضّحت أهمية العلاقة الأسرية وفي مقدمتها الأبوة ودورها وحقوقها بصورة تناسبية مع عبادة الله تعالى وتوحيده، وما تستلزمه هذه العبادة من إعطاء الآخرين حقوقهم كاملة وفي أولهم الآباء.

### ثالثاً- البناء الهيكلي والعضوي لقصة مريم وعيسى عليهما السلام:

#### مدخل للقصة:

كانت مريم بنت عمران عليها السلام من ضمن المصطفين الذين اصطفاهم الله تعالى برحمته وهباته وأرزاقه كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣٣)</sup> ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم<sup>(٤)</sup>.

حيث كانت مريم بنت عمران من جملة ذرية آل عمران الذين وقع عليهم الاصطفاء والتفضيل<sup>(٥)</sup> فنادت الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤٢)</sup> فوقع لها الاصطفاء منه سبحانه من ناحيتين:

• اصطفاء بالصلاح والتقوى واجتباء بالخلق السوي، بداية من استجابة دعاء أمها، وتحريرها لخدمة بيت المقدس، وطهارتها من الرذائل وما ألحقه بها اليهود عليهم لعنة الله تعالى.

١- سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٥.

٢- ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٠٣.

٣- ينظر، البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٢٦.

٤- سورة آل عمران، آية ٣٣-٣٤.

٥- ولقد قيل: "عينت مريم باسمها في القرآن، ولم يذكر فيه اسم امرأة فرعون، ولا امرأة نوح، ولا لوط، ولا أسماء غيرهن من النساء، ردا على نصارى نجران، لأنهم كانوا يضيفونها إلى الله ويعتقدون أنها زوجة له، وأن عيسى ابنه، وكان من عادة العرب أنهم يكونون عن الزوجات، ولا يذكرونهن بأسمائهن... فذكرت مريم باسمها، تنبيها على أنها أمة الله وردا على النصارى اعتقادهم " أحمد بن محمد البسيبي التونسي: التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، تحقيق عبد الله الطواله، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ط١، ج ٢، ص ٥٣٥.

٦- سورة آل عمران، آية ٤٢.

• واصطفاء باختيارها من بين نساء العالمين لأمر ولادة عيسى عليه السلام من غير تدخل للذكر في ذلك، فخصها الله عز وجل بهذه النعمة والفضل»<sup>(١)</sup>.

وهكذا جمع الله تعالى لها عدة مواهب ونعم تتطلب دوام الشكر والعبادة أمرها الله سبحانه بالقنوت في قوله: ﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

والقرآن الكريم من خلال هذه السورة بين أفكاره ومقاصده، ليوضح المعجزة العظيمة للجميع عن طريق توظيف العنصر القصصي، كاشفاً أسرار حادثة تُعد الأَعْجَب في تاريخ البشرية، بعد معجزة خلق آدم من تراب وحواء من جنسه، ومنفياً ما لُقِّفَ فيها من خرافات وأساطير.

وفي قصة مريم عليها السلام تبرز وجه المناسبة بينها وبين قصة زكريا عليه السلام من حيث الاشتراك في (الأمر المستغرب المعجز - تحقق الرحمة - طهارة الوالد و المولود والمولد) وهي أفكار يفصح عنها البناء الهندسي ومضمونه في السورة الكريمة<sup>(٣)</sup>.

وسنلاحظ قدرة السياق القصصي في إخراج القصة في مشاهد مثيرة ومشوقة، حافلة بالعواطف والانفعالات، التي تهز المتلقي، فكأنما المشاهد والمواقف ماثلة أمامه<sup>(٤)</sup>.

**وبالنظر للقصة نجدها تمثلت في ثلاثة مشاهد، اندرجت تحتها عدة لقطات مصورة لها هي:**

- المشهد الأول: (الخلوة والمفاجأة بالمعجزة الإلهية) الذي مثل مقدمة القصة.
- المشهد الثاني: (رحمة الله ونفحاته) الذي مثل وسط القصة.
- المشهد الثالث: (مواجهة الافتراءات والأكاذيب بالمعجزة القاطعة) الذي مثل خاتمة القصة.

**أولاً - المشهد الأول: (الخلوة والمفاجأة بالمعجزة الإلهية):**

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

١- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٠٤ - ١٠٥.

٢- سورة آل عمران، آية ٤٣.

٣- محمود البستاني: المنهج البنائي للقرآن الكريم، ص ٧٦.

٤- ينظر، سيد قطب: في ظلال القرآن: مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٥.





## ❖ اللقطة الأولى - (قطع الخلوة بمفاجأة الملك):

بما أن مريم عليها السلام منذورة عبادياً، نجد المشهد الأول يرسمها صالحة عابدة ومنعزلة عن الناس في مكان شرقي<sup>(١)</sup>، ولقد ابتدأ السياق بفعل الأمر (اذكر)<sup>(٢)</sup>: (أَيُّ أَتْلُ يَا مُحَمَّدُ خَبْرَ مَرْيَمَ الَّذِي نَقَصُّهُ عَلَيْكَ)، وفي افتتاح القصة بهذا الأسلوب يعطيها قدراً واهتماماً ومنزلة رفيعة، كما تزيد من تشويق المتلقين لمعرفة غوامض قصتها وأسرار حوادثها.

وبمتابعة المشهد نجد أن مريم عليها السلام بخلوتها اتخذت حجاباً يبعدها عن أعين الناس، قد اطمأنت فيه وارتاحت، غير أنها سرعان ما تنقطع تلك الخلوة بمفاجأة تهز قلبها وترعد كيائها، فتنتفض انتفاضة العذراء المذعورة، فما الذي رآته؟ وما الذي هزها؟ إنه رجل سوي مكتمل الشباب، إنه الملك على صورة بشر: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ كيف جاء؟ ومن أين جاء؟ ماذا تقول وماذا تفعل؟

## ❖ اللقطة الثانية (المحاورة والبشارة بخلق الولد المعجزة)

لا حيلة للسيدة مريم عليها السلام سوى المحاورة لمعرفة ما تخفيه نفسه: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ لم تجد حيلة إلا أن تلجأ لله خالقها وبارئها، وهي الضعيفة الوحيدة فاستعادت بإطلاق اسم الرحمن «لأنها كانت تدرك مدلول هذا الاسم العظيم منذ ولادتها باستدرا رعايته وعطفه وحنانه»<sup>(٣)</sup>، كما أن استعادتها تستجلب بها رحمة الله في هذا الموقف لكي يلملم شعث خوفها وحيائها، ولتكون الاستعاذة سبباً في تذكير الرجل المائل أمامها بالرحمة، فتستثيرها في قلبه.

كما نجدها تذكّر الرجل بقولها (إن كنت تقياً) لأن «التقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغه الشيطان»<sup>(٤)</sup>.

وهنا تستشعر مريم عليها السلام رقابة الله تعالى وتترجم: تلك العبادات الروحانية التي تربت عليها، وخلت بها أياماً وسنين بتفعيل معنى العبودية لله تعالى، الذي يملك زمام الأمور ومقاديرها.

١- أي أن مريم عليها السلام خرجت إلى جهة شرقية من المحراب، الذي كانت تتعبد فيه، ولذلك اتخذ النصارى المسيحيون قبلتهم المشرق أبداً، والقرآن لم يشر إلي كون هذا المكان بعيداً أو قريباً من بيت المقدس، ولا إلى صفة هذا المكان وحجمه، وإنما اكتفى بالإشارة فقط إلى انتبازها مكاناً شرقياً، واتخاذها من دون أهلها حجاباً للتستر فيه، وكذلك لم يبين القرآن السبب لهذا الخروج، فمنهم من أشار أنها كانت تتخلى للعبادة، ومنهم من أشار أن خروجها كان لتقضي أيام طمئتها إلى غيرها من الآراء المتعددة. ينظر: بيوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن، ص ٥٢، و الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٧٤.

٢- جملة (واذكر في الكتاب مريم) عطف على جملة (ذكر رحمة ربك) أي عطف قصة على قصة فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية، على أن ذلك الإتحاد ليس بملتزم، وعلى أن يمكن اعتبار "ذكر رحمة ربك عبده زكريا" مصدراً وقع بدلا من فعله، ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ٧٨.

٣- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٠٦.

٤- سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٥.

ولكن الرجل المائل أمامها سرعان ما طمأنها بالكشف عن هويته: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٨﴾

## فَحَمَلٌ فِي رَدِّهِ عِدَّةٌ نِعَم:

- نعمة اصطفاؤها بإرسال الملك لها ليبشرها.
- نعمة الهبة والبشارة بالولد الزكي.
- نعمة جعل عيسى عليه السلام آية للناس، وهذا رحمة وكرامة له ولها كما سيوضح لنا ذلك في رده.

ولكننا نجد مريم عليها السلام تتفاجأ مرة ثانية فتنتقل من سؤالها عن حقيقة الرجل إلى البحث عن كيفية مجيء الغلام بدون مس بشر، حيث سبب لها هذا القول ردة فعل ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ فتجدها تبرئ نفسها بهذا الحوار، و«محاورتها للملك كانت محاولة قصدت بها صرفه عما جاء لأجله، لأنها علمت أنه مرسل من الله، فأرادت مراجعة ربها في أمر لم تطلقه، كما راجعه إبراهيم عليه السلام في قوم لوط... ومعنى المحاورة أن ذلك يجر لها ضراً عظيماً إذ هي مخطوبة لرجل لم يبين بها فكيف يتلقى الناس منها الإتيان بولد من غير أب معروف...»<sup>(١)</sup>.

كما أنها تبرئ نفسها من فعل البغاء «بما يقتضيه فعل الكون من تمكن الوصف الذي هو خبر الكون، والمقصود منها تأكيد النفي»<sup>(٢)</sup> على عدم البغاء.

وبعد محاولات تبرئة النفس، والتي تلمسنا فيها معنى الرقابة والورع<sup>(٣)</sup>، نجد الملك يرد عليها قائلاً: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾.

فهنا يشير الملك إلى قضاء الله ونفاذه، فالأمر على الله هين، فكما أعطى زكرياً عليه السلام وزوجته ابناً، وخلق من قبل آدم عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، فهو قادر على أن يخلق منك ابناً من دون أب، وهذا جميعه برهان للناس على قدرة الله تعالى وتصريفه الأمور الكونية كما يشاء وكيف يشاء ومتى شاء<sup>(٤)</sup>.

١- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ٨٢.

٢- المرجع السابق، ص ٨٢.

٣- ويمكن القول أن في الآية رد على الذين اختلفوا في أمر مريم عليها السلام: رد على إفراط النصارى في ادعائهم الألوهية لمريم، وإلحاقها بصفات الكمال الإلهي - تعالى الله عن افتراءاتهم - بإعتبار أن الفقر والحاجة تتنافى أمام صفات الله تعالى وكماله. وكذلك رد على تقريظ اليهود الذي نسبوها إلى الفاحشة بهتاناً وزوراً، مع علمهم بنزاهتها وتقواها، وذلك لأن لجوءها لله بالاستعاذة عند مفاجأتها وخوفها على نفسها وعرضها يقضي إلى طهرها وعفافها بتصريف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٠٧.

٤- بتصريف، وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١٦، ص ٧٠.





وكما يشير الخطاب إلى تمام انقضاء الأمر والفرغ من الخلق، ويعطي لمحة إلى إعطاء مريم عليها السلام الطمأنينة بعدم مجادلتها في الأمر بكونه واقعاً في علم الله تعالى، الذي يجب أن تؤمن به في قضائه وقدره، وفيها إشارة مرجعية إلى أن هذا القضاء يحمل في طياته الكثير من العظمة والمنزلة لأصحابه، والذي يكشف بالدرجة الأولى عن هذه المنزلة قوله (آية للناس)<sup>(١)</sup>.

وهنا ينتهي الحوار في المشهد الأول وتظهر فجوة من فجوات العرض الفنية التي تتيح للخيال أن يسبح في التفكير في قدرة الله تعالى، وكيفيه تأقلم البشر معها<sup>(٢)</sup>، وتعمل على بث نوع من الانفعالات والعوطف التي تستثير الشوق لمعرفة باقي تفاصيل القصة.

### المشهد الثاني: (رحمة الله ونفحاته):

#### ❖ اللقطة الأولى - (الرجاء والرغبة المستتبعة لآلام المخاض).

تمضي القصة في سياقها ومشاهدها لتتأزم أكثر فأكثر وتبدأ الخيوط الفنية بالتشابك، فإذا بنا نجد السيدة مريم عليها السلام، قد تجاوزت مدة الحمل لتصل إلى أواخره، في تدارك سريع للمشهد والسياق، دون أن نعرف زمن الحمل أو كيفيته أو مدته أو مكانه، فالله تعالى أعلم ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾.

وهنا بعد إحساسها بألم المخاض تسارع إلى أن تتخذ لها مكاناً بعيداً عن أعين الناس، لتختار مكاناً وبيئة قصية غير التي كانت بها، ﴿ فَالْجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۝٢٣﴾ اتجهت عليها السلام إلى جذع نخلة قد مالت إليها بما تحمله من آلام المخاض النفسية والجسدية، متمثلة في أضعف حالة تمر بها المرأة من الألم والفرع والخوف، يغلفها الشعور بألم الفضيحة الذي يزيد من آلامها أضعافاً مضاعفة.

وفي هذا الوضع والحال الذي تختلف به عن النساء الأخريات اللاتي يغلفن آلامهن بالفرح والسرور المنبعث من قلوبهن وقلوب المرتقبين حولهن للمولود الجديد، فيهنون عليهن المصاب والجلل، نجد السيدة مريم عليها السلام ترفع صوتها محاورة نفسها صارخة، في ردة فعل طبيعية من امرأة عفيفة طاهرة قائلة ﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۝٢٣﴾.

فعلى الرغم من أجواء اليقين القلبي، والرسائل السماوية التي حاورها بها الملك لبث الطمأنينة فيها، فإنها تجد نفسها محاصرة بضغط اجتماعي تفرضها عليها البيئة التي عاشت فيها والكيفية

١- ولقد ذكر ابن عاشور أن هناك التفاتاً في الآية الكريمة "من طريقة الغيبة إلى طريقة المتكلم في الآية يفيد أن كرامة الله لمريم تتمثل في الغلام الزكي، وكرامته لابنها تتمثل في كونه آية للناس ورحمة" بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ١، ج ١٦، ص ٨٣.

٢- ينظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٢٠٦.



التي تربت عليها.

ولعلنا نجد أن إبراز القصة وتصويرها لهذه اللقطة في خصوصيتها شكلاً ومضموناً ينطوي على دلالة خاصة هي:

- «مشروعية مثل هذا الإحساس، تعبيراً عن شدة الحياء وكونه ليس حرصاً على مجرد السمعة الاجتماعية بل حرصاً على السمعة العبادية»<sup>(١)</sup>.
- كما أنها تنطوي على عظمة الابتلاء التي يمر بها أولياء الله الصالحين، والتي تقسر سبب نيلهم لمرضاة الله ورحمته، وتوضح مميزات الاصطفاء التي جعلت هؤلاء الشخصيات سبباً للهبّة والعطاء.
- هذه الحالة الخاصة التي تمر بها المرأة بالذات (من آلام المخاض وشدتها) تدفع بها إلى إدراكها حقيقة الإيمان بالله وعبوديته وحده، إذ إنها تتناهبها مشاعر الوحدة والقلق والغلبة التي تدفعها إلى الدعاء الخالص الصادق من قلب مبتلى، قد ضاقت عليه السبل والطرق، بحيث لم تجد منفذاً لها ولا خلاصاً إلا بالفرار إلى ربها، الذي يرسل رحماته وفضله لعباده المخلصين ولمن أدرك أبعاد وعمق هذا الشعور ألا وهو: لا ملجأ ولا منجى إلا إليه.

### ❖ اللقطة الثانية - (تأييد وتثبيت):

وبعد تلك المناداة بأن تكون نسياً منسياً، لا يذكرها أحد ولا يعلم بها أحد، وكأنها لم تكن موجودة أساساً، تنفجر الكربة وتأتي بوادر البشائر بانجلائها، لتكون مريم بنت عمران عليها السلام أشهر نساء العالمين بصبرها وعفافها وإيمانها، فيهيئ الله تعالى لها بيئةً جميلة تريح نفسها وتهدي من روعها، ونكتشف من خلالها دور القصة الوظيفي والفني في تركيز أضوائها على عنصر المكان، بقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنُ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحَيْكَ تَرْجَعِينَ ﴿٢٥﴾ فَكُلِّي وَآسْرِي وَإِنِّي لَأَمْرٌ إِذْ يَكْفِي لَكِ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿٢٦﴾ فَكُلِّي وَآسْرِي وَإِنِّي لَأَمْرٌ إِذْ يَكْفِي لَكِ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿٢٦﴾ فَكُلِّي وَآسْرِي وَإِنِّي لَأَمْرٌ إِذْ يَكْفِي لَكِ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿٢٦﴾

ولقد قيل المناداة في القصة قد تكون من جبريل عليه السلام، وقيل: من عيسى عليه السلام، وهو الراجح<sup>(٢)</sup>، فأنطقه الله عز وجل تطيباً لقلبها وإزالة لوحشتها وبياناً لأول بشائر الملك لها من علو شأن ذلك الولد<sup>(٣)</sup>.

ومن ثم فإن «كلامه عليه السلام بأفصح بيان وأبلغ لسان وهو لا يزال في طور خروجه من بطن

١- محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج٣، ص ٨٠.

٢- ينظر لأدلة العلماء وأرائهم عند الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٧٤، و البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والصور، مجلد ٤، ص ٥٢٩.

٣- ينظر، الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٧٤.





أمر يعتبر معجزة عظيمة ثانية - بعد معجزة ولادته من غير أب- دال على عظمة الخالق وكمال قدرته<sup>(١)</sup>.

ومما يزيد عناية الله تعالى لها هو إحاطتها بـ (ظروف مكانية) تناسب حالتها الضعيفة ونفسيتها المتعبة، فلقد هيا الله لها نهراً<sup>(٢)</sup> تحت قدمها تشرب منه وتتطهر به، ثم أمرت بهز الجذع، وقد كان يابساً - حسب النصوص المفسرة - فأورق وأثمر رطباً جنياً<sup>(٣)</sup>، كما أننا نشاهد تلك الجمالية لكل من النهر والنخلة والتمر في البقعة الخاصة التي احتوت السيدة مريم عليها السلام، وما أضفته من ترابط فني ساهم في تفريغ الشدة عن مريم عليها السلام، وتقابلت فنياً باعتبارها بيئة خارجية مع البيئة النفسية الداخلية لها، وبخاصة بعد قوله تعالى (وقري عيناً) مما يشكل هذا التجانس أشد مستويات الإثارة الفنية لدى المتلقي<sup>(٤)</sup>، وإقرار العين هنا يحتمل الكثير من الاحتمالات ومنها:

- إقرار عينها بالأمور الخوارق الخارجية عن العادة.
- إقرار عينها بالراحة النفسية بمناداة سيدنا عيسى عليه السلام، والراحة الجسدية بتوفير لها ما تحتاجه من الطعام والماء لكي يقوي جسدها بعد أن ضعف.
- إقرار عينها بسلامة سيدنا عيسى عليه السلام ونباهة شأنه<sup>(٥)</sup>.

### ❖ اللقطة الثالثة - (أمر وتنبه):

وأخيراً تظهر لنا نهاية هذا المشهد بعد تلك المشاعر والعواطف تجاه الأمور الخارجة عن العادة، بإغداق الله تعالى كراماته على السيدة مريم عليها السلام، بأن يكتفيها عناء ومشقة مواجهة قومها مطالباً لها: بأن تلتزم جانب الصمت حيال كل من يحاول إثارة الأسئلة عن حقيقة ما حدث وكيفية وماهيته، قائلاً: ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾<sup>(٦)</sup>.

١- حدة سابق: الوحدة الموضوعية سورة مريم، ص ١١٢.  
٢- اختلف العلماء في هذه المعجزة بين النهر أو الجدول.  
٣- كما أننا نستشف مشاركة الخطاب في الحنو على مريم العذراء عليها السلام لفظاً ومعنى باستخدام لفظة (إليك)، إذ التحريك الطبيعي للجذع يكون بعملية الهز المعتادة، والتي قد يصحبها بعض من القوة والشدة ليتحقق السقوط للثمار، ولكن الله تعالى اكتفى بأمرها بالهز الذي يتناسب مع طاقتها الجسدية المنهكة، فيتحقق السقوط بالحركة البسيطة، وهذا يدل على أهمية الأخذ بالأسباب ببذل الجهد والسعي لكسب الرزق حتى في الأوقات العصيبة، كما أن الله تعالى في القصة يوضح قيمة (الرطب) للنفساء الذي يعيد لها قوتها وصحتها، والذي يعد أنسب الأطعمة للنفساء على الإطلاق، وهذا ما توصل إليه العلم حديثاً بإحصائهم فوائد الرطب، ينظر:  
- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١١٢.  
بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ٦٩ - ٧٠.  
ابن عاشور: التحرير والتنوير: مجلد ٢١-٢٢ ص ٧٨ - ٨٨ - ٨٩.  
محمود البستاني: المنهج البنائي للقرآن الكريم: ج ٣، ص ٨٠.  
٤- بتصرف، محمود البستاني: المنهج البنائي للقرآن الكريم ج ٣، ص ٨٠.  
٥- ينظر، ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ٨٩.

ومن (الوجهة الفنية)، نجد جواباً فنياً لردة فعل السيدة مريم عليها السلام المتمثلة في تمنيها أن تكون نسياً منسياً، والذي يحمل في طيات هذا النداء من انعكاس مستقبل الحدث القصصي فيما بعد، فالله يكفيها المؤنة بأن يسخر لها من يدافع عنها ويظهر براءتها، فالله المبتي لها بهذا الابتداء لغاية محددة وهدف مرسوم، وهو القادر على إخراجها منه بريئة مطهرة من كل افتراء أو إفك.

كما أن الله تعالى لم يُردّها أن تتكل على أسباب البشر الضعيفة بالمداغة عن نفسها بأساليب النفي والإخبار، بل أراد أن تتحقق البراءة بطريقة حكيمة قوية، تُفنع الناس بكيفية لم تخطر على بالهم، في الوقت الذي تكون فيه مريم مطمئنة مستقرة، وإننا لنستشف هذه الطمأنينة بقول الله تعالى لها رابطاً إياها بخلق العبادة في أمره قائلًا: (فقولي: إني نذرت... بدلاً من قوله لها قولي لا أكلم أو لا أحدث أحد، فالنذر) أقرب لسد ذريعة الخطأ أو العصيان في الأمر، كما يحمل تنبيهات للقوم على<sup>(١)</sup>:

- أنها لا تزال على إخلاصها لله تعالى وعبادتها.
- أنها تجبر القوم على احترام نذرها وعبادتها فلا يلزمونها بشيء ينافي ما نذرته.

ويأتي بعد نهاية المشهد السابق الذي وجدنا له تنامياً من البداية إلى الوسط إلى الخاتمة، فجوة جديدة لا نعلم ما تخلصها من وقت ومكان وحدث وشخصيات، فيرسم الخيال عند المتلقي كيفية الانتقال من مشهد إلى مشهد، متلهفاً ومتشوقاً لمعرفة كيفية المواجهة مع القوم وردود أفعالهم.

### المشهد الثالث: (مواجهة الافتراءات والأكاذيب بالمعجزة القاطعة)

#### ❖ اللقطة الأولى - (الخروج للقوم وتحمل الأذى النفسي):

بعد أن اطمأنت مريم لقضاء الله تعالى، واستشعرت تأييده لها بما أغدقه عليها من مواهب ورحمات، حملت ابنها الوليد إلى قومها، وجاءت الساعة التي كانت تخشاها وترقبها على مضض ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً، قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾<sup>(١٧)</sup> يَتَأَخَتُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾<sup>(١٨)</sup>.

هنا وفي هذا الموقف الذي حمل في طياته معاني الثقة بالله والتوكل عليه، والمعينة اليقينية الصادقة التي لا يعكر صفوها الترهات الضالة، والافتراءات المنحرفة، نتخيل حال القوم وقد علاهم الدهشة والتساؤل: (العدراء البتول صاحبة العبادة والقربى تحمل بين جنبيها طفلاً!! كيف ومتى وأين!!؟)

١- بتصرف، بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ٧٤.





فأخذوا يرسلون النداءات المتتالية لمريم بقولهم (يا مريم - يا أخت هارون) <sup>(١)</sup> التي تقرر الأسماع والقلوب، والتي تحمل في طياتها عدة معانٍ ساعدت على رسم ذلك المشهد حسيّاً، ومنها:

- فجيعة القوم ومفاجأتهم بهذا الموقف.
- الإشعار بجو التهكم والسخرية المغلف بالتقريع والتأنيب للعابدة الطاهرة.
- التعبير عن شناعة ما جاءت به بنفي تلك الصفة عن أهلها، إذ كان بيتها بيت صلاح وعبادة، فأخوها صالح، وأبوها تقي وأمها طاهرة.
- الإقرار بصلاح الأسرة هنا فيه تقرير عن الدهشة التي سيطرت على عقول القوم حيث إن «ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش، وفيه دليل على أن الفروع غالباً تكون زاكية إذا زكت الأصول، وينكر عليها إذا جاءت بصد ذلك» <sup>(٢)</sup>.

وبعد تأزم الموقف نجد القصة تعرض لنا (لقطة نهاية الصراع) بإشارة مريم عليها السلام إلى المولود الصغير، والذي حمل في طياته معاني السمع والطاعة لمعبودها الذي أمرها بهذا الفعل ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ <sup>(٣)</sup> فكيف يعقل أن يتكلم من كان في المهد !!!

ففي هذا المشهد نجد إشارة إلى بداية قصة جديدة هي قصة عيسى عليه السلام، وصراعه الطويل مع قومه، ففي قصة مريم وعيسى عليهما السلام بناء قصصي يتسم بجمالية فائقة من حيث كونها تخضع لإمكانية ما يسمى (بالقصة المتداخلة والقصة المستقلة) <sup>(٤)</sup>.

فكونها متداخلة فلأن مريم عليها السلام لا تزال تسهم فيها بدور مهم، وهو إتيانها بالمولود إلى القوم، ومحاورتها معهم وإشارتها إلى أن يوجّهوا أسئلتهم للصبوي.

وأما كونها مستقلة: فلأن عيسى عليه السلام يبدأ بالتحرّك من خلال ولادته بطلاً لقصة سوف توضح شخصيته ودور رسالته السامية.

وبالعودة إلى (الموقف التحقيقي) الذي فرضه قوم مريم عليها، وخروجها منه بالإشارة إلى الطفل في المهد، يكون نهاية دور السيدة مريم عليها السلام في القصة، وبداية لمشهد جديد بطلها عيسى عليه السلام، ولكنها قبل توقّف هذا الدور جسدت للمتلقّي لحظة الإنارة - حسب اللغة القصصية - للذروة التي بلغت حوادث القصة، إذ بموقفها النهائي من (الإشارة) تجعل المتلقّي

١- اختلفوا العلماء في شخصية هارون ونسبه، ونحن لا يعيننا اختلاف المفسرين فيه، بقدر ما يهمننا (صلاحه وتقواه) مما يجعل القوم يقرنون مريم به، وينسبون لها إليه، ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ٩٦.

٢- الألوسي: روح المعاني، ج ١٥، ص ٨٨.

٣- بتصرف، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ص ٨١.

يتلهف لمعرفة ما ستسفر عنه الأحداث من مواقف ومفاجآت<sup>(١)</sup>.

## ❖ اللقطة الثانية (الكشف عن أستار الحقيقة بنطق المولود في المهد):

نجد السياق القرآني هنا قد وظف مشهد (المولود الرضيع المشار إليه للإجابة عن أسئلة القوم) منطلقاً لترسيخ حقائق العبودية الخالصة، حيث يقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِنْبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾<sup>(٣١)</sup>

حيث أنطق الله تعالى المولود في محاوره معجزة في المهد، تزيد على معجزة خلقه من أم دون أب عجباً ودهشة، إلى جانب أن هذه المحاوره تقودنا إلى دلالات ذات حقائق عقلية ومعنوية عدة، منها:

- الصدمة القوية لأصحاب العقول في مواجهتهم معجزة نطق الوليد.
- العبارات المنطوقة ذات دلالات قاطعة لكل وهم وزيف، بإعلان العبودية الخالصة لله (إني عبد الله) بكل ما تحمله هذه العبودية من ذل ونقص وحاجة لرحمة الله وفضله ومرضاته.
- تدل على (الأمانة العظيمة) التي يحملها هذا الوليد من (إتيانه الكتاب) من أجل تبليغه للقوم، وحمل ثقل النبوة التي اصطفى بها عن سائر خلق الله تعالى، من غير حول منه ولا قوة، وهذا ما نستشفه من دلالة الفعل الماضي في (أتاني) و (جعلني).
- (المباركة) التي تستتبع الفضل والرزق، وهي هنا بيان واضح بأنه بركة لبني إسرائيل بهدايتهم بعد الضلال، وبتوفيقهم إلى الخير بعد التخبط.
- الوصية بـ (الصلاة والزكاة) لتحمل دلالة بشريته التي تحتاج إلى كل ما يرفع مكانتها عند الله عز وجل، وأما قوله (ما دمت حيا) تُعد قرينة للوصية تدل على خصوصيته في التزام الأمر وعدم الحياد عنه<sup>(٢)</sup>.
- إن وصية الله له بـ (بر والدته)، لتؤكد على بشريته التي ترجعه إلى حاجته الفطرية لوالدته وحاجتها له، وهذه الحاجة تدل على ضعف صاحبها وعجزه.
- إن هذا البر يعكس حقيقة المرأة الطاهرة، التي يرد لها الابن المعروف والفضل بالجزاء الحسن

١- بتصريف، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج٣، ص ٨٣.

٢- «أي أن يصلي ويتصدق في أوقات التمكن من ذلك، أي غير أوقات الدعوة أو الضرورات، فالاستغراق المستفاد من قوله (ما دمت حيا) استغراق عري في مراد به الكثرة، وليس المراد الصلاة والصدقة المفروضتين على أمته، لأن سياق الكلام في أوصاف تميز بها عيسى عليه السلام ولأنه لم يشرع صلاة زائدة على ما شرعه في التوراة» ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٠٠-١٠١.





من برّ ورحمة، كما أنه يؤكد براءة عِرْضِ والدته ونقائه، وبيان بأنه خَلَقَ من خَلْقِ الله، الذي إذا أراد شيئاً قال له (كن فيكون)، فسبحان الله جل في علاه.

• تعميق (مفهوم الرسالة) وصفات حاملها من نفي التجبر والشقاوة، التي تناسب مكانة الأمر العظيم الذي يَحْمِلُهُ، فالدعوة تحتاج للين الجانب وسعة الخلق لكي يصل للحق و الهداية مع أولئك البشر من أصحاب الضلال وضيق الأفق.

• كما أننا نجد التالي السريع للرد الصريح في حوار عيسى عليه السلام، الذي يدل على بشريته، ونفي الألوهية عنه، وما نسبوه إلى الله افتراء، بأن يقرر حقيقة حفظه وسلامته في ثلاثة أطوار: يوم الولادة ويوم موته ويوم بعثته، والنص صريح في عبارة الحوار الأخيرة على موت عيسى عليه السلام، وبعثه في سلامة وأمن، وهو لا يحتمل التأويل ولا الجدل<sup>(١)</sup>.

• وكما أننا نتلمس في قول عيسى عليه السلام بالسلامة والأمن والطمأنينة في الأطوار الثلاث، التمهيد من عند الله تعالى للرد على اليهود إذا طعنوا فيه وشتموه «فقالوا: وكُذ من زنى، وقالوا مات مصلوباً، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة، لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكام من التوراة»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا نجد الستار يسدل بالمشهد الحوارى لينهي القصة، ويفسح المجال لذوي العقول في التفكر في جملة المحتويات الفكرية ودلالاتها، التي تستهدف الإقناع والتدليل للمتلقي.

ولا يزال السياق القرآني بعد أن قشعت الغمة واللبس في حقيقة مريم وعيسى عليهما السلام يعقّب على القصة<sup>(٣)</sup>، بتأكيدات تُبَيِّنُ مراده مما حدث ومما سرد، ونلاحظ أن هذا (التعقيب الختامي) للقصة انقسم لقسمين يربط بينهما نوع من (التقابل المتنامي) وظفه السياق القرآني بشكل مقصود في هذا الموقع وبصورة دلالية وفنية في آن واحد.

فها هو يبيث بعضاً من الحقائق القاطعة والمؤكدة للأهداف والأغراض المقصودة من عرض القصة في هذه السورة، ففي القسم الأول من هذه التعقيبات يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾<sup>(٣٥)</sup> مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ<sup>(٣٦)</sup> وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ<sup>(٣٦)</sup>.

١- ينظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٨.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٠١.

٣- والتعقيب بعد القصص قسمان: - قسم يتكرر فيه تعقيب واحد بعد كل قصة من القصص التي تسرد في سياق السورة الواحدة. - وقسم ثاني يتنوع فيه التعقيب، ويتضمن في الغالب التذكير بالغاية من قص أخبار الأنبياء في القرآن، ويأتي في أماكن مختلفة من العرض القصصي: فتارة يأتي في مستهل العرض القصصي، وتارة في تضاعفه وتارة في نهايته، وقصتنا هنا تتبع النوع الأخير من التعقيب الختامي، ينظر، أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٥.

## فهنا يرسم التعقيب في السياق:

- الغرض المقصود في أنسب موضع وأبرز صورة، بلغة التقرير وإيقاعه<sup>(١)</sup>.
- الإشارة إلى تمييز عيسى عليه السلام بأكمل تمييز وإظهار نسبته لأمه بقوله (ذلك عيسى ابن مريم) تعريضاً<sup>(٢)</sup>، بالرد على اليهود والنصارى جميعاً، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفع النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ ومبطل، فبين لهم الحق في حقيقة عيسى عليه السلام وصفته<sup>(٣)</sup>.
- الإقرار بانتفاء الولد عن الله تعالى وتزهره عنه، فصفة الألوهية تقتضي أن لا يكون لله صاحبة ولا ولد - علا الله عما يقولون ويفترونه علواً كبيراً - فهو القادر الخالق الذي يحقق ما يريد «بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين»<sup>(٤)</sup>.
- إقرار من عيسى عليه السلام في مقولته بربوبية الله تعالى، التي ابتدأها في بداية محاورته مع القوم، حيث قال الله تعالى على لسانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup> فالله وحده مستحق للعبادة، «لأن العبادة نتيجة حتمية للربوبية، والناس جميعاً مربوبون له وحده لا شريك له، فالذي يستحق أن يعبد هو المتفضل على خلقه بالنعمة والمتولي لتربيتهم، والتربية تقتضي رعاية قِيومية حتى يستوفوا آجالهم»<sup>(٥)</sup>، ولكي تتحقق هذه الأمور لابد من إتباع الطريق المستقيم الواضح، الذي لا يحيد ولا يلتوي.

وأما في القسم الثاني من التعقيب يقول الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٦)</sup> أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَا تَوَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ<sup>(٧)</sup> وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>(٨)</sup> إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ<sup>(٩)</sup>.

نجد أبعاداً من الدلالات الفكرية والعضوية التي أراد السياق تثبيتها وتوضيحها في التعقيب ومنها:

- فإنه على الرغم من وضوح دعوة عيسى بن مريم عليهما السلام إلا أن بني إسرائيل اختلفوا فيه بين الإفراط والتعريط، وهذه سمه أصبح بنو إسرائيل موسومين بها.
- التوعد والتهديد لكل من خالف وعارض وافترى على الله تعالى بغير حق، بأسلوب التهويل

١- بتصريف، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٨.

٢- والتعريض سمة من سمات الأساليب القرآنية وستعرض له في موقع لاحق من البحث.

٣- بتصريف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٠٢.

٤- سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣٠٨.

٥- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٢٣.

والتفخيم المستفاد من التنكير في الآية الكريمة: ﴿قَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧) ودخول من افترى في زمرة الكافرين يوم القيامة.

• التهكم والتعريض بالتعجب<sup>(١)</sup> بمن ضل وضاع في تخبطاته، على الرغم من توفر أسباب الهداية من السمع والبصر اللذين يقودان إلى الهداية والنجاة، والتعجب من مدى قدرتهم وطاقاتهم التي يسمعون وينظرون بها لكل ما يكرهونه ويستصعبونه يوم القيامة جزاءً بما كانوا يعملون<sup>(٢)</sup> ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨)

• الإنذار بالتخويف بذلك اليوم الذي تعمه الحشرات نتيجة الانشغال بالأهواء والشهوات.

• ويختتم التعقيب النهائي للقصة على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ (٤٠)، وهنا قد أفاد التعريف تهديد المشركين بأنهم لا مفر لهم من الله تعالى، «والتعبير بالإرث فيه إشارة إلى موتهم، لأن الوارث لا يرث إلا بعد موت الموروث»<sup>(٣)</sup>، وأن آلهتهم ليست مرجوة لنفعهم إذ ما هي إلا ما يرثه الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

وقبل الشروع في القصة التالية لقصة مريم وعيسى عليها السلام، لابد من إيضاح مستويات التلاحم والترابط العضوي في أجزاء القصة نفسها، وبينها وبين القصص السابقة واللاحقة لها، ومدى التحامها مع الموضوع الرئيسي للسورة.

### أ- الترابط العضوي في أجزاء القصة:

فلقد اتضحت في قصة مريم وعيسى عليهما السلام عدة علاقات عضوية منها: (التمهيد - التنامي - السببية - التجانس - التداعي العضوي).

• **التمهيد:** كانت قصة زكريا تمهيداً حَسُنَ موقعه لتهيئة الجو النفسي والفكري لاستيعاب قصة أعظم منها، تدل على قدرة الله ووحدانيته المطلقة، وهباته وأوليائه الصالحين الذين تمتعوا بسمات العبودية الحقه، ومن ثم التمهيد بالخلوة التي ترتب عليها شأن عظيم.

• **التنامي:** واضح في المشهد الأول من القصة منذ الخلوة وخروج الملك على هيئة رجل للسيدة مريم عليها السلام، والتطورات بعدها بالمحاور، ومن ثم الإشارة وما تلاها من تطورات نفسية وجسدية ومادية سيطرت على المشهد.

١- ف (أسمع وأبصر) صيغتا تعجب على وزن أفعل به. ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٠٧.

٢- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٠٧.

٣- بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ٩٨.

٤- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١١٠.



● **السببية:** نلاحظ بعضاً من العلاقات ذات السببية التي تربط بعض المشاهد ببعضها البعض ومنها:

- قلق السيدة مريم عليها السلام الذي صاحبها في خلوتها بسبب ظهور الملك أمامها على شكل بشر بشكل مفاجئ.

- الآلام النفسية والجسدية، التي كانت بسبب آلام الوضع، والخوف مما بعده بإساءة ظن قومها بها، وهي العفيفة الطاهرة.

- الراحة النفسية التي وهبت بها السيدة مريم عليها السلام من (نطق الوليد - وتوفر الشراب والطعام) كان سبباً لإيمانها وصبرها ويقينها بالله تعالى.

- صومها عن الكلام بسبب أمر الله لها، حفظاً على سلامتها، وصوناً لكرامتها بتوفير لها المدافع والمعين بتأييد من الله تعالى.

- نطق الوليد في المهد كان بسبب، وهو دفع الافتراءات والظنون عن السيدة مريم عليها السلام، وتقديم الحجّة الدامغة على قدرة الله تعالى في خلقه، كما أنه يمهّد للتعريض بمن خالف من اليهود والنصارى في حقيقة شخص سيدنا عيسى عليه السلام.

● **التداعي العضوي:** اتضحت لدينا التداعيات العضوية ذات الأبعاد القريبة والبعيدة، الخاصة بـ (كشف زيف الافتراءات والأكاذيب التي أحيطت بها قصة مريم وميلاد ابنها عيسى عليهما السلام، وما انطوته القصة من دلالات فكرية وعضوية وفنية) تدفع المتلقي لها إلى التداعي المعنوي من زمن سابق إلى زمن لاحق وهو زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والأزمان من بعده، للرد على ما أثاره الكفار والمشركين والمفترين في ذلك الوقت، أو ما يثيره أمثالهم في كل زمان ومكان.

● **التجانس:** وضّح التجانس من خلال التماثل والتضاد في القصة حيث إننا نجد عدة أمور:

### ١. (التجانس من خلال التضاد):

- في بداية المشهد خرجت السيدة مريم عليها السلام عن قومها منقطعة بخلوتها، فتمثل لها الملك على هيئة رجل ليبشرها بالهبات، في حين أنها في بداية المشهد الثالث تدخل على قومها بعد خلوتها في الولادة ليتمثل لها القوم ليشددوا عليها القول والافتراء فتجانس الموقفان عن طريق التضاد.





- في ردود الأفعال التي برزت في شخصية مريم عليها السلام من انفعالات جمعت بين الخوف والرجاء، والآلام النفسية والجسدية، والفرح والحزن، والمحاورة والصمت عن الكلام.

## ٢. (التجانس من خلال التماثل):

- تجانس الرحمة في عدة مواقف متنوعة ومتماثلة جمعت بينها حاجة السيدة مريم عليها السلام لتأييد الله ورحمته ومن أمثلتها:

■ ظهور الملك على شكل بشر رحمة من الله عليها، بما يتناسب مع طاقتها البشرية في استيعابها هيئته، وما ترتب عليها من المحاورة الهادئة المطمئنة لنفس مريم عليها السلام.

■ الرحمة البارزة في نداء المولود لها تهدئة لروعها وفكرها.

■ توفير الشراب والطعام الذي يكفي حاجتها لاستعادة قوتها وملمت ضعفها.

■ الأمر بالصوم عن الكلام رحمة من الله تعالى بها حتى لا تقع في محاورات حادة ومغرضة مع القوم قد يشق عليها الرد والدفاع عن نفسها.

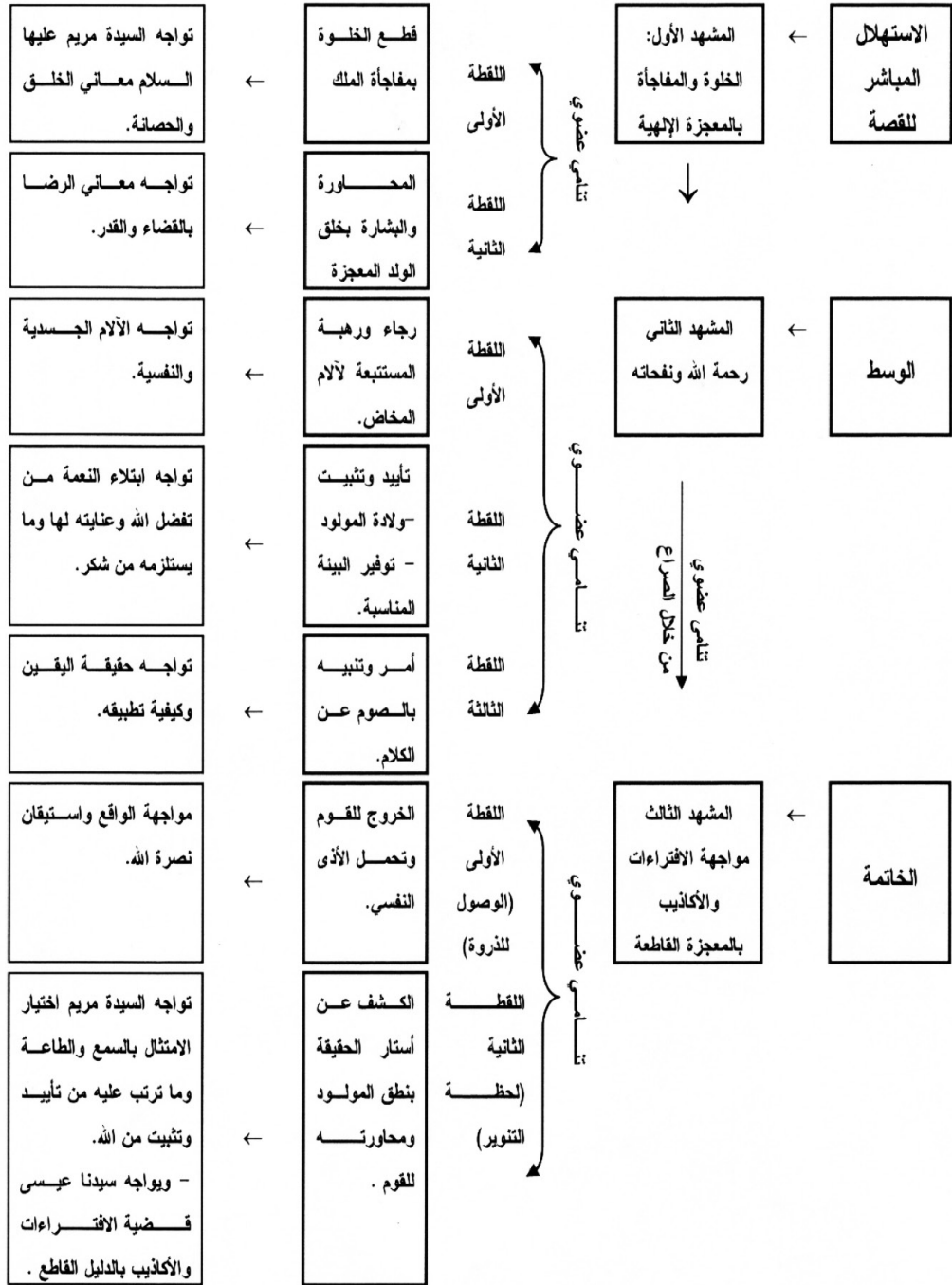
- تجانس جواب عيسى عليه السلام لسؤال القوم في أول محاورة له معهم بقوله: (إني عبد الله) مع ما عقبته به القصة في جزء لاحق للرد على المنحرفين فكراً، ممن نسبوا عيسى عليه السلام إلى الربوبية، أو البنوة وغيرها من الافتراءات الضالة<sup>(١)</sup> في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَيِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤)

وبهذا تتضح لنا أهم الروابط العضوية التي ربطت القصة من أولها إلى آخرها في بناء هندسي محكم، له دوره الوظيفي الفاعل في خدمة المقاصد الأساسية في السورة من إثبات وحدانية الله وعبوديته وتجلي حمايته ورحمته لعباده الصالحين.

١- بتصرف، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج٣، ص ٨٥.

ب- هندسة الترابط الهيكلي والعضوي في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:

وأخصها في الرسم التوضيحي الآتي:



ج- هندسة الترابط العضوي بين قصة زكريا و مريم عليهما السلام من خلال التجانس، والتي ربطت القصتين بصورة محكمة و عجيبة، وإلى التمثيل الذهني الآتي:

قصة مريم عليها السلام	(تجانس من خلال التماثل)	قصة زكريا عليه السلام
المكان الشرقي قد يكون المحراب	←	العزلة العبادية
منذور عبدياً من قبل والدتها لخدمة المسجد ( أنثى صالحة)	←	تميز الشخصية خلقاً وتربية
		(تجانس من خلال التضاد)
ولد من أم شابة دون أب	←	قضية الإيجاب خارجة عن قوانين الكون
قولها (أني يكون لي غلام) تربط بالكيفية من امرأة لم تتزوج فمسها بشر ولم تكن بغيا.	←	ردود الفعل التعجبية حيال الأحداث الجديدة
( قال ربك هو علي هين)	←	الإجابة الواحدة للتساؤلات التعجبية من قبل الله على لسان الملك
بمحاورة الملك لها " ولنجعله آية للناس ورحمة منا "	←	الاشترار في مفهوم الرحمة
بشارة الملك لها بهبة الغلام الزكي دون طلب منها	←	ظاهرة المولد
سمات عيسى عليه السلام	←	تميز البطلين ( المولودين) بسمات خاصة
برّ عيسى بأمه	←	تسليط الأضواء على جانب من جوانب العلاقات الأسرية في الهبة المعطاة
المحراب	→	نبي مرسل ( ذكر صالح)
ولد من شيخ كبير وعجوز عاقر	→	قوله ( أنى يكون لي غلام) يربطه بالكيفية من شيخ كبير وامرأة عاقر.
قوله ( أنى يكون لي غلام) تربطه بالكيفية من شيخ كبير وامرأة عاقر.	→	(قال ربك هو علي هين)
طلب زكريا الهبة من الله تعالى بالولد الرضي وإجابة دعائه.	→	بالاستهلال بآية ( ذكر رحمة ربك عبده زكريا)
سمات يحيى عليه السلام	→	طلب زكريا الهبة من الله تعالى بالولد الرضي وإجابة دعائه.
برّ يحيى بوالديه	→	سمات يحيى عليه السلام



د- هندسة الترابط العضوي بين قصتي يحيى وعيسى عليهما السلام: من خلال التجانس الذي أسهم بدور بارز في اختتام القصتين المندرجتين فيهما، ونوضحه من خلال الجدول الآتي:

### عيسى عليه السلام

### يحيى عليه السلام

من أم دون أب	←	الولادة بنحو معجزة	→	من شيخ كبير وامرأة عاقر
بيت صلاح و تقى كما في الآية " يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا"	←	الأسرة الصالحة التقية	→	بيت النبوة [ زكريا عليه السلام ]
		الإشتراك في السمات		
أعطي الكتاب وجعل نبياً ودلائله النطق في الصغر	←	الكتاب والنبوة	→	أعطي الكتاب والحكم صبياً
( ولم يجعلني جباراً شقياً ) تفيد معنى الطاعة والتواضع	←	أبعد عن التجبر	→	ولم يكن جباراً عصياً فلقد تمثل بالطاعة والتواضع
البر لوالدته " وبرا بوالديتي "	←	البر	→	البر بوالديه " وبرا بوالديه "
جعل موضع تزكية بوصفه بأنه جعل " مباركاً "	←	موضع تزكية	→	جعل موضع تزكية حيث وصف بأنه " كان تقياً "
السلام في ثلاثة مواضع " والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا "	←	السلام <sup>(١)</sup>	→	السلام ثلاثة مواضع وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا

### اختتام القصص بهما

١- «روي أن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا فقال عيسى لحبي: أنت أفضل مني، لأن الله تعالى سلم عليك، وأما أنا فسلمت على نفسي» وقيل أنهما متساويان لأن عيسى وحتى وإن سلم على نفسه، فذلك كلام الله أجراه على لسانه، في الوقت الذي لا ينطق فيه إنسان. بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ٨٧، ينظر، الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٨٤.



١٣٣



هـ - ترابطهما عضويًا مع القصة التالية لها وهي قصة إبراهيم عليه السلام مع والده الذي سأتاوله في حينه بإذن الله.

وبعد العرض المفصل لهذه المستويات من التلاحم والترابط العضوي الذي مثلته قصة مريم وميلاد عيسى عليهما السلام، تبين لنا ذلك البناء الهندسي المحكم، بين أجزاء القصة نفسها وبين القصص السابقة والتالية لها، ومدى دورها في تحقيق وظيفتها الفكرية والفنية التي ترمي لها السورة<sup>(١)</sup>، ومدى انسجامها مع مقاصدها الأساسية، من إثبات لوحانية الله تعالى وعبوديته، وتجلي رحمته وهباته لعباده الصالحين.

### رابعاً: البناء الهيكلي والعضوي لقصة إبراهيم عليه السلام مع والده.

هذه القصة الخامسة من قصص سورة مريم: إن القصص السابقة كانت تمثل وحدة قصصية ذات موضوع متجانس يتصل بالإنجاب بنحو معجز، الذي يقود التأمل فيه إلى وحدانية الله تعالى وقدرته وتنزهه عن الشريك.

ومن ثم ما دام المقام يسير على نفس هذا الاتجاه، فإننا نجد قصة إبراهيم عليه السلام تعالج موضوع (العبودية المطلقة التي تترفع عن الشريك)، وذلك بكون أن إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وأول من أعلن التوحيد، ولذلك فإن ذكره هو غرض من أغراض السورة<sup>(٢)</sup>.

لقد ذكرت سابقاً أن القصة القصيرة تمثل قطاعاً صغيراً من الحياة وتعرض له بصورة قوية وسريعة في تعبيرات مركزة ومشاعة لتبلغ غايتها في أقصر وقت<sup>(٣)</sup> وهذا ما نلاحظه بصورة جلية في قصة إبراهيم عليه السلام.

ونلاحظ أن القصة قد مثلت مشهداً واحداً أسفر عن محاورة إبراهيم عليه السلام مع والده ومجادلته إياه في عبادة الأصنام، لذلك مثل المشهد (مقدمة ووسط وخاتمة).

### ١. المقدمة: (سمات الاصطفاء).

وكعادة قصص الأنبياء تبدأ القصة بتبنيه الرسول عليه السلام لإدراك العظة والعبرة من سياق القصة<sup>(٤)</sup>.

١- وهنا تتكشف لنا الحكمة من إطلاق اسم السورة بـ (سورة مريم) وذلك لأن القصة شغلت مساحة واسعة في ثلاث عشرة آية، وانسجمت مع الموضوع الرئيس الذي تعالجه السورة وهو (عقيدة التوحيد وأثرها على العبد) فأطلق اسم مريم على السورة من قبيل إطلاق الجزء على الكل، نظراً للعمل الكبير الذي اضطلعت به مريم عليها السلام. ينظر، حسن محمد باجودة: تأملات في سورة مريم، ص ٩.

٢- ينظر، أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر، ٢٠٠٧م، ط٢، ص ٢٧٧-١٧٨. وابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، المجلد ٧، ج ٢١، ص ١١١.

٣- ينظر، محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٤٢-٤٣.

٤- ينظر، محمد قطب: القصة في القرآن، ص ٢٣٥.

فلقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١١) فهنا مهد السياق القرآني لهذه القصة بالتذكير مخاطباً سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، ومذكراً إياهُ بنعمة الله تعالى على سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهذه الآية عطف على آية المطلع باعتبار عطف قصة على قصة.

وهنا يوضح الله سبحانه وتعالى صفات الخليل من (الصدِّيقية والنبوة) فقوله: (صدِّيقاً) بتشديد الدال، صيغة مبالغة في بلوغ نهاية الصفة من الموصوف بها<sup>(١)</sup>، والتي كان يطبقها في جميع شؤون حياته الدينية والدنيوية<sup>(٢)</sup>، وأما قوله تعالى: «نبياً» فهو مختص بالإعلام عما يخبره الله من الأخبار العظيمة والتي يرتفع بها في الدارين<sup>(٣)</sup>.

لذلك وجدنا تناسباً ممهداً في ابتداء المشهد بهاتين السميتين بحيث إن وجودهما تدفع سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى استجماع القوى واندفاع الهمة لمحاورة أبيه، والذي كان موضع شفقتة للحال الذي وصل إليه من عبادة الأصنام.

## ٢. المشهد الحوارية: (المحاورة ذات الأنموذج الفريد)

### ❖ اللقطة الأولى - (دعوة إبراهيم عليه السلام الحانية):

في هذه المحاورة أراد إبراهيم عليه السلام أن يهدي والده إلى طريق الحق والصواب، راثماً بحاله من أن ينال عقاب الله عز وجل، فتوجه إليه مخاطباً إياه بأسلوب التودد والتحبب منادياً له: «يا أبت»، مظهراً له عاطفة البنوة الحانية، والتي جسدت لنا أروع صور البرِّ وأعظمها.

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام حديثه بعد أن أثار انتباه والده سمعاً وعاطفة، بطرح (أسئلة تقريرية تهكمية) توظف من خلال الإجابة عليها في إقامة الحجّة بالدليل والبرهان على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الولد، بالاستدراج العقلي إلى ما يتعلق بالمحسوسات بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢) ففي لطف وعتاب يوضح عدم استحاقية هذه الأصنام في العبادة، فإذا كانت عبادة لفظية من تسبيح ودعاء وتضرع فهي لا تسمع، وإن كانت عبادة بدنية موجه لها كركوع وسجود فهي عمياء لا تبصر، وإن كانت كذلك فهي لا تنفع ولا تضر، وبالتالي فإن هذه الأوصاف الثلاث الموسومة بها هذه الأصنام تجعلها لا تستحق العبادة ولا التعظيم<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن هدم الأساس الزائف للمعبود بأسلوب لطيف ينتقل إلى دفع ما يخالج عقل والده من

١- ينظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١١٥.

٢- من خلال تتبع قصص إبراهيم عليه السلام لاحظنا صدقه مع الله تعالى في عدة مواقف: صدقة في السمع والطاعة في الأمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وامتناله لأمر الله تعالى فيه. وصدقه في صبره على أذى قومه وتحديه لهم، وصدقه في يقينه عندما ألقى في النار فكانت له برداً وسلاماً، وصدقه في التوكل على الله عندما صبر على مفارقة أهله والابتعاد عنهم.

٣- بتصرف، البيهقي: تناسب الدرر، ج ٣، ص ٥٢٦، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١١٢.

٤- بتصرف، بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٠٢.





النفور عن تلقي الرشاد والحقيقة، فوجه نظره إلى العلم الموهوب إياه من عند الله عز وجل لهداية الناس إلى الطريق المستقيم، بقوله متودداً ومتواضعاً: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾.

وبعد تنبيه إبراهيم عليه السلام والده إلى حقيقة العلم الهادي للحق، يصارح والده بالنهاي عن عبادة غير الله تعالى، ويحذر من غواية الشيطان له قائلاً: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾.

فلنلاحظ هنا الإصرار في التلطف والتودد للأب لعل وعسى يستطيع أن يحرك مشاعره لرؤية الصواب وسماع الحقيقة، التي أغفلت عنه من قبل اتباع الشيطان ف (الأصنام ليس لها دعوة أصلاً، والله تعالى حرم عبادة غيره مطلقاً على لسان كل ولي له، فتعين أن يكون الأمر بذلك الشيطان، فكان هو المعبود لعبادتها في الحقيقة»<sup>(١)</sup>.

كما علل إبراهيم عليه السلام نهيته عن عبادة الشيطان بكونه عاصياً لله تعالى صاحب الرحمة الواسعة، وذلك عندما أمره الله تعالى بالسجود لآدم فعصى واستكبر وتوعد بني البشر بالغواية والضلال إلى يوم القيامة.

وأجمل ما قيل في هذا الموقع قول ابن عاشور في تفسيره لكلمة (عصياً) الذي «هو من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعل: (كان)، للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه، وأنه متمكن منه، فلا جرم أنه لا يأمر إلا بما ينال في الرحمة، أي بما يفضي إلى النعمة، ولذلك اختير وصف الرحمن من بين صفات الله تعالى تشبيهاً على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع»<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا التحذير ينتقل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى التخويف من مغبة الثبات على هذا الشرك قائلاً: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ فصي المناادة هنا إشعار بالخوف<sup>(٣)</sup> من العاقبة الحتمية لكل من أصر على عبادة الأصنام، التي هي بالأصل عبادة لهوى الشيطان العصي الذي تقود ولايته إلى سخط الله وعذابه، كما أن هنا إشارة إلى أن الحرمان من الرحمة، وإثبات العذاب لمن شأنه أن يُرحم إنما هو لفضاعة الجرم إلى حد يحرم به من رحمة الله الواسعة<sup>(٤)</sup>.

١- البقاعي: نظم الدرر، ج٤، ص٥٣٧.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج١٦، ص١١٧.

٣- والتعبير بالخوف في الآية دال على الظن دون القطع تأدياً مع الله بأن لا يثبت أمراً فيما هو من تصرف الله، وإبقاءً للرجاء في نفس أبيه لكي ينظر كيف بإمكانه التخلص من ذلك العذاب بترك عبادة الأوثان، بتصرف، المرجع السابق، ص١١٨.

٤- بتصرف، المرجع السابق، ص١١٧.



## ❖ اللقطة الثانية - (الرد العنيف):

وبعد تلك المحاوراة الحانية لإبراهيم عليه السلام في عرضه (قضية التوحيد والعبودية لله تعالى) على أبيه المشرك بالأدلة الواضحة والحجج القاطعة في نصح حكيم وأسلوب متواضع، نجد والده يقابله (بالقسوة والشدة) النابعة من الجهل والسفاهة<sup>(١)</sup>. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾<sup>(٢)</sup> وللمتلقي للقصة أن يتخيل صورة هذا الموقف السريع والمؤثر في مقابلة الحق بالباطل، ومقابلة الرحمة بالقسوة الذي نوضح بعضاً من أبعاده في الآتي:

- نجد الوالد يرد على ابنه بفضاضة إذ يناديه باسمه مباشرة دون توافق مع نداء ابنه له في حوار به (يا أبت).
- إنكار وتعجب الوالد لقول ابنه ونصيحته إياه، وهذا ما تضمن استهغامه بقوله: «أراغب أنت عن آلهتي».
- إعلان الوالد التخيير أمام الابن في أن يختار الرجم الذي يوحي بالموت الشنيع، أو يختار الهجران والجفاء بالبعد الدائم والطويل إن كان يريد النجاة بنفسه<sup>(٣)</sup>.

فسبحان من جمع بين هذا الوالد وهذا الابن في علاقة الأبوة والبنوة، في اللين مقابل القسوة والرحمة مقابل الكفر.

## ❖ اللقطة الثالثة - (قرار الاعتزال):

قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾<sup>(٤)</sup> بعد أن استنفد سيدنا إبراهيم عليه السلام كل سبل المحاوراة الهادئة المقنعة، ومن ثم بعد ردة فعل والده القاسية في المعاندة بالتزام عبادة الأوثان، يطلق قرار المفارقة دون تهديد أو وعيد، بل سلام عام<sup>(٥)</sup> واستغفار دائم.

وهذا السلام المقترن بالاستغفار يدل على المفارقة الجسدية والعبادية وليست الروحية، بل سيظل يذكره بالدعاء والاستغفار عند الله تعالى لعله يرتدع عن ضلاله وكفره، وهو في قوله هذا يضيف الاستغفار إلى ربه تقريراً منه على إحسانه وتفضله بالرحمة وتمام النعمة والحفاوة كما تعود منه دائماً<sup>(٦)</sup>.

١- بتصريف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٣٦.

٢- بتصريف، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣١٢.

٣- وهو «الأمان المقترن بالمواعدة والمفارقة، ومن حلمه عليه السلام أن متاركة أبيه مثوبة بالإحسان في معاملته آخر لحظة» حده سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٣٨.

٤- بتصريف، بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٠٨.





فما أجمل هذا البر!! وما أصدق هذا الإيمان في عبودية الله عز وجل!! وما أوسع هذا القلب العظيم لهذا النبي الكريم!!!

ويستمر المشهد في توضيح أبعاده فنجد إبراهيم عليه السلام يختار الحل الوحيد والأنسب لحاله وحال أبيه وقومه، وهو كما يقول الله تعالى على لسانه: ﴿وَأَعْتَزَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨) ﴿فحقيقة الأمر تستدعي الاعتزال السريع دون تهاون أو تباطؤ<sup>(١)</sup> عما يعبد الوالد المشرك والقوم الوثنيين الذين يغلون أبواب الهداية على أنفسهم، ويستمر في دعائه لربه الذي تعود منه الإجابة<sup>(٢)</sup> .

### ٣. ختام المشهد والقصة (المواهب والكرامات):

وبعد تلك المشاعر الصادقة، وبعد تلك الهزات العاطفية التي تأسر الروح شغفاً، نجد المواهب تُقدق عليه، والرحمات تُحيطه به من كل جانب لاختياره قرار العزلة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ ﴿ففي هذا الخبر السردي الختامي نستشف دلالة (وهبنا) المكررة مرتين في القصة، والتي دلت على سعة رحمة الله تعالى وعظيم عطائه لعبده إبراهيم عليه السلام جزاء هجرانه للشرك وأهله، والفرار بدينه، ومن أهم هذه الهبات:

• ما منَّه الله تعالى عليه بهبة الولدَيْن الصالحين (إسحاق ويعقوب) عليهما السلام، فإسحاق يُعدُّ الموهبة الشاملة له ولزوجه، وذلك بعد أن هجر قومه فراقفته زوجته مؤيدة له، فملاً الله سبحانه وتعالى الفراغ العاطفي الذي نجم عن هذه المفارقة للأهل والديار، بنعمة الولد الصالح، ومن بعده يعقوب باعتباره حفيداً صالحاً له ولزوجه<sup>(٣)</sup> .

ولقد سبقت هذه الموهبة نعمة البشارة في سورة أخرى، عندما بشرت الملائكة زوجته عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ (٤) ، وقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام شاكرًا نعمة الله عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ (٥) .

١- وهذا ما دل عليه الفعل المضارع في قوله: "وأعتزلكم"، ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٢.  
٢- وفي قوله: (وأدعوري) تعبير بوصف الربوبية لله مضافة إلى ضمير المتكلم التي تشير إلى انفراد عليه السلام من بين قومه بعبادة الله تعالى التي يترفع بها عن كل رذيلة وتخطئ، تشريفًا من الله عز وجل وكرامة له، بتصرف، المرجع السابق، ص ١٢٢.  
٣- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٤.  
٤- سورة هود، آية: ٧١.  
٥- سورة إبراهيم، آية ٣٩، وكما نلاحظ من خلال هذه الآية بأن مجازاة الله لإبراهيم ليست مقصورة على أنه وهب إسحاق ويعقوب، إذ ليس في الكلام ما يقتضي الانحصار، فإنه قد وهب إسماعيل أيضا، وظهرت موهبته إياه قبل ظهور موهبة إسحاق، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومه، ولكن قد يكون اختصاص القصة بذكر إسحاق ويعقوب هو مخاطبته لإبراهيم وزوجه سارة، ليتحقق لهما الإيتاس والمعاشرة لوجودهما معا في مكان واحد، = وأما بالنسبة لإسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيدا عن إبراهيم في مكة مع والدته هاجر ليكون جار بيت الله وأنه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما.

- عطاء الله تعالى لهؤلاء الأبناء الصالحين بـ (موهبة النبوة) وهي عطية لا ينالها إلا خواص الله من عباده المخلصين بقوله: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾.
  - ويستمر فضل الله على نبيه بهبة الرحمة الواسعة التي تشمل الدين والدنيا معاً، لمجيء نص الآية عاماً لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا ۝٥٠﴾، ويفسر هذا العموم قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝٨٤﴾<sup>(١)</sup>.
  - ومن نفعات رحمة الله تعالى على خليفه عليه السلام وآل بيته، بأن جعل لهم ثناءً حسناً عند الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ وهذا استجابة لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤﴾<sup>(٢)</sup>.
- وفي النهاية لا يجد القلب والعقل مناصاً من التعجب والتمتع باستيقان لذة العبودية لله تعالى، وجزائها العظيم الذي يشمل خيري الدنيا والآخرة، فلقد: «رتب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيباً بديعاً إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر تلك النعمتين وهو لسان الصدق، إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين»<sup>(٣)</sup>.
- وهكذا تؤدي هذه القصة ذات المعمار الهندسي المتلاحم دوراً فاعلاً في الترابط العضوي مع القصص من جهة، والترابط العضوي مع السورة من جهة أخرى.

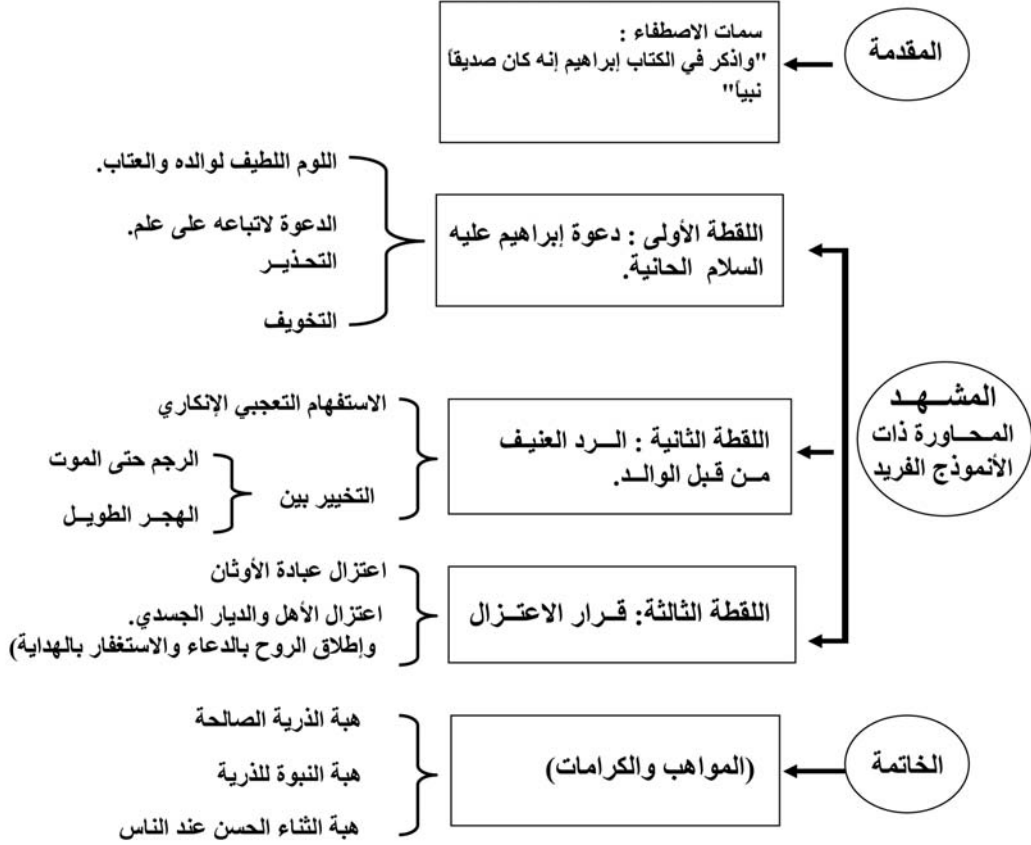
١- سورة النساء، آية: ٥٤.

٢- سورة الشعراء، آية: ٨٤.

٣- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٦.



## أ- البناء الهيكلي لقصة إبراهيم عليه السلام مع والده:



## ب- الترابط العضوي بين أجزاء القصة:

لاحظت وجود عدة روابط وعلاقات عضوية منها: (التمهيد، التنامي، السببية، التجانس، التداعي).

- **التمهيد:** واضح من خلال البدء كما ذكرنا بسمات الاصطفاء وهي: (الصدق والنبوة) والتي تقودنا إلى التنبؤ بمضمون المحاور الدعوية التي تدعو لعبادة الله وتنزيهه عن الشريك.
- **التنامي العضوي:** يتضح التنامي بمد خيوط الدعوة لتوحيد الله من التمهيد، إلى المحاور التي تتابعت في العرض الأسلوبية مبتدئة باللوم والعتاب، ثم الدعوة لإتباع الحق، ثم التحذير من اتباع الشيطان، ثم التخويف من عقاب الله تعالى الذي قد يحل عليه نقمته وعذابه، وبعدها

نجد التنامي في ردة الفعل لدى الوالد الذي سرعان ما يعلن الحرب بالقتل أو الهجر، فيستلزم من إبراهيم عليه السلام ردة فعل سريعة يختار فيها الاعتزال مع الاستغفار والدعوة له بالهداية، وهكذا يستمر التنامي لنصل إلى استتباع الهيات والرحمات المتتالية مكافأة وجزاء.

● **علاقة السببية:** جاءت واضحة في دوافع سيدنا إبراهيم عليه السلام في دعوة والده، من أهمها:

- السبب الخاص وهو: رغبته في هداية والده من عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، وإنقاذه من العذاب الحتمي الذي تقود إليه هذه العبادة، وهذا من منطلق البر والحب والإخلاص المُمثلة لكل معاني الروابط الأسرية السامية وبخاصة البُنية.

وكذلك تلك المواهب والكرامات التي تفضل الله سبحانه وتعالى بها على سيدنا إبراهيم عليه السلام، تعويضاً له بسبب فقدته الصعبة والأهل والديار، ومكافأة له على إخلاصه في العبودية والدعوة إليه، وتحمل تبعاتها من مشقة ومعارضة.

- السبب العام: الدعوة الشاملة التي يكلف بها النبي المرسل من الله تعالى إلى الناس للدعوة إلى التوحيد والعبودية واتباع الصراط المستقيم، وإنقاذهم من مستنقعات الجهل والضلال، وأحوال التخبط والأوثان.

● **التجانس العضوي:** فأية المطلع التي وضحت كَوْن إبراهيم عليه السلام (صديقاً نبياً)، تعطينا دلالات لفظية ومعنوية متماثلة على طول هيكل الأقصوصة، من تجانس لأفعال إبراهيم عليه السلام التي تدور حول هاتين الصفتين، فمثلاً:

أ- تجانس الصِّدِيقِيَّة معنوياً: مع صدق إخلاصه في مودته لوالده من التأدب معه في احترام وتواضع ولين، وهذا ما تمثل في تدرجه بالمحاورة لكسب قلبه والتقرب منه، وبخاصة في مناداته (يا أبت) وتكرريها عدة مرات، وكذلك تجانسهما من خلال الدعوة بالسلامة والاستغفار لوالده واختيار العزلة الجسدية والعبادية دون تأثيرها على مشاعر الاحترام تجاهه، ويزيدها سمواً في الأمل بالهداية.

ب- وكذلك تجانس النبوة مع أساليب الدعوة وطرقها التي ترجمت عملياً في العرض المنطقي لتبيين الحقيقة الواضحة في قضية عبادة الأوثان والدعوة لعبادة الله:

- مظاهر الجرأة والشجاعة في قول الحق وإن كان مع أقرب الأقرباء..

- العزلة التي قد يلجأ إليها النبي المرسل إن لم تجد دعوته شيئاً في تحريك عقول وقلوب





المدعويين بمشيئة من الله عز وجل.

- استشعار اليقين بإنعام الله تعالى على عباده الصالحين الذين يذكرون فضل الله وإحسانه لهم في جميع الأوقات.

ج - التجانس من خلال التباين، ومن أمثلته:

- كلا الطرفين تعرض لردة فعل قوية تهز الوجدان، إذ كلاهما يربط فيما بينهما علاقة الأبوة والبنوة، فنحن نشعر بردة الفعل القوية والقاسية للوالد المشرك والمعاند تجاه ابنه، الذي حاد عن طريقه واختار ديناً آخر غير دين أجداده المتوارث عليه، في نفس الوقت نشعر بردة الفعل الحانية والداقئة من قبل الابن، المتأمل في رحمة الله لهداية هذا الوالد، كما نقدر ذلك البر الذي لا يعكر صفوه جفاءً أو عناداً.

- كما أننا نتلمس التجانس المتباين في ختام حوار الوالد مع ابنه، فالوالد يهدد بالرجم أو الحجر، والابن يختار العزلة مع الدعوة بالسلام والهداية والاستغفار، وكليهما يُعدان حلين أنسبين لوضع كل منهما في هذا الموقف.

● التداعي العضوي:

- فعند قراءة القصة يتمثل في أذهاننا زمن سابق يرجع لزمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي وقف أمام مشركي العرب في إباء وجرأة وشجاعة، وقال كلمة الحق لا يخاف فيها لومة لائم، وما قابله من والده وقومه من استهزاء وتهكم، وتهديد وعناد، ومن ثم تتداعى المعاني تلقائياً إلى زمن تال وهو زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن جاء بعده من المتلقين، ليكون تسلياً له وتسرية عن قلبه، بتذكيره بصبر أبيه الأكبر إبراهيم عليه السلام أمام المشركين والمعاندين، وما اتبعوه من أذى ونصب وما كان ذنبه الوحيد إلا دعوة الخلق إلى عبادة الخالق وحده دون شريك.

- كما أن سرد قصة الخليل عليه السلام مع والده «قد أقامت الحجة على مشركي العرب، بكونهم ينتسبون إلى إبراهيم ويدعون الاعتزاز به، فإذا بين لهم النبي صلى الله عليه وسلم خراب عقيدتهم وفساد عبادتهم ردوا بما حكاه القرآن عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿١﴾ فبين القرآن أنهم إن كانوا يعتزون بإبراهيم حقاً ويفتخرون بالانتساب إليه، فإنه تبرأ مما كان يعبد أبوه وقومه» (٢) بقوله: ﴿وَأَعَزَّتْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

١- سورة الزخرف، آية ٢٢.

٢- حده سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٤١، تراجع، الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٩٠، بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ١١١.

اللَّهُ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا ﴿٤٨﴾

- وكذلك سرد هذه القصة بيان لمعجزة النبي عليه السلام على الإتيان بالقرآن العظيم من الله تعالى؛ «لأنه ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشغولين بالعلم ومطالعة الكتب، فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخباراً عن الغيب ومعجزاً قاهراً دالاً على نبوته»<sup>(١)</sup>.

### ج- هندسة الترابط العضوي بين القصص السابقة واللاحقة من خلال التجانس في القصة:

فقصة إبراهيم عليه السلام تصب في رافد معنوي مشترك مع مجموع القصص الواقعة بينها<sup>(٢)</sup> وهو (الدعوة لتوحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك وأثر هذه العبودية في نيل مواهب الله تعالى ورحمته) فهذا المقصد الأكبر يُعد عنصراً مشتركاً بين القصص الباقية، إلى جانب عناصر أخرى قد تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى.

فأشعر الآن بتتبع علاقات التجانس مع القصص السابقة لها من خلال الجدول

الآتي، وأما التجانس مع القصص اللاحقة فسيأتي الحديث عنها فيما بعد:

<ul style="list-style-type: none"> <li>- ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾</li> <li>- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿٥٠﴾﴾</li> <li>- ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾</li> <li>- ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ آهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾</li> <li>- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾</li> </ul>	<p>١</p> <p>تكرار عنصر الذكر والرحمة والهبة باعتبار الافتتاح والمضمون</p>
<ul style="list-style-type: none"> <li>- حفاوة إبراهيم عليه السلام كونه صديقاً نبياً.</li> <li>- رحمة الله على عبده زكريا عليه السلام باستجابة دعائه.</li> <li>- حفاوة يحيى عليه السلام بالحنان اللدني وصفات الوحي.</li> <li>- حفاوة مريم بنت عمران بإقرار عينها وتبرأتها.</li> <li>- حفاوة عيسى عليه السلام بأن جعله مباركاً.</li> </ul>	<p>٢</p> <p>عنصر الحفاوة</p>

١- الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٩٠.

٢- بتصرف: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج ٣، ص ٨٨-٨٩.





٣	عنصر الاعتراف بالإنعام الدائم واستيقانه	- قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ - قول زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤٩﴾
٤	عنصر الاعتزال وتمائله في القصص	- قول إبراهيم لأبيه: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ - العزلة التي كان بها زكريا في محرابه وصومه عن الكلام. - العزلة التي كانت بها مريم و انتباذها مكاناً شرقياً، ومن ثم صومها عن الكلام مع قومها.
٥	عملية الإنجاب	- إبراهيم يرزق بالذرية الصالحة الذين اختيروا لأن يكونوا أنبياء. - زكريا يرزق بالغلام يحيى على وجه الإعجاز. - مريم ترزق بعيسى على وجه الإعجاز.
٦	النسب للنبوّة	- ذرية إبراهيم (إسحاق ويعقوب) تنسب للأنبياء. - ذرية زكريا ويحيى، ومريم وعيسى عليهم السلام كذلك من نسل الأنبياء.
٧	رزق إتيان العلم	- قول إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَني مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ - رزق يحيى بإتيانه الحكم: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ - رزق عيسى بإتيانه الكتاب: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾
٨	عنصر المواجهة	- مواجهة إبراهيم لوالده وقومه بالدعوة إلى ترك عبادة الأصنام. - مواجهة زكريا قومه بمفاجأة بشارة يحيى على كبر سنه وعقم زوجته. - مواجهة مريم قومه بمفاجأة الولد المعجزة بدون أب.



<ul style="list-style-type: none"> <li>- إبراهيم وُهب (الصبر والجلد - الذرية الصالحة - الرحمة في الدنيا والآخرة لسان صدق في الآخرين).</li> <li>- زكريا وُهب (إجابة الدعاء الإنجاب بنحو معجز الولد الرضي)</li> <li>- يحيى وُهب: (الحكم - النبوة - الأخلاق الكريمة - السلام المطلق).</li> <li>- مريم وُهب: (اليقين والطمأنينة التأكيد والثبات التبرئة الولد المبارك المعجزة).</li> <li>- عيسى وُهب: (الكتاب - النبوة - المباركة - الأخلاق الطيبة، - السلام المطلق)</li> </ul>	سعة الرحمة والمواهب والذرية الطيبة	٩
<ul style="list-style-type: none"> <li>- إبراهيم عليه السلام بعد العزلة.</li> <li>- زكريا عليه السلام بعد الاعتزال في المحراب والمناجاة.</li> <li>- مريم عليها السلام بعد الاعتزال للعبادة أو انتباذها المكان الشرقي.</li> </ul>	توقيت الهبات	١٠

د- وأما بالنسبة لتلاحم قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع مقاصد السورة، فهو واضح من خلال دعمها للمقصد العام وهو: (ترسيخ المعتقد في وحدانية الله تعالى وعبوديته المطلقة، التي تستوجب وعداً من الله بإنزال رحمته ونفحاته على عباده المخلصين).

وأخيراً هذه بعض الروابط المعنوية والهيكلية ذات العلاقات العضوية التي تدل على هندسة قصصية بديعة، ومعمارية فنية مقصودة، وضعت قصداً، ورسمت رسماً لخدمة مقاصد السورة وأهدافها بكل أبعادها.

### خامساً: البناء الهيكلي والعضوي في قصة موسى عليه السلام:

تكتنز قصة موسى عليه السلام ببناءها الهيكلي والعضوي في أسلوب سردي بارز، بحيث يُغيب فيها الكثير من العناصر القصصية وبخاصة الحوار، وبشكل مخالف عن لقصص السابقة، فهي تتكثف في ثلاث آيات معبرة لتدل على موقف وحدث وشخصية واحدة.

كما أننا نلاحظ في كل مرة تُذكر فيها قصة جديدة على القصص السابقة أو شخصية على الشخصيات السابقة، أنها تُقدم إضافة فكرية جديدة مضافة على الأفكار السابقة التي تضمنتها القصص أو الشخصيات، وهذا له دور بارز في توضيح وظيفة المعمار القصصي في كل قصة على



حدة، وفي مجموع القصص بشكل عام، ومدى تلاحمها مع السورة بوجه كلي<sup>(١)</sup>.

فنجد القصة هنا تشيد بموسى عليه السلام أشرف نبي من ذرية إسحاق ويعقوب عليهما السلام، بشكل مختصر ومركز.

فهي تبدأ بـ (مطلع ثم مضمون ثم خاتمة)، وكان كل آية فيها تمثل جزءاً معيناً من أجزاء القصة، قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>.

### أولاً- التمهيد (التذكير بالسّمات):

وكغيرها من القصص ابتدأت بـ (التذكير) تنويهاً وتبهيهاً على أهمية ما سيذكر بعده من أمر، يحتاج للتفكير والتأمل لأخذ العبرة والعظة، وهي كذلك معطوفة على القصة السابقة بحرف الواو، والذي يرجع في العطف لمطلع السورة في المقدمة كما وضعنا ذلك سابقاً.

ويبدأ الله تعالى برسم شخصية سيدنا موسى عليه السلام التي تكونت بعد عدة مواقف وأحداث وضحتها قصص في سور أخرى، وهو رسم لخلاصة الابتلاءات التي اجتازها عليه السلام، وما انفرد بعدها بسمات من السمات المميزة، والتي كانت محل تفكير وتأمل، قد عبّر الله عنها بالفعل الماضي (كان) للدلالة على استمرارية ملازمتها له وثبوتها عليه ومن أهمها:

• اختصاص الله تعالى له بنعمة (الإخلاص) بقوله: «كان مخلصاً» والإخلاص على الوجهين<sup>(٣)</sup>: بفتح اللام أو كسرهما، تُعد ميزة لسيدنا موسى عليه السلام وذلك لأسباب:

- إخلاصه في طاعة الله تعالى وحمله للواء التوحيد وعبادة الله تعالى، والدعوة إليه بحيث لا يخاف من مغبة أمر ضال أو مفتر، بل يقابلهم بالدليل والبرهان والحجة الدامغة، وأكبر دليل على هذا (مجادلته فرعون وقومه).

- استخلصه الله سبحانه باصطفائه لكلامه مباشرة دون وسيط، قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، وبالتالي كان مخلصاً ومصطفى<sup>(٣)</sup>.

١- بتصرف، محمود البستاني: قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا، مؤسسة السبطين العالمية، برهان، إيران، ١٤٢٨هـ، ط٢، ج١، ص ٤٩٨.

٢- قرأ الجمهور مخلصاً - بكسر اللام - من أخلص القاصر إذا كان الإخلاص صفته، والإخلاص في في أمر ما: الإتيان من غير مشوب بتقصير ولا تقريط، ولا هوادة، مشتق من الخلوص، وهو التمحض وعدم الخلط، والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرسالة بقرينة المقام. وقرأ آخرون مخلصاً - بفتح اللام - من أخلصه، إذا اصطفاه. بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٦.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ١٢٧، بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٢.

- اختصاص الله له بصفة أنه (رسول ونبى) <sup>(١)</sup> في آن واحد، تأكيد على أهميته وإشارة إلى أن رسالته بلغت مبلغاً قوياً.

## ثانياً - مضمون القصة المكتنزة (الاجتباء والاصطفاء):

فبعد تقديم السمات التي من حقها التأخير في أصل القصة، وذلك لأهمية استدعاها المقام في توضيح أهمية الذكر وأهمية الإخلاص، ودورها الفاعل في الربط المعماري بالقصص الأخرى وبمقصود السورة بشكل عام، نجد السياق القصصي يحيلنا بطريقة العطف إلى مقدمات ذلك الاصطفاء والاختيار لسيدنا موسى عليه السلام، بذكر مشهد النداء الرباني من الله عز وجل استعداداً لحمل الرسالة السماوية، والتكليف بالدعوة لجميع بني إسرائيل وفي مقدمتهم فرعون وأتباعه.

فيقول الله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٤﴾ ففي اختصار شديد غُيِّبَتْ فيه كثير من الأحداث والمواقف والشخصيات التي قد تكون ذُكرت في نفس القصة ولكن في سورة أخرى، نجد السياق القصصي لهذه القصة في سورة مريم يشير إلى ذلك النداء دون معرفة كنهه أو كيفية إدراك موسى عليه السلام له بهذه الطاقات البشرية القاصرة، أمور تجاوزتها القصة وتركت في علم الله وغيبه، ولكن الظاهر لنا هنا:

- الخلوة التي كان عليها موسى عليه السلام في ذلك المكان وهو (جانب الطور الأيمن) وما تنزلت فيه من نفحات الرحمة والخير وتهيئته لهذه الحادثة العظيمة.
- المناداة الربانية التي تدل على الاصطفاء والانتقاء لهذه الشخصية دون غيرها، التي لاحظنا الرعاية الربانية لها منذ الولادة من خلال قصص أخرى تدعمها لفظاً ومعنى.
- خصه الله بالتقريب، بقوله: «وقربناه نجياً» ومعناه: «أدنيهاه بتقريب منزلته، وكأن التقريب هنا تقريب تشريف وإكرام، حال كونه مناجياً» <sup>(٢)</sup>.

وفي هذا المشهد السريع والخطاف لجميع جزئياته يمكننا أن نتخيل فيه تلك المسؤولية الكبيرة التي حمل بها سيدنا موسى عليه السلام، وما قد تتبعا من جملة توصيات ونصائح ربانية معينة له على تحمل تبعات الدعوة ومشاقها.

كما يمكننا أن نسرح بخيالنا لاستشعار ذلك الجو الرباني المحيط بموسى عليه السلام الذي قد يملكه المفاجأة من الخوف والرهبة والدهشة حيال ما يرى ويسمع من عجائب قدرة الله وإعجازه، إلى

١- «الرسول بالمعنى الشرعي أخص من النبي، فلأن الرسول هو المرسل بوحى من الله إلى الناس فلا يكون الرسول إنانياً، وأما النبي فهو المنبأ بوحى من الله وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي وليس رسول»، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٧.

٢- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٤٤.





جانب تخيل تلك اليد الحانية والجو المغلف بالرحمة ونفحات الخير والطمأنينة التي يبثها الله لأوليائه الصالحين تثبيتاً وتأيداً لهم.

### ثالثاً : الخاتمة - (الهبة والرحمة):

وأخيراً نجد القصة تختتم ذلك المشهد بما فيه من أمور خفية وظاهره إلى بيان هبت الله ورحمته لنبيه موسى عليه السلام موضحاً بقوله تعالى: ﴿ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣ ﴾ فالله تعالى خالق البشر، وأعلم بما يحتاجونه من معينات مادية ومعنوية تشد من سواعدهم لاستمرار الحياة وشرائعها، لذلك فحتى الأنبياء قد يتأهبهم لحظات من الضعف يكونون بها أقرب ما يكون فيه من الله تعالى، فيطلبون منه المدد بالقوة والمعين والتأييد الإلهي، وهذا ما مر به سيدنا موسى عليه السلام بعدما عرضت عليه الرسالة والدعوة حيث طلب من الله تعالى بقوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ٣٩ ﴾ هَارُونَ أَخِي ٣٠ أَشَدُّ دِينَهُ مِنْ أَزْرِي ٣١ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢ كَيْ سُبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَتُذَكَّرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥ ﴾ (١).

فرحمة الله هي هبته أخاه هارون صاحب الفصاحة والنباهة، إلى جانب أنه قد جعله الله نبياً (٢) مع موسى عليه السلام، ومخبراً عنه بحقيقة الوحي، فاقهاً مراد أخيه في كل ما يبلغه عن ربه تعالى في علاه (٣).

وهنا تنتهي القصة بشكل ينتظم تلاحمها مع القصص السابقة، على شكل لبنات صغرى قد انتظمت بشكل هندسي مكونة معماراً قصصياً بديعاً، لخصته في الشكل الآتي:

### أ - البناء الهيكلي في قصة موسى عليه السلام:

١- التمهيد (التذكير بالسّمات)	في قوله تعالى: ﴿ وَأُذَكِّرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٣ ﴾
٢- الوسط الاجتباء والاصطفاء	في قوله تعالى: ﴿ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٤ ﴾
٣- الخاتمة (الهبة والرحمة)	في قوله تعالى: ﴿ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣ ﴾

١- سورة طه، آية ٢٩ - ٣٥.

٢- ولم يوصف هارون بأنه رسول إذ لم يرسله الله تعالى، وإنما جعله مبلغاً عن موسى عليه السلام، وأما قوله تعالى: «فقلوا إنا رسولا ربك» فهو من التغليب كما قال ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٩.

٣- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٢٩.

## ب- الترابط العضوي في القصة:

المتمثل في روابط ( التمهيد التنامي السببية التداعي العضوي):

• **فالتمهيد:** واضح في تهيئة المتلقي لاستقبال نموذج من نماذج القدوة فاستهلت الأقصوصة بتذكير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الشخصية ذات السمات المميزة من (الإخلاص) والجمع بين ( النبوة والرسالة).

• **التنامي** واضح من مضمون القصة في المناداة الربانية التي هي تقريب في ارتفاع المكانة والتشريف بالكلام والمحاورة والمناجاة، وما كانت بعدها من أحداث طويت وتجاوزتها الأقصوصة حتى وصلنا إلى استحقاق الهبات والرحمات من الله على عبده موسى عليه السلام.

• **السببية:** وضحت القصة من خلال التمهيد سبب المناداة الربانية والتقريب للمحاورة، وهي إيدان لبدء الدعوة ونشر الرسالة كونه (رسولاً نبياً)، وكونه مخلصاً استحق هذه المسؤولية العظيمة.

وكذلك نلتمس السببية المعنوية في هبة الله تعالى لموسى عليه السلام بأن رزقه أخاه هارون نبياً معاضداً له وذلك لعدة أسباب منها:

- معرفة الله الغيبية ثقل أعباء الرسالة والدعوة على موسى عليه السلام.

- شدة عناد وكفر الأقوام المرسل إليهم.

- التأييد والتثبيت من الله لبث الطمأنينة والسكينة في قلب نبيه الولي الصالح، وإبعاد الوحشة والرهبنة عنه.

- بث العزيمة والشجاعة والجرأة بوجود المعين.

• **التداعي العضوي:** ويتضح في تداعي قصة موسى عليه السلام صاحب السمات المميزة، على زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكل متلقي للقرآن في كل زمان، ليرسم الأنموذج الأمثل لصاحب الهبات والرحمات الذي حصل على الاجتباء بفضل إخلاصه ووحدانيته في عبوديته لله وحده لا شريك له.

• **أما بالنسبة للتجانس العضوي** فهو ظاهر بالتماثل بين موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام في الدعوة لله تعالى.



## ج- هندسة الترابط العضوي من خلال التجانس مع قصص سورة مريم:

أوجزه في الجدول الآتي:

١	مفهوم السمات ومواقع التزكية	كونه (مخلصاً وصديقاً نبياً) وهو ما جانس السمات في القصص الأخرى من (الرضي التقى -المبارك - الصديق).
٢-	مفهوم العزلة	بوجوده في جانب الطور الأيمن وهو (جبل سيناء بمصر) وهو ما وافق العزلة في قصة زكريا ومريم عليهما السلام واعتزال إبراهيم عليه السلام عن قومه.
٣-	مفهوم المناداة	وهو الذي يمثل أساس الاصطفاء في جميع القصص في مناداة زكريا ومريم عليهما السلام ومناداة يحيى بأخذه الكتاب، والمناداة هنا تحمل في طياتها تبة كبرى لا يعلم كنهها إلا الله تعالى.
٤-	مفهوم الرحمة والهبات	حيث رزق بالأخ المعين على الدعوة والرسالة، متجانساً مع هبات الأنبياء الصالحين في قصصهم المسرودة.
٥-	مفهوم الروابط الأسرية	واضح في جميع القصص سواء على مستويات الأبوة أو البنوة أو الأخوة. وهو ما يسمى التماثل (في العلاقات الأسرية) من خلال التباين كون القصص مثلت الأب والابن والأخ (٢).
٦-	مفهوم التوحيد والعبودية	وهذا واضح من خلال الإخلاص الدال على العبودية والذي كان امتداداً طبيعياً لمضامين القصص السابقة واللاحقة.
٧-	مفهوم النبوة والرسالة	وهنا تتماثل القصص جميعها في تناول الأنبياء وبيان الهدف الرئيس من نبوتهم. وهنا اختص موسى عليه السلام (بالنبوة والرسالة معاً).
٢- ينظر، محمود البستاني: قصص القرآن دلاليًا وجماليًا، ج ١، ص ٤٩٨.		

د- أما بالنسبة لتلاحمها مع مقاصد السورة: فالدلالات واضحة في تثبيت معنى الإخلاص الصادق الذي ينبع من قلب قد امتلأ حباً ورجاءً لله ورهبة وخوفاً منه، مما مثل أسمى صور العبودية، التي يكافئ عليها الله بإغداق النعم والأرزاق، ويكون صاحبها محل الرحمة الواسعة التي تشملته في الدنيا والآخرة.



١٥٠

## سادسا: البناء الهيكلي و العضوي لقصة إسماعيل عليه السلام:

استحق سيدنا إسماعيل عليه السلام كمال الاعتناء بالتحريف والرفعة والاستقلال بالذكر عقب ذكر أبيه وابنه إسحاق ويعقوب، وبعد ذكر موسى عليه السلام الذين ربطت بينهم روابط أسرية وضحت أبعادها كلاً في قصته.

لذلك نجد قصة إسماعيل عليه السلام اعتمدت على:

- السردية المتركزة في آيتين قد اتسمت بالاختصار الشديد.
  - الاكتفاء بعرض ومضات سريعة تتضمن سمات مميزة لشخصية إسماعيل عليه السلام.
- وعلى الرغم من إيجازها فإنها استطاعت تحقيق الهدف من وجودها في هذا الموضع من المعمارية القصصية لسورة مريم.

وبنوع من التفصيل في التناول نجد القصة تتكون من (تمهيد- مضمون موجز - خاتمة متداخلة مع مضمونها) في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾.

### ١. التمهيد (التذكير بالسمات المميزة).

فالقصة توضح أمر الله تعالى بطلب ذكر سيدنا إسماعيل عليه السلام صاحب الصفات المميزة التي هي:

- صفة (صدق الوعد) التي تعدّ سمة من السمات التي يتسم بها كل نبي وأكثر الصالحين، غير أنّها كما يبدو من خلال هذه القصة بطلب التذكير بصاحبها، أنها بلغت درجة استدعى الله تعالى إبرازها والتنويه عليها في هذا المقام، كما أنه كان سبباً في تركها في ذريته من بعده<sup>(١)</sup>.
- ومن أبرز صور صدق إسماعيل عليه السلام صدقه ووفائه لأبيه عندما عزم على أن يذبحه فوعده إسماعيل بأن يكون صابراً، ولكن الله تعالى عندما همّ إبراهيم بالذبح، فداه الله بذبح عظيم<sup>(٢)</sup>! كما أخبرنا الله تعالى عنه بصريح العبارة في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ٤ قَالَ يَا بَتِ أَعْلَمُ بِمَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾<sup>(٣)</sup>.
- صفة النبوة والرسالة، وهي «زيادة مكانة ورفعة على أخيه إسحاق وابن أخيه يعقوب عليهما

١- ينظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣١٢، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٩.  
٢- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٩، ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٤٥.

٣- سورة الصافات، آية ١٠٢.





السلام للذّين أنعم الله عليهما بنعمة النبوة فقط»<sup>(١)</sup>.

## ٢. المضمون - (إخلاص العبادة):

نجد القصة تنتقل إلى المضمون الذي يمثل الترجمة الفعلية لسّمات التمهيد، الذي يوضح بمضمونه كيفية التخطيط والتدبير السليم للقيام بالدعوة والرسالة منذ النشأة الأسرية، بتأسيسها على دعائم العبودية من (صلاة وزكاة)، التي تعين على إخلاص التوحيد لله تعالى وصدق التوجه إليه، فهي تعتمد بالدرجة الكبرى على عنصر الرقابة الفردية التي يستشعر صاحبها وجود الله تعالى فتوجه النفس للصواب وتتقاد للورع تلقائياً في جميع أمورها.

ومن الملحوظ في القصة تجاوزها للكثير من التفاصيل مثل: (كيفية الدعوة وأشكالها وردود أفعال المدعوين) التي ذكرت في قصص أخرى خارج نطاق السورة، غير أننا نستطيع إدراك عدة أمور من وجود الموقف المكتنز فيها:

- بيان أهمية التركيز على فعل (الأمر) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهو المنبعث من قلب قد تشرب عبودية لله و يقيناً بقدرته وحكمته، ومستشعراً مراقبته ورعايته ومقتنعا بمسؤوليته تجاه أهله.
- سرعة تطبيقه لأساسيات الدعوة بدءاً بتفعيلها في الأهل، ومن ثم الأسرة المحيطة به، ومن بعد باقي الناس، فهي أساس المجتمع الذي إن صلحت صلح، وإن فسدت فسد.
- بيان لأهمية الروابط الأسرية وعظم حقها في حمايتها من التخبط و الضلال، ودور رب الأسرة القوي فيها، واشتغاله بما هو في صالح الأسرة، وهو أن يبدأ الرجل بعد إصلاحه لنفسه بإصلاح من هو أقرب الناس إليه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلنَّاقِثِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾<sup>(٤)</sup>.

## ٣. خاتمة القصة - (الجزاء والهبة):

تقع الخاتمة متداخلة مع مضمونها تداخلاً تجانسياً، يوضح نتيجة هذا الفعل المحمود، في نبّل هبة الله ورحمته وهي كونه مرضياً في جميع أمور وأحواله، بعد رضا الله عليه، والرضي سمة من

١- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٤٦.

٢- سورة الشعراء، آية ٢١٤.

٣- سورة طه، آية ١٣٢.

٤- سورة التحريم، آية ٦. وقد يحتمل لفظ (أهله) الدلالة على قومه تنويهاً بهم على قوة الاتصال بينه وبينهم، وبخاصة " أن أمة العرب نشأت من ذريته فهم أهله أيضاً "، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٩، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٠٥.



سمات هذه السورة البارزة، وهي شبيهة بسمة الرحمة السائدة في السورة وبينهما قرابة.

وهكذا نجد القصة ترابطت هيكلية وعضوية مع لبناتها الصغرى في معمارية ضمت نفائس من المعاني والدلالات جمعتها مع غيرها من القصص في أهداف متعددة قصدها السورة الكريمة.

أ-تمثلت قصة إسماعيل عليه السلام في الهيكلية الآتية كما وضحتها سابقا:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾	التمهيد (التذكير بسمات التميز)
﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾	الوسط أو المضمون (إخلاص العبادة)
﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾	الخاتمة (الجزاء والهبة)

ب-هندسة الترابط العضوي في القصة:

وهذا الترابط يتمثل في (التمهيد التنامي السببية التجانس التداعي العضوي).

١. التمهيد والتنامي:

فالقصة مبتدئة بالذكر لسمات إسماعيل عليه السلام من كونه (صادق الوعد نبياً ورسولاً) وهي سمات لها دورها الوظيفي من حيث موقعها الاستهلالي في تنامي دلالاتها المعنوية على ومضات القصة، وبخاصة في تطبيق هذه السمات عملياً من خلال دور ولي الأمر داخل أسرته في إنقاذهم من الهلاك والضياع، ومن ثم ما ينجم عن هذا الفعل من الحصول على رضا الله تعالى، وتحقق مظاهره على سيدنا إسماعيل عليه السلام.

٢. السببية:

تظهر لنا العلاقة السببية متداخلة في العلاقتين السابقتين، كَوْنُ الوظيفة التي قام بها إسماعيل عليه السلام سبباً لوجود نتائج منطقية للحصول على رحمة الله تعالى ومرضاته.

٣. التجانس ويتمثل في:

• التوصية (بالصلاة والزكاة) التي تتجانس بدورها مع ما يُؤمر به النبي والرسول من مسؤوليات تجاه المدعوين من الناس لعبادة الله تعالى، وأن التركيز في توصيلها للأهل لتمثل دلالات معنوية إضافية تضيفها القصة بجانب الدلالات المعنوية للقصص السابقة، كَوْنُ هذه التوصية تعبيراً





عن مسؤولية الأولياء أو القوامين حيال أسرهم<sup>(١)</sup>.

• التجانس في تماثل اللفظتين (الصدق والوعد) فالصدق سمة يستهدفها السياق القصصي لبيان أهميته في ميدان السلوك البشري، كما أنها تسهم بدور في التعبير عن كيفية التعامل مع الله تعالى، كما أنها تورث الرقابة والخشية التي تتمثل في صفة العبودية التامة.

وأما من حيث صلة الصدق بالوعد وحضور وظيفتهما الدلالية في القصة، فهي لبيان توقف الوفاء بالوعد على مدى المصادقية في التعامل سواء مع الله تعالى أو مع الناس، ويدل غيابهما على الاختلال في السلوك وشذوذه، مما يقود إلى نوع من الكذب والنفاق في التعامل، الذي يلزم على كل إنسان المجاهدة في تركه والتحلل منه بدءاً مع نفسه ومن ثم مع ربه ومن ثم مع الآخرين.

وهكذا فإن سمة (صادق الوعد) مناسبة لمعنى العبودية والتوحيد لله، ودليل على الإخلاص المطلق له.

#### ٤. علاقة التداعي العضوي:

ففي القصة تداعيات واضحة في رسم نموذجاً جديداً من نماذج الأولياء الصالحين، الذين يمثلون قمة الإخلاص والصدق والرقابة لله تعالى، وتذكير من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأهمية السمات المذكورة لتحقيق العبودية والوحدانية لله تعالى، مع البدء بتطبيقها مع أقرب الأقرباء تمهيداً للإعانة على عبء المهام الكبرى التي ستلقى عليه لاحقاً مع انفتاح الدعوة وعمومها بعد ذلك، وهذا التداعي ينسحب كذلك مع كل متلقي للقصة.

١- محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج ٤، ص ٩٤.

## ج- هندسة الترابط العضوي مع قصص السورة:

لقد ارتبطت القصة مع قصص السورة في جملة من الدلالات التي تحمل طابع الاشتراك من جهة، وطابع الاستقلال من جهة أخرى، منها:

الذكر في الكتاب (تنويهاً وتبنيهاً)	<p>١- فطابع الاشتراك والتجانس واضح في:</p> <p>←</p>
النبوة	
الرسالة	
مواضع التزكية (صادق الوعد)	
مواضع الهبات والرحمات (بجعله رضي) وتوقيتها بعد أن أحسن بلاءً مع أهله، وهي مشتركة مع طلب الولد الرضي من قبل زكريا عليه السلام.	
التوصية (بالصلاة والزكاة) وهي سمة اشترك بها مع عيسى عليه السلام الذي أمر بها عامة، أما إسماعيل عليه السلام فأمر بها خاصة.	
توضيح مفاهيم الروابط الأسرية وأساسياتها بالتطبيق العملي.	

٢- **وأما طابع الاستقلال** فهي متمثلة في إضافة دلالة معنوية جديدة من حيث توضيح أهمية هداية الأهل وإبراز المسؤولية الكبرى تجاههم، التي تُعد عنواناً للإخلاص في العبادة.

د- **وأما بالنسبة لتلاحم القصة مع الجو العام للسورة**، فهو واضح من خلال وظيفتها في تعميق مفهوم إخلاص العبودية لله تعالى التي تستوجب بدورها نيل مواهب الله تعالى ورحمته.

## سابعاً: البناء الهيكلي والعضوي في قصة إدريس عليه السلام:

وهي القصة السردية الأخيرة في القسم القصصي الأول في سورة مريم المتمثلة في آيتين، أعطت إشارة قصصية سريعة لسيدنا إدريس عليه السلام، وبيان منزلته دون أي إشارة لأي مشهد أو موقف معين غير موقف واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

١- **نلاحظ التمهيد:** بالذكر لإدريس عليه السلام في الكتاب، تنويهاً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالتفكير في نموذج جديد من القدوات الحسنة، الذي يتمثل في شخص سيدنا إدريس عليه السلام، الذي اتسم بالصدق والنبوة، وهما سمتان تمثلان نوعية العلاقة ومصداقيتها مع الله تعالى، ومدى ما تتسم به من إخلاص تام في الوجدانية.





٢- وبعد ذلك التمهيد بالثناء الحسن لإدريس عليه السلام **تُغيبُ عَنَّا كَيْفِيَةَ** تطبيقه لهذه السمات (الصدق والنبوة)، ولكننا نستشعر نفحاتها على نفس طريقة الأنبياء المذكورين في السورة من (الدعوة للتوحيد والعبودية المطلقة وصدق الإخلاص فيها) إلى جانب كون وجود آيات في سورة أخرى<sup>(١)</sup> تعطي لطائف المعرفة الكيفية لأبعادها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِسْكِعِلْ وَادْرِيسَ وَذَا الْكُفْلِ كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> إذ إننا نجد ثناء الله تعالى عليه بعظيم صبره مع باقي الأنبياء المذكورين، لاشتراكهم بصفة الصبر الدالة على تحملهم الشدائد والابتلاءات في سبيل الله تعالى.

٣- **وختام القصة نجده متمثلاً في:** سمات الرحمة والهبة لإدريس عليه السلام برفعه مكاناً علياً، جزاءً من الله تعالى وفضلاً عظيماً، إلى جانب التكريم والتشريف بهذه المنزلة «لما أوتيته من العلم الذي فاق به على من سلفه»<sup>(٣)</sup>.

وهنا القصة لم توضح كيفية هذا الرفع أو هيئته أو زمانه بشكل نكله لعلم الله تعالى وحكمته. وهكذا عرضت القصة الأخيرة في قصص الأنبياء بصورة موجزة جداً كسابقتها وتكررت بألفاظها ومعانيها لتكوّن لبنة صغرى إلى جانب لبنات كبرى سبقتها لها دورها في البناء العام للسورة. كما أنني أجد التلاحم واضح على عدة مستويات:

### أ- مستوى الترابط العضوي في القصة ويتمثل من خلال:

- ١- **التمهيد:** ودوره الفاعل في تهيئة المتلقي لاستقبال قصة جديدة وشخصية مميزة.
- ٢- **السببية:** وهو استحقاق الرفع في المكان العلي لأخلاقيات النبوة والصدق في المعاملات.
- ٣- **التداعي العضوي:** التي تربط زمن إدريس عليه السلام بزمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لتكون تأييداً له أمام الكفار والمعاندين واليهود بتقديم الحجة الدامغة «التي هي أغرب مما أمر اليهود بالتعنت فيه، وإشارة إلى أن الله تعالى يؤتي أتباعه من علوم إدريس الأرضية والسموية مما يستحق أن يحفظ بالخط ويودعه بطون الكتب لضيق الصدور عن حفظه ما لم يؤته أمة من الأمم، وأنه يجمع شملهم وترهيباً للمتعتنين بأنهم إن لم ينتهوا وضع فيهم السلاح

١- إدريس عليه السلام، ورد ذكره على سبيل الإشارة في سورتين من سور القرآن هما سورة مريم وسورة الأنبياء.

٢- سورة الأنبياء، آية ٨٥.

٣- ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٣١، راجع صفحة ٤٠، واختلف العلماء والمفسرون في هذا الرفع، هل هو حقيقي أو مجازي واختلفوا في اسم إدريس عليه السلام كذلك. ينظر: المرجع السابق: ص ١٣١، و البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٤٢ - ٥٤٣، سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٢٣١٤. و سعيد حوي، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ١٤٠٥، ص ١٩٨٥، ط ١، ص ٣٢٨٥.

كما فعل إدريس عليه السلام، بكفار زمانه»<sup>(١)</sup>.

## ب- الترابط العضوي بين القصة والقصص السابقة:

- فهو واضح من خلال تجانس عدة مفاهيم مثل:

• الأمر بالذكر في الكتاب.

• النبوة ومعاني العبودية والتوحيد.

• موضع تزكية بالصدق والرفعة.

• الرفعة والتشريف بالذكر.

• موضع الرحمة والهبة جزاء لصدق عبوديته.

- وأما استقلالها فهي توضح معنىً ونوعاً جديداً من الهبة والرحمة بالرفع في المكان العليّ فضلاً وهبة من الله تعالى له، كما أننا نجد نوعاً من التقابل المعنوي المقصود بين موقعها الختامي بعد مجمل قصص القسم الأول من سورة مريم وبين قصة زكريا ويحيى عليهما السلام التي وقعت في المقدمة، حيث إن هذا التقابل يقدم لنا وظيفة موضوعية وفنية في آن واحد.

**فقصة زكريا ويحيى عليهما السلام** من القصص التي كانت «أعظم في تبييت اليهود لمباشرتهم قتل زكريا وقتل يحيى عليهما السلام»<sup>(٢)</sup>، وكان كذلك الاختتام بمعجزة عرض قصص أوائل الأنبياء ومن بينهم إدريس عليه السلام، الذي كان أبعد ممن تعنتت بهم اليهود زماناً، وأخفى منهم شأنها، وهو جد أبي نوح عليه السلام.<sup>(٣)</sup>

وأما عن اتصالها بالبناء المعماري للسورة الكريمة فهي ترتبط مع معناها في مقاصدها الرئيسية من صدق العبودية والدعوة للتوحيد من خلال السمات المذكورة التي نتج من خلالها هبات ورحمات الله عز وجل.

وفي نهاية هذا المطلب من دراسة البناء الهيكلي لقصص سورة مريم في قسمها الأول، وَضَحَ لنا أهم القصص الواردة فيها، وأبرز أبعاد الوحدة العضوية وطريقتها الفنية في تجميع الخيوط المعنوية والفنية في القصص والسورة معاً، واكتشفنا الدور الوظيفي البارز لكل قصة على حده أو مع مجموع القصص المتكاثفة والمجتمعة معاً، التي أكدت لنا حقيقة أن القرآن لم يكن في تناوله وتنظيمه وترتيبه

١- البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٤١-٥٤٢.

٢- البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٢٦.

٣- المرجع السابق، مجلد ٤، ص ٥٤٢.





لقصصه عشوائياً، بل انتقى كلا منها بما يناسب أغراض السورة وأهدافها، إلى جانب أنه قد رسم هيكلية القصص بجميع أبنيتها رسماً دقيقاً متماسكاً مع السورة ومع مقاصدها بشكل قد يستصعب علينا أحياناً بيان الحكمة واللفظ فيه لدقته وخفائه، وعرضها بما يناسب عقل وقلب المتلقي بشكل محير ومعجز يأخذ بالألباب.

وفي آخر المطاف بدت معمارية القصص وهندستها الموضوعية والعضوية تتضح لنا بوحدتها وبتلاحمها، مما يزيدنا شوقاً لاستكمال تتبع خيوطها المنسوجة مع القسم الثاني من السورة.

## المطلب الثاني:

### (البنية الهيكلية الخطابية ووحدتها العضوية)

للقسم الخطابي بأبنيته وأشكاله في السورة دورٌ بارزٌ في بنائية العمارة الهندسية للسورة القرآنية، كما له وظيفته الواضحة في خدمة المعمارية القصصية في القسم الأول من مضامين السورة كما سيتضح لنا لاحقاً.

لذلك قبل معالجة هذه البنية بالتحليل لابد من الإجابة عن بعض الأسئلة التي تدور في صميم هذا التناول وهي:

- ما نوع الهيكلية الفنية التي تمثلت بها البنية الخطابية في السورة؟
  - وما أهم الدلالات المعنوية والفنية التي طرحت فيها؟ وكيف تم عرضها؟
  - وما أبرز العلاقات والروابط العضوية التي أسهمت في تلاحم وتواشج هذه البنية؟
  - وكيف استطاع النسق والنظام القرآني أن يربط ويلحم بنية القسم القصصي وبنية القسم الخطابي ليوظفها لخدمة أهداف السورة ومقاصدها السامية؟
- هذه تساؤلات في غاية من الأهمية وجديرة بالعناية والتركيز للوصول إلى إجابات وافية وشافية للكشف عن بعض أسرار البنائية المحكمة والمعجزة التي وجدت في السورة.

إن البنية الخطابية في هذا القسم تمثلت في هيكلية فنية تعتمد على المفارقات والموازنات البناءة التي تقوم أساساً على (هيكلية التقابل العضوي الخطابي) سواء في بنياتها الصغرى المتمثلة في دلالة الآيات اللفظية أو المعنوية، أو من خلال بُنياتها الكبرى التي تصدرتها ومضات من القصص السريعة والمواقف الخاطفة وتوسطتها وذيلتها التعقيبات المتنوعة التي تخدم القضايا والمقاصد، التي تتقابل بدورها مع البنية القصصية الخالصة في القسم الأول، التي تسهم جميعها في رسم معالم البنية

المعمارية القصصية ككل في السورة.

كما أنني أريد أن أؤكد بأن المخاطب في هذين القسمين هو محمد صلى الله عليه وسلم وأوليائه الصالحين من جهة، والمعاندين والمشركين والمفترين من البشر على اختلاف شخصياتهم ومعتقداتهم وأزمنتهم وأمكنتهم من جهة أخرى، في حين أن الخطاب للفئة الأخرى كانت أبرز وأوضح في القسم الثاني عنه من الأول، لذلك سيطرت على هذه البنية الكبرى في هذا القسم (الخطابية) بالدرجة الأولى على الرغم من تخلل بعض الومضات القصصية التي كانت تمهيدا في بداية كل بنية جديدة يتناولها السياق الخطابي.

حيث نجد البنية الخطابية في القسم الثاني تنتقل: «بمشاهدة بين الدنيا والآخرة، فإذا هما متصلتان، تعرض المقدمة في الأرض، وتعرض نتيجتها هنالك في العالم الآخر، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات، مما يلقي في الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان»<sup>(١)</sup>.

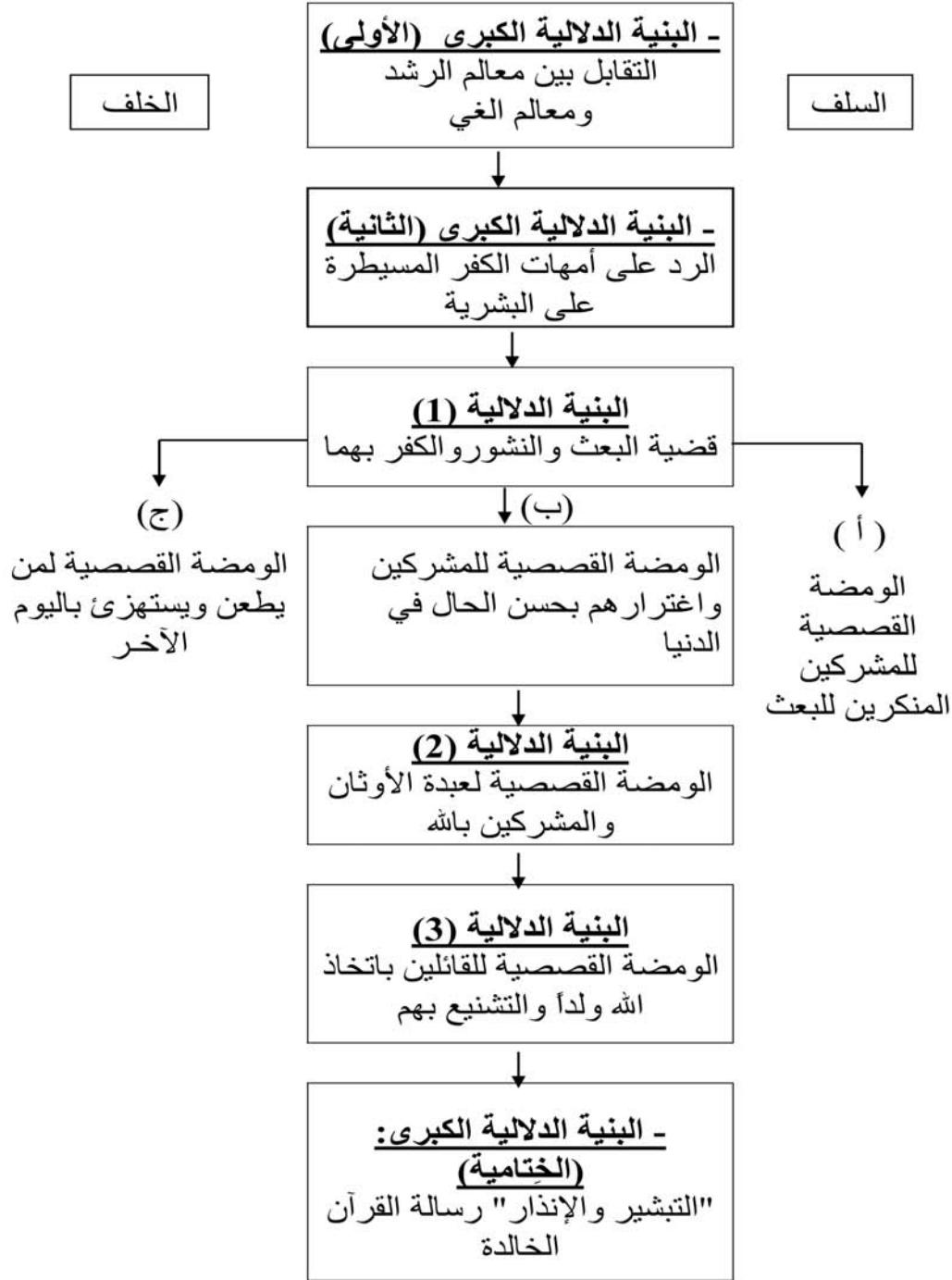
لهذا كان لتحديد المخاطب وأهله السبب الأساس في تحديد نوعية البنية الخطابية ومضمونها والأسباب المؤدية له، وهذا ما سندركه بشكل واضح وجلي إن شاء الله.

كما سنتعرف على ما استلزمته هذه الهيئة من عرض وتحليل وتعقيب للحجج والأدلة والشواهد التي تجلت من خلال الموازنات والمفارقات التي تُعرض، التي تخدم المقاصد الكبرى للسورة الكريمة، حيث نجد السياق القرآن يسير دائماً في خط مقابلة بين المؤمنين (المنعم عليهم) والضالين والمغضوب عليهم.

١- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٢١٧.



ومن أهم البنيات الدلالية التي ضمتها البنية الخطابية في القسم الثاني من السورة الكريمة  
أوضحها من خلال الخريطة الذهنية الآتية:





## ١. البنية الدلالية الكبرى (الأولى): المقابلة بين معالم الرشد ومعالم الغي.

نجد في ختام القسم القصصي وبداية القسم الخطابي (تعقيب وتعليق) عام ومجمل مثل بنية دلالية كبرى جمعت في طياتها مفاهيم ودلالات طرحتها القصص المسرودة في السورة من قبل، ومثلت لمفاهيم وأفكار ستسرد لاحقاً حيث قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَنبِ إِِنَّهٗ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا يَرْفَهُمْ فِيهَا بِكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

فآيات هنا أشارت إلى جملة من الدلالات المعنوية والفنية التي تنقسم إلى بُنيتين تُمثلان: (معالم الرشد ومعالم البغي).

**أولاً - معالم الرشد:** فالآية (٥٨) تمثل نعم ورحمة الله تعالى على عباده الصالحين من الأنبياء.

- فالدلالات المعنوية واضحة في الآية الشريفة بابتدائها باسم الإشارة (أولئك) لتشير إلى الذين كانوا جديرين بنعم الله عز وجل، التي ظهر من خلالها:

- المعجزات التي أُيدوا بها عوناً ورحمة ومساندة لهم.
- الاصطفاء بالنبوة والرسالة.
- المباركة في الأهل والذرية.
- التزكية الخالصة ورفعة المكانة والشرف في الدنيا والآخرة.

وهذه النعم جميعها تسبب لله تعالى بقوله: (الذين أنعم الله عليهم) حيث أكدت دليل اتصاف الله تعالى بصفات الكمال والقدرة والفضل لعباده، والتي بها: «أقام آدم عليه السلام وخلقه من عدم وهم في ظهره، مع ما طبعه عليه من الأمور المتضادة حتى نجاه من مكر إبليس، ونجى بها نوح عليه السلام وهم في صلبه من ذلك الكذب العظيم، وإبراهيم عليه السلام وهم في قواه مع اضطرام النار وإطفاء السن وإصلاح العظم، وأعلى بها إسرائيل عليه السلام وبنيه في سوط الفراق، وامتهان العبودية وانتهاك الاتهام حتى كان أبناؤه معدن الملوك والأنبياء، ومحل الأتقياء والأصفياء»<sup>(١)</sup>.

- **وأما الدلالات الفنية لهذه المعاني،** فإنه ما دامت القصص السابقة تدور حول مفهوم (الذرية) فإن هذه الدلالة تحمل في جعبتها استمرارية العمل العبادي في الأرض من قبل البشر

١- البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٤٣-٥٤٤.





وعدم انقطاعه، وهذا ما يوضح ربط النص بين شخصيات آدم ونوح وإبراهيم وبين ذرياتهم، «فالمسوغ الفني لذرية آدم فلأنه عليه السلام، في تصورنا فنياً أب للبشر.. وأما المسوغ الفني لقوله تعالى: (وممن حملنا مع نوح) فلأن ذرية آدم عليه السلام قد أبيدت خلال حادثة الطوفان عدا ما حُمل مع نوح. وأما المسوغ الفني لقوله تعالى: (ومن ذرية إبراهيم)، فلأنه أب للحنيفية التي شكلت امتداداً لما يليها وهو الإسلام، الذي أقر المبادئ التي انطوت عليها، وأما ذرية إسرائيل فلأن موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى يجسدون أهم شخصياتها»<sup>(١)</sup>.

- وبهذا تكون هذه حقيقة واضحة في أن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بهذه النعم، وما اتصفوا به من أخلاق سامية هم كذلك عبادةً موصوفون بالتوالد والانتقال من طور إلى طور مما يدل على حدوثهم وضعفهم وعجزهم، وإلى جانب أن عبوديتهم لله تنفي عنهم صفات الكمال الإلهي الذي قد يطلقه عليهم أحد المفتريين الضالين<sup>(٢)</sup>.

- وهؤلاء من شدة تقواهم لربهم المتفضل عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، لا يجدون ما يسعفهم عن التعبير عن مشاعرهم لسماعهم آيات القرآن المتلوة إلا أن يخروا للرحمن سجداً وبكياً، في إجلال وخشية ورهبة ورغبة إلى الله تعالى على عظيم إحسانه وفضل جوده الذي أمدها لهم طوال حياتهم، فالعقل يتوقف واللسان يعجز عن شكره وعرفانه.

## ثانياً - معالم الغي (ومضة قصصية عن الخلف الطالح):

وفي الجهة المقابلة سرعان ما نجد السياق القرآني يُدرج لنا معالم الغي في ومضة قصصية أو موقف سريع وخاطف يمثل (الخلف الطالح)<sup>(٣)</sup> الذين جاءوا بعد أولئك الصالحين، فمن هم؟ وكيف ساروا؟ وما جزاؤهم؟ تساؤلات تتقابل عكسياً مع أصحاب الرشد والنعم من الأنبياء وذرياتهم ومع من هداهم الله تعالى واجتباهم من عباده الصالحين في أي مكان وأي زمان.

ومن أهم أبعاد هذه الومضة القصصية في قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُوتَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠﴾ ما يلي:

١- الومضة القصصية تذكر وصفين لهؤلاء الخلف لهما أكبر الأثر في تحديد معالم الغي فيهما وهما:

• إضاعة الصلاة بتركها والتفريط في أدائها، وهذا في مقابلة قوله تعالى: «خروا سجداً»

١- محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج ٣، ص ٩٦-٩٧.

٢- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٤٩.

٣- (الخلف) على رأي ابن عاشور، "عقب السوء من جميع الأمم التي ضلت لأنها راجعة في النسب إلى إدريس جد نوح إذ هم من ذرية نوح ومن يرجع أيضاً إلى إبراهيم، فمنهم من يلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب، ومنهم من يدلي إليه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٣٤.

التي تدل على المشركين الذين أضعافها تماماً، على الرغم من توصيات الأنبياء السابقين لها، كما في عيسى عليه السلام بقوله تعالى على لسانه: «وأوصاني بالصلاة» وإسماعيل عليه السلام بقوله تعالى: «يأمر أهله بالصلاة والزكاة».

• **اتباع الشهوات بعدم مخالفة ما تميل إليه أنفسهم**، وهذا مقابلة لقوله تعالى: «وبكياً»، لأن بكاءهم يدل على خوفهم، واتباع هؤلاء لشهواتهم التي ابتدعوها يدل على عدم الخوف من الله تعالى، وهم غير المشركين كاليهود والنصارى<sup>(١)</sup>.

٢- الومضة القصصية توضح عاقبة ومآل أصحاب هذا الطريق وجزاءاتهم:

أ- فهؤلاء الخلف المضيعون والمفرطون والمبتدعون، سيكون مآلهم بأن يلقوا (غياً)، أي شراً يعقبه ضللاً عظيماً، من التَّخْبِطِ وَالخَطَأِ وَالانحِرافِ عَنِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، ويجوز بالغي الهلاك<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من التهديد والوعيد «فإنَّ جو الرحمة يخيم عليها، لأن رحمة الله لا تتوقف على البشارة فقط بل تمتد لتشمل النذارة أيضاً، فبيان طريق الضلال في حد ذاته رحمة لمن يريد لنفسه النجاة، فكيف إذا كان مع هذا البيان مهلة تمتد إلى أن يلقي العبد ربه عز وجل»<sup>(٣)</sup>.

ب- ولكن من استفاق منهم من غفلته، وعاد إلى رشده وإلى اتباع من صلح من أسلافه فهو مستثنى من الغي، وسوف يدخله الله الجنة التي عقب عليها بعد تلك الومضة واصفا نعيمها بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾<sup>(٤)</sup> حَتَّىٰ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا<sup>(٥)</sup> لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا<sup>(٦)</sup> تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا<sup>(٧)</sup> ﴿ حيث حددت هذه الآيات عدة دلالات فكرية و مضمونية منها:

• معالم الرشد في ثلاثة شروط هي: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، فإذا تمكنت من العبد كان من الذي شملتهم الرحمة الربانية، بقبول توبتهم ودخول جنته<sup>(٨)</sup>.

• بين الله تعالى لهم بأنهم سيؤتون أجورهم كاملة دون نقصان، «دفعاً لما عسى أن يخالغ نفوسهم من الانكسار بعد الإيمان، بظن أن سبق الكفر يحط من حسن مصيرهم»<sup>(٩)</sup>.

• (التفصيل بذكر النعيم في الجنة) إلى جنات عدن وذكر صفاتها وسماتها، ترفع من الرغبة والتشوق إليها وتشجع النفس لارتياح سبلها، لكي تحظى فيها بمميزات لا مثل لها من حيث: «لا يسمعون فيها أي لغو يكون سبباً لحزنهم أو تعكيراً لمزاجهم، كما أنهم لا يسمعون إلا السلام

١- بتصرف، الرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ٢٠١، ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ص ١٢٤.

٢- بتصرف، البقاعي: تناسب الدرر، ج ٤، ص ٥٤٦.

٣- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٥٧.

٤- بتصرف، المرجع السابق، ١٥٧.

٥- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٣٦.





التام إلى جانب ما يحصلون عليه من الرزق المستمر الذي لا ينقطع ولا ينقص فضلاً من الله تعالى ورحمة»<sup>(١)</sup>.

- نتلمس عدة دلالات لبعض الألفاظ التي طوتها هذه الومضة بتعقيبها مثل:
- المجانسة بين اللفظ والمعنى باستخدام كلمة (الرحمن) التي تناسب جو الرضا والمغفرة والعطاء، كما تلمسناها سابقاً في جو النذارة مع الخلف المضيع.
- وكذلك كلمة (السلام) التي توحى بالطمأنينة والراحة، كما تلمسناها في قصة يحيى وعيسى عليهما السلام من قبل.
- كلمة (نورث) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> كانت في هذا الموقع أقوى من استخدام كلمة (هبة أو عطية) لأنها تعطي زيادة في الدلالة والتأكيد على أهمية اختيار معالم الرشد التي سار عليها السلف من الأنبياء والصالحين الذين يرثون الجنة والتي هي حق لهم لا بد من أن يأخذوه، «فالوارث لا يبذل أي عوض أو مشقة في كسب مال موروثه، فإذا به يأخذ ذلك المال كله، والمسلم وإن كان يعمل في الدنيا لينال الجنان، إلا أن ما يعطيه الله تعالى هو تفضل منه، فلو أن الله تعالى يحاسب الإنسان على ما أنعم به عليه من نعم، لما كانت أعماله في الدنيا كلها في مقابل نعمة واحدة، ومن فضل الله تعالى أن جعلنا كأنا أصحاب حقوق بما كنا نعمل، وأن هذا الجزاء ميراث لنا، لا أحد ينتزع منا هذا الحق»<sup>(٣)</sup>.

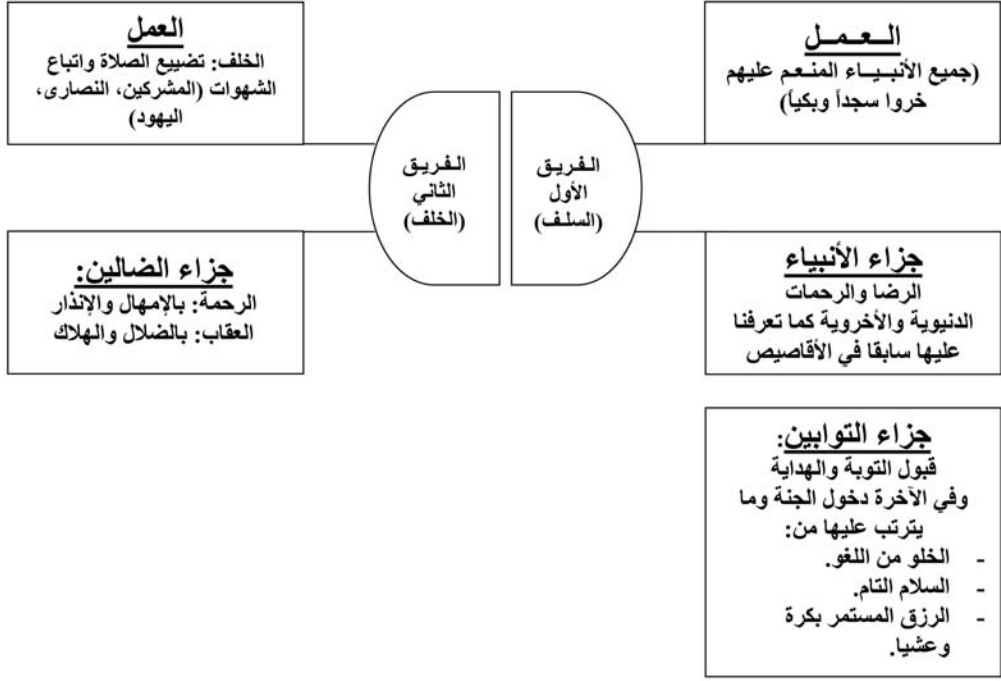
### ثالثاً: التقابل بين البنيتين (معالم الرشد ومعالم الغي).

ومن الوجهة الفنية لهذا (التقابل الواسع) نجد أن موقعه الوسطي في السورة الكريمة بوصفه ختاماً للقسم القصصي الأول وبداية للقسم الخطابي الثاني ينهض بدور شديد في الأهمية، إن لم يكن الأهم في جميع ما سبق، لما تقدمه من دلالات واستتارات عقلية ونفسية وعاطفية لها أبلغ الأثر في نشوء تداعيات عضوية، تجعل المتلقي يعود بذهنه إلى محاولة الخروج من الغفلة والظلمة والتخلص من أحوالها، ومحاولة اختيار التفكير السليم والسلوك الصحيح، الذي يتداخل معنوياً وعضوياً مع القسمين لتبرز حقائق ومفاهيم منطقية في رسم معالم الرشد ومعالم الغي أمام المتلقي، إلى جانب ما تقدمه هذه البنية من تدعيم للمقصد الرئيس للسورة الكريمة الذي يدور حول تثبيت العقيدة بتوحيد الله تعالى وعبوديته حق عباده، لنيل رحماته في الدنيا والآخرة.

١- بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٤٠ - ١٤١.

٢- بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٤٢. وبهذا تعدد معالم هذه الوراثة بالطريق المعروف: "التوبة والإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي، فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيين وممن هدى الله واجتبي، ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلم تنفعهم وراثة النسب" سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣١٥.

## ولقد ظهر هذا التقابل في الهيكلية الآتية:



## رابعاً: دور التعقيب القرآني في تلاحم هذا التقابل.

وبعد هذا التقابل نجد السياق القرآني يختتمها بتعقيب، له دوره ومكانته بعد جميع ما عرض من دلالات موضوعية وفنية، كما اتضح بعضاً من مظاهر هذا التقابل في السطور السابقة، حيث «تعلن الربوبية المطلقة لله تعالى، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تكاليفها، ونفي الشبيه والنظير»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾<sup>(٦٤)</sup> رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرْ لِعِزَّتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾<sup>(٦٥)</sup> ﴿<sup>(٢)</sup> إن هذه الآيات من السورة الكريمة تضم عدة دلالات لها أبرز الأثر في معرفتنا سبب وقوعها في هذه الجزئية من عمارة القصص، كما تساعدنا على إدراك الروابط العضوية التي تواشجت بها مع غيرها من الآيات الخطائية للوصول إلى الهدف المنشود، من هذه الدلالات:

١- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٣١٥.

٢- إن سبب نزول هذه الآية كما تضافرت عليه أغلب الروايات بأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم استبطأ نزول الوحي فترة حيث لم يأته جبريل عليه السلام فاستوحشت نفسه واشتافت للاتصال بربه، فكلف جبريل أن يقول له: " وما ننزل إلا بأمر ربك " أي هو الذي يملك كل شيء من أمرنا، بتصريف المرجع السابق، ص٢٣١٥. ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج١٦، ص١٣٩. والبقاعي: نظم الدرر، ج٤، ص٥٤٦. و حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص١٥٠، ١٤٩.





• اعتراف من الملائكة بحدودهم وإمكاناتهم أمام العزة الربانية، وتقريرهم بإحاطة الله وقدرته على كل شيء، فهم يفعلون ما يؤمرون، كما أن هذه الحقيقة تساعد على تقرير ما سبق ذكره من ربوبية الله تعالى وتوحيده، ومناسبتها لبيئة قد اتخذ بعض أهلها الملائكة أولياء وأرباباً وشركاء مع الله بحسبهم أنهم قادرين على النفع والضرر<sup>(١)</sup>.

• بيان قدرة الله تعالى وذلك بإخبار الملائكة بأنهم لا يتزلون إلا بأمر ربهم حيث تفيد الآية: «إحاطة ملكه تعالى بهم ملكاً حقيقياً لا يجري فيه تصرف غيره، ولا إرادة سواه إلا عن إذن منه ومشية»<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: «وما كان ربك نسياً» دلالة على أنه المتصرف في الأمور كلها وفي كل الأوقات لما تقتضيه حكمته فلا ينسى شيئاً من ملكه وإن دق عن مراده<sup>(٣)</sup>.

• إن المتصف بهذه الصفات من القدرة والمشية والحكمة والتصريف والتدبير التي خلصنا إليها بعد تناولنا للقسم القصصي، إلى جانب من له الملك المطلق في الجزاءات الدنيوية والأخروية باعتبار: «رب السموات والأرض وما بينهما»، فهو بحق الإله المستحق للعبودية والربوبية المطلقة التي تلزمتنا أن نعبد ونصطبر على عبادته، ونتحمل كل ما قد يواجهنا من مشاق ومتاعب إزاء هذا الالتزام.

• كما يبرز لنا من خلال الآيات أن الله تعالى كامل الصفات والأسماء، وعظيم النعوت، جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي بل قد تفرد بالكمال المطلق والعبودية الخاصة الظاهرة والباطنة<sup>(٤)</sup>.

• للآيات دلالة وتأكيد على بطلان الشرك بجميع أنواعه، فلا يليق بعاقل بعد هذه الأدلة كلها أن يستمر في سفهه وضلاله وجهله.

وهكذا جاء التعقيب في محله ليسد فجوات دلالية وفنية قد ينبثق منها عقل المتلقي مستفسراً ومتسائلاً ومتعجباً، فيسد السياق القرآني كل خلل ويصلح كل زلل بأسلوبه وطرائقه في الإقناع والاستدلال.

## ٢- البنية الدلالية الكبرى (الثانية): الرد على أمهات الكفر المسيطرة على البشرية:

فبعد ما توصل إليه السياق القرآني من رسم لمعالم الرشد والغي والجزاءات المترتبة على كل

١- ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٦٠.

٢- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٨٢.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ٨٢، البقاعي: نظم الدرر، ج ٤، ص ٥٤٩.

٤- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٦٢.

منهما، وبيان كمال قدرة الله تعالى وحكمته، نجد السياق يتعجب من فعل أولئك الكافرون الذين يتغافلون ويتعامون عن الحق الظاهر جحوداً ونكراناً، وهذا من باب التقرير التوكيدي على عموم قدرة الله تعالى ووحدانيته، التي يعنونها بالاستهزاء والسخرية في عدة أمور جمعتها الآيات الكريمة بصريح العبارة في ثلاث بنيات كبرى مثلت (ومضات قصصية سريعة) التحمت بتعقيبات توضيحية، لها دورها الوظيفي المهم الذي ضم الردود الربانية القاطعة على أمهات الكفر التي سيطرت على البشرية وهي:

- البنية الدلالية الأولى: وتضم ومضة قصصية تشير إلى قضية البعث والنشور، والكفر بهما.
- البنية الدلالية الثانية: وتضم ومضة قصصية تشير إلى عبدة الأوثان والمشركين بالله تعالى.
- البنية الدلالية الثالثة: وتضم ومضة قصصية تشير إلى القائلين باتخاذ الله ولداً والتشنيع بهم.

ومع أولى البنيات الدلالية:

### ❖ البنية الدلالية الأولى: (قضية البعث والنشور).

وهي تتمثل في ثلاث بنيات صغرى، عُرِضت على شكل ومضات قصصية مكتنزة أردفت بتعقيبات متلاحمة هي:

- البنية الدلالية التي ضمت ومضة قصصية عن المشركين وإنكارهم للبعث والرد على مواقفهم.
- البنية الدلالية التي ضمت ومضة قصصية عن المشركين واغترارهم بحسن الحال في الدنيا والرد عليهم.
- البنية الدلالية التي ضمت ومضة قصصية لمن يطعن ويستهزئ باليوم الآخر.

أبدأ بتناول البنية الأولى:

### (أ) - البنية الدلالية الصغرى: ومضة قصصية عن المشركين وإنكارهم للبعث والرد على مواقفهم:

أ- يبدأ السياق القرآني بعرض ومضة قصصية تمثل النكران والكفر والاستهزاء الذي يتكرر دائماً عند المشركين، بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذْ مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾ ﴾ و«هو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، فأين كان؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه





تذكر<sup>(١)</sup> واعتبر، فتأتي التذكرة التي يتجاهلها هذا الإنسان بيانا واضحا وشهادة قاطعة على حقيقته الأولى بقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۗ﴾ (١٧).

ومن لطائف رحمة الله تعالى التي شملتها السورة أن الله تعالى على الرغم مما يراه من عبادة من الجحود والنكران فإنه محافظ على كل معاني التقدير والتكريم لهذا الإنسان، الذي يُعد خلقاً من خلقه، حيث إن تكرار كلمة الإنسان في الآيتين أو في هذين الموقعين بالذات لتدل دلالة واضحة على حلم الله تعالى على عباده، ورحمته بهم، وتقديم الاستدلالات التدريجية بالإقناع والجذب والإنذار ما هو إلا إمهال من عنده يسكبه على عباده في دنياهم قبل آخرتهم لإنقاذهم من العاقبة المحزنة.

ب- وفي هذه الومضة القصصية هندسة تقابلية عضوية بين الأشخاص المنكرين والمستهزئين بحقيقة البعث والنشور، والأشخاص المصطفين الصالحين الموقنين بحقيقة البعث والنشور، أمثال زكريا ومريم عليهما السلام، حيث وقعت تساؤلات مشابهة ومقاربة من حيث الشكل، ولكنها اختلفت من حيث المضمون:

• حيث تساءل زكريا ومريم عليهما السلام عن كيفية إنجاب الولدين فأجيب كلاهما بأن هذا هين على الله، وقد خلقوا جميعاً من قبل ولم يكونا شيئاً، فكذلك الآن يوهبان الولدين، ويوضح الله تعالى أن المصطفين حينما يقرؤون بعظمة الله تعالى في صوغه للقوانين الكونية من خلق وإحياء، إنما يتساءلون عن إعجاز خاص قد شملهم الله به حينما جعلهم خارجاً عن القوانين العامة للإعجاز، ولذلك أجابهم تعالى بأن تجاوزه حتى للقوانين العامة إنما يستند إلى مفهوم (القدرة المطلقة) ومنها: خلقهم أساساً ولم يكونوا من قبل شيئاً.

• أما بالنسبة للمنكرين الذين يكررون السؤال استهزاء وسخرية: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۗ﴾ (١٦)، وتكرر عليهم نفس الإجابة: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۗ﴾ (١٧) فإن إجابة الله تعالى لهم تدور حول (القدرة المطلقة) أيضاً، ولكن من خلال إنكارهم أو تغافلهم عن هذه القدرة المطلقة<sup>(٢)</sup>.

ج- وفي تتابع هذا التنامي الخطابي من خلال القصة نجد السياق القصصي ينتقل من الومضة القصصية إلى التعقيب المباشر الذي يضم خطاباً واضحاً لهؤلاء المشركين وأمثالهم الذين تمادوا في إنكارهم للبعث، فيقول الله تعالى متوعداً ومهدداً في غضب وإنذار: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ۗ﴾ (١٨) ثم لننزعك من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عنيًا (١٩) ثم لنحزنهم بالذين هم أولى بها صلياً (٢٠) وإن منكم إلا واردة كان على ربك حتماً مقضياً (٢١) ثم ننجي

١- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢١، كما يفيد لفظ المضارعة: (يقول) على قصور التصور عن إدراك قوة قادرة على إحياء العظام وهي رميم". ينظر، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٦٥.

٢- بتصرف، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج ٣، ص ١٠٠.



## الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾

إذ نجد الله تعالى يؤكد عظم القول وتبعاته، بأن أقسم بالاسم الدال على ربوبيته لكل شيء والمضاف بكاف الخطاب تفخيماً لشأن المخاطب وهو محمد صلى الله عليه وسلم، بالانتقام من هؤلاء الأقسام<sup>(١)</sup>.

وترسم لنا البنية في ختامها بالتعقيب الذي يحدد معالم العقاب الذي سيؤول إليه هؤلاء، الذين عبر عنهم السياق ببنية بارعة، حيث يصورهم في محط الاحتقار لإنكارهم وتماديهم، إذ كان عقابهم متمثلاً في عدة مشاهد أخروية<sup>(٢)</sup>:

- المشهد الأول: حشرهم مع شياطينهم الذين كانوا سبباً في إضلالهم بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾.

- المشهد الثاني: احتقارهم ومهانتهم فمصائبهم كمصائب شياطينهم في جثوهم حول جهنم التي يرسمها السياق في «صورة حسية وهم جاثمون حول جهنم جثو الخزي والمهانة» ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾<sup>(٣)</sup> وهي صورة رهيبة، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها، تشهد هولها ويلفحها حرها، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع<sup>(٤)</sup>.

- المشهد الثالث: الذلة والمهانة للمتجبرين والمتكبرين بنزع وجذب من كان أشد عتواً وتجبراً على الرحمن الذي فتح لهم أبواب رحمته الواسعة ولكنهم لم يلقوا لها بالأل<sup>(٥)</sup>، ولم يتحسسوها لقسوة قلوبهم وعناد عقولهم فيقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾<sup>(٦)</sup>.

ففي هذا المشهد يمكننا تصور ما ترسمه هذه الآية من ظلال لهذا الانتزاع وهذا القذف الذي يمكننا كذلك أن نتخيله بأذهاننا في صورة فظيعة ومخيفة.

كما أننا نستطيع تلمس بعض من الصفات المعنوية من مثل الجلال والكبرياء والجبروت والانتقام<sup>(٥)</sup> والتي تتوج بصفة شمول العلم، حيث يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا﴾<sup>(٧)</sup> أي أعلم بالذين هم أولى بكل طبقة من دركاتهما من جميع الخلق من المنتزعين

١- بتصرف، البقاعي: نظم الدرر، ج٤، ص٥٥٠.

٢- ينظر، سيد قطب: مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ١٦٨، ١١٩-١٢٠.

٣- ويرى ابن عاشور: "أن ذكر صفة الرحمن هنا لتفطير عتوهم، لأن شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطفيان"، تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج١٦، ص١٤٧.

٤- بتصرف، البقاعي: نظم الدرر، ج٤، ص٥٥١.

٥- بتصرف، المرجع السابق، ج٤، ص٥٥١.





وغيرهم<sup>(١)</sup>.

- المشهد الرابع: وهنا تُختتم المشاهد بالورود<sup>(٢)</sup> المحتوم للناس جميعاً على نار جهنم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۗ﴾ فالؤمنون كذلك يشهدون هذا العرض الرهيب فيدنون من النار ويمرون عليها وهي تتأجج وتتميز.

- المشهد الخامس: نجد الله تعالى ينقذ عباده وينجيهم من ذلك الهول المريع ويزحزهم عن السقوط جزاء بما قدموه من عبودية حقه، ورحمة بهم لما خالج قلوبهم من صدق الإيمان قولاً وفعلاً، وسراً وعلانية، فيقول: ﴿ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا حِثًّا ۗ﴾.

وبهذا تُختتم شبهة المشركين في إنكار البعث بهذا الوعد والوعيد، الذي رُصِّع في طياته بسمات البناءية المحكمة من (الومضة القصصية - التعقيب - المشاهد المحسوسة ومتخيلة - القسم بالوعد والوعيد.....) وبأسلوب فني بديع.

## (ب) البنية الدلالية الصغرى: ومضة قصصية عن المشركين واغترارهم بحسن الحال في الدنيا والموازنات الواهية لهم والرد عليهم:

أ- لما ذُكر في الآيات السابقة إنكارهم للبعث، وإجابتهم بالحجة القاطعة على وقوعه، وأشير إلى تبعات هذا الإنكار من الخسران المبين في الآخرة، عطف السياق القرآني بموقف آخر من تجربتهم ومعارضتهم لتلك الحقيقة، وكان سبيلهم في ذلك تلك الموازنات المادية الواهية بينهم وبين أصحاب العقيدة من أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم تصوروا أنهم أصحاب مقام رفيع عند الله تعالى باعتبار ما يعيشونه من رغد وسعة<sup>(٣)</sup>.

حيث قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۗ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ۗ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ دَلَّهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۗ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ۗ﴾ ﴿٧٨﴾.

فمع هذه المفارقة التي طرحها الكافرون التي تقوم بالدرجة الأولى على المادية البحتة، وتدل على صدأ قلوبهم التي لا تتفد إليها الآيات ولا ترققها الحوادث والمشاهد، صوّر لهم كفرهم أن منزلتهم

١- كما أننا نلاحظ في هذا المقام أهمية وظيفة العطف بأداة البعد "ثم" مقرونة بنون العظمة، والتي تسهم بدور فني بارز في الدلالة على بعض تلك المواقف ومراتبها وتصاعدها، تهويلاً للمقام وتعظيماً للأمر لاستبعادهم له، على أنه يمكن أن تكون الحروف الثلاثة للترتيب الزمني، ينظر، البقاعي: نظم الدرر، ج٤، ص٥٥٢.

٢- واختلف في معنى الورد فمنهم من قال هو بمعنى: المرور على الصراط، وقيل الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها، وهو موضع المحاسبة، وقيل بمعنى الدخول ولكن الأصح الورد بمعنى المرور، راجع: وهبه الزحيلي: التفسير المنير، ج١٦، ص١٤٥، ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج١٦، ص١٥٢.

٣- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص١٧٠.

رفيعة بما يملكون من متاع دنيوي وفير، وأنهم خير من هؤلاء النزر الفقراء القليلون الذين يظنون بأنهم أقل منهم مكانة ورفعة.

ب- ولكن سرعان ما يعقب السياق رادفا الومضة القصصية السابقة بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين، على ما كانوا فيه من مقام كريم، غير أنه لم ينفعهم ذلك المقام شيئاً، ولم يعصمهم عن ما كُتب عليهم من الهلاك المحقق بهم<sup>(١)</sup>.

والهدف المقصود من القصة هنا: «أنه لو كان الثراء والمال، وهذا الندي<sup>(٢)</sup> يدل على رضا الله فلماذا أهلك من هو أعلى منكم مقاماً، فاعلموا أنكم إذن مخطئون، تزنون رضا الله وسخطه بميزان لذاتكم ومتاعكم»<sup>(٣)</sup>.

ونجد السياق القرآني يستمر ويسترسل في دحض شبهة هؤلاء الكفرة لاستئصالها من جذورها، حتى لا يبقى لها باقية ولا ينخدع الناس بها، فيأمر الله تعالى النبي الكريم عليه السلام بإعلامهم بأن ما لديهم من نعم هو إمهال من الله تعالى واستدراج منه، بقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا<sup>(٤)</sup>﴾.

وبعد ذلك الإمداد في الضلال تتحقق المشاهدة رأي العين إما: العذاب الدنيوي بالقتل والأسر، وإما العذاب الأخروي بالعذاب والحسرة، وحينئذ تتضح الرؤيا جيداً في حقيقة المكانة والمنزلة ومن له تلك الأحقية في الصدارة من القربى والكرامة التي ظنوا في لحظة من اللحظات بأنهم قد نالوها وامتلكوها، فيقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا<sup>(٥)</sup>﴾.

وما أجمل تلك المقابلة بين قوله تعالى: «شر مكاناً وأضعف جنداً» «في مقابل:» خير مقاماً وأحسن ندياً» والتي تضيف دلالات فنية من المبالغة في إظهار سوء حالهم وبيان ضعف شوكتهم وأنصارهم.

ويتابع السياق القرآني ردوده بعرض موازنة بين مآل هؤلاء المشركين من عقاب وعذاب في الدنيا أو الآخرة إذا ما بقوا على تلك الطريقة، ومآل الصالحين والمهتدين وما يحصلون عليه كذلك في الدنيا

١- بتصريف، سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢١٩.

٢- الندي: هو النادي والمجلس، وهو مجتمع الرجال للحديث ومجلسهم، والعرب تسمى المجلس النادي، ينظر، ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، مادة، ندي، ص٢٢٨، وهبه الزحيلي: التفسير المنير، ج١٦، ص١٠١.

٣- بيوض في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص١٦٨.

٤- وهذه الآية تستلزم التنبيه إلى التمييز بين نعمتين اثنتين هما:

نعمة ناشئة عن رضا الله على عباده، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٦٧)</sup>﴾ النحل آية: ٩٧.

ونعمة الاستدراج لمن كفر به عز وجل وصد عنه كقوله تعالى: ﴿يَجْسِبُونَ أَنَّمَا يُدْعَرُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَبِينَ<sup>(٦٨)</sup>﴾ شاعرهم في المخرجات بل لا يتغنون<sup>(٦٩)</sup> سورة المؤمنون: آية ٥٥-٥٦، فمعيار التفرقة بينهم هو النظر إلى حال من هو في نعمة بين حال هدى وحال ضلال. ينظر، ابن عاشور:

تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج١٦، ص١٥٥.



والآخرة بقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

وبالتأمل في هذه البنية الخطابية التي ضمت (ومضة قصصية - تعقيب - تهديد ووعيد بأسلوب الخبر والإنشاء - تأكيد) نلاحظ هندسة تقابلية عضوية بين مضمون

هذه البنية ومع ما سبقها من بنيات قصصية كالآتي:

المؤمنون		المشركون
زيادة في الهدى (من الإشباع الروحي و التقى والرضا، والمباركة والصلاة والزكاة) مثلما ما وهبه لأوليائه والمصطفين.	الإمداد	إمداد في الضلال (بالمال والموقع الاجتماعي).
فقر وضعف وشطف من العيش مع استجابة للنداء الحق والصبر عليه.	الظاهر	قسوة وقوة وتكبر وجحود عن سماع الحق.
ابتلاء واختبار وصبر ومصابرة، ويقين صادق بأن ما عند الله خير وأبقى.	الحقيقة	الابتلاء بأمراض نفسية وتوترات داخلية، يخفونها تحت قناع التعالي والتكبر مع الجماعات المتناصرة.
هداية وتوفيق و بركة في الذرية والرزق الحسن و الطمأنينة والسكينة.	الجزاء الدنيوي	عذاب دنيوي بالقتل والأسر وتضيق الجماعات مع القلق الدائم والاضطرابات النفسية.
نعيم أخروي دائم بوجود الباقيات الصالحات والسلامة من العذاب.	الجزاء الأخروي	عذاب أخروي بالهلاك المحتم والعقاب الأليم.

(ج) البنية الدلالية الصغرى: ومضة قصصية عن من يطعن ويستهزئ باليوم الآخر والرد عليهم.

أ- تقدم لنا البنية الخطابية بنية صغرى تضم ومضة قصصية جديدة، تمثل نموذجاً من نماذج الشخصيات المنحرفة عن الطريق السوي بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا

﴿٧٦﴾ وَنَرَاهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ﴿٨٠﴾، وهي قصة تُعد من أعاجيب القصص المسرودة عن الكفار، التي تدل على سخفهم، وسذاجة تفكيرهم على الرغم من وجود الآيات البيِّنات الساطعات، وهذا ما نستشف معناه من الاستفهام التعجبي في بداية الآية، ليوّجه السياق القصصي الانتباه والتذكير لمن يعلمها، «ولما كانت رؤية الأشياء سبباً إلى الإحاطة بها وصحة الخبر عنها استعمل «أرأيت» بمعنى أخبر، وإلقاء العطب أفادت التعقيب، كأنه قيل أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر عقب قصة أولئك»<sup>(١)</sup>.

ب- وبالتأمل نجد الهيكل البنائي للقصة متمثلاً في (الاستفهام التوبيخي - الحدث - حوار الشخصية الساخر - الخاتمة التعقيبية)، حيث أظهر السياق الخطابي القصصي شخصية هزيلة، فقدت فاعلية الإدراك السليم للظواهر، فاتجهت إلى السخرية من اليوم الآخر بشكل يجسد اضطرابها النفسي، واهتمامها المرضي بالشهوات والماديات، وبطريقة يوصلها إلى التغافل عن التنبؤ بحالها بعد الموت، وتتعامى عن حقيقة إدراكها لمسؤولياتها حيال ذلك اليوم<sup>(٢)</sup>.

ج- وسرعان ما يعقب الله تعالى على موقف هذا الكافر الضال بالاستفهام الإنكاري على ادعائه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ آخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ فلا يدعي مدع هذا القول إلا وهو يستند على واحد من ثلاثة أشياء<sup>(٣)</sup>:

- أن يكون قد اطلع على الغيب، وعلم أنه سيؤتي ما لا وولداً.
  - أن يكون قد أعطاه الله عهداً لن يخلفه.
  - أن يكون قال ذلك افتراء على الله من غير عهد ووعده، ولا اطلع على الغيب، والاحتمال الأخير في استناده هو الأصح للدلالة على خبايا نفسه وغرورها.
- د- لذلك سرعان ما جاءت (لحظة التنوير) في الخطاب التعقيبي في ترتيب مُعد ومتسق كما في السطور الآتية:

- الأول: التبيكيت له باستخدام حرف الزجر والردع (كلا)، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّهُ، مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾ وهنا بيان لرحمة الله تعالى في نذارته للقوم الكافرين قبل فوات الأوان، بأنه سيكتب كل ما يقوله ليكون شاهداً عليه.

١- أبوحيان: البحر المحيط، ج٦، ص٢١٣.

٢- ينظر، محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج٣، ص١٠٤-١٠٥-١٠٦.

٣- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص١٧٦.



- ثانياً: الوعد له بطول العذاب ومضاعفته غضباً من الله تعالى وسخط.
- ثالثاً: السلب التام لكل ما يملك من المال والولد مع الهلاك الأليم له، إلى جانب ما يتحملة من تبعات المسألة عن تبججه واستهزائه بآيات الله البيّنات لقوله تعالى: ﴿ وَرَثَهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ٨٠ ﴾.
- هـ- وهنا يسدل الستار على حال هذا المتبجح الجاحد لنعمة الله تعالى وأمثاله ممن ساروا على نهجه، ويفتح السياق القرآني تداعيات ومقابلات عضوية تقدم دوراً فنياً في عقد الموازنة بين تلك الشخصيات المتميزة والشخصيات المنحرفة التي تُمد الجميع مدداً من جنس ما آمنوا وعملوا به.

فمثلاً: مفهوم (الإمداد) لفظ يتداعى عند الفريقين ولكنه يختلف في نوعيته مع كل منهما حيث نجد الإمداد للصالحين يكون رحمة لعباد الله تعالى وسعة رزق وصلاحاً في الذرية وبركة في المال وإن قل، إلى جانب المدد العظيم بالرضا ودخول الجنان.

في حين أن هذا المفهوم من المدد يتمثل بصورة عكسية عند أولئك المستهزئين من الكفار، الذين تحل عليهم لعنة الله وغضبه فيمد لهم الضلال في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة بمضاعفته أضعافاً كثيرة.

وأخيراً بعد تناولنا لآخر بنية قصصية من مضامين البنية الدلالية الكبرى الخاصة بـ (حقيقة البعث والنشور وشبهات المشركين حيالها) نتضح لنا كيفية تسخير القرآن للومضات القصصية الفنية بمشاهدها ومواقفها وتعقيباتها المتلاحمة لخدمة الغرض الرئيسي الذي تصبوا له مقاصد السورة الكريمة، وهو: الرد القاطع على هؤلاء المنكرين، والعمل على رسم الطريق الواضح للاعتقاد السليم، والبناء الصحيح الراسخ للعقيدة الربانية الخالصة.

و سرعان ما نجد السياق ينتقل من البنية السابقة إلى بنية دلالية جديدة قريبة من جارتها في سوء الاعتقاد والتفكير لمعالجة قضيتها والرد عليها.

### ❖ البنية الدلالية الثانية: (ومضة قصصية تشير إلى عبدة الأوثان والمشركين بالله تعالى)

بعدما تناول السياق القرآني واحدة من أمهات الكفر السائدة في البشرية، وكيفية الرد عليها، والقضاء على شبهتها نهائياً من خلال البنية السابقة، نجده ينتقل لبيّن نوعاً آخر من أنواع الكفر المتعلق (بالشرك بالله تعالى)، والشرك هنا كلمة عامة لكل ما قد يُشرك به الله تعالى على شتى

أنواعه وأشكاله في كل زمان ومكان<sup>(١)</sup>.

أ- فيوضح الله تعالى واصفاً أولئك النفر بومضة سردية قصصية قد اكتنزت أحداثها ومشاهدها اكتنازا متعمداً، لبيان أخطر فعل من أفعال المشركين، بقوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۗ﴾ (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۗ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۗ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا ۗ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ۗ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ﴾ (٨٧).

فعلی الرغم من الآيات البيّنات التي تؤكد أن العزة لله جميعاً، فإن المشركين ابتغوا العزة والنصرة عند غيره، وهذا ما نستشفه من سوء أعمالهم باستعمال السياق القرآني لكلمة (الأتخاذ) التي تعني الاعتقاد والعبادة: «إيماءً إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر به الله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

كما تشير هذه الآية من طرف خفي إلى أن الحق يقتضي تقرير أوهية الله تعالى وحده، باعتباره الموصوف الوحيد بالعزة الكاملة، ومن طلب هذه العزة عند غيره سرعان ما سيذل ويهان<sup>(٣)</sup> والحقيقة: «أن العزيز هو من شد نفسه بحزام العقيدة الصحيحة واعتز بالله الواحد القهار»<sup>(٤)</sup>.

ومن ثم فإن هذا التوبيخ الواضح منذ البداية لدلالة قاطعة على بطلان ما يتخذونهم شركاء مع الله تعالى.

ب- وبعد ذلك الإخبار التوبيخي القصصي، نجد السياق القرآني يستأنف ردوده التعقيبية القاطعة ذات التسلسل التدريجي الواضح، والمتلاحم بعضويته مع الأسلوب القصصي السردى، لبيان مضامين الرد بالوعد والوعيد لهؤلاء الفئة المشتركة وهي كالاتي:

١. الإعلان الواضح بالوعد والوعيد على خطر هذا الموقف في الآخرة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۗ﴾ ففى هذه الآية عدة دلالات منها:

• العُنف والشدّة والغضب، وهذا واضح من خلال استعمال حرف الردع «كلا»، والجملة القصيرة، التي تعطي إحياء الجدية والسرعة في الخطاب<sup>(٥)</sup>.

١- هناك أمثلة كثيرة على أنواع وأشكال الشرك التي تجعل آلهة من دون الله تعالى من مثل: الأحجار والأشجار، القبور أو الأولياء، الملائكة أو الجن، النار أو الشمس والكواكب إلى غيرها مما خلق الله تعالى، وهذه الآلهة متنوعة ومختلفة منذ خلق الله العالم ن كل له شيء يقدهه ويتقرب إليه، بالذبح أو بإشعال الشموع، وتعليق الأقمشة رجاء أن يرد له غائباً، أو يشفى له مريضاً، أو ينصره على عدوه، أو يدفع عنه بلاء، أو يشفع له يوم القيامة.. بتصرف، بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٧٧.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٦٢.

٣- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٧٨.

٤- المرجع السابق، ص ١٧٩.

٥- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٧٩.

• الشهادة المتبادلة من الطرفين فكلاهما يتبرأ من عبادة الآخر، فالكفار ينكرون الشرك بقولهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾<sup>(١)</sup> ومعبوداتهم كذلك تتبرأ من عبادة المشركين لها، وما تزيد هذه التبرئة المشركين إلا ذلة ومهانة وعذاباً<sup>(٢)</sup>.

٢. الرجوع إلى حالهم في الدنيا وإعلان الحرب الضروس عليهم بإرسال الشياطين إليهم، إذ إنها سلطت عليهم عقاباً وجزاءً لهم، وليس بسبب قصور في التبليغ أو الرسالة للأنبياء عليهم السلام، بقوله تعالى مخاطباً رسوله عليه السلام وكل متلقٍ لهذه الآيات العظيمة: ﴿الْمُرْتَأَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ تُوْزَهُمْ آزًا ﴿٢٤﴾﴾

٣. ولم يكتف الله تعالى بإرسال الشياطين لهؤلاء فقط، بل إنها لتُوْزَهُمْ آزًا، والأز في الآية بمعنى: «الhez والاستفزاز الباطني»<sup>(٣)</sup> مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتد غليانه، حيث شبه اضطراب اعتقاداتهم وتناقض أقوالهم واختلاف أكاذيبهم بالغليان صعوداً أو انخفاضاً، وفرقة وسكوناً، إلى جانب الدور القوي في إغرائهم وتهيجهم على المعاصي بشكل يقف الناظر حياله موقف التعجب والدهشة<sup>(٤)</sup>.

٤. التوكيد على الإعداد المنتظر لهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾ حيث نجد أن الله تعالى يرفع مكانة النبي عليه السلام بأن ينزله منزلة من إذا كان هؤلاء هلاكهم بيده، فينبئهم إلى عاقبتهم كونهم ممهلون إلى أجل معلوم، ويوم موعود محسوبة أيامه ولحظاته<sup>(٥)</sup>.

ج- وفي ختام البنية الدلالة الخاصة بعبادة الأوثان والشرك بالله نجد السياق القرآني وكما تعودنا عليه منذ تناولنا للبنيات الخطائية القصصية في القسم الثاني من السورة الكريمة يعقد المقارنة والموازنة بين المتقين والمجرمين بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾﴾.

وللمتلقي أن يتصور كيفية هذه الموازنة التي كثفت فيها الألفاظ وتعددت فيها المعاني، فالمتقون لهم عدة مزايا هي:

- ١- سورة الأنعام، آية ٢٢.
- ٢- فشهادة المعبودات العقلاء كالملائكة والأنبياء كعيسى وأمه، هؤلاء يدفعهم خجلهم من الله تعالى، لأنهم عُبدوا من دونه إلى طلب مضاعفة عذاب هؤلاء المشركين، أما المعبودات غير العاقلة كالتماثيل والصليبان فتجتمع كلها ويعذب بها عابدها زيادة لهم في الخزي والتكيل، كما قال تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون"، سورة الأنبياء آية ٩٢. ينظر، بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٧٩.
- ٣- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، (أزز)، مجلد ١، ص ٩٨ - ٩٩، وحدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٨١.
- ٤- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٨١، ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٢٤-١٣٥.
- ٥- وقوله تعالى: "فلا تعجل عليهم" قد لا يعني استعجال النبي عليه السلام عذابهم بسبب معارضتهم للدعوة، بل لم يُعرف عنه أنه استعجل مدة عليهم بل كان دائماً يتعجل إيمانهم وهدايتهم لما انطوى في قلبهم من رحمة ورأفة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ سورة الأنبياء، آية ١٠٧.



• السمو بالتقى.

• الحشر كوفود إذ إن لفظه (وفد) مشعرة بالكرامة والرفعة، حيث إنهم يتألفون من كبار أعيان الناس ووجهاء الأقسام، الذين يفدون على الملوك في أبهى منظر وأحسن شكل<sup>(١)</sup>.

• الرحمة التي تظلل الموقف، وذلك ما نتلمسه في استعمال صفة الرحمن في هذا الموقع بالذات، ونيلهم للشفاعة التي وُجبت عليهم لعهد سابق بينهم وبين الله تعالى، على إخلاص العبادة له وحده دون شريك له.

### وأما المجرمون فسماتهم:

• المهانة بصفة الإجرام للدلالة على اغتراف الكبائر التي يتعدون بها على حدود الله سبحانه.

• سوق المجرمين بطريقة مشابهة لسوق الأنعام التي تهاب زجر الرعاة وسياطهم، وهم عطاش يتلهفون للوصول إلى الورد، ولكن أي ورد، إنه ورود جهنم، فكيف هم بذلك الحال، أعاذنا الله منها<sup>(٢)</sup>.

• الغضب الذي يخيم على هؤلاء المجرمين في ذلك الموقف جزاء بما صنعت أيديهم.

• انقطاع أي حبل للنجاة أو الشفاعة، فهم لا حظ لهم آن ذاك.

وفي ختام تناول هذه البنية الدلالية لقضية الشرك بالله تعالى أجد لها موقعاً فنياً من خلال ترابطها عضويًا مع غيرها من البنيات السابقة:

- وأولها التقابل العضوي: مع معاني القصص في السورة الكريمة، وبخاصة مع افتتاحية قصة زكريا عليه السلام، التي استهلّت بالرحمة الواسعة التي شملته وسائر عباد المصطفين، وما ترتب عليها من الهدى والسداد والرّضا والطمأنينة، في مقابل أولئك المشركين الذين وصّفوا بالمجرمين والذين سلطت عليهم الشياطين، وأزتهم أزا اضطربت بها عقولهم ونفوسهم، وانعمت بها أبصارهم وبصائرهم، عن رؤية الحقيقة الواضحة، مما أدى بهم إلى الوصول إلى أشد العذاب.

فكم الفارق بين البنية التي تبدأ بقوله تعالى في بداية السورة: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ وبين البنية التي يعقب عليها بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَزَّلْنَا السَّيِّطِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ تَنْزِيلَهُمْ أَزًّا﴾



١- بتصرف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٨٢، ينظر، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٣٦.

٢- بتصرف، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٣٦.



- **ثانياً: نلاحظ الرابطة السببية** في مآل هؤلاء المجرمين ونهاياتهم على الرغم من الآيات القاطعة أمامهم للهداية إلى الطريق الحق والصواب، بتسليط الشياطين عليهم فأعمتهم وأضلّتهم كنتيجة مترتبة لغفلتهم واتخاذهم إياها مع الله، بعكس الرابطة السببية التي أدخلت أولئك الصالحين من الأنبياء، الذين ذكروا الله واتفقوا وعبدوه حق عبادته، فكان مآلهم رضا الله وإرسال نجاته ورحماته لهم من طمأنينة وسكينة وثبات إلى جانب الجزاء الأكبر والأعظم بدخولهم جنته.

### - **ثالثاً: وضوح التداعي العضوي في أمرين:**

• **الأمر الأول هو:** الذي يربط بين إثبات حقيقة تسليط الشياطين على الكافرين ببيان أنها تبعية من تبعات عنادهم وكفرهم، التي يُشدد ويُضيقُّ بها عليهم إلى أن يصلوا لدرجة عدم الإدراك والانتباه لما يقولون أو يفعلون، وبين ما يريده الله تعالى من تثبيت لقلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتسليته، والتخفيف على نفسه مما قد يدور في خلجاتها من التفكير الزائد في التقصير عن أمور الدعوة ونشر الرسالة.

• **الأمر الثاني:** التداعي النفسي الذي يدفع بالمتلقي إلى استشعار رحمة الله تعالى في إنذاره، وفتح باب الأمل من جديد لإصلاح النفس وهداية العقل لاتباع الطريق السوي، وتجديد العهد من جديد لنيل رضا الله تعالى قبل فوات الأوان.

### ❖ **البنية الدلالية الثالثة: (ومضة قصصية تشير إلى القائلين باتخاذ الله ولداً والتشنيع بهم)**

أ- لهذه البنية موقع فني مهم إذ إنها تسد ثغرة مهمة في أنواع الشرك التي وقعت فيها البشرية، فـ «لما وقع الرد في قصة عيسى عليه السلام، على دعوى النصارى واليهود ممن اعتقدوا النبوة لله تعالى، وأبطل قولهم في ذلك، وثنى في قصة إبراهيم عليه السلام، بإبطال عبادة الأوثان من غير الله، وأنها لا تملك من الأمر شيئاً، وبين مصير هؤلاء الذين يضاؤون قول الحق تعالى يوم القيامة، وبقي من الأقسام اعتقاد مشركي العرب في الملائكة غير الحق، فجاءت هذه الآيات شاملة لإبطال كل اعتقاد فاسد وتزيهه تعالى عن كل صفات النقص»<sup>(١)</sup>.

فيقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨١ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٢ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٨٣ وَمَا يَبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٨٤ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٨٥ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٨٦ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٨٧ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٨٨ ﴾

١- حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٨٤.

ب- وإن أول ما يطالعنا في هذه البنية المبتدئة بالومضة القصصية هو تكرار (كلمة) الرحمن أربع مرات، التي تدل على عظمة صاحبها وتفرده بهذه الصفة، كما تدل على طول إمهاله لهؤلاء المفترين، وعلى سعة فضله وإحسانه عليهم بإنذارهم بالوعد والوعيد لعلهم يهتدون ويرجعون إلى جادة الصواب، وإن رباً بهذه الصفة لجديرٌ بالعبادة والتوحيد المطلق له، ولكن الكثير من الضالين تغافلوا عن هذه الصفة، فأخذوا ينسبون له الصاحبة والولد والشريك<sup>(١)</sup>، الذي عبّر عنه السياق في تعقيبه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾<sup>(٨٩)</sup> أي المنكر العظيم، والشيء الفظيع الذي فيه شناعة وقبح<sup>(٢)</sup>.

ج- كما أننا نتلمس شدة الغضب الدال على التشنيع والتقيح في الالتفات السريع من أسلوب الغيبة إلى الخطاب، الذي ينتفض معه الكون كله من سماوات وأرض وجبال، خشية وخوفاً من الله تعالى على ما قيل وما أطلق حيث إنها مخلوقات مؤسسة على توحيد الله تعالى وتسبيحه وتنزيهه<sup>(٣)</sup>.

د- وهذا يدل على بشاعة ما قالوه وعظيم ما افتروه، وبالتدبر لهذا الافتراء نجده حقيقة هو من أقرب أنواع الشرك<sup>(٤)</sup>، ولكن على الرغم من دلالاته فإن السياق التعقيبي يتابع تقريره التعجبي من هذا الافتراء مثبتاً صفة (الرحمن)، ليفتح المجال للتوبة والرجوع بالإنيابة إلى الله تعالى، ومن أبرز ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في هذا المقام: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، إنه يشرك به، ويجعل له الولد، ثم هو يعافيه ويرزقهم»<sup>(٥)</sup>.

و بالتنامي في السياق بالتعليق المباشر على ما افتري به الله عز وجل كذبا وجحودا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾<sup>(٩٠)</sup> أي ليس من شأنه ولا مما يليق بمقامه ولا كرامته أن يتخذ ولداً، عز في علاه عن كل افتراء وتلفيق من هؤلاء المشركين.

وسرعان ما يأتي السياق ذا التقارير القاطعة والحاسمة، التي لا تعطي لقارئها أو متأملها مهلة في التجاوز في الغي والشبهة، فالكل من الملائكة والإنس والجن إلا وهم مملوكون عند الله تعالى يأوون إليه بالعبودية والانقياد إلى قضائه، فلا ولد ولا شريك، إنما خلق وعبيد، قد أحصاهم الله وعدهم عدداً، وهذا ما لاحظناه في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾<sup>(٩١)</sup> لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا<sup>(٩٢)</sup> وإلى جانب هذا المشهد تبرز الحقيقة التي طالما فرّوا من إدراكها، وهي انقياد

١- بتصريف، بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٨٥.

٢- المرجع السابق، ص ١٣٦.

٣- بتصريف، حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، ص ١٨٥.

٤- يراجع، بيوض: في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص ١٨٧.

٥- أخرجه البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الوليد - طرابلس، (د-ت)، (د-ط)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

٢٦٨٧/٦، ج ١، ص ٦٩٤٣.





الجميع إلى الله تعالى فرادى دون معين أو أنيس منقطعين عن جميع أسباب عزهم وجبروتهم متمشياً مع قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ﴿١٥﴾ ويفتح المشهد مجالاً واسعاً من التخيل لفضاعة ذلك الموقف وشدة الخطب والانفعال فأين المفر؟ وكيف المضر من هذا الموقف؟ بالطبع لا يوجد سبيل إلى الفرار إلا الله وحده.

د- وكما تعودنا على طول بناء السورة من وجود التقابل المعنوي واللفظي بين المواقف الإيجابية والسلبية لدى الشخصيات والمعتقدات، نجدها كذلك في هذه البنية الدلالية التي تدعو إلى إبطال شبهة اتخاذ الله ولداً، وتشنع بأصحابها، وترسم ظلال نديّة لمن التزموا الحق وارتضوا العبودية شعاراً واتخذوا عند الله وداً، فيُعبّر السياق القرآني عن الحظ الوفير الذي يناله العباد المؤمنون الموحدين عند ربهم، التي تدل على ذلك التلاحم الروحي بين العبد وربّه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ ﴿١٦﴾ للتعبير بالود في هذا الجو نادوة رحية تمس القلوب، وروحٍ رضي يلمس النفوس، وهو ودٌ يشيع في المملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلئ به الكون كله ويفيض<sup>(١)</sup>.

كما أنني ألاحظ وجود أهمية فنية لهذا الموقع التقابلي في الآيات من الواجهة الهندسية البنائية، وذلك بتقديمه دلالات معنوية بنائية تخدم مقاصد السورة ومحاورها، منها:

- إن المقابلة الدلالية بين (حال من ادعى لله ولداً، وحال من اختار الله إلهاً متزهاً به عن الولد والشريك)، لتفجر في النفس والعقل عدة انفعالات واستشارات تدفع بصاحبها إلى الوقوف موقف العقلانية والحكمة، لاختيار المصير المستقبلي له.
- كما أن ختم المقابلة بـ (حال المؤمنين الموحدين وجزاءاتهم عند الله) لتبقي في النفس حينئذٍ لذلك الجزاء من الود، وشوقاً لتدارك الأمور بتعديل الرؤى وإصلاح الأمور، وبخاصة عند إدراك معنى (الود) الذي يُنال كرامة ورحمة من الله تعالى، وبالتالي فإننا ندرك قيمة تلك الروابط العضوية من خلال معرفة قيمة هذه المقابلة ودورها في تثبيت مقاصد السورة من وحدانية الله وعبوديته، وكذلك مدى تناسبها مع جو الآيات التي تدل على الرحمات والكرامات. وبهذا تُختم هذه البنية الدلالية العظيمة على آخر أنواع الكفر الذي ساد في تلك الحقبة، بكل ما تضمنته البنية الخطابية القصصية من تعليقات وتعقيبات بالدليل والبرهان متساندة مع ما أفيض من نفحات القصص فيها لتدعم ما قصده السورة ودارت عليه، لتنتقل إلى بنية دلالية كبرى ختمت بها السورة الكريمة، هي:

(رسالة القرآن في البشارة والندارة) التي سأفصلُ المعالجة فيها عند تناول خاتمة السورة الكريمة.

وفي نهاية هذه البنية الخطابية الكبرى التي ضُمَّت بنيات دلالية متنوعة، تعرفنا على ما احتوته من ومضات قصصية تصدرتها، وتعقيبات خطابية تضمنتها وذيلتها، لتعالج مقاصد السورة وأهدافها موضوعياً وعضوياً وبنائياً.

كما أننا من خلال سبر أغوارها أدركنا تلك الروابط العضوية المتلاحمة والمتشابكة بين بنياتها الصغرى، التي كانت يعتمد عليها الأسلوب القصصي المكتنز والمختزل، لغاية استهدافها السياق القرآني من تحقيق أغراضه الدينية في معالجة قضايا مهمة تدور حول محور العقيدة والتوحيد في السورة الكريمة.

كما أدركنا تلك الهندسة المعمارية في تصميم البنيات الخطابية الكبرى التي تتلاحم مع معاني وأغراض ومقاصد القسم القصصي الأول من السورة في عدة أمور، منها:

- ترابط القسمين في صورة تقابلية هيكلية متوازنة أعطت مثالا واضحا (للمعادلات الربانية)<sup>(١)</sup>، تكونت على النحو الآتي: ست بنيات قصصية تناولت أنبياء الله تعالى والسيدة مريم عليها السلام باعتبار قصة زكريا ويحيى عليه السلام قصة واحدة، وجمعتها رسالة واحدة من الدعوة إلى عبادة الله تعالى والإخلاص في عبادته والصبر والمصابرة في سبيله، ثم ما ترتب للجميع من أجور ورحمات ومواهب عمَّتهم في الدنيا والآخرة.
- في مقابل ست ومضات قصصية ضمها السياق القرآني تحت بنيات دلالية خطابية كبرى، تناولت مواقف و صور ومشاهد للمشركين والمنحرفين والمفتريين، وردود وأدلة قاطعة لافتراءاتهم وانحرافاتهم، إلى جانب بيان جزاءاتهم الدنيوية والأخروية الأليمة والوخيمة.
- وجود تعقيبات قصصية وتذييلات موضوعية سدت فجوات فنية وأدت وظائف عضوية لها أبلغ الأثر في توكيد المعاني وتعميق المقاصد الكلية في السورة الكريمة.
- التشابه في الروابط العضوية من (التمهيد والسببية والتنامي والتجانس والتداعي العضوي).
- فالبدء بقصص الأنبياء المتقين يُعد (تمهيدا) اتخذه القرآن الكريم للتأثير في نفوس المتقين وجذب انتباهها إلى ما هو أهم وأعظم، كما تبين لنا في القسم الثاني من السورة.
- ومقصود القسم القصصي الأول هو سبب لنتيجة مضامين القسم القصصي الخطابي في السورة.
- والقصص من أولها إلى آخرها في السورة تمثل تناميا فكريا ومضمونيا وعضوياً وفنيا واضحا،

١- ينظر، عبد الباسط عطايا: مع القرآن، دار العلاء، شبين الكوم، (د-ت)، (د-ط)، ص ١١٢.

- أبرز لنا بعضاً من ملامحه من خلال المعالجة ويتأكد أكثر في المباحث اللاحقة في البحث.
- يُعد القسمين مثلاً للتجانس من خلال التباين (المقابلة بين القسمين) ولقد تناولتهما بالتفصيل في أغلب معالجاتي للقصص.
  - يظهر التداعي العضوي بوضوح في تنمة القسمين، الذي أظهر زمن سابق مضى في القصص المذكورة، وزمن لاحق هو زمن التنزيل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن خوطبوا من أهل الضلال والشرك، وزمن يتجدد في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة وهو زمن المتلقي.
  - والرابط في هذه الهيكلية العضوية هو الخطاب العام الموجه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم من الله تعالى.
- وهكذا يرتبط القسمان بعضهما ببعض، ليكمل كل منهما الآخر بمعانيه وهيكلته وعضويته وفنيته، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على دقة تخطيطها، وإتقان ناظمها وعظمة واضعها، كما سيتضح لنا أكثر في المباحث اللاحقة.





## المبحث الثالث

### جسور الانتقال



١٨٣

المعمار القصصي في نسوة مريم







إن أول ما يلفت انتباه القارئ للسورة القرآنية، تلك الانتقالات المتنوعة بين آياتها وموضوعاتها المختلفة، التي برزت لنا في بناء هندسي متلاحم ومتناسق لا نشعر معه عند متابعة قراءته أو التمعن في معانيه بأي نفور أو شذوذ، فهو كما وصفه محمد عبد الله دراز بقوله: «فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حُجرات وأفنية في بِنْيَانٍ واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حس السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً»<sup>(١)</sup>.

ولقد أطلق النقاد قديماً على هذا الانتقال في القصيدة العربية باسم (حسن التخلص)<sup>(٢)</sup> لاحتوائها على أغراض متعددة تحتاج إلى حسن الانتقال للتوفيق والتنسيق بين أجزائها المختلفة، ويُعرف حسن التخلص: «بأنه الانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاصاً، دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول، إلا وقد وقع عليه الثاني، لشدة الالتئام بينهما»<sup>(٣)</sup>.

وهذه الطريقة تُعد من مواضع التأنق في الكلام<sup>(٤)</sup> التي عدّها النقاد ضرورية لجذب السامعين ولفظ انتباههم، فإن كانت في كلام البشر حُسْنًا، فمن الطبيعي أن تكون مما نُظِم عليه القرآن سوره ومقاطعه فهو نصٌّ معجزٌ في لفظه ومعناه وأسلوبه فاق المنظرين له من العرب وغيرهم حسناً وبهاءً ونظماً، فألجم أفواههم وأطبقها إطباقاً لا يملكون حياله غير التَّسْلِيمِ بإعجازه وعظمته<sup>(٥)</sup>.

١- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ١٩٥، راجع صفحة ص ٥ من التمهيد.

٢- فالشاعر المجيد هو "الذي يحسن الانتقال، فيغادر موضعه الأول إلى الذي يليه دون خلل أو انقطاع، ويجعل معانيه تتساق إلى الموضوع الآخر انسياباً بحيث لا يشعر قارئه بالثقل، بل يجد نفسه في موضوع جديد هو استمرار للأول وامتداد له، وبين الموضوعين تمازج والتئام وانسجام"، داود غطاشة، وحسين راضي: قضايا النقد الأدبي قديمها وحديثها، دار القدس، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، ط ١، ص ٦٦.

٣- السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٤.

٤- وهي ثلاثة مواضع من الكلام (حسن الابتداء حسن التخلص حسن الانتهاء) يراجع: عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٧هـ - ١٩٩٧، (د، ط) ج ٤، ص ١٢٧.

٥- ولقد اختلف في (وقوع التخلص في القرآن)، فقيل: لا يقع فيه لأنه يقع في الغالب متكلفاً، والقرآن لا تكلف به، وقيل: انه قد وقع فيه، وذلك أن القرآن لم يترك وادياً من أودية البلاغة إلا أخذ منها نصيب، يراجع: عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج ٤، ص ١٢٣.



وبالطبع كانت هذه الجسور مَوْضِعَ اهتمام ودراسة المفسرين والعلماء والبلغاء فقامت حولها الدراسات التناسبية<sup>(١)</sup> لمعرفة وجوه التناسب بين الآيات المتنوعة، كما قاموا برصد أدوات الربط اللفظية والمعنوية التي جمعتها في دراسات تفصيلية وتفسيرية.

والذي يَعْنِينِي هنا ويخدم تناولي للدراسة البنائية بالدرجة الأولى هو: (ملاحظة جسور الانتقال بين الأجزاء والمقاطع والبنىات القصصية الصغرى التي تنتظم تحت البنيات الكبرى، وكذلك انتقالية البنيات الكبرى لبعضها البعض، التي تُعد مبرراً لوجود ذلك التناسق المتقن في السورة بأكملها)، متجاوزين الملاحظات التفصيلية في الانتقال من آية إلى آية ووجوه الربط بينها، للحاجة إلى معالجة نحوية تفصيلية أخرى لا يسعني المقام لتناولها هنا.

- فما أهم هذه الجسور الانتقالية؟
  - وما أبرز المواضع الانتقالية التي برزت في تلاحم متقن في البناء العام للسورة الكريمة؟
  - وما قيمتها الجمالية التي تؤديها في النص داخل المعمارية القصصية في سورة مريم؟
- وبتتبع الجسور الانتقالية التي استرعت انتباهنا في السورة نجدها في عدة مواضع أولها:

١. الانتقال مما افتتحت به السورة الكريمة من الحروف المقطعة إلى ما بعدها، التي اعتبرت عند أغلب العلماء كما ذكرنا سابقاً، حروف معجزة تحمل معنى التحدي، ومعنى التنبيه لما سيقع بعدها من كلام، لذلك كان الانتقال المباشر إلى قصة زكريا عليه السلام بيان لأهمية القصة والتنبيه لمضمونها.

٢. الانتقال المتسارع في المشاهد والمواقف في قصة زكريا عليه السلام الذي تجاوز الكثير من الفجوات الفنية التي تركت للخيال أن يعمرها، كما لاحظناه في البناء الفني للقصص جميعها التي وردت في السورة، الذي فسّر سببية انتقائها للأحداث هو لهدف ديني مقصود لخدمة المقصد الرئيس في السورة الكريمة كما في الآيات (٢-١١).

٣. الانتقال من قصة زكريا عليه السلام إلى قصة يحيى عليه السلام ب (أسلوب النداء) وهو انتقال من البشارة إلى بشارة أخرى لهذا الابن الرضي بأنه سيحمل الكتاب ويكون نبيا، والانتقال المباشر بعدها بتعداد فضائله وسماته كما في الآيات (١٢-١٥).

١- أمثال: الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، والرازي في (التفسير الكبير)، والبقاعي في (تناسق الدرر)، وابن عاشور في (تفسير التحرير والتنوير). حيث قسّموا الارتباط بين الآيات بظاهر وخفي، فأما الظاهر: فهو تعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالآية الأولى، وقد تكون الثانية للأولى على وجه التأكيد، وأما ما لا يظهر الارتباط به، وهو ظهور كل جملة مستقلة عن الأخرى، فتكون على وجهين: إما أن تكون معطوفة على الآيات الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أولاً، أو لا تكون معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط ومنها: "التنظير المضادة الاستطراد حسن التخلص حسن المطلب"، ينظر، السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٥.

٤. الانتقال بحرف العطف (الواو) من قصة زكريا ويحيى عليهما السلام إلى قصة مريم وعيسى عليهما السلام، إيداناً بالجمع والمشاركة في نفس المغزى والهدف من بيان لقدرة الله تعالى وعظمته، حيث من استطاع أن يخلق ولداً من أبوين عجوزين أحدهما عقيم، قادر على أن يخلق ولد من أم دون أب، وهذا بشأنه يشير إلى العمل بمبدأ «الانتقال في البيان والتعليم من الأسهل إلى الأصعب»<sup>(١)</sup>.

٥. الانتقال السريع في قصة مريم عليها السلام من خلال الزمان والمكان والأحداث الذي ظهر لنا جلياً من خلال بنائها الفني، الذي وصل إلى الانتقال السريع في ختامه إلى حوار عيسى عليه السلام، ليقوم حسن التخلص من شخصية إلى شخصية ومن حدث إلى حدث، ب (أسلوب الإشارة) الدال على التناهي الواضح والمقصود في الأحداث داخل القصة، بقوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۗ ﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۗ ﴿٣٠﴾

٦. الانتقال من قصة مريم وعيسى عليهما السلام إلى البنية التعقيبية التي حملت في طياتها اختلافات النصرى بشأن عيسى عليه السلام والرد عليها، وهذا ما اتضح من قوله تعالى مستخدماً (اسم الإشارة الدال على البعد) بقوله: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۗ ﴾ (٣٢) التي تعطي مسافة تقاعلية بين المتلقي وبين النص للتنشيط ولفت الانتباه على أهمية الأمر وعظم دلالاته، وهذا ما يبرز أهم مقاصد الانتقال بين البنيات والمقاطع.

٧. الانتقال المتناهي بين البنية الدلالية التعقيبية التي بينت ضلال النصرى إلى قصة أخرى هي قصة إبراهيم عليه السلام بعد (تذييل) تلك البنية كعادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها<sup>(٢)</sup>، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۗ ﴾ (٤٠)

فتتجلى الدلالة الانتقالية هنا ب (حرف العطف الجامع وفعل الأمر المكرر) على البنية المعقب عليها سابقاً، بقوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۗ ﴾ (٤١) لاشتراك الفريقين في الضلال مع أن الفريق الثاني من عبدة الأوثان كان أعظم ضلالاً باعتبارهم يعبدون جمادات ليست حية ولا عاقلة، فذكر الفريق الأول ثم الثاني، كان مقصوداً في تنام واضح لإبطال المذهبين<sup>(٣)</sup>.

كما نجد المناسبة التي تقود إلى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام من بين الأنبياء الآخرين، بكونه (أبو الأنبياء وأول من أعلن التوحيد) إعلاناً باقياً مخالفاً العرب في إشراكهم، لذلك

١- وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١٦، ص ٦٨.

٢- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١١٠.

٣- بتصرف، وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١٦، ص ١٠٣.



انتقل إليه السياق لبيان حاله كحال النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه.

٨. الانتقال من قصة إبراهيم عليه السلام التي تنامت في الموقف الحوارى إلى قصة موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ ﴿٥١﴾ لما أفضت إليه المناسبة باعتباره أشرف نبي من ذرية إسحاق ويعقوب عليهما السلام، فربط السياق بين القصتين بـ (حرف العطف الجامع وفعل الأمر) لاشتراكهما في الدعوة لعبادة الله تعالى والإخلاص التام له<sup>(١)</sup>، والاشتراك في المواهب والرحمات.

٩. ويتابع السياق القرآني انتقالاته بين القصص إلى قصة إسماعيل عليه السلام بـ (حرف العطف الجامع وفعل الأمر) لمتابعة أبيه في نشر التوحيد ومحاربة الوثنية وعبادة الأصنام، ولكن قيل: «قدم الله تعالى قصة موسى عليه السلام على قصة إسماعيل -عليه السلام- ليسجم الكلام عن يعقوب وبنيه دون فاصل بينهما»<sup>(٢)</sup>.

كما أن اختصاص إسماعيل عليه السلام بالذكر في قصة مستقلة تبيها على جدارته بالاستقلال بالذكر لمحامده وخصاله، كما أنه هو الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة<sup>(٣)</sup>، ولقد تعرفنا على صفاته سابقاً.

١٠. الانتقال من قصة إسماعيل عليه السلام إلى قصة إدريس عليه السلام بـ (رابطة حرف العطف الجامع وفعل الأمر) بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ ﴿٥٦﴾ ورفَعْنَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ ﴿٥٧﴾ والذي اجتمع كذلك مع القصص الأخرى في صدق دعوته لتوحيد الله تعالى، وصبره على تبعات الدعوة، وما تفضّل عليه الله تعالى من الرفعة والهبة بعد تلك الابتلاءات.

ووجه المناسبة في الانتقال ما ذكرناه سابقاً في تفصيل قصته التي وضّحت سبب الجمع بين إسماعيل وإدريس في سمة الصبر التي أثنا عليهما الله تعالى في كتابه، فتناسب ذكر إدريس عليه السلام بعد ذكر إسماعيل عليه السلام لبروز معاني الصبر المتعددة فيهم.

وكذلك يضيف البقاعي: وجهاً من المناسبة في الانتقال بقوله: «ولما كان إسماعيل عليه السلام قد رفع بالسكنى حياً إلى أعلى مكان في الأرض رتبة، وكان أول نبي رمى بالسهم، وكان إدريس عليه السلام.. مع رفَعته إلى المكان العليّ أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار... وكان أغربهم قصة، وأعجبهم أمراً وأقدمهم زمناً، ختم به هذه القصص تأييداً لهذا النبي الكريم...»<sup>(٤)</sup>.

١- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٧.

٢- وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج ١٦، ص ١١٧.

٣- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٢٩.

٤- البقاعي: تناسب الدرر، ج ٤، ص ٥٤١.

١١ . وبعد الجسور الانتقالية بين القصص التي تشابهت بأداة الربط الواحدة وهي (حرف الواو المفيد للجمع والاشتراك، وفعل الأمر الموجه إلى شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والاجتماع في المعنى) للدلالة على دعوة الأنبياء إلى التوحيد والعبودية لله تعالى، وتحمل الشدائد في سبيلها، وما يقابله الله تعالى لهم من رحمت وعطايا وفضل إزاء ما قدموه من إخلاص وتضحية.

نجد السياق ينتقل إلى بنية دلالية جديدة تعد تلخيصاً لما سبق ذكره من قصص الأنبياء، بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ ليربط القصص السابقة ب اسم الإشارة (أولئك) الدال على الأنبياء المنعم عليهم، وليعطي كما ذكرنا سابقاً مسافة تفاعلية بين المتلقي والنص، لاستشعار الانتهاء من غرض إلى غرض آخر، فيؤلد نوعاً من النشاط الذهني والنفسي للإمام بمضمون الجمع الوارد بعد اسم الإشارة، لإدراك أهدافه ومعانيه<sup>(١)</sup>. ويمكننا كذلك أن نعد الآية (استطراداً)<sup>(٢)</sup> في الثناء من ذكر الأشخاص إلى ذكر الجنس العام لصفات المتقين والصالحين الذين ساروا على نهج أولئك الأنبياء.

١٢ . ومن بديع حسن التخلص بين البنيات هو الانتقال ب (رابطة التقابل) من وصف السلف من الأنبياء وأتباعهم بالثناء والمدح وترغيب الناس في التأسى بطريقتهم، إلى ذكر الخلف الذين أتوا بعدهم وما قدموه من إضاعة للحقوق والواجبات واتباع للشهوات.

وما أجمل استخدام (الفاء التعقيبية) هنا للربط اللفظي بين الفريقين بقوله تعالى: ﴿مَنْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾﴾.

وكذلك نجد انتقالاً لطيفاً يتبع ما سبق، وهو الانتقال الداخلي إلى بنية دلالية تقابلية بواسطة أسلوب (الاستثناء) للجماعة التائبية، التي تزيد المعنى قوة وتماسكاً لتدعيم مقاصد السورة الكبرى من رحمة الله تعالى لعباده وجزائه المترع عليهم.

فلقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾.

١٣ . وبعد الحديث عن التقابلات بين معالم الرشد عند السلف ومعالم الغي عند الخلف وما استثنى به التائبين فضلاً من الله تعالى نجد البنية تُذلل خاتمتها بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ قَبِيحًا ﴿٦١﴾﴾. إذ اننا بالانتهاء من جزءٍ للدخول في موقف آخر يستلزم جزءاً من جنس

١- ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٥٠.

٢- الاستطراد: هو ذكر الأمر الذي استطرده إليه بمرورك إليه مروراً سريعاً كالبرق الخاطف، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه، كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا، ينظر، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٥.





آخر، ولكن السياق القرآني ينقلنا إلى بنية صغرى تعقيبية وتوضيحية ب (حرف العطف الواو) الذي يوضح الدلالة الجامعة في المعنى بين ما سبق، وبين ما سيأتي، ويحمل في طياته تفسيراً يختم به ما ذكر، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٩ ﴾ أي أن الله يأمر الملائكة أن تقول: إن كل ما علمته يا محمد من القصص والنبوءات التي أنزلت لك هي حجة على الكفار واليهود المتعنتين، إنما هي من الله تعالى ننزلها بأمره وبمشيئته.

كما أننا نلاحظ أن هذه الانتقالية تعطي المتلقي (تغذية شعورية) لاستشعار عظمة القصص وعجيب مفارقاتها وحتمية جزاءاتها. وبعد إدراك هذه الحقيقة يُذيل السياق قول جبريل عليه السلام بحقيقة الربوبية بقوله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥ ﴾ بإعلان العبودية المطلقة والاصطبار عليها، بمخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ببيان عموم التصرف لله تعالى في سائر كائناته وانتفاء الشبيه والمائل له، ليحسن التخلص للدخول في بنية دلالية جديدة: «تَوَهُّ بالتوحيد وتفضيحه الإشراك»<sup>(١)</sup>.

١٤. ويتابع السياق القرآني الانتقالات المناسبة ليدخل في بنية دلالية كبرى تمثل الرد على أمهات الكفر المسيطرة على البشرية باستخدام (حرف الواو) عاطفة قصة على قصة لجامع الاشتراك والتشابه من الكفر والشكر وصوره، بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦ ﴾ فهنا عطف هذه القصة من إنكار لحقيقة البعث على قصة أولئك الخلف الذين ضيعوا وفرطوا في عبادة الله تعالى، كما أنها تتناسب مع ما ذكر قبلها من المعاني في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥ ﴾ المتضمنة إبطال عقيدة الشرك، وآثارها التي من ضمنها إنكار البعث واليوم الآخر<sup>(٢)</sup>. وتتابع سياقي ينتهي الرد على هذه الشبهة ليدخل في الرد على شبهة أخرى.

١٥. ويتم الانتقال كذلك ب (حرف العطف الجامع بين معنيين يحملان مقاربة في أصل الشرك) من إنكار البعث للدخول، في بنية دلالية تمثل ومضة قصصية تحمل في طياتها شبهة الكافرين في اغترارهم بحسن أحوالهم في الدنيا، واستهزائهم بالمتقين وأولياء الله الصالحين، والردود الربانية الحاسمة والقاطعة لهذه الشبهة التي يعمل الله على استئصال أصحابها ومجازاتهم بالذي هم به أهل، وذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣ ﴾.

١- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٤٢.

٢- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٤٥.

١٦. وسرعان ما ينتقل السياق بوجه استطرادي<sup>(١)</sup> يتمثل في عرض نموذج قصصي قصير يحمل معنى الاستهزاء بالصالحين والمتقين وما تبعها من تشديد العقاب على أصحابها بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يُولَدْنَا لَهُ﴾ والتي نلاحظ توكيدها البارز لسمة الغرور التي اعتلت أصحابها، والتي برزت لنا في دلالات البنية الدلالية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذًا مَا مِثُّ لَسَوَفُ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

١٧. ومن ذلك الاستطراد يرجع السياق القرآني بانتقاله المباشر بـ (حرف العطف الجامع) لقضية مشابهة لما سبق عرضها وهي: البنية الدلالية الثانية التي تمثل (أقصوصة المشركين بالله وعبدة الأوثان) وكيفية حال أصحابها وسبب تماديهم في هذا الضلال لتقدم الأدلة الواضحة والقاطعة بشأنها بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾.

كما أننا ندرك ما استوجبه هذا الانتقال من الانتقال لذكر الموازنات الجزائية لهؤلاء المشركين مع المتقين الأخيار (تذييلاً) تُذيل به هذه البنية للانتقال لما بعدها من باب حسن التخلص بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ و﴿سَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾.

١٨. ويحسن التخلص من البنية الدلالية الثانية إلى البنية الدلالية الثالثة التي تحمل رداً على شبهة من اتخذ لله ولداً بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، وما استلزمته هذه البنية من تشنيع لأقوالهم، ويتم هذا الانتقال بـ (حرف العطف) أيضاً.

١٩. ومن جميل الانتقال البديع بحسن التخلص من البنيات الدلالية الثالثة ما يظهر فيه من مراعاة الترتيب المنطقي الذي تعودنا عليه في السورة الكريمة من البدء برد شبهة المشركين في حقيقة البعث إلى الرد على شبهة المشركين الذين اتخذوا إلهاً آخر مع الله وانتهاءً بشبهة أكبر من الجميع وهو أن يجعلوا لله ولداً.

٢٠. وما أجمل تلك الانتقالية في البنيات الأخيرة للسورة الكريمة إلى (التذييل الجامع الشامل) لحال جميع البشر من مؤمن وكافر، والمبتدئة الانتقالية فيه بـ (إن) التوكيدية على حقيقة الأمر وعظمتها، بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١٦﴾

١- والآيات هنا تعمّدت هذا الاستطراد لأهداف دينية واضحة من تفصيل القول في شبهة المشركين وإنكارهم للبعث..







٢١. ومن تلك الموازنات بين حال المشركين وحال المؤمنين ينتقل السياق بحسن التخلص إلى البنية الختامية في السورة الكريمة لياذن السياق بانتهاء السورة، باستخدام (الفاء الرابطة)<sup>(١)</sup> التي توحى ببيان جامع لسببية ذكر كل ما سبق من المعاني في السورة الكريمة، وإن من لطيف هذا الأسلوب الانتقالي هو الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث ليكون إيذاناً بأن المتكلم سيطوي بساطه<sup>(٢)</sup> ويعلن عن ختامه، فيقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾<sup>(٣)</sup> و﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رَكْعًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وفي الختام أدرکنا تلك البنائية المعجزة وجماليتها في الجسور الانتقالية للسورة، وكيفية ترتيبها وتنسيقها وإحكامها للفنون المتنوعة والأغراض المتعددة.

ووضع لنا ما خطه العلماء تعليقاً على هذه الانتقالات والمناسبات بين أجزاء السورة الواحدة من أخذها أعناق بعضها البعض، فيقوى بها الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء<sup>(٥)</sup>.

لذلك فإننا بعد تلك الشواهد نستطيع الرد على من افترى على القرآن الكريم بأن العلاقات بين آياته وبنياته هي علاقات واهية لا بد من إعادة النظر في ترتيبها، بإثبات أن منهج القرآن على هذه الطريقة هو متعمد وهادف، حيث ينتقل بنا بين الأغراض المختلفة ليس اعتباطاً، ولا تخبطاً عشوائياً، ولكن لصلات وثيقة تربط بين الأغراض والمقاطع، بحيث تتضافر جميعها في الوصول إلى الغاية الكبرى للسور القرآنية<sup>(٦)</sup>.

ولو حاولنا جمع كل الآيات ذات الغرض الواحد والموضوع الواحد في سورة بعينها لخالفنا هدف القرآن، ولضاع ذلك التأثير النفسي والحسي، وذلك الجمال الروحي الأخاذ الذي سحر نفوس العرب، وأخذ بعقولهم وملك عليهم قلوبهم<sup>(٧)</sup>.

١- فيجوز جعل الفاء فصيحة مؤذنة بكلامه مقدر يدل عليه المذكور، كأنه قيل: بلغ ما أنزلناه إليك ولو كره المشركين ما فيه من إبطال دينهم وإنذارهم بسوء العاقبة فما أنزلنا إليك إلا للبشارة والندارة..، ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على وعيد الكافرين بقوله: "لقد أحصاهم وعدهم عدا..". ووعد المؤمنين بقوله: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً" والمرغ منه: هو مضمون "التبشير" وتندبر به، ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٧٦.

٢- بتصرف، المرجع السابق، مجلد ٧، ج ١٦، ص ١٦٥. و الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص ١٨٢.

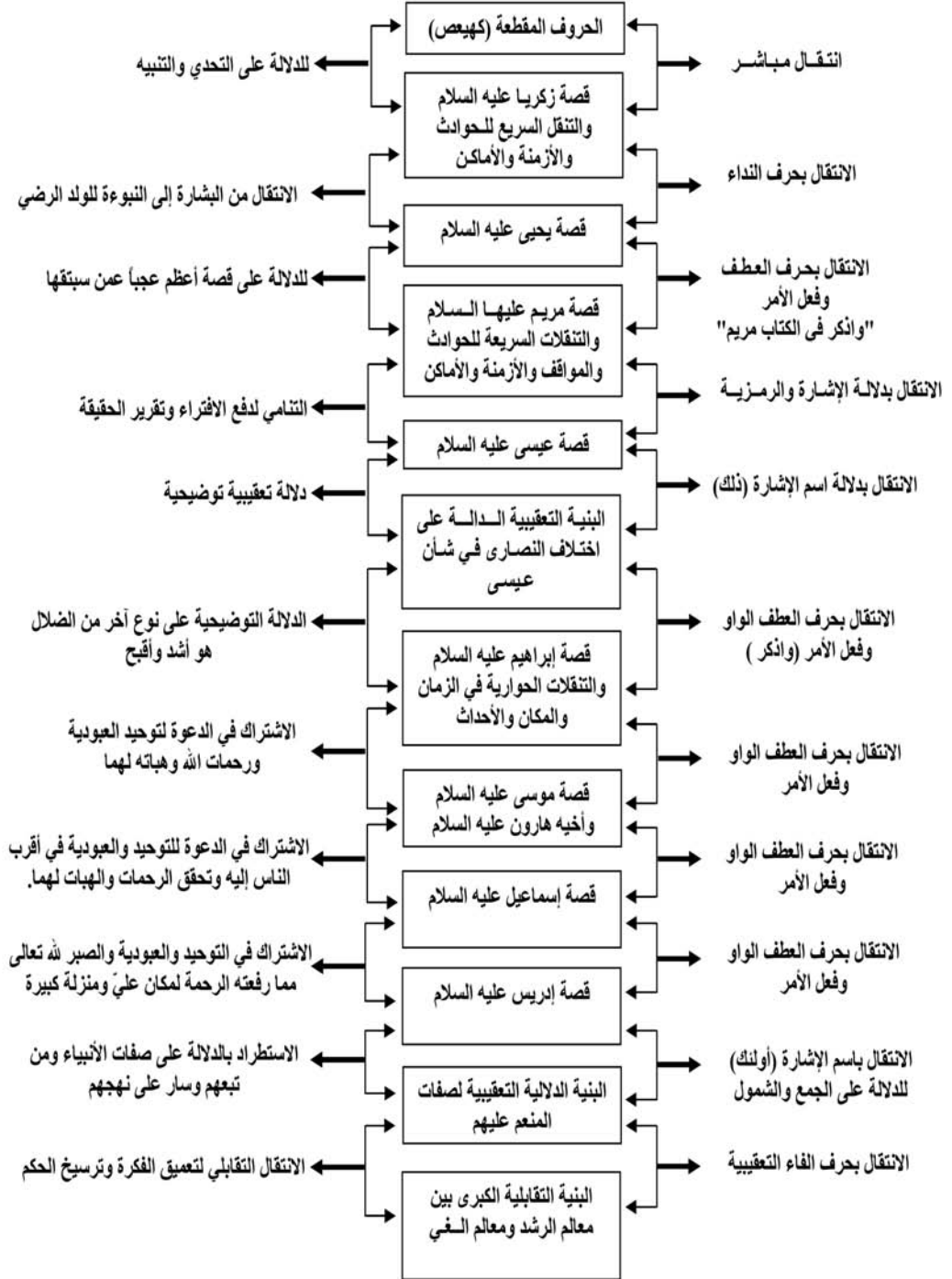
٣- ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص ٣٦.

٤- بتصرف: بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن الكريم ص ٢١٧.

٥- ينظر، المرجع السابق، ٢١٧.



## وتلخيص الجسور الانتقالية أجمعها في الرسم البياني الآتي:



١٩٣





## المبحث الرابع

خاتمة السورة



١٩٥

المعمار القصصي في سورة مريم



ويطلق على خواتيم الكلام: براعة المقطع<sup>(١)</sup> أي الانتهاء<sup>(٢)</sup> باعتبارها آخر ما يقرع السامع، ويرتسم في نفسه، و«خاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس لقرب العهد بها فإن حسنت حسن وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»<sup>(٣)</sup>.

ولقد ذكر أبو هلال العسكري (حسن المقطع) فقال: «وقلما رأينا بليغاً إلا وهو يقطع كلامه على معنى بديع أو لفظ حسن رشيق.... فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها»<sup>(٤)</sup>.

وهذا وصف لكلام العرب خطبة كانت أم شعراً، فجاء القرآن ببديع حسنه ليفوقهم براعة في جميع مناحيه ومنها ختام سُورِهِ كما فاقهم من قبل افتتاحها بها، فجاز بالحسن والجمال والإتقان كله. فنجد خواتم السورة متضمنة للمعاني البديعة، والألفاظ الموحية، مع إيدان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل ومواعظ، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك<sup>(٥)</sup>.

وعودة إلى سورة مريم نجد السورة قد اختتمت هيكلتها بخاتمة متمثلة في بنية دلالية مركزة أذنة بأسلوبها إلى انتهاء السورة، بكونها كلاماً جامعاً لما احتوته السورة من قصص وعبر وردود وتعقيبات.

فتمثلت البنية الختامية في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًّا ۗ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۗ﴾

لتدل هذه البنية الختامية على عدة أمور منها:

١. الدلالة الفكرية والمضمونية على رسالة القرآن الكبرى وهي: التبشير والإنذار لتحمل في طياتها

- ١- ينظر، عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج٤، ص١٣٦.
- ٢- ينظر، ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، المكتبة العصرية، صيدا الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ج١، ص٢١١.
- ٣- المرجع السابق، ص١٩٥.
- ٤- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص٥٠٢.
- ٥- بتصرف، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٢٩٧.



كل ما جمع وعرض من صور وقصص ومواعظ ووعد ووعيد في السورة الكريمة، وهذا ما نتوصل له بفعل وظيفية (فاء السببية) في هذا الموقع بالذات، الذي سبق معالجتها في جسور الانتقال.

٢. الدلالة البنائية والفنية لقوله تعالى: «يسرناه بلسانك»، على مضامين هذه الرسالة العظمى التي شرف بحملها النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أبرز ما تمثلت به الآية مدلولات (الهيئة والكيفية).

فالهيئة: تدل على التيسير لهذا القرآن العظيم في نظامه المحكم وتناسقه المتقن وبيانه المطلق، الذي جمع في آياته إعجازا وعظمة لتناسب كافة المتلقين على اختلاف أجناسهم وثقافتهم وأديانهم بلسان عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتدل الآية من حيث الكيفية: على الطريقة الميسرة والمسهلة للاستقبال واستيعاب كافة أساليب القرآن، بكل ما احتواه من ترغيب وترهيب للوصول للغرض الديني السامي، إلى جانب ذلك التأثير النفسي والجمالي الذي يثيره الأسلوب القرآني في القلب والنفس ليتعمق المقصد والغرض الديني أيما تعمق.

٣. اللام التعليلية ودلالاتها السياقية والبنائية السريعة والمركزة في سبب ذلك التيسير على لسان هذا النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب عليه صلوات الله وسلامه، وهو الجمع بين الأضداد من:

- بشارة المتقين والصالحين التي تلتقي بحكم موقعها مع ما بدأت به السورة الكريمة للقسم القصصي ونماذج المتقين فيها، التي تدفع المتلقي إلى ختم مشاعر التشويق واللهفة لتلك المنازل، وذلك التشريف بإعطاء شحنة اندفاعية قوية لتعجيل تطبيق منهجهم والسير على خطاهم.

- إنذار القوم اللدد، الذين يكفرون ويشركون غروراً وعناداً مع معرفتهم للحق والشواهد، الذي يلتقي هذا الموقع مع موقع البنية الخطابية الكبرى في القسم الثاني من السورة، وذلك لضمه نماذج من صور هؤلاء الضالين والمشركين وجزاءاتهم الأليمة جزاء بما كانوا يعملون، وعليه تتفطر نفس المتلقي خوفاً ورهبة من أن يكون مألها ذلك المأل، فتترجم هذه المشاعر إلى مشاعر رجاء وأمل في حسن الظن والتوكل على الله لاستشعار مظاهر العبودية المطلقة له.

وبهذا تُقدم هذه البنائية المتقنة ترابطاً وتناسباً واضحاً مع ما سبق وعرض من بنيات دلالية في قسمي السورة الكريمة، كما تقدم نموذجاً للبنية التقابلية الختامية المحكمة ذات البناء الهادف لخدمة المحور الرئيسي الذي تعالجه السورة الكريمة.

٤. تختم البنية التقابلية التي جمعت مواقف أصداد البشر في كل زمان ومكان، بتقديم مشهد عظيم ومؤثر يحمل موعظة بليغة للفريقين، ليثبت من ثبت على الحق، وينتهي من زل واتبع الباطل بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مَّنْ أَحَدٌ أَوْ سَمِعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (١٩) ﴿١٩﴾ إذ إن هذا المشهد «الذي يتأمله القلب طويلاً، ويرتعش له الوجدان طويلاً ولا ينتهي الخيال من استعراضه»<sup>(١)</sup> يناسب جوا عرفه الجاهليون سابقا، وتغنى به الشعراء في بكائهم على أطلال من رحلوا وفاتوا ديار الأحباب وأقوام النفوذ والعزة، وما حملوا تلك القصائد من مشاعر اللوعة والحزن والأسى لذلك الزوال والانذار، الذي من شدة اعتنائهم وتأثرهم به قدموه على جميع أغراضهم ومقاصدهم في أشعارهم ومقاطع قصائدهم، وجعلوه معياراً يقاس به جيد الشعر من رديئه، فجاءت الآية الكريمة بهذه البنائية المحكمة في عمارة السورة الكريمة لتضرب على أوتار حساسة في صميم نفوس هؤلاء القوم، ولترفع أستار هذه الحقيقة التي لطالما لامست قلوبهم يقينا وشعورا، لتظهر نتيجة انكشفت أمامها الحُجُب في دلالاتها وصراحتها.

ومن بديع من علق على هذا المشهد الختامي في السورة سيد قطب بقوله: «وهو مشهد بيدوك بالرجة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق، وكأننا يأخذ بك إلى وادي الردى، ويقفك على مصارع القرون، وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تبض وتمرح، والأمانى والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.... ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثم، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نأمله. لا حس. لا حركة. لا صوت: «هل تحس منهم من أحد؟» انظر وتلفت: «هل تسمع لهم ركزا» تسمع وأنصت، ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب، وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت»<sup>(٢)</sup>.

٥. وهكذا بما أن سورة مريم مكية نجد هذه البنية الختامية المركزة والمكثفة فيها ردع من جنس موروثاتهم وثقافتهم التي يثبتونها أحيانا ويتغافلون عنها أحيانا أخرى.

كما أنها بيان واضح على تأصيل معنى العبودية الخالصة التي تتجرد عن كل هوى وكل شريك، ولا تقبل التساهل أو التجاوز، فإن طبقت على أكمل وجه من عبودية وتوحيد وتنزيه عن الشريك، حلت على متبعتها الرحمات والعطايا والهبات، وإن اختار الإنسان بديلاً عنها فلن يجد غير الغضب والعقاب والإبادة التامة التي تشير إلى جث أصحابها من جذورهم وأصولهم.

٦. ومن الوجهة البنائية نجد ذلك الترابط العضوي الذي تلمسناه في الدلالات أنفاً يحمل معنى العلاقة التكاملية بين فاتحة السور وخاتمتها: «لا علاقة تشابه، فالرحمة لعبد من عباد الله الصالحين زكريا «ذكر رحمت ربك عبده زكريا» يقابلها وينظرها ويوازيها ويكملها النعمة

١- سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٤، ص ٢٢٢١.

٢- المرجع السابق، ص ٢٢٢٢.



للكفار المعاندين»<sup>(١)</sup>.

ولو نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّمَايَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًّا﴾<sup>(٢)</sup> لوجدنا أن السورة ابتدأت بالرحمة وانتهت كذلك بالرحمة<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تنتهي الهيكلية المعمارية للسورة الكريمة بجميع أجزائها من مقدمة السورة إلى وسطها إلى خاتمتها لتحمل في طياتها كل معاني البناء المحكم والعمارة المتقنة في تلاحم وتواشج بين أجزائها وبنياتها وتعانق بين مقاصدها وأغراضها، لتبرز صورة من صور الإعجاز البنائي في القرآن الكريم بجميع أبعاده.

ولكن لضرورة اقتضاها المقام في نهاية هذا الفصل الذي عنوانه ب (بالمعمار الهيكلية ووحدته العضوية) نجد من الأهمية بمكان ذكر أسلوب قرآني فريد من نوعه قد انطوى في هندسة القصص المعمارية بقسميها في السورة بشكل قد لا ينتبه له متأمل للطفه ودقته وسلاسته وهو أسلوب: (التغذية الراجعة) فما هو هذا الأسلوب؟ وما وظيفته في المعمارية الهندسية في قصص السورة الكريمة؟

#### ❖ التغذية الراجعة ودورها في تلاحم المعمارية القصصية في السورة الكريمة:

أ- فما معنى (التغذية الراجعة) التي يتبناها السياق القرآني عند عرضه لأي قضية في قصة أو مشهد أو تحليل أو تعقيب أو سورة بأكملها؟

معناها هو: (تلك الجرعات المعلوماتية اللفظية والمعنوية التي تضاف في كل مرحلة من مراحل النص القرآني لمعلومات ومدارك المتلقي، مساندة ومؤيدة لما قبلها من المراحل والمقاطع، وتضم في مضمونها المقاصد والأهداف التي تصبو إليها الأغراض الدينية في السورة القرآنية، معتمدة على العلاقات العضوية والطرائق الأسلوبية والأدوات الفنية والأصوات الإيقاعية متحدة معا لمساعدة المتلقي على النمو الإدراكي والشعوري بالتأثير والتوجيه والتوكيد والتغيير).

ب- وتسهم بوظيفة فاعلة من خلال:

- تقديم المعلومة التي تضمنتها القصص وتبنتها بأسلوب بنائي هادف، ونسيج عضوي متماسك، ومن ثم يتم معالجتها من خلال المفارقات والموازنات في البنيات القصصية بطريقة تتماشى مع العقل مرة ومع العاطفة مرة أخرى في تنامي وتداعي، ولين وشدة على طول بنائية السورة الكريمة بقسميها.

١- محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور، ص ١٥١.

٢- ينظر، فاضل السامرائي: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ط ٢، ص ٢٥٠ - ٢٥١.



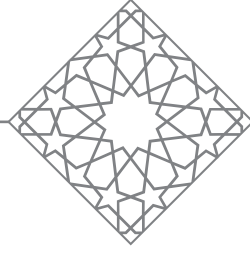
ونجد في الوقت نفسه توازياً وتساوياً في التغذية المضمونية للمتلقى التي تساب بسلاسة وانتظام مع كل نقلة في البنيات، ومع كل تغيير فيها، إن لم تكن تتحكم هي بالدرجة الأولى في تلك التنقلات والأشكال البنائية داخل المعمارية في السورة الكريمة على حسب حاجة المتلقى، لبلورة معلومة معينة، وتأثير شعوري متعمد.

• إعطاء المتلقين في كل مرة من خلال تنقلاتها الموضوعية والفنية جرعة معلوماتية تتداعي في أنفسهم في انفعال وتأثير، يعرف مداها الله تعالى بشكل يحدد وجهتها وكميتها ونوعيتها مع قدرات المتلقى على اختلاف ثقافته ومعارفه ومستوياته، فمرة تظهر لنا تلك الجرعات المعلوماتية التي يستهدفها السياق القرآني جلية من خلال التعقيبات لكل موقف، الذي أدركنا أهميتها الفنية في سد الكثير من الثغرات الفكرية والمضمونية والفنية، ومرة تخفي تحت مضامين البنيات الدلالية الصغرى المتمثلة في الآيات و البنيات الكبرى المتمثلة في المقاطع، التي وإن كانت تقدم في تناميتها إضافات جديدة في كل مرة تعرض فيها، فإنها في نفس الوقت تثبت وترسخ ما سبق عرضه، كما تغذيه وتدعمه تدعياً قوياً.

• تعمل على شد وتلاحم المعمارية القصصية بقسميها في السورة، إذ لها القدرة على الإمساك بالروابط العضوية والفنية في البنيات الدلالية على الرغم من تعددها وتنوعها، وهذا ما لاحظناه وتوصلنا له جلياً من خلال المعالجة لكل بنية على حده، إذ أسهمت في تلاحم البينات الصغرى بعضها مع بعض، لتقدم دلالات كبرى لبنيات أعم وأشمل، من شأنها أن تتضمن تحت معمار هندسي متقن، يتشكل في رسم بديع، و تخطيط محكم، ليؤدي هدفاً وغرضاً مقصوداً يعلم سره واضعه.







## الفصل الثالث

# المعمار الفني والجمالي وخصائصه في سورة مريم



٢٠٣

المعمار القصصي في سورة مريم







بعدهما تجلت لنا تلك العمارة الهندسية البديعة التي احتوتها سورة مريم عامة، وقصصها خاصة متمثلة في (وحدتها الموضوعية و العضوية)، يجدر بنا الإشارة إلى المعمارية الفنية التي لا يفوقها ما سبق عجباً ودهشة، بل تزيد من العجب والدهشة إبداعاً وإتقاناً وإعجازاً لا مثيل له، وهي: (الوحدة الفنية الجمالية).

لقد حاول الكثير الخوض في مضمار هذه الوحدة آملاً في الكشف عن أستار بعض من جزئياتها البديعة، وبعض من فنونها الساحرة، التي سلبت عقول وقلوب المتلقين في عصر التنزيل، فما لبثوا أن وقضوا عاجزين أمام هذه المعجزة البيانية الربانية، وما فتئوا يقلبون يميناً ويسرة حتى طاشت العقول، وزلت الألسن عن تفسير هذا الإعجاز وهذا الإتقان.

فها هو الوليد بن المغيرة وهو الكافر العنيد يطلق الشهادة العظمى على هذا الجمال قائلاً: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه»<sup>(١)</sup>، وها هو عمر بن الخطاب يقول في رواية: «فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام»<sup>(٢)</sup> ويقال عنه في رواية إنه قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه»<sup>(٣)</sup>.

لقد تلقى البشر باختلاف أديانهم من مؤمن وكافر هذا الجمال الخالص بالعجب والإكبار والإجلال له، مستشعرين نظمَه المتسق، وملكتَه المؤثرة التي تغلب العقول وتسحر القلوب لسراً لا يعلم كُنْهه إلا الله تعالى.

و (الوحدة الفنية) التي نحن بصدد معالجتها في هذا الفصل مصطلح برز في الدراسات النقدية والأدبية الحديثة وبخاصة في دراسة الشعر الجاهلي، لذلك أجد نفسي أمام مصطلحات نقدية بشرية حالها حال إطلاق المصطلحات السابقة من أمثال الوحدة الموضوعية والعضوية، فما هي إلا وسائل أحاول جاهدة الاستعانة بها للوصول إلى سر عظمة القرآن البنائية، ومستأنسة في ذلك بما كان يرد في حقول الدراسات البلاغية من مصطلحات لمفومات تدور حول الدراسات النصية في

١- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٢٤.

٢- المرجع السابق، ص ٢٤.

٣- المرجع السابق، ص ٢٤.



(القرآن الكريم - الشعر العربي القديم).

لذلك كان من أبرز من عرّف الوحدة الفنية محمد النويهي في كتابه: (الشعر الجاهلي) موضحاً المصطلح بأنه: «وحدة الأثر الجمالي الذي يتركه الشعر على القارئ»<sup>(١)</sup>.

ولجمال القرآن وسحر بيانه وأسلوبه نجد تحقق الوحدة الفنية بشكل يفوق كل فن وكل جمال، فهو المنبع والمصدر لاستلهاام هذه المصطلحات وبلورتها، والأساس في رسم النموذج النظري والتطبيقي الأمثل لها.

فما سر هذا الجمال القرآني وما وظيفته؟ وكيف انتظم في سورة مريم؟

وما أهم العناصر والأدوات والأشكال التي تمثلت بها الوحدة الفنية والجمالية في السورة؟

وهل كان لها دور وظيفي في تلاحم السورة ومعمارية القصص؟

هذه عدة أسئلة تطرح نفسها في هذا الموقع سأحاول جاهدة الإجابة عنها، بتطبيقي إياها على سورة مريم وقصصها، فعلى الرغم أنني قد تلمست بعضاً من أفانين هذا الجمال البديعي أثناء معالجاتي للمباحث السابقة في (الوحدة الموضوعية والعضوية) والتي مثلت بترابطها وتلاحمها صورة من صور الجمالي المضموني الذي سيطر على السورة في هيكليتها ومعمارياتها فإنني بحاجة لبيان ذلك الغلاف الخارجي الذي غلف السورة وقصصها بجمال محكم في جميع مقاطعه وأجزائه، وذلك بتناولنا (الوحدة الفنية).

ويعلق محمد عبد الله دراز على هذه الفكرة قائلاً: «وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف لما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يُغشي جلائل أسرارها بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها.

انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة، فكذاك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يُختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعدوبته، ويُغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الحداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها وعتاء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وأذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه، وينفذون

١- بتصريف، محمد النويهي: الشعر الجاهلي، منهج في الدراسة وتقييمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د، ط)، (د، ت)،

بها إلى بعيد غَوْرَه: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)»<sup>(١)</sup>.

كما أن من أهم ما يبرز الوظيفة الجمالية لأسلوب القرآن هو جمعه لـ (قوة التفكير وقوة الوجدان) التي تنقب إحداها عن الحق والخير لمعرفته والعمل به، والأخرى تسجل الإحساس بالحق والخير ومضاداتها لذة وألماً، في توازن للطرفين متقن وتعادل لأصحابها محكم، فلا قصور ولا تقصير كما يفعله الحكماء والعقلاء في اتباع الحق والخير، أو الشعراء والأدباء في اتباع الإحساس والشعور، فيطغى أمر على أمر، فتختل الموازين في توصيلها للآخرين، وتطيش الأفكار والمشاعر دون وصولها للهدف المنشود<sup>(٢)</sup>.

فها هو الجمال البديع متمثل في الإتيان بالحقيقة البرهانية الصارمة مع الجمال الوجداني المتع، فيروي عطش العقول الظمأى، ويسد جوع القلوب المتضورة في جرعات متساوية ومتوازية لا تطيش إحداها على الأخرى لأنها منزلة «من الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبيغان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين»<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما تمثل حقيقة واضحة في سورة مريم كونها صورة مصغرة لهذا الجمال الفسيح الذي عم سور القرآن كافة، ومسحة فنية دقيقة لمسحة كبرى امتدت للسور القرآنية جميعها.

ومن أهم الوسائل والأدوات والأساليب التي سأعرض لها في هذا الفصل هي:

- العناصر القصصية ودورها الفني والجمالي في المعمار القصصي.
- أدوات المعمار الجمالي والأسلوبي في السورة الكريمة، التي تركزت في القصص بالدرجة الأولى.

١- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ١٣٣.

٢- بتصريف: المرجع السابق، ص ١٤٤.

٣- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ١٤٥.









## المبحث الأول

العناصر القصصية في السورة الكريمة



٢٠٩

المعمار القصصي في سورة مريم



تتجلى الوحدة الفنية وجماليتها في ذلك التناغم والتناسق بين العناصر القصصية ومدى ترابط بعضها ببعض في تلاحم وشيخ وتناسب فريد، ومدى قدرتها على إثارة المتلقي، واجتذاب مشاعره نحو المقصود والغاية التي تهدف لها السورة الكريمة.

وأؤكد القول لما يستدعيه السياق الفني هنا بأن: «القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وأداء حوادثه، كما هي الحال في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق - إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية»<sup>(١)</sup>.

وإن من أهم هذه العناصر هي: الأحداث - الشخصيات - النسيج القصصي المتمثل في الحوار والسرد والوصف) - أوعية الحدث المتمثلة في (الزمان والمكان) - عنصر القوى الغيبية.

وبما أنني تناولت المعمارية البنائية والهيكلية للقصص المتمثلة في الوحدة الموضوعية والعضوية التي انتظمت في السورة، أنتقل لدراسة الجانب الجمالي الذي أسفرت عنه السورة الكريمة، وتزينت به في هندسة جمالية بديعة، وتركيب بنائي خاص، وإن كنت لا أخفي صعوبة الفصل بين هذه التراكيب لشدة تلاحمها وارتباط بعضها ببعض، فما أن أفصل القول في إحداها إلا وأجد نفسي قد تعمقت في الأخرى، مما يوقعني في نوع من التكرار الذي أعتقد بأنه تكرر محمود، لأنني أتعهد إليه أحياناً لتوضيح وتأكيد جزئية معينة، أو تحديد أبعاد قد اتسعت.

كما أنني أجد عناصر القصة قد تداخلت وتوزعت توزعاً يجعل لكل منها دوراً يختل بانعدامه توازن القصة، لأن المقاصد والأهداف التي يرمي إليها السياق القصصي، هي التي تعين على اختيار نوعية أساليب العرض، وتتحكم في ترتيب الأحداث، وتحدد أماكن تسليط الضوء على الموقع المطلوب.

لذلك سأحاول معالجة كل عنصر من العناصر القصصية على حده، و على درجة (توزيعه وتداخله وتأثيره) وحسب خصائصه ومميزاته الفنية والقرآنية.

وبما أن أغلب السور القرآنية حوت أشكال القصة القصيرة، فإنني سأتابع بعضاً من المقاييس الفنية التي وضعها النقاد قديماً وحديثاً، بشكل لا أعمه كمقاييس أساسية في دراسة القصة القرآنية

١- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٣.

بل أخذ منها ما يفيدني في المعالجة، ويعينني على فهم بعض من فنيات القرآن المكنونة، وبشكل لا يمس قداسة النص القرآني وضوابطه.

ولا يفوتني التأكيد على مسألة مهمة هي: (على الرغم من التوافق والتشابه بين القصص القرآنية والقصص البشرية فإن التفاوت بينهما أمر لا ريب فيه، وذلك لسبب واضح، وهو كون القصة البشرية تصدر من بشر، فحينئذ سيكون الخطأ الفكري والفني ممكن الوقوع ومحتمل الحدوث، بعكس القصص القرآنية التي تصدر من مبدع كامل، محكم لكتابه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من رب العالمين).

## المطلب الأول: الحدث وبنائه الفني:

للحدث مزايا عدة فنية قد تتبناها النقاد والدارسون، فما مفهومه؟ وما عناصره؟ وما أهم طرائق بنائه؟ وما هي المميزات الفنية الخاصة بالقصة القرآنية بكونه أنموذجاً أمثل للقصص البشرية الأخرى.

أ- **وما الحوادث:** «إلا مجموعة الوقائع الجزئية التي حدثت فعلاً أو التي يمكن أن تحدث في ترابط وانتظام على نحو خاص نتيجة لظروف معينة، أو سلوك محدد»<sup>(١)</sup>.

ب- **وإن من أهم مميزات الحدث** هو كونه القالب الذي تنمو فيه المواقف والمشاهد ونصور فيه الشخصيات ونرصد حركاتها وأعمالها فيه، كما أنه هو الموضوع الذي تدور حوله القصة وتحوم فيه.

ج- **وأما بالنسبة لعناصر بناء الحدث فإنه يتكون من:**

١. **عنصر التشويق** الذي يعد من أهم العناصر، وفائدته تكمن في إثارة اهتمام المتلقي وشده من بداية العمل القصصي إلى نهايته، وبه تسري في القصة روح نابضة بالحياة والعاطفة<sup>(٢)</sup>.

٢. **المعنى** وله أهمية كبرى، فهو عنصر أساسي، بل يعده بعض الدارسين أساس القصة، وجزءاً لا ينفصل عن الحدث، لذلك فإن كل عناصر القصة بشكل عام لا بد أن تعمل على خدمة المعنى من أول القصة إلى آخرها، فإن لم يكن كذلك، كان المعنى دخيل على الحدث، وكانت القصة بالتالي مختلفة البناء<sup>(٣)</sup>.

١- علي عبد الخالق علي: الفن القصصي (طبيعته، عناصره، مصادره الأولى)، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، (د، ط) ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧ م، ص ٤٢، وينظر عبد القاهر أبو شريفة، حسين لافي قزق: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٥، ط ١، ص ١٢٤.

٢- شريبط أحمد شريبط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧ - ١٩٨٥)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د، ط) ١٩٩٨، ص ٢١.

٣- بتصرف، رشاد رشدي: فن القصة القصيرة، المكتب المصري الحديث، ط ٥، (د، ت)، ص ٥٨ - ٥٩.

وبالنسبة للمعاني في القصص القرآنية هي بالطبع من المعاني السامية التي تدور حول (العقيدة والتشريع والأخلاق)، ومن ثم يُقدّم المعنى لغاية دينية سامية، وينتج عن ذلك عدة أمور:

❖ نستطيع تحديد الأحداث من حيث الطول والقصر، فمنها الأحداث العادية البسيطة ومنها الأحداث الطويلة المتشابكة.

❖ كما نستطيع تحديد نوعية الحدث وحلقاته على حسب ما تقتضيه الأغراض، فنجد القرآن ينتقي قصصه وحوادثه مراعيًا هذا السبب، «وهو مبدأ عرفته القصة البشرية حديثاً، حيث يعتمد المؤلف إلى تحية كثير من التفاصيل الواقعة التي تضر بالحدث وترهل جسم القصة»<sup>(١)</sup>.

❖ كما أننا نجد تجدد الحدث الواحد للقصة الواحدة على حسب الغرض الأولي للسورة التي ضمت هذه الحوادث والقصص<sup>(٢)</sup>.

٢. **الحبكة الفنية:** وتسهم بدور بارز في إحكام بناء القصة في الحدث وهي: «عملية نمو للأحداث وتطور وتخلق من الداخل، فالإطار الذي تدور حوله الأحداث هو ما يُعني به (الحبكة الفنية) للقصة، أي أن تترايط الأحداث في حالة صدورهما عن الشخصيات ترابطاً وثيقاً يشف عن منطوق مبرر، بحيث يتكون من مجموعها المتنامي وحدة ذات دلالة محددة، وبهذا تتكاثر الأحداث وتتغير في نمو واطراد نحو (العقدة)<sup>(٣)</sup> أو (قمة الأزمة) حيث تبدأ في (الانكشاف) والتنويع»<sup>(٤)</sup>.

وباختصار فإن الحبكة الفنية هي: «سلسلة الحوادث التي تجري فيها مرتبطة عادة برباط السببية»<sup>(٥)</sup>، وبالتالي فإنها تعتمد بالدرجة الكبرى على عنصرية (الزمنية والسببية)<sup>(٦)</sup>، من أجل تشابك الأحداث وتطورها وتحقيق عنصر التشويق والإثارة من أجل متابعة الحدث.

وهكذا فإن الحبكة نوعان<sup>(٧)</sup>:

- منها ما يعتمد فيها على تسلسل الأحداث.
- ومنها ما يعتمد فيها على الشخصيات وما ينشأ عنها من أفعال وعواطف.

١- محمد قطب عبد العال: من جماليات التصوير في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ م، ط٢، ص ١٣٣٥.

٢- ينظر، سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٧٤.

٣- العقدة هي: "تشابك الحدث وتتابعه حتى يبلغ الذروة"، عبد الله خليفة ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، الدار العربية للكتاب، (ليبيا تونس)، ١٩٧٧ م، ط٢، ص ١٢٤.

٤- علي عبد الخالق علي: الفن القصصي، ص ٤٩.

٥- محمد يوسف نجم: فن القصة، دار صادر، بيروت، ودار الشروق، ١٩٩٦ م، ط١، ص ٥٣.

٦- ينظر، علي عبد الخالق علي: الفن القصصي، ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢.

٧- بتصرف، سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٨٢.



هذا ما يخص عناصر الحدث على ما ظهر لي في مجملها.

## د- تحديد طرق بناء الحدث

ويأتي على النحو الآتي كما استعملها أصحابها<sup>(١)</sup>:

١. الطريقة التقليدية: وهي أقدم الطرق، بتمييزها في اتباع التطور السببي المنطقي، حيث يتدرج القاص بحدثه (من المقدمة إلى العقدة فالنهاية).
  ٢. الطريقة الحديثة: وفيها يبدأ بعرض حدث القصة من لحظة التأزم، التي يسميها النقاد: «العقدة»، ثم يعود إلى الماضي أو إلى الخلف ليروي بداية حدث قصته.
  ٣. طريقة الارتجاع الفني: وفيها يبدأ الكاتب بعرض الحدث في نهايته ثم يرجع إلى الماضي ليسرد القصة كاملة.
- ولقد ضرب لنا القرآن في بنائية الحدث في قصصه الأنموذج الأمثل لكل قصة فنية ضمت فنيات مميزة مثل:

• تنويعه لـ (طرائق العرض).

• تنويعه لـ (عناصر المفاجأة) واختلاف مواقعها في القصص.

اعتماده في هيكلته على المشاهد والمواقف التي تغنيه عن التفاصيل التي لا داعي منها، التي تظهر على شكل (فجوات فنية).

## هـ- ومع أول هذه الفنيات التي تنبه لها الدارسون والنقاد<sup>(٢)</sup>:

١. التنويع في طرائق العرض:
  - فمرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها، ثم يعرض التفاصيل بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها كطريقة (قصة أهل الكهف).
  - ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها ثم تفصل خطواتها كما في (قصة موسى عليه السلام في سورة القصص).
  - ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجأتها الخاصة ما يغني عن التمهيد مثل: (قصة مريم ومولد عيسى عليهما السلام في سورة مريم).

١- ينظر، شريط أحمد شريط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص ٢٢.

٢- بتصرف، سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٨٢.

- ومرة تجعل القصة قصة تمثيلية، بذكر بعض من الألفاظ التي تُتَّبَعُ إلى ابتداء العرض، ثم تجعل القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها، مثل مشهد (قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في سورة البقرة).

٢. كما أن من فنيات القصص القرآنية في عرضها لأحداثها هي تفردها في التنويع لطرق المفاجأة في الحدث القصصي فلنلاحظ عدة طرق منها<sup>(١)</sup>:

- مرة يُكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معاً في آن واحد، مثل: (قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف).

- ومرة يُكشف بعض السر للنظارة، وهو خاف على البطل في موضع، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة مثل: (قصة عرش بلقيس وقصتها مع سليمان عليه السلام).

- ومرة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرها في الوقت ذاته، مثل (قصة مريم وخروج الملك لها).

٣. ومن فنيات الحدث في القصص القرآنية اعتمادها في هيكلتها على المشاهد والمواقف، فلقد قسّم النقاد الحدث على ثلاث مراحل من حيث مشاهدته<sup>(٢)</sup>:

- البداية أو مرحلة التعرف.
- الوسط: وفيها تتطور الأحداث إلى ذروتها.
- النهاية أو (لحظة التنوير): وهي النقطة التي تتجمع فيها وتنتهي خيوط الحدث كلها، فيكتسب الحدث معناه الذي يريد الكاتب الإبانة عنه.

وهكذا نجد القصة القرآنية استغنت عن كثير من التفاصيل التي قد يطرحها السياق القرآني، إلى جانب قدرتها على طي الأحداث البعيدة التي لا حاجة لها في القصة، وهذا ما تُوصل لمميزاته ووظائفه في المسرح الحديث، وما ينتقل به من حلقات في السينما الحديثة، ليترك الخيال يلعب دوراً بارزاً في رسم تصوراته وأبعاده، على حسب معطيات الأحداث وشخصياتها<sup>(٣)</sup>.

وهذه الطريقة هي المتبعة بالدرجة الأولى في قصص القرآن حيث تطوى الأحداث التي يستطيع

١- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٨٥-١٨٧.

٢- بتصرف، محمد عبد الله عبده دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم (دراسة أدبية ونقدية)، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، قسم الأدب والنقد، ١٤١٧هـ-١٩٩٦، ص ١٣٤، ينظر، رشاد صبري: فن القصة القصيرة، ص ٩٢-٩٣.

٣- بتصرف، سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٨٨-١٨٩.





القارئ تخيلها، ويطوى عنصر الزمن والمكان مهما طال واتسع، ومن العجب «أن بعض هذه الفجوات تحقق الانتقال من عالم إلى عالم مختلف عنه تماماً، من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، على بعد ما بين العالم زمنًا ومكانًا حسب مقاييسنا البشرية»<sup>(١)</sup>.

«وإن الحذف وعمل الفجوات بين المشاهد لا يحدث إلا إذا كانت الأحداث المحذوفة مما يستطيع القارئ تخيلها، أو إذا كان تتابع المشاهد بما بينها من حذف يحقق حضور العرض لدى المتلقي قارئاً كان أو سامعاً، أما إذا كان هذا الحضور سيتحقق دون حذف ودون فجوات بين المشاهد فإن القصة القرآنية تحافظ على الأحداث وتذكرها في مكانها اللائق بها»<sup>(٢)</sup>.

ومن ثم «توشك أن تكون الفجوات بين المشاهد أصلاً من أصول البناء الفني للقصة القرآنية»<sup>(٣)</sup>.

## ٥- معالجة الحدث في قصص سورة مريم:

والآن أصل لتطبيق تلك الفنيات السابقة في حوادث قصص سورة مريم، وعلى الرغم من أنني قد تناولت الأحداث بما تتكون به من مشاهد ولقطات بشكل تفصيلي مع معالجاتي للهيكلية القصصية في المطلب الأول من الفصل الثاني<sup>(٤)</sup>، فإنني سأركز المعالجة هنا على تتبع الفنيات الموجودة في القصص بصورة مختصرة وسريعة، ومع أول القصص:

### ١. الحدث في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام:

الحدث في القصة حدث تاريخي، كما هو متعارف عليه في قصص القرآن، وعلى الرغم من هذا فلقد اتسمت القصة بالإثارة الفنية والمتعة، لذلك كانت أبرز السمات الفنية التي اتسمت بها الأحداث كالتالي:

- الحدث في القصتين: (قصة زكريا ويحيى عليهما السلام) متداخل لبناء الثانية على الأولى.
- اتسمت القصتان بعدم الإفراط المطرد في الأحداث، بل اختار السياق القرآني منه ما يخدم المعنى المقصود والغاية السامية، فسخرت جميع المشاهد ولقطاتها وومضاتها لخدمة هذا الهدف.
- تجلى الحدث في دور بارز حينما اقتطعه السياق القرآني من وسط قصة زكريا عليه السلام ليكون مقدمة وتمهيد للقصة - وهو ما يسمى (بالارتجاع الفني) من وسط الأحداث - لبيان

١- محمد عبد الله عيده دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ١٢٣.

٢- محمد عبد الله عيده دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ١٢٤.

٣- المرجع السابق، ص ١٢٢، ينظر، صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي (دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن) دار الكتب الحديث، (د-ت)، (د-ط)، ص ١١٩-١٢٠.

٤- ينظر صفحة ٩٣ من البحث.



أهمية هذا المقتطع ودلالته ذات الضرورة القصوى في انسحابها على باقي القصة، وباقي القصص التالية لها<sup>(١)</sup>، في قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ مِمَّا رَزَقَكَ رَبُّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا﴾

• اتسم الحدث بالفاعلية النشطة بتطوره السريع في تنقله من خلال عرض المشاهد والمواقف، مما كان سبباً في إحداث جو من الحركة والنشاط والتشويق.

فمن بيان لحالة زكريا عليه السلام من التضرع والانكسار والدعاء، وتصوير يقينه التام بالإجابة، إلى بيان مسوغات الدعاء التي مثلت (العقدة) في الحدث، ثم يسدل الستار على المشهد الأول لينتقل السياق إلى مشهد آخر يكشف عن المفاجأة الكبرى التي تتم عن البشارة بالمعجزة الخارقة، وما تبعها من ردود أفعال بلغت بالحدث إلى (الذروة) والقمة، فظهر لنا مدى اتحاد المشهدين وتعانقهما في نمو ونضج، يتداخلان في قصة يحيى عليه السلام بشكل لا نشعر به، فيها هو الله جل في علاه ينادي يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآبَتْهُ أَلْحَمُّ صَيِّبًا﴾ ساردا نعمه عليه، وواصفا لأهم سمات هذا الابن الموهوب، وموضحا سمات الرحمة والتميز فيه.

• تتجلى (الحبكة الفنية) في هذا التابع والنمو للإحداث بشكل سلس ومتنامي.

• ظهور (الفجوات الفنية) بين المشاهد التي كان لها الدور البارز في تخطي كثير من الأحداث والمشاهد التي لا تحتاجها القصة، لعدم فاعليتها في إدراك المتلقي، أو قدرته على تخيلها بما توفر له من مفاتيح التخيل التي يستطيع إنتاجها من ردود الفطرة البشرية والحياة الواقعية. وكما أن هذه الفجوات لا تقدم أحداثها ولا تؤثر في القصة، فإن الفنية تقتضي إغفالها حفظاً على الروابط المعنوية بين المشاهد والمواقف<sup>(٢)</sup>.

## ٢. الحدث في قصة مريم بنت عمران وسيدنا عيسى عليهما السلام:

اتسمت الأحداث بترابطها وتتابعها الحيوي وتنقلها السريع، فمن بدايته نجدُه يعبر عن خروج السيدة مريم عليها السلام إلى المكان الشرقي ومن ثم تجلي (المفاجأة) بظهور الملك في صورة الشاب، ومحاورات الدهشة والعجب، إلى تصاعد الحدث بإعلان المعجزة الكبرى بالإخبار عن هبة الغلام الذكي بدون أب، وما تلاها بعدها من ردود أفعال أخذت تتصاعد وتتنامى حتى وصلت إلى (الذروة) عند مجيء المخاض، وما احتوى ذلك المشهد من صراعات نفسية وجسدية، تمثل في حقيقتها (العقدة) التي وقعت فيها الشخصية من الحيرة في كيفية التعامل مع الوضع الجديد، وكيفية مواجهة

١- تم معالجة المسألة في ص ٩٣ من البحث.

٢- بتصرف، إبراهيم محمد إسماعيل عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، دار الأصاله للثقافة والنشر، الرياض، ١٤١٥هـ.

١٩٩٠م، ط ٢، ص ١٤٠.



القوم في قضية العفاف والطهر، ومن ثم تبدأ الحوادث بالانفراج بنطق الوليد وتهدئته لوالدته، ثم الوصول إلى (لحظة التنوير) عند مجابته للقوم وإشارتها للوليد، وما أظهره هنا الوليد بعدها من بيان للحقيقة.

### ولقد اتسم الحدث بعدة فنيات أوضّحها في النقاط الآتية:

- (الأحداث): في قصة مريم وعيسى عليهما السلام متداخلة ومترابطة، الثاني منها سبب للأول، كما أنها برزت على شكل مشاهد ولقطات متدرجة من (مقدمة وسط خاتمة)، كما تبين لنا هذا في معالجتنا لهيكلية القصة ومدى وحدتها العضوية التي انطبقت فيها<sup>(١)</sup>.
- ظهور (الحبكة الفنية) المحكمة في نمو أحداثها وتطورها إلى لحظة التنوير وتركيزها على الموقف المطلوب دون التفرع إلى غيره حتى تنتهي منه.
- الحدث لم يطغ على (الشخصيات) بل ساعد على معرفة السمات النفسية التي سيطرت عليها في توازن ملحوظ، عادل بينهما السياق من أجل تقديم الوظيفة الفنية التي تدعم الهدف المقصود.
- سيطرة (عنصر التشويق) والإثارة من بداية الأحداث إلى منتهاها، حيث تتلهف النفس في كل مرة لمعرفة ردود الأفعال ونتائجها.
- كثرة (الفجوات الفنية) التي لعبت دوراً بارزاً في إضفاء الحيوية والحركة في القصة، وهو أسلوب فني متعمد - كما ذكرت هذا سابقاً- لرغبة السياق في التركيز على أهم الأحداث والمواقف التي تخدم مقاصد السورة وأغراضها، فانطوت بذلك في القصة الأزمنة والأماكن بين المشاهد الثلاث: (الخلوة والمفاجأة رحمة الله المتجلية في ولادتها مواجهة الافتراءات والأكاذيب).
- تجلي (عنصر المفاجآت) في الأحداث حيث تكررت على شكل هزات متتالية تكشف عنها المواقف بدون سابق إنذار، في بناء متلاحم ومتناسق لا ينبو بتكلفة أو غرابة، بل يدل على إعجاز فني ذي دلالات معنوية في قمة الروعة والجمال<sup>(٢)</sup>.

وظهرت هذه المفاجآت على شكل أربعة هزات هي:

- الهزة الأولى: انقطاع خلوة سيدتنا مريم عليها السلام بخروج الملك دون سابق إنذار.

١- يراجع صفحة ١٢٧ من البحث.

٢- ينظر، سليمان الطروانة: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١١٢-١١٣.

- الهزة الثانية: البشارة بالغلام الزكي، الذي فأجأ مريم عليها السلام والمتلقي في آن واحد.
- الهزة الثالثة: مفاجأة المخاض عند جذع النخلة، وما ترتب عليها من ألم جسدي ونفسي.
- الهزة الرابعة: مفاجأة نطق الوليد ومناداته لوالدته، وما كان له الأثر الكبير في التخفيف عنها وطأة ما ابتليت به، ومن ثم مفاجأة القوم بكلامه وشهادته على عبوديته لله بعد خروج مريم عليها السلام وحوارهم المرير والقاسي لها عن كيفية الإنجاب.

هذا بالنسبة للحدث في قصة مريم وعيسى عليهما السلام ومنتقل للحدث الآخر للقصة التالية.

### ٣. الحدث في قصة إبراهيم عليه السلام:

❖ الحدث في القصة اعتمد على الحوار بالدرجة الأولى مما جعله يتمثل في مشهد واحد مُهدٍ له بذكر صفات الخليل عليه السلام (الصديقيّة والنبوة)، ومن ثم تصاعد الحدث تصاعداً سريعاً، ابتداءً بعرض الأنموذج القدوة في المحاورّة بطلب ترك عبادة الأصنام، بتدرجه بالدليل والبرهان والترتيب المنطق الذي يراعي مقتضى الحال، إلى الرد العنيف والمقابلة القاسية من قبل الأب المعاند على كفره، والتي مثلت (العقدة) التي تتطلب حلاً سريعاً تسفر عنه الأحداث، حيث نجده بعد ذلك يلجأ ويستعين بالاستغفار لهذا الوالد الكافر، ويقرر الاعتزال كحل تكشف عنه الأحداث، واختاره إبراهيم عليه السلام لتظهر لنا (لحظة التنوير) فنصل بها إلى نهاية هذا الحوار، ومن ثم تتبّع القصة هذا التنوير متجاوزة الأحداث إلى حدث الإغداق والعطاء الجزيل.

❖ بروز (الحبكة الفنية) في نمو وتصاعد الحدث من خلال الحوار.

❖ تكشف أستاذ (المعنى المقصود) لحقيقة الصبر والمصابرة في الدعوة لعبودية الله تعالى، وما يقابلها من رحمة الله لعباده الموحدين الصابرين، وهذا ما تلمسته ب (لحظة التنوير) في نهاية القصة، والتي سلّطت عليها الأضواء لتوضح مقصداً من مقاصد السورة وهدفاً من أهدافها.

❖ ظهور (فجوة فنية) زمنية بين قرار الاعتزال وبين توقيت الهبات والكرامات، مما يدل على طي الزمن للأحداث، الذي يجعله السياق القرآني مفتوحاً أمام المتلقين لإثارة نفوسهم للتفكير في كيفية سرعة تحقق تلك العطايا والهبات، كما أنها تساعد على سرعة الانتقال لبيان ما هو أهم وأسمى في القصة.

### ٤. الحدث في قصة موسى عليه السلام:

❖ إن من أهم ما يطالعنا في أحداث القصة هو (الاختزال أوالاكتناز) في مشاهدتها وجزئياتها،



فلقد اقتصر على مشهد واحد تمثل فيه: (التمهيد بذكر الصفات المميزة - والوسط بذكر كيفية الاجتباء - ثم الخاتمة التي تعلن عن الهبات والرحمات)<sup>(١)</sup>.

❖ بروز (الحبكة الفنية) بصورة خفية متشعبة الحدث من وسط المشهد في المناادة وما بعدها من إعلان الاصطفاء بالتقريب الإلهي لسيدنا موسى عليه السلام.

❖ ظهور (فجوات فنية) واسعة الأبعاد، فلا نعلم كيفية وصول موسى عليه السلام للطور الأيمن، ولا ما دار بينه وبين الله تعالى من مناجاة بعد ذلك النداء، ولا ما ترتب عليه بعد ذلك، ولا نعلم ماذا حصل بعد هبة الإعانة بأخيه هارون عليه السلام أمور استترت عن المتلقي معنوياً وفنياً لحكمة إلهية أرادها الله سبحانه، ولكن السرد القصصي عمد إلى إضاءة بعض هذه الأحداث كما رأينا لخدمة المقصد الرئيس للسورة.

## ٥. الحدث في قصتي إسماعيل وإدريس عليهما السلام:

الحدث في القصتين اتسم بالسماوات الفنية التالية:

❖ كلاهما (مختزل ومكثز) الأحداث لهدف وغاية تعمدها السرد القصصي، إلا أنه سلب الأضواء وركزها على سمات معينة، وحوادث خاصة للنبيين عليهما السلام.

❖ الحدث في (قصة إسماعيل عليه السلام) اعتمد على مشهد واحد مُهد له بذكر صفات التميز، إلى بيان مضمون القصة من ملازمته الدعوة لله، ابتداء من أمره لأهله على مداومة الصلاة والزكاة، التي دلت على إخلاص العبادة لله سبحانه، والتجاوز بعدها لأحداث الوسط إلى الاختتام بالهبة التي استحقها، مما كشف عن شدة اختصار الحدث<sup>(٢)</sup>.

❖ والحدث في (قصة إدريس عليه السلام) فاق القصة السابقة اختزالاً واختصاراً، إذ اعتمد في الموقف على التمهيد بالثناء الحسن، ثم التجاوز المباشر والمختصر إلى نتيجة التزامه بهذه السماوات بالمجازاة بالرفع في المكان العلي<sup>(٣)</sup>.

❖ كثرة (الفجوات الفنية) التي أغفلها السياق من أجل خدمة الهدف والمقصد الرئيس في القصتين.

## ٦. الحدث في قصة الخلف المفرط في العبادة:

قال تعالى: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥١﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ

١- ينظر لهيكلية القصة، ص ١٦٠ من البحث.

٢- يراجع هيكلية القصة ص ١٦٧ من البحث.

٣- يراجع هيكلية القصة ص ١٧١ من البحث.

وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ إذ تميّز الحدث في هذه القصة بالاختزال الذي تركّز على الفساد العبادي والخلقي لأصحابه من تركهم للصلاة واتباعهم للشهوات، إلا من تاب منهم لله ورجع منيباً إليه<sup>(١)</sup>.

## ٧. الحدث في قصة المنكر للبعث:

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ﴿٦١﴾ تميز الحدث ببعض المميزات الفنية ومنها:

- ❖ جاء (الحدث) مختصراً ومختزلاً يعتمد على جملة القول لشخصية منكراً ومستتهزئة بحوار واضح قد أبهت شخصياته.
- ❖ حُذفت كثير من أجزاء الحدث لعدم الحاجة لها، باعتبار أن الأضواء مسلطة على الجملة الحوارية التي تكشف عن الإنكار العظيم، وهو إنكار المشركين ليوم البعث، واكتفاء السياق بالتعقيب والرد الإلهي عليه ببيان الحقيقة الحديثية الكبرى من خلق الإنسان من عدم<sup>(٢)</sup>.

## ٨. الحدث في قصة المغترين بالحياة الدنيا والمستهزئين المتقين:

في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ﴿٧٣﴾ وَكَوْءَاهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرَنَ لَهُمْ آئِنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾

- ❖ تميز الحدث كذلك بالاختزال المتعمد، لبيان شكل من أشكال التجرؤ على الله تعالى، بطرح المقارنات الواهية بين الكافرين أصحاب النعمة الظاهرة، والمتقين الذي يعيشون في تقشير وزهد في الحياة، دون الارتجاع التذكري من قبلهم لحال القرون السالفة التي أهلكت على الرغم من مظاهر الترف المحيطة بها<sup>(٣)</sup>.
- ❖ الحذف الواضح لكثير من المواقف والمشاهد التي دارت بين الفريقين، الذي يتوجها السياق القصصي بالتركيز على أهمها وأعمقها من حقيقة الاستهزاء.

## ٨. الحدث في قصة المنكر ليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يُولَدْ لَهُ ﴾ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ جاء الحدث كذلك كسابقيه من الأحداث مختزلاً، يتميز أسلوبه بطي الحوادث والمشاهد،

١- تراجع هيكلية القصة ص ١٨١ من البحث.

٢- تراجع هيكلية القصة ص ١٨٩ من البحث.

٣- تراجع هيكلية القصة ص ١٩٤ من البحث.

ومركزا على الحوار الساخر لهذا المشرك، ورد الله عليه بالحقيقة القاطعة<sup>(١)</sup>.

## ٩. الحدث في قصة المشركين بالله من عبدة الأوثان وغيرها:

في قوله تعالى: ﴿وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾<sup>(٢)</sup> إذ برز الحدث في السرد القصصي مختزلا في حقيقة سفه هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله إلهها<sup>(٣)</sup>.

### ١. الحدث في قصة المفترين الذين أطلقوا لله ولدا:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾<sup>(٤)</sup> فلقد جاء الحدث مختزلا في جملة مقول القول، التي تحمل في طياتها أبعادا ذهنية كبرى تركها السياق القصصي ليشنع بمن أطلق لله ولدا، وليوضح جرأة هؤلاء على الله تعالى وعدم خوفهم من أحد<sup>(٥)</sup>.

وأخيرا فإن الحدث بانتقائه وبنائه وطرائق عرضه وحبكته وفجواته الفنية كلها مسخرة لخدمة المقصد العام، والهدف السامي للسورة وهو (الدعوة لعبادة الله تعالى، وتوحيده وتزيهه عن الولد والشريك، وما يتبع هذه الامتثال من رحمات الله تعالى وهباته)

## المطلب الثاني: الشخصيات وأنموذج القدوات والتحذيرات:

تعد الشخصيات عنصرا أصيلا من عناصر القصة وأساسا لا بد منه، فهم الذين تدور حولهم الأحداث، وهم الذين يتلقونها ويتفاعلون معها، وبيئون فيها مخاطباتهم وتحواراتهم وصراعاتهم، كما أن للشخصيات ميزة في قدرتها على التساوق والتوازن مع الأحداث فلا تطفى الشخصية على الحدث، ولا يطفى الحدث على الشخصية<sup>(٦)</sup>.

- فما أنواع الشخصيات؟ وما سماتها المتعارف عليها؟
- وما أهم الشروط الفنية التي اتفق النقاد على توافرها فيها؟ وما أهم الطرق المتبعة في عرضها؟
- وكيف تجلت الشخصية في القصص القرآني؟ وما أهم مميزاتاها؟

هذا ما سيتم معالجته بالابتداء بالإجابة عن السؤال الأول:

١- يراجع هيكلية القصة ص ١٩٧ من البحث.  
 ٢- يراجع هيكلية القصة ص ٢٠٢ من البحث.  
 ٣- يراجع هيكلية القصة ص ٢٠٧ من البحث.  
 ٤- والنقد الحديث يميز بين نوعين من القصة هما: " قصة الحوادث، وفيها تنصب عناية القاص إلى الأحداث، وتكون الشخصيات مسخرة لتعقيد الحوادث وتوليدها. وقصة الشخصيات: وفيها يبرز عنصر الشخصية ويتوارى عنصر الحدث، ولا يوجه إليه الاهتمام إلا بالقدر الذي يلقي الضوء على بعض من سمات الشخصية، وأما في أسلوب القرآن فيها فإنه لا يعترف بالفصل بينهما بل يمازج ويزوج بين العنصرين في غاية الإعجاز والبراعة، ينظر، محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ١٦٨-١٦٩-١٧٢-١٧٣.

١. لقد تعددت آراء النقاد والدارسين المحدثين لتحديد أنواع الشخصيات، وأوردها هنا على سبيل الإيجاز، وليس على سبيل التفصيل:

أ. فمنهم من قسمها على نوعين<sup>(١)</sup>:

• **الشخصية الإنسانية**، ويقصد بها: الأفراد رجالاً ونساءً، بما اتسموا من سمات دقيقة، وخصائص مميزة، وقسمات فارقة، ومن ثم فهي تختلف فيما بينها.

• **النموذج البشري**، الذي يعرف بأنه: «تجسيم مثالي بسجية من السجايا أو لنقيصة من النقائص أو بطبقة أو مجموعة خاصة من الناس، وهو يحوي جميع صفاتها وخصائصها الأساسية»<sup>(٢)</sup>، وقد يكون النموذج فرداً أو جماعة، ولا يكون لهما قيمة فنية إلا إذا استطاع الكاتب: «أن يجعل منه مثلاً نابضاً للحياة، ووسيلته إلى ذلك التصوير الفني الجيد الذي يجعل النموذج أكثر إقناعاً وأعمق من نظائره في الطبيعة»<sup>(٣)</sup>.

ب- ومنهم من قسمها على أساس الحركة والتطور في القصة، فقسمت إلى صنفين<sup>(٤)</sup>:

• **الشخصيات الثابتة البسيطة**: التي تتسم بقدر كبير من السهولة واليسر.

• **الشخصيات المتطورة المتنامية والمتغيرة** في أفكارها وأفعالها من خلال صراعها الداخلي في النفس، والخارجي مع الأحداث، فتتحول وتتكيف وتتفاعل إيجاباً أو سلباً مع الحدث.

ج- ومنهم من قسمها على أساس أدوارها<sup>(٥)</sup>:

• **الشخصيات الرئيسية**: وهي الشخصيات الفنية التي يصطفيها القاص لتمثل ما أراد تصويره والتعبير عنه، وتتميز هذه الشخصيات بإحكام بنائها واستقلالية رأيها وحرية حركتها في الأحداث.

• **الشخصيات الثانوية**: التي تنقسم بدورها إلى شخصيات مساعدة وشخصيات معارضة، فالأولى: تشارك في نمو الحدث وبلورته في مساندة الشخصية الرئيسية والمساعدة، وتعمل كذلك على نمو الحدث وتطوره من خلال الصراع بين الشخوص.

١- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٦٧.

٢- محمد يوسف نجم: فن القصة، ص ١٠٥.

٣- محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ١٦٧-١٦٨.

٤- بتصرف، علي عبد الخالق علي: الفن القصصي، ص ٧٠-٧١.

٥- بتصرف، شريبط أحمد شريبط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧-١٩٨٥م)، ص ٢٢.



وهذه باختصار الأنواع المتعددة للشخصيات التي أدلى بها في مجال الأدب والنقد، فكل من أصحابها له طريقته وأسلوبه ونظرتة في تناولها وتقسيمها.

٢. وأما بالنسبة للشروط الفنية التي اتفق عليها النقاد في الشخصية فهي كالآتي<sup>(١)</sup>:

- أن تكون مقنعة ومعبرة عن نفسها بعيدة عن التناقض.
- أن تكون ذات حيوية وتفاعل مع الأحداث، ومتطورة مع تطور القصة.
- أن يتوافر فيها عنصر(الصراع) المتمثل في النفوس أو العواطف أو العقيدة أو العقل أو بين الشخص، وذلك بأنه كلما كان الصراع قوياً وواضحاً في الشخصيات كانت القصة أنجح وأعمق تأثيراً<sup>(٢)</sup>.

٣. ولقد اقترح ثلاثة أبعاد للإمام بسمات الشخصية وخصائصها في القصة هي:<sup>(٣)</sup>

- البعد الجسمي من حيث السمات الظاهرة للشخصية.
- البعد النفسي من حيث المشاعر والعواطف والطبائع والسلوك.
- البعد الاجتماعي من حيث مركزها وثقافتها والوسط الذي تتحرك فيه.

٤. وأما بالنسبة لطرق عرض الشخصيات فإنها تعرض على طريقتين أساسيتين<sup>(٤)</sup>:

- إما الطريقة التحليلية: وهي الطريقة المباشرة، حيث يذكر القاص تصرفات الشخصية، وكل ما يتعلق بها من عواطف وأحاسيس وتوجهاته، وحتى ملامحه الخارجية بأسلوب صريح تتكشف فيه شخصيته، وما يريد أن يوصله للمتلقى عن طريق الشخص.
- وإما الطريقة التمثيلية: وهي طريقة غير مباشرة يمنح القاص فيها الشخصية حرية أكثر للتعبير عن نفسها، وعن كل ما يختلج بداخلها من أفكار وعواطف، مستخدماً ضمير المتكلم، وتتحنى شخصية القاص جانباً لتفسح المجال أمام الشخصية الأدبية لتقوم بوظيفتها الفنية.

٥. مميزات الشخصيات في القصة القرآنية:

إن من أهم مميزات الشخصيات في القصة هي كالآتي:

١- بتصرف، شريبط، أحمد شريبط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧ - ١٩٨٥م) ص٢٤.

٢- بتصرف، عبد الله خليفة ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، ص٤٦.

٣- بتصرف، المرجع السابق، ص٤٦.

٤- بتصرف، شريبط، أحمد شريبط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة ص ٣٤.



أ. **برزت الشخصيات في غاية من البراعة والإتقان في الرسم**، لتقوم بأداء وظيفتها في واقعية وصدق، بما يتوافق مع هدفها الذي تسعى إلى تحقيقه، وبما يتلاءم مع المقصد الديني العام للسورة التي اندرج تحتها، واستظلت به فكانت منبعاً يستقي منه الأدباء والفنانون في رسمهم لشخصيات قصصهم ورواياتهم.

ب. **جاءت الشخصيات متساوقة ومتوازنة مع الأحداث**، لا يطغى أحدها على الآخر، وإن ظهر أن لأحدها بروزاً على الآخر في موقف من المواقف إلا أن القرآن لم «يهدف إلى إبراز الشخصية في حد ذاتها إلا بمقدار ارتباطها بأحداثها، إلا أن الدقة القرآنية في التصوير أبرزت هؤلاء الأشخاص، وجعلتهم ملء السمع والبصر بما حددت لهم من المعالم، وما رسمت لهم من الملامح، وبما ركزت على أبرز ما فيهم من الصفات التي كان لها دخل كبير في الحدث..... حتى تأكد لمن وقف على هذا القصص أنه ما كان لغير هؤلاء الأشخاص أن يصدر ما صدر من أحداث، أو أنه لم يكن لتلك الأحداث أن تصدر عن غيرهم من الأشخاص..... فالشخص والحدث خلق كل منهما للآخر ليس غير»<sup>(١)</sup>.

ج. **إن طريقة القرآن في رسمه للشخصيات وتصويرها هي طريقة غير مباشرة**، فهو يجعل المتلقي يتعرف على الشخص على طريق تفكيرها، ونهج أعمالها، وسبحات روحها وكأننا نعاشر الشخص منذ زمن طويل<sup>(٢)</sup>.

وقد يلجأ السياق القصصي إلى (العرض السردي الوصفي) الذي ينبُ عن الإخبار في بعض الأحيان، وهو أمر ملحوظ بالدرجة الأولى في القصص التي تتسم بالإيجاز الشديد، ليُقدم لنا السياق العبر والهدف في طريقة سريعة وخاطفة.

إن القرآن في حديثه عن الأشخاص كان يختار ما يتفق وأحوال النبي العربي، ليثبت نفسه ويسري عنها ما ألم بها من حزن وألم<sup>(٣)</sup>.

د. **وأما بالنسبة لأنواع الشخص في القصة القرآنية فجاءت على نوعين**<sup>(٤)</sup>:

**النوع الأول: الشخصية البشرية**، التي جاء بها القرآن مشحونة بأنواعها وأشكالها إذ سردها القرآن سرداً كشف فيه القناع عن النفوس وعمّا تكنه الصدور من خير أو شر<sup>(٥)</sup>، ونراها في خمس أنواع من القصص القرآنية هي:

١- صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي (دراسة نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن)، ص ١٢٢.

٢- بتصرف، محمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣٠٨.

٣- محمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣٠٩.

٤- ينظر، مريم السباعي: القصة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ، ص ١٠١-١١٨.

٥- بتصرف، عبد الباسط عطايا: مع القرآن، ص ١١٨.





١. شخصية الأنبياء: وهم أبرز الأشخاص التي حظيت بهم القصة القرآنية بهدف نشر وعي ديني متكامل بكونهم رسل الله تعالى للبشر فهم القدوة الحسنة، لذلك نجد القرآن يذكرهم بأسمائهم ليكونوا أدعى للاقتداء والعمل بأخلاقهم، وهم شخصيات غير قابلة للتكرار لأنها أدت دورها ورسالتها - واختتمت بمحمد صلى الله عليه وسلم - وغدا سلوكها علامة بارزة تدل عليه، ولكن تُذكر لاقتفاء أثرها والسير على هداها<sup>(١)</sup>.

٢. شخصية الصالحين: وهم أشخاص ليسوا بأنبياء ولكنهم صالحون ذكروا في القصص من أجل بيان طريق البر والهداية والرشاد<sup>(٢)</sup>.

٣. شخصية الطالحين: وهم الشخصيات الضالة الفاسقة التي اتسمت بالإغواء والغواية<sup>(٣)</sup>.

٤. شخصية المرأة: حيث اعتنى القرآن بذكرها، واهتم بجعلها في مكانها الطبيعي لتكون عبرة وعظة لبنات جنسها<sup>(٤)</sup>.

كما أن القصص القرآنية قد عرضت لنماذج خيرة أو نماذج أخرى فاسدة من النساء، تتماشى مع أهداف القصة والغرض التي ذكرت من أجله، وبالتالي فإن المرأة ركن قوي في القصة إن دعت لها الحاجة، ولكن إن لم يستدع السياق إليها فلا تذكر وتغفل كما ظهر هذا في قصص كثيرة من القرآن.

٥. الأشخاص العاديون: وهم شخصيات عادية مثل الشباب الذين لم ينخدعوا بمظاهر الحياة ولهوها ومفاتها بل عصموا أنفسهم عن الهوى والرذيلة، من مثل (أصحاب الكهف).

٦. الجماهير والجماعات: وهم الذين تذكرهم القصة بصيغة الجمع أو بما في معناها، التي تعطينا صورة عن فئة من الناس والجماعات التي تملأ المكان بعددها وقوتها.

**النوع الثاني: الشخصيات غير البشرية ومنها:** (شخصية الملائكة - شخصية الجن

- إبليس - النمل - الهدهد).

ونلاحظ القرآن في رسمه للشخصيات يتناول الأبعاد الشخصية الثلاث - كما ذكرتها سابقاً - في رسم الشخصيات في القصص الفنية وهي: (البعد الجسمي/ البعد النفسي/ البعد الاجتماعي).

١- المرجع السابق، ص ١١٥.

٢- من مثل لقمان وابنه، ومؤمن آل فرعون، ورسول عيسى عليه السلام.

٣- كفرعون وهامان وجنودهم.

٤- ومن أمثلة ذكر القصص القرآني لها إيجابياً: قصة مريم عليها السلام، وقصة امرأة فرعون، وقصة بلقيس ملكة سبأ، وأم موسى عليه السلام، وأما ذكر القصص لها سلباً: فمن مثل قصة زوجتي نوح ولوط اللتان خانتاهما.. ينظر، مريم السباعي: القصة في القرآن الكريم ص ١٠٨-١٠٩-١١٠.

وتناول هذه الأبعاد في رسم الشخصيات بواسطة السياق القصصي يتفاوت، حيث نجد السياق يغفل في أحيان كثيرة البعد الخارجي للشخصية فلا يذكر اسمها ولا شكلها، وهذا طبيعي لأن القرآن الكريم ليس كتاب أدب وتسلية، إنما هو كتاب دين وعقيدة، فإذا تطلب السياق والغرض بيان هذا البعد في الشخصية من أجل تحقيق التأثير والتأثر بها، فإنه يتناولها بشكل فائق في الروعة والوصف، كما في قصص الأنبياء المذكورين في القرآن حيث تُذكر صفاتهم وملامحهم الجسدية والنفسية والاجتماعية بأسلوب بديع ومعجز، لأن المراد حينئذ هو (إعطاء القدوة والنموذج الحسن)، وإن لم يتطلبه السياق فإنه يتجاوزها بكل سلاسة ويسر، ويتم به رسم الشخصية كما هي، ويتحقق التأثير النفسي والفني بها على الوجه الأمثل<sup>(١)</sup>.

هـ. وأما وظيفة الشخصيات في القصة القرآنية فذات هدف وغرض سام، فلا تأتي اعتباراً دون فائدة، فكل شخصية لها دور في إقامة كيان القصص القرآني في صورة سوية واضحة المعالم، وهي الأداة التي من خلالها تُبثُّ المعاني والأفكار التي تسعى القصة لتوصيلها إلى المتلقي من أجل الإثارة والتشويق، وتكوين عقلية حكيمة قادرة على اختيار الشخصية ذات النموذج الحسن لتكون قدوة له، مع القدرة على إبعاد كل ما قد يخدش هذه الصورة من أقوال وأفعال صدرت من شخصيات منحرفة وطالحة يستبعدها العقل والقلب مباشرة.

هذه هي السمات المميزة للشخصيات في القصة القرآنية، التي ذكرت أهمها وأبرزها، والآن انطلق لتطبيق هذه القواعد والخصائص التي عرضتها من خلال قصص سورة مريم.

و. تطبيق معالجة الشخصيات على قصص سورة مريم:

أولاً - الشخصيات في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام:

جاءت على النحو الآتي:

أ. أنواع الشخصيات:

- الشخصية الرئيسية: زكريا عليه السلام.
- الشخصيات الثانوية:
- شخصية الملك (الملائكية) المرسل بالبشارة وشخصية زوجته العاقر.
- شخصية الجماعات وهم الموالي من بني عمه.
- شخصية الغلام التي تعد ثانوية بالنسبة لحضورها في القصة الأولى وشخصية رئيسة في

١- ينظر، محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ١٨٧-١٨٨.



القصة الثانية بحوار الله تعالى له.

## ٢. طريقة عرض الشخصيات:

التزمت القصة القرآنية بعرض غير مباشر، حيث عبّرت الشخصية البطلة عن حالتها وأفكارها بنفسها عن طريق المناجاة وردود الأفعال، وهذا بالنسبة لذكريا عليه السلام، وأما بالنسبة للملك المرسل فلقد ظهر دوره بإعلان استجابة الله تعالى لذكريا عليه السلام والتبشير بالولد الرضي، وأما القوم والزوجة العاقر فلم يكن دورهم غير الذكر الوجودي لهم في الحوار فقط، وأما بالنسبة ليحيى عليه السلام فاكتفت القصة بالاعتماد على النداء الجامع للوصف السردي لمعرفة الشخصية وتحديد أبعادها.

## ٣. أبعاد الشخصيات وسماتها، وذلك بالنظر في ثلاثة أبعاد:

أولاً- شخصية ذكريا عليه السلام:

### ❖ البعد الجسمي:

أظهرت لنا الآيات في القصة بأن ذكريا عليه السلام اتسم بضعف البنية وكبر السن، حيث شاب شعره ووهن عظمه وعجز جسمه كما في الآية الكريمة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴾ وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي آمَرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ ﴾

### ❖ البعد النفسي:

١. كان ذكريا في حالة من الإرهاق الفكري والنفسي المتواصل وهذا ما تبين لنا من خلال عدة مواقف:

- التواضع والتأدب مع الله تعالى، حيث كان يستعين به في دعائه ويخفت صوته راجياً متضرعاً معترفاً بمرضه عليه.
- لجوئه إلى الدعاء، الذي يتجه الإنسان إليه في أغلب الأمور عند تأزمها واشتدادها، وحيرة الإنسان إلى اختيار ما يصلح له وينفعه (فهو ضعيف محتاج لإعانة الله تعالى له، كما أنه متوجس من قومه على هذا الدين).
- طلبه في الدعاء للولي للدلالة على ضعفه، حيث إنه لم يذكر هذا الطلب في شبابه، على الرغم من معرفته بإجابة الله تعالى لدعائه، و مما استشفه من دعوته بأن يكون الولد (صالحاً

ورضياً) هو:

- وضعه عن التربية والتعليم لكبر سنه وكهولته التي قد تعيق الإنسان عن متابعة هذه التربية لأبنائه.
- أو خوفه من أخذه بالأسباب المعينة على التربية والخلق إلا أنه قد لا يكتب له في مقادير الله تعالى الهداية ابتلاء واجتباء لذكريا عليه السلام.
- أو لشعوره باقتراب أجله وموته وتركه لهذا الابن صغيرا، فخوفه على الدين وشريعته دفعه لطلب هذا الغلام بهذه الصفة.

٢. كما أجد عدة أجواء ارتبطت بالحالة النفسية ارتباطاً قوياً:

- فنلاحظ جو الحزن والهم والتفكير، الذي ارتبط بحالة الانكسار والتضرع والدعاء.
- ثم نلاحظ جو الدهشة والتعجب والفرح، الذي ارتبط بأوائل إعلان الملك بالبشارة المرتجاة.
- ثم نلاحظ جو الهدوء والسكينة والوقار والطمأنينة الذي ارتبط بالتمثال والنذر وامتنال الأمر وإعلان التسبيح بكره وأصيلاً.

٣. كما تكاثفت عدة صفات كان لها الأثر البالغ في بناء الشخصية القدوة، منها:

- الصلاح والتقوى وخوفه على هذا الدين وحسن ظنه بالله وهذا ما لمسناه في دعوته لأمر قد استحال تحقيقه في ظل القوانين الكونية
- قناعته بما قسمه الله له في شبابه حيث لم يرزق بالولد.
- صبره وجهاده الطويل والمرير في الحفاظ على الدين وحتى في أواخر عمره وكبر سنه.
- حكمته وحنكته التي تدل على سمات الحاكم الراعي صاحب المسؤولية التي يبحث لرعيته عن كل ما ينفعها ويصلحها، فعندما لم يجد من هو أهل لحمل هذه الدعوة، لجأ إلى الله تعالى بأن يرزقه ابناً من صلبه يكون مؤهلاً لتحمل تبعات الدعوة ومتطلباتها.

#### ❖ البعد الاجتماعي:

- فالقصة بإطلاقها اسم النبي الكريم علانية، تُسْفِرُ منذ الوهلة الأولى عن المكانة الدينية والتشريفية لهذه الشخصية.





- كما أن إطلاق كلمة (موالي) في القصة للدلالة على منزلته وكرامته، حيث يتربون موته للسيطرة على ممتلكاته المادية والمعنوية<sup>(١)</sup>.
- وكذلك نلاحظ حالته الأسرية من خلال السياق القصصي بأن لديه زوجة عاقراً، وأقارباً من حوله يحيطون به.
- كما أن خوف زكريا عليه السلام على الدين من هؤلاء الموالي لدلالة واضحة على منزلته العالية عند ربه، حيث كان طوال حياته يدافع عن الدين ويذود عنه، ولم يتجرأ أحد على أن يمس الشريعة بظلم.

**ثانياً - شخصية يحيى عليه السلام حيث يُستشف أبعاد شخصيته من خلال الخطاب الوصفي له:**

#### ❖ فالبعد الجسمي:

- يظهر لنا من خلال وصف الله تعالى له بالقوة بقوله: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَّآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ﴾<sup>(١٢)</sup>، ظهوره بالغبلة والنصرة بالحق أمام هؤلاء القوم، وتدلل كذلك على القوة الجسدية وثباتها التي تعين صاحبها على الوقوف أمام الباطل مع القوة المعنوية المستمدة من الله تعالى.
- بيان المرحلة العمرية بقوله: (آتيناه الحكم صبياً)، وأهمية هذه المرحلة لاستشعار فضل الله وهباته على عبديّه زكريا ويحيى عليهما السلام.

#### ❖ البعد النفسي:

- فهو واضح من خلال عدة صفات تتابعت في السياق القرآني داخل القصة منها:
- ثباته في الحق ووقوفه أمام الباطل.
  - كان عطوفاً حنوناً مع الناس، وباراً بوالديه.
  - تقواه ومراقبته لله تعالى منذ الصغر.
  - الطمأنينة والسكينة والهدوء النفسي والسلام في ثلاثة مواقف عند الولادة وعند الموت وعند البعث.

١ - كما ورد في بعض الروايات، ينظر، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٦٢-٦٣.

## ❖ البعد الاجتماعي:

يتضح لنا هذا البعد من خلال بيان:

- مكانته الدينية والعلمية بحمله الكتاب والحكم على الرغم من صغر سنه.
- وراثته النبوة عن والده، بحول من الله وقوة.
- ٤. وظيفة الشخصيات في القصتين المتداخلتين:
- فلقد جاءت وظيفتهم متساوقة مع الهدف الديني والغرض المقصود في السورة الكريمة على الرغم من فنياتها، فتمثلت الشخصيات نماذج بشرية عالية تدل على الثبات والصلاح، والقُدوة الحسنة، وحسن الإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى وعبادته.
- أثبتت يقين العبد بالله الذي بقدرته ورحمته تخرج القوانين الكونية عن مساراتها وخطوطها.
- وبالتالي لا بد لكل متلقٍ اتسم بالعقل والحكمة أن يختار هذه الشخصيات أنموذجاً للاقتداء بها.
- ٥. وهكذا أجد أن الشخصيات في القصة قد تميزت في فنياتها بشروط وضعها النقاد حديثاً لتكون من مميزات الشخصيات في القصة الفنية:
- حيث جاءت الشخصيات كما في شخصية زكريا عليه السلام مقنعة عن سبب دعائها، معبرة عن نفسها ببيان سبب الدعاء والرجاء، وكذلك في شخصية يحيى عليه السلام جاءت مقنعة بكونه جاء نتيجة إيجابية لمدى صلاح الأب وإخلاصه، ومعبرة عن صاحبها بواسطة الوصف الإلهي له.
- ولقد جاءت شخصية زكريا عليه السلام حيوية متفاعلة مع الحدث العظيم وهو البشارة بالغلام الرضي من أب كبير وأم عاقر، وكذلك يحيى عليه السلام جاءت شخصيته حيوية ومتفاعلة على الرغم من اعتماده على القص الوصفي، وتطور حالته من المولد إلى الصبا إلى الموت وبعدها إلى البعث.
- كما أن شخصية زكريا عليه السلام قد تمثل بها ذلك الصراع المحمود كما اتضح لنا من نفسيته ودعوته لله تعالى، وهو الصراع الذي اهتم به النقاد مؤخراً، إذ إنه يبرز دور الشخصية ويبين أبعادها، ومن ثم يكون دوره أكثر تأثيراً في الموقف وأعمق أثراً على المتلقي، وهذا ما تجلت به الشخصيات في هذه القصة الكريمة، التي قدمت دوراً بارزاً دلاليًا وفنيًا، سُخر جميعه من أجل الغرض السامي الذي هدفت له السورة ودارت حوله.





## ثانيا - الشخصيات في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:

١. أنواع الشخصيات المذكورة:

- الشخصيات الرئيسية:

- شخصية مريم بنت عمران في المشهدين الأولين.
- شخصية عيسى عليه السلام في المشهد الأخير.

- الشخصيات الثانوية:

- الشخصية الملائكية المتمثلة في الملك المرسل.
- الجماعة والجمهور المتمثلة في قوم مريم عليها السلام.

٢. طريقة عرض الشخصيات:

ولقد تم عرض شخصيات القصة بأسلوب غير مباشر، حيث اتضحت كل شخصية على واقعيته وحقيقتها، فالسيدة مريم عليها السلام برزت لنا من خلال دورها وانفعالاتها وحواراتها وردود أفعالها، وكذلك سيدنا عيسى عليه السلام عبر حوارهِ عن معتقده وفكره ومنهجه بشكل نستطيع الإمام بأبعاد شخصيتهما.

٣. أبعاد الشخصيات وسماتها:

أولاً- مريم عليها السلام:

### ❖ البعد الجسمي:

لم ترد لنا في القصة ما يدل على حالتها الجسدية بصريح العبارة، ولكن يبدو لي من إحياءات القصة أنها:

- في بداية الحدث كانت في حالة صحية جيدة بحيث تتعد عن قومها وتعزلهم، ومن ثم قدرتها على تحمل مشاق الحمل وتعبه في بداية أمرها، الذي لم يسفر عنه السياق القصصي لعدم أهميته لمقصد القصة وهدفها.
- ومن ثم تطالعنا حالتها المتطورة إلى ضعف الجسم وإرهاقه فكرياً ونفسياً وجسدياً نتيجة الحمل والولادة، في بداية ظهور علامات الطلق الذي وضحه السياق ليكون إيذاناً لمرحلة



جديدة في أحداث القصة.

- مراعاة القدرة الإلهية لحالة الضعف هذا، بأن وفر لها سبل الراحة الجسدية بتوفير الطعام المتمثل في الرطب، واتباع أضعف الأسباب للحصول عليه وهو هزّها لجذع النخلة، والشرب من النهر الجاري تحتها.
- ومن ثم تطالعنا حالة السيدة مريم عليها السلام بتغلبها على الحالة المرهقة بعد الولادة باستعادة صحتها الجسدية والنفسية وحملها الوليد، ومواجهتها للقوم بكل صلابة وقوة.

### ❖ البعد النفسي:

أسهم هذا البعد بدور بارز في شخصية السيدة مريم عليها السلام، و يكاد يكون هو الذي سيطر على جميع مناحي شخصيتها وأحداثها في القصة، فلقد مثلت لنا مدى (التشابكات الانفعالية بالدرجة الكبرى) ومن أهم هذه السمات:

- زهد وصلاح مريم بنت عمران وذلك من خلال انعزالها للعبادة، وانقطاعها عن الناس، وعن ملذات الحياة التي قد تحلم بها كل من كانت في سنّها.
- تقواها واستشعارها رقابة الله تعالى، وهذا ما اتضح لنا من خشيتها لمفاجأة الملك لها، الذي تمثل على صورة شاب جميل قد يغري كل من كانت في موقفها، ولكن عفافها ونقاءها منعها من الانجذاب نحوه، بل سألت الله أن يكفيها شره، مذكرة إياه بالتقوى والخشية لتستشير لديه الرحمة والعفة وخوف الله.
- العاطفة المتأججة في نفسها: حيث تقلبت معها في كل موقف تمر به على أشكال متنوعة من ردود أفعالها، التي تتم عن طبيعة النفس البشرية وطبائعها:
  - فمرة تفجع وترتعد خوفاً من ظهور الشاب أمامها، فيتملكها الصراع النفسي بين الموقف وبين ما تربت ونشأت عليه وبين الحياء العذري الذي يستهجن ويتصارع مع كل جديد يكون سبباً في كشف سترها وحجابها.
  - ثم تتملكها المفاجأة والدهشة والعجب من بعد معرفتها لسبب مجيء هذا الشاب إليها وأصله الملائكي، وما أرادته من تنفيذ أوامر الله تعالى بأن يرزقها غلاماً زكياً من غير أب.
  - ثم ما اعترها مرة أخرى من الخوف والهم والحزن على الرغم من يقينها بربها، ولكن طبيعة النفس البشرية التي قد تضعف أحياناً عندما تثقل كواهل الإنسان كيف وهي تتذكر ما قد يظنه القوم عند مواجهتهم.



- ثم تتراءى لنا في (قمة الصراع النفسي وذروته) الذي تتشابك فيه مشاعر الخوف والهم والألم والشعور بانقطاع الأهل عن حولها، فنجدها تطلق الرجاء الحار إلى الله تعالى بتمنيها أن تكون من عداد الموتى أو تكون كما قالت: ﴿يَلْتَنِي مِن قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (٣٧)
- ثم تبدأ النفس بتفكيك تلك التشابكات بما سرى الله تعالى عنها باليقين والطمأنينة والسكون، بلحظة انفراج المعاناة بولادتها المولود الموهوب، وما هيأه لها من بيئة زاخرة بالهدوء والراحة، وتثبيت قلبها بنطق الوليد وتهديته إياها، فبدد ما كان في قلبها من روع وحزن.
- وفي نهاية المشهد القصصي نجد (لحظة التنوير النفسي في قلبها) تضاء بعد مواجهتها للقوم، وبقينها بتأييد الله تعالى لها ونصرته لعباده المخلصين، وكذلك بإشارتها للوليد ومحاورته المعجزة لقومها، فكأنها نقلت بذلك ما كانت تعانيه من صراع نفسي وتوترات عاطفية إلى قومها<sup>(١)</sup>.

ومن ثم أجد أن هذه الانفعالات أدت دوراً بارزاً على مستوى الحدث ومستوى الشخصية، وتناسقت تناسقاً غنياً عجبياً مع الجو الذي سارت فيه السورة، حيث ألحظ الانفعالات والعواطف المتغيرة في النفس البشرية قد سادت من أول السورة إلى خاتمتها<sup>(٢)</sup>.

### ❖ البعد الاجتماعي:

- إن مناداة السيدة مريم عليها السلام باسمها ليحوي عدة دلالات معنوية وفنية في قوله تعالى:
- ﴿فَاتَّ بِهٖ قَوْمَهَا حَمِيْلَةٌ ۗ قَالَوَاٰمِرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٣٧) ﴿فِيهَا:
- استشعار للواقعية في المحاورة لجذب انتباه المتلقين، ومشاركتها للحدث وانفعالات الشخصيات.
  - إدراك رفعة شأنها بين قومها ومكانتها عندهم، وعظم أمرها الذي أراده الله لها، بأن يصطفوها هي وابنها لهذه المنزلة التشريفية العظيمة، لتكون آية للعالمين.
  - كما يتبين لي من خلال حديث القوم مع مريم عليها السلام مكانتها الاجتماعية والدينية بقولهم: ﴿يَتَأَخَّرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾ (٣٨) ﴿فهي من أسرة صالحة تميزت بـ (الوالد التقى، والوالدة العفيفة، والأخ ذو المنزلة الرفيعة).

### ثانياً - شخصية عيسى عليه السلام:

فعلى الرغم من اختصار الحدث فيه فإنني أتلمس أبعاداً للشخصية استنبطتها منه:

١- ينظر، محمد قطب: القصة في القرآن، ص ٤٣.

٢- بتصرف، الخطيب: القصص القرآني، ص ١١٧.

## ❖ البعد الجسمي:

- الروح السائدة في القصة من رعاية الله تعالى، وتهيئة البيئة والأحداث من أجله، لتدل دلالة واضحة على الرعاية الجسمية والنفسية له، وإن لم تكن هناك ألفاظ صريحة وواضحة في هذا البعد الجسماني.
- ومن ثم كَوْن نطقه وهو وليد، لدلالة واضحة على الصحة الجسمية الكاملة والمتجاوزة للقدرات الإنسانية المتعارف عليها في المهّد.
- وكذلك قدرته على الصلاة والزكاة لدلالة على صحته الجسمية والعقلية التي تشترط لأدائهما.

## ❖ البعد النفسي:

تمثل البعد النفسي في عدة أمور منها:

- اليقين والثبات والطمأنينة والراحة القلبية، بنصرة الحق على الباطل، وهذا ما تلمسناه في نطق الوليد بأول الكلمات التي تدل على العبودية الخالصة لله تعالى، ورفع كل اتهام أو افتراء في قضيته ومسألته التي خاض فيها الخائضون بالباطل والزيف.
- كونه مباركاً ملتزماً بالصلاة والزكاة، لتدل على الهدوء النفسي والروحي اللذين يورثان الطمأنينة والسكينة لصاحبهما.
- تمكّن الرحمة من قلبه فترجمها بأفعال صريحة من بره بوالديه، ولينه مع عباد الله، وبعده عن أمراض التجبر والظلم والقسوة.
- ملازمة الراحة والسلام والطمأنينة عند المولد وعند الممات وعند البعث.

## ❖ البعد الاجتماعي:

حيث نتلمس مكانته الدينية عند الله وعند الناس بقوله تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (٣٠) التي تكفي لمعرفة هذه المكانة العالية.

٤. وأما الوظيفة التي أدتها هذه الشخصيات فهي واضحة للعيان:

- حيث إن القصة القرآنية تقدم للمتلقي أنموذجاً بشرياً يُمثل الغاية في التفوق الخلقي، والثبات الديني، والتأييد من الله، وبالتالي تكون هذه الشخصيات شخصيات صالحة للاقتداء والسير على هداها.



• قدمت الشخصيات نماذج بشرية اتمت بالواقعية في جميع حالاتها وأبعادها مما تزيد من تفاعل المتلقي معها إيجاباً، فتدفعه إلى تقمُّص الشخصيات ومحاكاتها باعتبارها متماشية مع استعدادات النفس البشرية وطبيعتها.

• وكذلك قدرة هذه الشخصيات بما قدمته من صراعات، وانفعالات من الوصول إلى قمة التطهير للنفس البشرية، التي ركز عليها النقاد كثيراً، جعلها شرطاً من شروط القصص الناجحة، بما تقدمه من استثارة لجوانب الألم والحزن والفرح والسعادة، فتطهر القلب والنفس من أدرانها وظلمتها فتستتير للطريق الصحيح<sup>(١)</sup>.

• ساعدت الشخصيات في كشف افتراءات الضالين المتخبطين في معرفة الحقيقة العظمى من (وحدانية الله تعالى، وتنزهه عن الصاحبة والولد، وبيان قدرته المعجزة في تغيير سنن الكون وقوانينها كيفما شاء).

وهكذا اختيرت الشخصيات بسماحتها وأبعادها بتسليط الأضواء عليها، لأثرها الفاعل في تدعيم الهدف والغاية من القصة، والذي يتساق مع مقاصد السورة الكريمة ويتماشى معها، في إثبات وحدانية الله تعالى وعبوديته ورحمته لعباده.

٥. كما أنني أجد الشخصيات في القصة قد برزت في سماته:

• فالشخصيات مقنعة، معبرة عن نفسها، بعيدة عن التكلف والتناقضات الزائفة.

• جاءت حيوية نشيطة متمامية ومتطورة من بداية الأحداث إلى نهايتها.

• مثلت الصراعات الداخلية والخارجية على مساحات فنية واسعة من القصة.

وهكذا تجلت الشخصيات بأدوارها وأبعادها ووظائفها ومميزاتها بشكل بنائي وفني بديع، يزيد من الإثارة والتشويق في القصة.

### ثالثاً - الشخصيات في قصة إبراهيم عليه السلام:

١. أنواع الشخصيات:

- الشخصية الرئيسية: شخصية إبراهيم عليه السلام.

١- ينظر محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص ٢٤٢.

## - الشخصيات الثانوية:

- شخصية الأب المشترك.
- شخصيتا إسحاق ويعقوب عليهما السلام (الابن الصالحان) اللذان لم يتجاوز السياق فيهما غير الذكر السردي لهما.

## ٢. طريقة عرض الشخصيات:

ما زالت طريق عرض الشخصيات غير مباشرة، إذ تمتد في السياق القصصي، حيث أخذت شخصية إبراهيم عليه السلام ووالده تتكشفان عن هويتها وأفكارهما ومعتقداتهما بكل سلاسة وإيجاز من خلال الحوار الذي دار بينهما، ونتيجته الحاسمة التي أسهمت بدور بارز في مواقف الشخصيتين فيما بعد.

## ٢. أبعاد الشخصيات:

### أولاً - شخصية إبراهيم عليه السلام:

#### ❖ البعد الجسمي:

كذلك نجد السياق القرآني في القصة يتجاوز هذا البعد ويغفله لعدم أدائه وظيفة في هذا الموضع بالذات للغاية والهدف من ذكر القصة، وهذه طبيعة أسلوب القرآن كما تلمسناها مراراً وتكراراً. ولكن الظاهر من جو القصة في رزق الله له بالذرية الصالحة هو: كونه في حالة جسدية وصحية سليمة، أهله لتحمل المصاعب التي وقفت في طريقه.

#### ❖ البعد النفسي:

- اتضحت عواطف الحنو والمحبة في نفس إبراهيم عليه السلام، حيث إننا لنكاد نرى أضواءها المتوهجة الخارجة من قلبه تجاه والده المعاند.
- بروز صفة الإخلاص في العبادة، والصبر والمجادة في تحمل مشاق الدعوة وتبعاتها حتى مع أقرب الناس إليه.
- الرحمة المستفيضة التي جرت نفحاتها من قلب إبراهيم عليه السلام تجاه والده، ورغبته الملحة في إنقاذه من برائن الأوثان وتخبطاتها، إشفافاً ورأفة لحاله.



٢٣٧



- صفة التسامح والتواضع والحلم التي برزت لنا في آخر الحوار حينما عزم على الاعتزال، ودعوته الصادقة لوالده بالاستغفار له عند الله تعالى.
- اتضحت سمة التوازن والحكمة التي جُبل عليها الخليل عليه السلام بفضل من الله سبحانه، والمتمثلة في منطقيته وحكمته في التحاور، وتقديمه للأدلة والبراهين القاطعة في مواقعها.
- الجرأة والشجاعة وقول الحق إذ إنه لا يخاف في الله لومة لائم، وقدرته على اتخاذ القرار، وتنفيذ كل ما فيه صلاح وسداد لدينه ولدعوته.

### ❖ البعد الاجتماعي:

- برزت المكانة الدينية من خلال حاجته لوالده في عبادة الأصنام، وثباته على الحق، وتقريره الاعتزال لتحقيق له العزلة العبادية، وابتعد بها عن تسلط الآخرين واتباعهم على الباطل والزيف.
- ومن ثم رزق الله له بالأبناء وإجزال العطاء عليه، وتحقق السمعة الطيبة بين الناس، لهي أكبر المقومات التي تدعّم المركز الاجتماعي الذي يتسم بالقوة والثبات والسعادة.

### ثانياً - شخصية الأب المعاند:

#### ❖ البعد الجسدي:

لم يذكره السياق لعدم الحاجة إليه، لمسنا في السياق صفات (الجبروت والتكبر والقسوة) التي تزيد فاعليتها في الإنسان بتوفر الصحة والقوة الجسدية، التي إن أصابها أي خلل انعكست سلباً على سمات الشخصية من الضعف والنقص.

#### ❖ البعد النفسي:

يتضح من خلال جملة حوارية واحدة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَخَذَ مِنْ رَبِّكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْرَجَنِّي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ حيث دلت على:

- العناد والكفر: بالتزامه عبادة الأوثان وعدم استجابته لدعوة الحق الصالحة، ومن ثم ضلاله عن طريق الهداية ورؤية الآيات البيّنات.
- الغلظة والخشونة والقسوة: وهذا واضح من خلال مقابلته وردة لدعوة ابنه الهادئة الحانية الرحومة، وتهديده إياه بالرجم والهجر.

## ❖ البعد الاجتماعي:

من حكمة إبراهيم عليه السلام دعوة أبيه للدين، وذلك لسببين تمثلت فيهما المكانة الاجتماعية للشخصية وهما:

- قرابته الأسرية ورغبته في إنقاذ أهله من العذاب، باعتباره أب العائلة الكبرى.
- حنكة إبراهيم عليه السلام في هداية سيد القوم، ليكون طريقاً لهداية رعيته ومن هم تحت سيطرته، فأسلام الحاكم سبب لإسلام رعيته، ومن ثم نستشف المكانة الاجتماعية للشخصية بين قومه.

### ٤. وظيفة الشخصيات:

ومن خلال هذه الأبعاد اتضح لنا مدى تفاعل الشخصيات مع الأحداث، ومدى الوظيفة السامية التي وُظفت لها الشخصيات في القصة، من أبرزها:

- (الدعوة لله والعبودية له منزها عن الشريك) وهو هدف السورة السامي، كما أن رحمة الله لعباده المخلصين الذين ساروا على طريق التوحيد مقصد مدعم للهدف السامي، لذلك نجد وظيفة الشخصيات هنا قد تساوقت تساوقاً دلاليًا وفنيًا محكمًا مع الأهداف والمقاصد.
- قدمت الشخصيات نماذج بشرية واقعية لحال صاحب الدعوة مع قومه ومظاهر العناد والكفر والتجبر التي قد تتكرر في كل زمان ومكان على أشكال متنوعة، فخفف ذكرها الحزن عن قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم جرّاء ما واجهه من عناد وكفر من قومه.
- كما أن الشخصيات ترسم في ذهن كل متلقٍ حقيقة الدعوة التي تنطوي على مشاق الجهد العظيم الذي يتطلب صبر ومصابرة من الداعي.

### ٥. لقد مثلت الشخصيات التطابق الفني بسماتها من خلال:

- كونها مقنعة، معبرة عن المعنى القصصي.
- حيوية ومتفاعلة مع الأحداث ومع بعضها بعضاً بتطور الصراع بينها، حيث إن السياق القصصي قد جسد صفات الشخصيتين المتصارعتين: «في لوحتين شاخصتين متقابلتين: لوحة القسوة والعنف والغلظة المتغلغلة في طبيعة الأب، ولوحة البر والإحسان والحنان والتقدير والعطف في طبيعة الابن الرحيم، هذه الرغبات الجامحة والمشاعر الصادقة، والانفعالات الناتجة في كلتا



الطبيعتين، نتجت عن تغفل القصة في كليهما»<sup>(١)</sup>.

## رابعا - الشخصيات في القصة الثلاث:

(موسى وإسماعيل وإدريس عليهما السلام) وللايجاز في هذا المقام أتناول شخصياتها معاً:

١. أنواع الشخصيات:
  - في قصة موسى عليه السلام تظهر لنا: الشخصية الرئيسة هي النبي موسى عليه السلام، والشخصية الثانوية هي هارون عليه السلام المعين له في الدعوة.
  - وفي القصة الثانية تظهر لنا: الشخصية الرئيسة هي إسماعيل عليه السلام، وشخصيات ثانوية وهم أهله.
  - وفي القصة الأخيرة تظهر لنا الشخصية الرئيسة المتمثلة في سيدنا إدريس عليه السلام بدون ذكر أي شخصيات أخرى لغاية استدعاها الغرض والهدف من سرد القصة.
٢. طريقة العرض: في جميع القصص هي الطريقة السردية السريعة التي تعتمد على الإخبار والوصف بالدرجة الأولى، كما هو ملحوظ من السياق القصصي في القصة الثلاث.
٣. أبعاد الشخصيات:

ولضرورة عمد لها السياق من تجاهل بعض من هذه الأبعاد وتسليط الأضواء على بعضها الآخر، نجد السياق ركز على البعد النفسي والاجتماعي، وتجاهل البعد الجسمي لعدم الحاجة لتوضيحه هنا ولعدم تقديمه وظيفة داعمة للغرض، غير أننا نستنتج من خلال الأمر بالدعوة والقيام بشؤون النبوة أو الرسالة أن أصحابها المصطفين في صحة جسدية تعينهم على تحمّل أعباء الدعوة.

## فأولاً - شخصية موسى عليه السلام تحقق فيها:

### ❖ البعد النفسي:

- حيث وصفه السياق القصصي بالإخلاص والصدق في العبادة والدعوة لله تعالى، وهي سمات تقرب العبد من ربه وتزيد من صلة الرابطة الروحية بينهما، لذلك حُقَّ له أن ينال مرتبة الشرف وهي (التقريب الإلهي).
- خوفه على الدين واستشعاره المسؤولية العظمى المكلف بها، وهي الدعوة إلى الله تعالى باعتباره نبياً ورسولاً إلى قومه، وهذا ما أدركناه من دعائه في طلب المعين والمساند له في أمور الدين وهو

١- ينظر محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية ص ٢١.





أخوة هارون عليه السلام.

- مشاعر الفرح والسعادة التي نستشفها من أجواء إجابة الدعاء وتنزل الرحمة عليه.

#### ❖ البعد الاجتماعي:

- فهو متمثل في المكانة الدينية بكونه نبيا ورسولا لقومه.

ثانياً- شخصية إسماعيل عليه السلام ولقد برز فيها:

#### ❖ البعد النفسي:

ووضح ذلك بإخبار الله عنه في عدة صفات أولها:

- صادق الوعد: مخلصاً لله في دعوته وبخاصة في ابتدائه بتحمُّل مسؤولية أهله ومحاولة إنقاذهم من التهلكة والعذاب بأمرهم في التزام الصلاة والزكاة.
- مرضيٌّ عند الله تعالى، وما تستلزمه هذه الصفة من الراحة والسعادة والطمأنينة والسكينة التامة.

#### ❖ البعد الاجتماعي:

- وهو بارز في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

الذي يوضح المكانة الدينية له بالنبوة والرسالة.

ثالثاً: شخصية إدريس عليه السلام يتضح لنا فيها:

#### ❖ البعد النفسي:

في سمة الصِدِّيقِيَّة التي تحمل معاني الصدق والإخلاص والعبودية والطهارة وصفاء السريرة ونقاء النفس والعزة والشموخ، وهي سمة استحق بها أن يرفع مكاناً علياً.

#### ❖ البعد الاجتماعي:

فهو متمثل في المكانة الدينية بكونه نبياً ومرسلاً ومكانة تشريفية عالية اختلف العلماء بها، في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

وهكذا اتضحت لنا هذه الأبعاد في الشخصيات الثلاث التي رُسمت لهدف مقصود، وهو إظهار





نماذج بشرية عالية في الخلق والعبادة والإخلاص.

٤. وأما الوظيفية التي قدمتها الشخصيات في القصص فهي وظيفة فائقة في التأثير من حيث:
- تقديمها لنماذج بشرية عالية في الجودة من حيث خلقها وعبادتها وإخلاصها، فيتحقق التأثير والتأثر في نفس المتلقي للسير على نهجها، والتزام طريقها للحصول على نفس جزاءاتها وهياتها.
  - تحقق المقصد الأكبر من القصص في تدعيمها للهدف الأساس في السورة من الدعوة لعبادة الله، وامتنال أو امره ونواهيته، لنيل رحماته ونفحاته.
  - ٦. وأما لتتطابق الشروط الفنية فيها، فلقد قدم السياق القصصي نموذجاً فنياً رائعاً للإيجاز الفني والجمالي الهادف، الذي استطاع بصورة خاطفة أن يقدم الشخصيات بكل إقناع وواقعية، فعلى الرغم من خلوها من عنصر الحركة والصراع فإنه استطاع أن يبسط أبعاد الشخصيات بكل يسر وسهولة ووضوح، فتحقق بذلك الهدف والمقصد المرجو.
- وهنا تنتهي هذه النماذج البشرية الصالحة من فئة الأنبياء عليهم السلام نيتقنا السياق القصصي إلى فئة أخرى تعاكسها وتضادها.

### خامساً - الشخصية البشرية المنعزلة والمنحرفة عن الصراط السوي:

- ❖ مثل السياق القصصي الخاطف في القسم الخطابي من سورة مريم بعضاً من الشخصيات المنحرفة التي تجاوزت حدودها البشرية لتقع فيما هو محذور عبادي، ومع أول النماذج البشرية المنحرفة:
١. **الخلف الطالح الذين جاءوا بعد السلف الصالح من النبيين والملتقين، في قوله تعالى:** ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ ٥٩ حيث نجد السياق يتجاهل أسماءهم باستعمال كلمة (خلف) لتدل على الجمع التي توضح الذريات من بعدهم، والتي انحرفت عن هدى آباؤهم وأجدادهم بإضاعتهم للصلاة، واتباعهم للشهوات، فاستحقوا العذاب الأليم إلا من تاب منهم ورجع إلا الله فهو يخرج من دائرة تخبطهم وضلالهم لينال رضا الله وجنته.
٢. **صاحب القول:** ﴿ أَوَدَّا مَا مِثُّ لَسُوفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ٦١ نجد السياق القصص يتجاهل اسمه وهيئته ومكانته، ليسلط الضوء على البعد النفسي الذي نستدل عليه من استفهامه الاستهزائي الساخر بالبعث والنشور، ليدلل على ضلال هذه الشخصية، وظلمها لنفسها، وتخبطها الميرير

في متاهات العناد والجحود والكفر، واستحقاقها العذاب الأليم.

٢. **الجماعات والجماهير صاحبة القول:** ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۗ﴾ حيث نجد السياق السردي يوضِّح قصة هؤلاء النفر معنوياً من خلال الآيات، التي توضح أولئك الفئة التي صدت قلوبهم، وعميت بصائرهم عن رؤية الحقيقة، فاغتروا بأنفسهم وبحالهم من النعيم والترفع، ليتجاوزوا الحق إلى الباطل فيستهزئوا بالفئة المؤمنة التي غلب عليها الفقر وضنك الحياة، ولكن سرعان ما حل عليهم غضب الله وسخطه بالرد العنيف القاطع الذي عقب به بعد ذكر مقولتهم.

٤. وهناك نموذج بشري منحرف آخر هو الذي تعرض له السياق بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُبْرِئَ مَالًا وَّوَلَدًا ۗ﴾ حيث مثل هذا النموذج شخصية غير سوية قد بلغ منها الكفر والعناد مبلغاً طاش معها العقل واضطربت به النفس، واتبعت فيها الشهوات والملاذات بحيث استهزأت باليوم الآخر وبيوم البعث، دون مراعاة لجلال الرب وألوهيته، ولا لطبيعة بشريته الضعيفة، فتجاوزت الحد فاستحقت تمديد العذاب الأليم عليها يوم القيامة.

٥. ونجد كذلك نموذجاً للجماعات المنحرفة التي اتخذت من دون الله إلهاً آخر تعبده الذي يدل على البعد النفسي المتخبط والمتزعزع بقوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ﴾ ولكن سرعان ما سيأتيهم العقاب من الله ابتداءً بتبرؤ ما كانوا يعبدونه منهم، ووقوفهم أضداداً لهم، ومن ثم عقاب الله لهم بتسليط الشياطين عليهم، والعد لهم لارتقاب العذاب الأكبر في جهنم.

٦. الشخصيات المنحرفة الأخيرة في السورة وهم: الجماعة التي عبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ﴾ وهي كسابقاتها من الجماعات، جماعة ضالة وصلت من التجاوز والتكبر حداً جعل الله يشنع بقولهم ويطلق التهديدات والترهيبات المتتالية لأصحابها.

❖ هذه هي النماذج المنحرفة التي عميت، فضلت، فاستحقت العذاب، والعقاب في الدنيا والآخرة، ولقد كان لعرضها السريع والموجز وظيفية دلالية وفنية فائقة في الأهمية لخدمة هدف السياق القصصي القرآني الذي يتماشى مع مقاصد السورة الكريمة، وبخاصة في عناية السياق القصصي بتقديم نماذج واقعية لمن ظل عن الطريق السوي في مقابل الشخصيات السوية من عباد الله المخلصين، وما لهذه المقابلة في الشخصيات من دور وظيفي بارز في تحديد الوجهة السلمية والصحيحة في قلب وعقل المتلقي، من حيث بروز النماذج الصالحة والنماذج الطالحة، فيقارن ويختار أيهما له خير فيتبع طريقته ويمتثل منهجه.



❖ وأما فاعلية هذه الشخصيات في السياق القصصي الخاطف من حيث الوجهة الفنية، فإنها تقدم لنا نوعاً من الحركة والنشاط الذهني والنفسي، ونوعاً من الصراعات المتتابعة بين الحق والباطل، وبين الحقائق والأكاذيب التي نكاد نشعر بها في أنفاس الأشخاص وحواراتهم والردود القرآنية لعواقبهم وخواتيمهم.

وهكذا تعرفنا على مميزات الشخصيات في القصص القرآنية، ودورها الدلالي والفني في السورة، ومدى ما قدمته من تلاحم وتناسق وترابط لأهداف القصص كافة، وأهداف السورة عامة، ومن أجل المتلقي الذي يتمثل أولاً بسيد البشرية جمعاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم المتلقي لهذه القصص في كل زمان إلى قيام الساعة.

### المطلب الثالث- النسيج القصصي (السرد والوصف والحوار):

نسيج القصة هو الأداة اللغوية التي تشمل (السرد والوصف والحوار) ووظيفته خدمة الحدث، إذ يساهم في تطويره ونموه حتى يكتمل، ويأخذ شكله الدلالي والفني الذي يعبر عن الهدف أو الغرض من القصة، «والحوار والسرد يشكلان معاً الأسلوب المستخدم لإيراد الحوادث وتطويرها، وفي رسم الشخصيات في القصة الفنية، والأسلوب هو أول ما يقابل القارئ في القصة، وهنا تأتي أهميته»<sup>(١)</sup>.

فما مفهوم الحوار والسرد والوصف؟

وما مسوغاتها الفنية ووظائفها في القصص؟ وما أهم شروطها؟

وكيف وظفتها القصة القرآنية في السورة الكريمة؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المطلب.

#### أولاً - الحوار:

١. مفهومه: هو ما يدور من حديث بين الشخصيات في قصة ما<sup>(٢)</sup>.
  ٢. ووظيفته<sup>(٣)</sup>:
- يساعد على إبراز الفكرة وتوضيحها، وذلك لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها، وبالأحرى فهو يكشف عن الشخصية وعن مميزات

١- محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢١١.

٢- بتصرف، المرجع السابق، ص ٢١١.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ٢١١. مريم السباعي: القصة في القرآن الكريم، ص ١٢١. شريبط أحمد شريبط: تطور البنية الفنية في

القصة الجزائرية ص ٢٩. محمود البستاني: دراسات في علوم القرآن الكريم، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

وأسرارها الدفينة.

- يساعد على كشف الحوادث من حيث نشأتها وتطورها ونهايتها وتفصيلاتها.
  - يساعد في تجسيد المواقف وإحياء المشاعر وبعث روح الحيوية والنشاط في القصة عن طريق الشخصيات والحوادث في آن واحد، وهذا ما يفسر اعتماد الأعمال الأدبية وبخاصة المسرحية حيث تقوم هيكلتها الخارجية على المحاورة بين الشخصيات بالدرجة الأولى.
  - يخفف من رتابة السرد الطويل، الذي إن لم يحكمها القاص قد يكون مبعثاً للسأم والملل، فإذا تدخل الحوار بخفته وسرعته فإنه يجعل من النص أقرب إلى الواقع.
- ومن شروطه الفنية<sup>(١)</sup>:

- أن يكون مناسباً وموافقاً للشخصية التي يصدر عنها.
- التركيز والإيجاز والسرعة في التعبير عما في ذهن الشخصية، وهذا خاص بالقصة القصيرة أو الأقصوصة، وذلك لأن طول الحوار فيهما يضر بالبناء الفني لهما.
- وأما بالنسبة للغة الحوار فهي: الأداة التي يعتمد عليهما للتعبير عن الأفكار والآراء<sup>(٢)</sup>.

## ثانياً - السرد:

١. **مفهومه:** «التتابع وإجادة السياق»<sup>(٣)</sup> وهو: الطريقة التي يصف به الكاتب جزءاً من الحدث أو جانب من جوانب الزمان أو المكان اللذين يدور فيهما، أو يصور ملمحاً من الملامح الخارجية للشخصية<sup>(٤)</sup>.

### ٢. وظيفة السرد<sup>(٥)</sup>:

- فتمثل في كون الكاتب يستطيع أن يخبر عن الجوانب الصغيرة والدقيقة في الأحداث، فالسرد قيمة إخبارية تشع لمساحات واسعة في القصة.
- وتكمن قيمته الكبرى في أن الكاتب يستطيع من خلاله أن يقف موقف المرشد الذي يقود تفكير القارئ، وينبهم إلى القضايا التي يريد إثارتها من خلال الموقف القصصي.

١- بتصرف، شريط أحمد شريط،: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص ٢٨.

٢- المرجع السابق، ص ٢٩.

٣- شريط أحمد شريط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية، ص ٢٨.

٤- محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢١١.

٥- بتصرف، شريط أحمد شريط: تطور البنية الفنية في القصة، ص ٢١١.





- والسرد إذا اتحد مع الوصف في (سرد وصفي) فإنه يحقق إشباعاً حسياً وجمالياً في إحاطته بالشخصية أو الشيء المسرود عنه<sup>(١)</sup>.
- وكما أن الحوار ركن أساسي في المسرحية<sup>(٢)</sup>، فكذلك السرد يُعد ركناً أساسياً في الرواية، حيث به يتحقق ترابط الأحداث وتسلسلها فيها.

### ثالثاً - الوصف:

١. الوصف «في المصطلح الأدبي هو تصوير العالم الخارجي أو العالم الداخلي من خلال الألفاظ والعبارات، وتقوم فيه التشبيهات والاستعارات مقام الألوان لدى الرسام والنغم لدى الموسيقي»<sup>(٣)</sup>.
٢. ووظيفة الوصف هي: «خلق البيئة التي تجري أحداث القصة فيها، وتكوين نسيجها، ولا يحق للقصص أن يتخذ من الوصف مادة للزينة، وإنما يوظفه في تأدية دور ما في بناء الحدث»<sup>(٤)</sup>.
٣. وشرطه: أن تكون اللغة قريبة من لغة الشخصية، لكي تحقق شيئاً من المنطقية الفنية، لأن الشخصية هي التي ترى الشيء وتصفه وتتأثر به<sup>(٥)</sup>.

### رابعاً - النسيج القصصي في قصص القرآن الكريم:

في القصص القرآنية نماذج قيمة للقصص الحوارية أو السردية أو كليهما معاً، ما يدل على الإحكام الفني والإتقان الجمالي، وما يعد بحق النموذج الأمثل الذي يفوق في مقاييسه كل المقاييس الفنية البشرية، فهو ما يزال شجرة يانعة ممتدة الأفانين مهما قطفنا من ثمارها فلا تزداد إلا وفرة وتألُقاً وجمالاً.

ولا يستطيع تناولها بالدراسة أياً كان قدر ثقافته إلا أن يكون تلميذاً أمام هذا الأسلوب القصصي البديع، يقبس من دروسه وفوائده وفنياته، بشكل لا يستطيع أن يعادله أو يُلم به.

وبعد عرضي لمفاهيم ومقاييس (الحوار والسرد والوصف) في القصص البشرية سابقاً، أحاول استكشاف مميزات القرآن في تناوله للنسيج القصصي، الذي يعد المنبع الرئيس الذي تستقي منه القصص البشرية مواردها وفنيتها وأسلوبياتها في هذا المجال، وإن أغفلت بعض الدراسات الأدبية

١- ينظر: محمود البستاني، دراسات في علوم القرآن، ص ٢٥٠.

٢- ويذكر كاظم الطواهري في كتابه: (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، تعليق جميل في هذا المجال، ينظر: صفحة ٢٢١ - ٢٢٢.

٣- شربيط أحمد شربيط: تطور البنية الفنية في القصة، ص ٢٩.

٤- المرجع السابق، ص ٢٩.

٥- شربيط أحمد شربيط: تطور البنية الفنية في القصة، ص ٢٩.

والغربية هذا المنبع، باكتشافها بعض من المقاييس الفنية، وادعائها سبقها الجميع في وضعها وبلورتها، في حين أن القرآن قد سبقها منذ قرون ماضية.

ومن أهم هذه الفنيات التي تجمّلت بها قصص القرآن وارتقت بأهدافها وأساليبها من خلالها:

• دخول عنصر الوصف تحت عنصر السرد في أغلب القصص القرآنية مما يزيد قوة وجمالاً وتناسقاً، حيث يتماشى مع أهداف القصة في السور ومع العناصر الأخرى، فيقدم لنا بتلاحمه وتساقفه هندسة معمارية جمالية في قمة من الإبداع الفني والدلالي.

• إن طول القصة أو قصرها ليس هو العامل الوحيد الداعي إلى بنائها على الحوار أو السرد معاً أو إقامتها على السرد وحده، وهذا ما سنلاحظه من خلال تطبيقي على قصص سورة مريم.

• إن اعتماد القصة على أحد هذه العناصر لا يكون إلا لهدف وغاية، وهو تأصيل القيمة الدينية من القصة، التي تتنوع على حسب ما تدرج به القصص تحت السور القرآنية، كما أننا نجد القصة القرآنية أحياناً تعتمد على السرد وحده بشكل يوفي بالمعنى والمقصد دون أن يخل بالحدث أو يستغني عن عنصر قصصي ضروري في القصة، بعكس كتاب القصة البشرية الذين تنقصهم المهارة في استخدام الوسيلة اللغوية الفنية، فيأتي الحدث عندهم ناقصاً غامضاً، إذ إنه فقد عنصر التشويق والإثارة، وبالتالي يفقد القارئ اهتمامه بالقصة ويشعر وكأنه يقرأ خبراً لا أقصوصة فنية<sup>(١)</sup>.

• إن الأسلوب القصصي ليقدم لنا صورة محكمة لطريقة توزيع عنصري السرد والحوار، حيث إنه يستخدم كلا منهما في موقعهما المناسب تماماً، دون خلل أو إخلال.

• كما أنه يقدم لنا مثلاً جديراً بالمحاكاة بانتقاله من السرد إلى الحوار أو العكس، بطريقة طبيعية وسهلة بعيدة عن التكلف أو التنافر، حتى إن المتلقي قد لا يدرك هذا الانتقال إلا إذا كان واعياً يقظاً له<sup>(٢)</sup>.

• القصة القرآنية لا تصف إلا ما يدعم الحدث أو الشخصية، وتتخلّى عن كثير من التفاصيل التي لا تفيد المتلقي ولا القصة في شيء، وتكتفي بالخطوط العريضة التي تحدد ملامح الصورة، وعلى الأحداث بعد ذلك أن تكمل الملامح الباقية، أو قد تتركها للخيال ليرسمها على هدى المعالم البارزة في القصة، وهي (قاعدة فنية) تُعد من أهم القواعد القصصية التي اهتدى

١- بتصرف، محمد ديور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢١٣ - ٢١٥.

٢- بتصرف، المرجع السابق، ص ٢١٦.





إليها كتاب القصة في السنوات الأخيرة، وقد أطلقوا عليها: (الاقتصاد الفني)<sup>(١)</sup>، وأمثلتها في قصص القرآن كثيرة<sup>(٢)</sup>.

ومن الملحوظ في القصة القرآنية: «أنه حين يغلب على موضوعها الجدل والفكر وتصارع الآراء والمواقف تعتمد على الحوار أو تغلبه على الوصف والسرد، وحين يغلب على موضوعها كثرة الحركة في الزمان والمكان والشخوص فإنها تعتمد على السرد القصصي أو تُغلبه على الحوار.. وإذا كانت طبيعة الموضوع لها صلة وثيقة بأسلوب العرض في القصة القرآنية فإن اختلاف طبائع البشر من زمان إلى زمان، ومن جنس إلى جنس، واختلاف المؤثرات الأسلوبية لديهم تبعاً لذلك كل ذلك له صلة وثيقة أيضاً بتنوع أساليب العرض في القصص القرآني، لأن القرآن أنزل إلى الناس كافة، أو على الأقل أنزل إلى المؤمنين بالإسلام، وهؤلاء مختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً، وما يؤثر في جنس منهم ربما لا يؤثر في جنس آخر، وهذا بأساليب متباينة ليناسب كل الناس على اختلافهم»<sup>(٣)</sup>.

الحوار القرآني يسهم «إسهاماً فعّالاً في رسم معالم الشخصيات الإنسانية، بتعبيره عن خواطرهم وآرائهم ومواقفهم، عن طريق الحكاية عنهم، ونقل أقوالهم نقلاً أميناً لا مبالغة فيه ولا افتعال، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها، إذا كانت هذه الشخصيات من غير أهل اللسان العربي، وهذا يعني أن الإعجاز البياني للأقوال المحكية إعجاز للقرآن وليس لتلك الأقوال، فما نقله القرآن عن هؤلاء يعد ترجمة كاملة لا نقص فيها ولا زيادة، وترجمة دقيقة لا تحريف فيها ولا اختلال، لأنها من خالق اللغات سبحانه صدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾<sup>(٤)</sup>.

والميزة في الحوار القرآني أنه لا يكون مصدره الإنسان دائماً، بل يمكن أن يكون بين الله وملائكته، بين الله والإنسان، بين الله وإبليس، بين الإنسان والملائكة، بين الإنسان والحيوان.

ومن مميزات الأسلوب القصصي في حوارهِ أنه عندما يرد على لسان شخصية ما، فإنه يختلف عن الحوار الذي يرد على لسان الشخصية نفسها إذا تغير الطرف الآخر من طرف الحوار والسبب في ذلك: «أن تغير أحد طرفي الحوار يعطي للموقف القصصي أبعاداً أخرى، تتبع من

١- إن قاعدة (الاقتصاد الفني) في سرد الأحداث نهيت كتاب القصة إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أن على الكاتب أن يدع لقراءته أموراً وأحداثاً يفهمها هو بنفسه ويتخيلها، حتى يكون قارئاً مشاركاً بإيجابية في تخيله للأحداث في القصة، ينظر، محمد دبور، أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢١٥، ثروة أباطة: السرد القصصي في القرآن الكريم، دار نهضة مصر، (د، ط)، (د، ت) ص ١٠٦ - ١٠٧، فالج الربيعي: القصص القرآني، رؤية فنية، ص ٥١-٥٢-٥٣.

٢- بتصرف محمد دبور، أسس بناء القصة في القرآن الكريم ص ٢١٤، ينظر ثروة أباطة، السرد القصصي في القرآن ص ١٠٢-١٠٧. ٣ ٢٢٢ - ٢٢٣، ينظر: بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٢٢-٢٢٣.

٤- سورة النساء آية ٨٧، والفقرة مقتبسة من كلام محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢٢٣، و ينظر، التهامي نقرة: سيكلوجية القصة في القرآن، ص ٤١١.



اختلاف لون الصراع، ومدى احتدامه بين الطرفين المتحاورين»<sup>(١)</sup>.

• تعددت أنواع الحوار في القصة القرآنية<sup>(٢)</sup>:

- من حيث الأطراف: الحوار الثنائي (الديالوج الخارجي) - الحوار الجدلي - الحوار الذاتي (النجوى أو المنولوج الداخلي) - الحوار المباشر - الحوار غير المباشر).

- وأما من حيث التعبير فإن للحوار نوعين هما:

❖ الحوار التصويري لنفوس الشخصيات وعواطفها ومواقفها فيكون كالكاميرات السينمائية في أخذ الصور واللقطات القريبة والمتوسطة والبعيدة للشخصيات<sup>(٣)</sup>.

❖ الحوار الحجاجي والعقلي، المتضمن قضايا عقلية وبراهين وحججاً متقابلة.

• نلاحظ أن كل قصة يُسخر لها تقديم سردي يتقدم على الحوار ليمهد لها، ومن ثم يختم مع كل قصة بسرد مماثل يؤكد مضامين ما جاء في القصة بصورة محكمة ودقيقة، وقد تكون أحياناً خاطفة جداً تحتاج للنظر والتأمل لملاحظتها.

• كما أنه من أبرز أساليب الحوار القرآني ما يأتي<sup>(٤)</sup>:

- التقرير وهو: ما يخص بالمسلمات والبديهييات كالذي يجري بين الأنبياء وخصومهم من أعداء الأديان السماوية.

- محاولة التبرير: من قبل أعداء الدين ليلتمسوا لأنفسهم أذاراً في إبقائهم على دينهم.

- الازدراء والاستخفاف: في الجمل الحوارية التي تتم عن الإساءة إلى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، والحط من منزلته أمام قومه.

- الوعد والوعيد: الذي قصد به بث الرعب في قلب الرسول وأتباعه، وصرفهم عن الدعوة.

والآن نصل إلى محاولة تطبيق بعض تلك الميزات الفنية للنسيج القصصي المتمثلة في الحوار والسرد والوصف، في دراستنا لقصص سورة مريم، بما وفر لي من أدوات وآليات فنية، لعلني ألم ببعض جماليات هذه القصص.

١- محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢٣٥.

٢- محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور، ص ١٥٩.

٣- ينظر، فالح الربيعي: القصص القرآني، رؤية فنية، ص ٤٩.

٤- ينظر، التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤١٨-٤١٩.





## خامسا - النسيج القصصي في سورة مريم:

نجد الحوار في قصص السورة الكريمة يشغل حيزاً واسعاً يجعله جديراً بالانتباه وتفصيل القول فيه، حيث إنه يمثل العمود الفقري للسورة، فهو يشكل أكثر من ثلثي آياتها، حيث بلغت عدد الآيات الحوارية (اثنتين وسبعين) آية حوارية تقريبا من مجموع (ثمان وتسعين) آية ضمنها السورة.

ففي القسم القصصي الأول بلغت (أربعا وخمسين) آية، وفي القسم الثاني الخطابي بلغت الآيات الحوارية (ثمان عشرة) آية، (عشر) منها خطاب من الله تعالى للنبي محمد عليه السلام، و(اثنتان) من جبريل للنبي محمد عليه السلام، أما الباقيات فهي (ست) آيات على لسان المعاندين المشركين فرداً وجماعة، وجميعها تدور حول (تثبيت الوجدانية لله وحده، ورحماته لمن التزم بها، وعذابه لمن حاد عنها)، وهي القضية الكبرى التي سُخِّر لها جميع العناصر القصصية<sup>(١)</sup>.

وفي السورة أجد نوعين من الحوار هما:

### ١. الحوار الأول (الخطاب الإلهي):

وهو حوار خطابي عام من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللائتته وللصالحين والمعاندين، يتغلغل في هيكلية وعضوية السورة الكريمة من مفتحتها إلى مختتمها، وهو ما أطلق عليه (الحوار السردى): إذ إن معناه هو «مخاطبة أحد الطرفين للطرف الآخر، فيستمع الثاني ولا يجيب، أدباً وخشوعاً أو طاعة أو انقطاعاً أو غير ذلك...»<sup>(٢)</sup>.

- وهذا واضح من خلال الخطاب في بداية كل قصة من القصص الست في القسم الأول في قوله تعالى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقَ نَبِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِذْ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٦)</sup> وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٧)</sup> وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ نَبِيًّا﴾<sup>(٨)</sup> فجاء الخطاب ليسلي الرسول صلى الله عليه وسلم ويثبته ويعلمه هو ومن معه، إلى جانب أنه جاء للتعريض بنقيضهم من المعاندين والمشركين والكافرين.

- كما أننا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خوطب ثمان مرات في القسم الثاني من الآيات: (٦٨ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٨٢ - ٨٤ - ٩٧ - ٩٨)، حيث لا يقصد منها شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بقدر ما يقصد منه إشهاده على تخرصات المعاندين والمفتريين

١- بتصريف، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء الكهف مريم طه)، ص ١٥٧.

٢- المرجع السابق، ص ١٥٩.

والمشركين في الدنيا، وكما أن الله تعالى يبسط لهم الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على تخبطاتهم، يسرد ويصف لهم عقوباتهم الزاجرة ومآلاتهم الصعبة في الدنيا والآخرة لعلمهم ينتهون أو يهتدون<sup>(١)</sup>.

- يضاف إلى القسم الثاني كذلك ما جاء على لسان جبريل عليه السلام خطاباً للنبي الكريم عليه السلام، ورداً على المشركين في الوقت نفسه الذي يطالبون فيه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بدلالات واضحة على صدق نبوته بقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤ ﴾ فيقول جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم تلقيناً وتعليماً له في الرد على هؤلاء المعاندين، «إن تنزيل الملائكة ليس بهوى المعاندين، إنما بقرار من الله تعالى ولحكمة منه، كما أن الإيمان بالله رب السموات والأرض ومن فيهن لا يحتاج لإنزال الملائكة على المعاندين، وبالشكل الذي يشتهون، بل إن الإيمان توجد براهينه في السموات والأرض، وفي أسماء الله الحسنى، التي لا يشاركه فيها ولا في مدلولها أحد من خلقه»<sup>(٢)</sup>.

### دور الحوار (الخطاب):

- وبالنظر للخطاب في القسم الأول والقسم الثاني فإنني أجد دور الخطاب والحوار الإلهي العظيم في تقوية التلاحم والتوائم بين القسمين تلاحماً وتواؤماً دلالياً وفتياً محكماً، (فالدلالي) هو: المتمثل في تحقق الوحدة الموضوعية والعضوية في ترابط السورة الكريمة، التي برزت في خطاب شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبيان واقعه في معركة الإيمان ضد الكفر والشرك في العهد المكي، فتكون السورة له تسلية ومؤانسة وطمأنينة وتبشيراً بانتصاره القريب وهزيمته على المعاندين والمشركين في مآل الأمر.

و(الفتي) هو: المتمثل في دور الخطاب والحوار في تحريك الأحداث، وتصوير الشخصيات، وتمثيل الصراعات، وإظهار الأهداف والمقاصد من القصص، وبهذا الدور الوظيفي الكبير يسهم الخطاب الحوارية في عمارة القصص من جانب، وعمارة السورة الكريمة من جانب آخر.

- كما أن للخطاب هنا قدره على الكشف عن (قصة كبرى) تمثلها سورة مريم وأغلب السور القرآنية، وهي تلك القصة التي تمثل صراع الأنبياء والمؤمنين والصالحين مع المشركين والمنكرين والمعاندين منذ بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، من أجل الدعوة إلى عبودية الله تعالى وتوحيده وتنزيهه عن الصاحبة والولد، والدعوة لنيل رحمات الله ونفحاته، والحصول على الخير والتوفيق الدنيوي، ومن بعدها السعادة الأبدية في الجنة يوم القيامة.

١- بتصرف، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء الكهف مريم طه)، ص ١٦٠.

٢- المرجع السابق، ص ١٦١-١٦٢.





في (صورة متقابلة) لأحداث أولئك الأشخاص الذين ضلوا وزلوا عن الطريق الصواب فعوقبوا بالعذاب الدنيوي، ومن بعدها العذاب الأبدي في نار جهنم.

فيتحقق بهذا الخطاب الإلهي القدرة على بلورة هذه القصة العظمى التي مثلتها جميع الرسائل السماوية كلاً على طريقتها، محققاً بالخطاب الغرض والهدف الدلالي والفني السامي في القرآن، ومستنبطاً منها تلك الفنيات القصصية من حضور (للحدث والشخصيات والحوار والسرد والوصف والصراع والزمان والمكان) بشكل يوائم ويلاحم بين الحياتين الدنيوية والأخروية تحت مُلك إله واحد، هو خالقهما ومدبرهما ومالكهما بعد فنائهما وفناء كل شيء لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأِنَّ ۖ وَيَبْعَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ۗ﴾ (٢٧).<sup>(١)</sup>

## ثانياً - الحوار الثاني:

و هو حوار قصصي خاص يندرج داخل القصص، فيتكاتف مع غيره من العناصر القصصية لتغليف القصص دلاليًا وفنيًا بشكل متناسق ومتلاحم بينها، ومن ثم تتحقق المعمارية البنائية لها، ومن أهم سماته في القصص:

أنه اعتمد على الحكاية من خلال نقل معلومات القائلين على أسنتهم بكل تلقائية وطبيعية وبدون تكلف ولا تصنع في الأحداث أو الأقوال.

- جاء مختصراً للأحداث، إذ عرضها عرضاً سريعاً طويت من خلاله المواقف والمشاهد والتفاصيل بالاعتماد على اللمحة والإشارة، فكثرت في القصص الفجوات والفراغات الفنية التي لا يستدعيها المقام لعدم الحاجة إليها كما وضعنا ذلك سابقاً.
- و سأحاول معالجة النسيج القصصي كلا على حده، مدرجة الوصف تحت عنصر السرد باعتباره جزءاً منه، وصورة من صورته في الإخبار والإعلام على وفق منهجي في معالجة هذا المطلب.

## ١. النسيج القصصي لقصتي زكريا ويحيى عليهما السلام:

- بدأت القصة بأسلوب سردي تمهيدي يحمل أهم مغزى تشير له القصة وهي رحمة الله لعباده المتقين بقوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۗ﴾، ليرتد بعدها الأسلوب السردى لوصف موقف زكريا عليه السلام، وكيفية مثوله أمام ربه في حالة من الخضوع والأدب والحياء داعياً إياه بعيداً عن أعين الناس بقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۗ﴾ (٢).

بعدها وبسلاسة ويُسرّ ينتقل السياق من السرد إلى الحوار الثنائي ليخرج زكريا عليه السلام لنا مكنونات تلك النفس الراحية ربها عز وجل، فبيث لنا من خلال دعائه نجواه وهمه وحزنه قائلاً تلك الكلمات التي نتلمس عمقها وأثرها في شغاف قلوبنا وأعماق نفوسنا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ سَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴾ فجاء الحوار هنا حواراً تصويرياً في عبارات موجزة ومركزة تصور حالته النفسية والجسدية والاجتماعية، وبشكل فني بديع جُمع فيه أسلوب النداء الذي حذف أداته، الذي أشعرنا بشدة قربه ومناجاته لربه، والتأكيدات اللفظية والمعنوية إضافة للأفعال الماضية التي تزيد من إثبات حقيقة وضعه وحاله، إلى جانب تلك (الصورة الاستعارية)<sup>(١)</sup> البليغة التي أضفت على الحوار أسلوباً جمالياً وفتياً بديعاً، قدمت دوراً وظيفياً مهماً لبيان حالة زكريا عليه السلام ووضع، والتأثير في المتلقين بشكل يأسر قلوبهم ويؤثر على عقولهم.

وسرعان ما جاء زكريا عليه السلام الرد بالحوار كاشفاً عن البشارة المعجزة بهبة الغلام الرضي، التي أردفها النبي الكريم بالتساؤل التعجبي عن كيفية الحدوث مع عدم توفر أسبابه، وسرعان ما يكشف الحوار عن حقيقة الأمر ويجيب الملك بقوله: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ ﴾ ليرتفع الحوار بعدها إلى قمة الهدف والمغزى الذي تدور حوله القصة.

ثم تساق بالحوار الدلائل المؤكدة على هذه البشارة بطلب دلالات الحمل كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ الْأَنْتَ الْأَنْتَ الْنَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١١ ﴾ وهكذا يسير الحوار بسهولة ويسر متماشياً مع طبيعية النفوس المندهشة، ومتساقفاً مع الأحداث، ومتجاوزاً بعض المواقف والمشاهد، وموجداً نوعاً من الفراغات الفنية التي لا يتطرق الحوار للخوض فيها لعدم أهميتها الوظيفية في القصة.

وسرعان ما يُقطع هذا الحوار بـ (جملة سردية) موضحة حال زكريا عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ ﴾، لتسهّم هذه الجملة في الانتقال من قصة زكريا عليه السلام إلى قصة أخرى متصلة بها.

كما أن القصة الثانية قد تعد نمواً حوارياً تصاعدياً لبدائيات الحدث من ذكر الرحمة وبيان آثارها ونتائجها، فيرجع السياق القصصي بالمحاور مرة أخرى من طرف واحد من الذات الإلهية إلى يحيى عليه السلام، بنداؤه الذي نتلمس فيه الأمر والتكليف المغلف بالنعمة والهيئة في قوله تعالى: ﴿ يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ١٢ ﴾، فيثير الحوار بذلك انتباهنا إلى حقيقة هذه الأمور، ومعاني هذه الألفاظ، التي تخدم أهداف القصة دلاليًا وفتياً.

١- سنتناولها بالتفصيل في مطلب الأدوات التصويرية في المبحث القادم إن شاء الله..



- وسرعان ما تتقضي الجملة الحوارية (المغلظة بالنداء والأمر) لينتقل السياق إلى الوصف السردى، فيصف لنا سمات سيدنا يحيى عليه السلام وآثار رحمة الله عليه، فتساوق الجملة السردية والحوارية مع الجمل السردية والحوارية السابقة في طلب زكريا عليه السلام رحمة الله بأن يمنحه الولد الرضى، ويستمر السياق السردى بخطاب القول من الله تعالى في ذكر الصفات والعطايا ليحيى عليه السلام، والتي عبّر عنها بالأفعال الماضية تأكيداً للزومها ووقوعها بقوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ ۝ ﴾
  - ومن ثم تختتم القستين المتداخلتين بالجملة السردية متوافقة مع الجملة السردية التي افتتحت بها القصة الأولى فيقول الله تعالى: ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥ ۝ ﴾
- وهكذا استطاع السياق القصصي أن يسخر الحوار والسرد وما اندرج فيهما من تصوير في خدمة أهداف القصة من (بيان رحمة الله تعالى لعباده الموحدين، وآثار نفعاته عليهم).

## ٢. النسيج القصصي في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:

### الحوار في المشهد الأول:

- بدأت القصة بخطاب الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بذكر قصة مريم عليها السلام وحالتها، مفتتحاً دخوله القصة بسرد روائي بارز لبعض الأحداث والسمات وهي: (اعتزال مريم عليها السلام ديار الأهل - جعلت بينها وبينهم حجاب - وحيدة فريدة - وفجأة يخرج لها شاب سوي فتفاجأ وترتعد من وجوده).
- ومن ثم ينتقل السياق القصصي من السرد إلى الحوار الثنائي<sup>(١)</sup> للحاجة إليه في هذا الموقع بحيث لا يمكن أن يستبدل بأي وسيلة أخرى للعرض، فيتم الانتقال طبيعياً، وكأننا نسير في طريق ممهدة قد سخرت له جميع الأساليب والكلمات والخلفيات ليكون ذا هدف واحد وغاية واحدة، فابتدأت مريم عليها السلام حوارها مذعورة من سبب مجيء هذا الشاب إليها، مستثيرة في نفسه التقوى ورقابة الله، بما اعتمدت عليه في قولها من التأكيد ب (أن وصيفة الشرط) وكذلك مجيء (فعل الكون) الدال على استقرار التقوى فيه لوعظه وتذكيره<sup>(٢)</sup> بقولها: ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ١٨ ۝ ﴾
- ولكن سرعان ما يرد عليها الملك بالرد المطمئن الذي يدل على حسن نيته، وأنه ملك من الله تعالى، جاء إليها ليهب لها غلاماً زكياً كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا

١- منهم من عدّه حواراً جدلياً لأن تعجبها من كيفية تحقق الحمل دون زواج أو بغاء كان فيه نوع من الجدل الابتدائي للموقف، ينظر، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور، ص ١٦٢.

٢- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتشوير، ج ١٦، ص ٨١.

زَكِيًّا ﴿١١﴾ فتأتي جملة الحوار هنا لتقدم دوراً دلاليًا وفنيًا بارزاً، حيث يكشف عن الحدث المعجزة على لسان جبريل عليه السلام في كل سهولة ويسر، وفي صراحة دون غموض بقوله: (لأهب لك غلاماً زكياً).

ومن بعد هذه المصارحة تردُّ عليه مدافعة عن عرضها في صراحة بقولها: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي شَيْءٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٢﴾ فيجيبها بالحقيقة الساطعة: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١٣﴾ وبهذا الحوار أنهى جبريل عليه السلام بكلماته القاطعة الدالة على المعنى الأساس في القصة كل تردد أو تشكك، من حيث بيان قدرة الله التي بها يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، دون أن يردُّه أو يعجزه شيء.

وهكذا لاحظنا مدى قدرة الحوار في هذا المشهد الأول على كشف الأبعاد النفسية لمريم عليها السلام، ومدى قدرته على إثارة النفوس لأجواء ذلك الموقف بهزته التأثيرية القوية، كما أننا ندرك مدى قدرة الحوار على الانسجام مع تنامي وتطور الحدث والشخصيات في القصة، وهذا ما سنلاحظه في الانتقال إلى المشهد الثاني<sup>(١)</sup>.

## الحوار في المشهد الثاني:

يوجد في المشهد الثاني ازدواجية بين الحوار والسرد في غاية من الجمال بقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ حيث ابتدأ المشهد بالسرد مفتتحاً انطلاقته بأكبر أمر كان يرعد مريم عليها السلام ويأزمها وهو (الحمل) متجاوزاً السياق السردى فجوات وفراغات كثيرة لا نعلم منها غير ما سُرد في سرعة من توالي الأحداث والمواقف معتمداً على (الفاءات التعقيبية) التي تفيد الترتيب السريع دون إبطاء.

فينتقل الأسلوب بعدها من السرد إلى الحوار نقلة لطيفة سهلة ومتلاحقة وذلك بالحديث الذي يطلق عليه (حوار النجوى أو مخاطبة النفس أو الذات)<sup>(٢)</sup>، لتوجز السيدة مريم عليها السلام جميع معاناتها النفسية والجسدية في جملة واحدة قائلة: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ معبرة عن شدة المحنة، فيرسم لنا هنا حالها النفسي والجسدي الذي بلغ مبلغاً كبيراً.

وسرعان ما تلد فيتحول الحوار من الحوار النفسي إلى الحوار الثنائي فيناديها من تحتها مناد بأن الله قد جعل تحتها سرياً لتشرب منه، كما أمرها بهز جذع النخلة فيتساقط عليها الرطب الجني لتأكل منه، وتريح نفسها وجسدها من وطأة ما مرت به، فيقدم السرد والحوار

١- بتصريف، محمد ديور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢١٧.

٢- ينظر، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية لأربع سور (الإسراء الكهف مريم طه) ن ص ١٦٣.





هنا (دلالة مضمونية) لمعجزة لم يشهدها البشر، وتجيء في السياق القصصي بشكل لا تحتاج إلى ضجيج حولها، لأنها وحدها تحمل الضجيج والمفاجأة، ويكتفي السياق القرآني بذكر شيء واحد، هو أن مريم عليها السلام بعد حالة الهلع والخوف والألم تطمئن وتهدأ وتطيع من ناداها من تحتها وينتهي المشهد الثاني بهذا.

### الحوار في المشهد الثالث:

ويبدأ المشهد الثالث بجملة سردية يفتح بها، وجملة أخرى يختم بها، مع وجود الجمل الحوارية في وسطهما، لتقدم جميعها دلالات وظيفية لها أبعاد فنية قيمة في هذا الموقع.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ جملة سردية ابتدأ المشهد بها، لتهدأ الجو وتوضح حالة مريم من اليقين والطمأنينة، حيث حملت الوليد إلى قومها بنفسها، فبمجرد أن رأوها حتى أطلقوا عليها الأسئلة الحوارية المتلاحقة، ذات العتاب والاستفهام والاستكار موضحين طهارتها وطهارة أسرتها.

فينتقل الحوار من الثنائية السابقة مع الملك إلى الحوار الجدلي الجماعي مع القوم، ولكنه الآن هو حوار غير مباشر، باعتمادها في الرد على الإشارة إلى الوليد لينوب عنها في الكلام، ففهموا إشارتها فردوا عليها بقولهم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢١)

ولكن سرعان ما دخل طرف متحاور ثالث برِدٍ غير منتظر من القوم لينوب بدلاً عن والدته المتهمه، «ومن الإعجاز ومن البيان الساحر تساؤل قوم مريم في آية واحدة عن محاوره (الصبي)، فيجيبهم هذا (الصبي) بأربع آيات على تساؤلهم، ويزيدهم معلومات حول مهمته النبوية، وبره بوالدته أيضاً، إلماحاً إلى حاجتها للبر والرعاية بسبب المسئولية الصعبة التي أسندها الله تعالى إليها، وهي أنثى ضعيفة عذراء»<sup>(١)</sup>.

ومن ثم فإن هذا الرد في الحوار غير المنتظر يقدم وظيفة دلالية عظيمة حيث يحمل في طياته «جزءاً من أصول العقيدة الصحيحة في جوانبها المتعددة من عبادات ومعاملات واجتماعيات تحكم الناس فيما بينهم»<sup>(٢)</sup>.

ويأتي التعليق الختامي للقصة الذي نعهده منها وإن لم يلتزم بمكانها وزمانها، مُقدِّماً لنا (سردية ختامية تعقيبية) تنفي كل ما أثير حول القصة من شبهات وافتراءات، لتقدم لنا وظيفة فنياً ختامية مبدعة لها أثرها العميق في استيعاب المتلقي أيّاً كانت ثقافته، وصكها بتوقيع ختامي موجز ومعجز.

١- ينظر، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية لأربع سور (الإسراء الكهف مريم طه)، ص ١٦٥ - ١٦٧.

٢- محمد دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، ص ٢٢١.



### ٣. النسيج القصصي في قصة إبراهيم عليه السلام:

• بدأت قصة إبراهيم عليه السلام (بخطاب الأمر) لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ممتزجاً بسرد لطيف وخاطف للحوار الثنائي المباشر بين إبراهيم عليه السلام ووالده بقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) ﴿

• فيبرز لنا ذلك (الحوار الجدلي) الذي يستخدمه القرآن دائماً في تصوير نوع من الصراعات والمواقف بين الخصومة من أعداء الدين وبين الأنبياء والصالحين، ليقدم وظيفية دلالية وفنية شديدة في الخطورة حيث يكشف بواسطته الحجج والبراهين المنطقية لدحض الافتراءات والأدلة الباطلة.

• فنجد تلك المحاوراة التي تمثل صراعاً حقيقياً يمثل العداوة من طرف واحد من ذلك الأب المعاند، حيث كان إبراهيم عليه السلام حذراً في أسلوبه معه، لأنه يعيش في مجتمع يعطي للأبوة قيمة كبيرة ترقى إلى درجة القداسة، وتلزم الأبناء بالخضوع المطلق لأبائهم... فلم يلجأ إلى استخدام أي عنصر من عناصر الإثارة التي قد تتناول الذات بالتجريح أو التبكيت، بل حاول أن يشحن أسلوبه في الحوار بالعاطفة<sup>(١)</sup> فتأدى والده بندايات أربع حانية وهادئة مشفوعة بالحجج المنطقية مرة، والترغيب والترهيب مرة أخرى، لعله يحرك وجدانه ويجذبه إليه، فيستطيع بذلك هدايته إلى الطريق القويم.

• وبذلك نجد التنامي في الحوار بالعرض التدريجي<sup>(٢)</sup> حيث «قدم أولاً الحجج العقلية مع نداء النبوة بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢) ﴿ ثم نثى بالعلم الذي جاءت به النبوة تعزيزاً للحجاج العقلي بقوله تعالى على لسانه: ﴿يَتَّبِعْتَنِي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْوَعْدِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٣) ﴿ ثم انتقل إلى التحذير من الانجرار إلى عبادة الشيطان العاصي لربه بقوله تعالى على لسانه: ﴿يَتَّبِعْتَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٤) ﴿ واستكمل التحذير بالترهيب الشفوق عليه بقوله تعالى على لسانه: ﴿يَتَّبِعْتَنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٥) ﴿ ولكن ما كان رد الوالد المعاند المشرك إلا عنفاً مع عنف بقوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمِنَّا وَأَهْجُرْنَا مِلًّا﴾ (٤٦) ﴿ ف «انطلاقاً من الشعور بالسلطة الأبوية التي تسمح للأب بالضغط على الابن، ليسير على خطى أبيه.. فلا حوار في علاقتهما، إنما أمر وطاعة، فلأب أن يعلن عن رغبته، وللابن أن ينفذ دون تردد أو تكبير»<sup>(٣)</sup>.

١- محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، دار الملاك، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ط٦، ص ٢٦٢.

٢- ينظر محمد الحسنوي: دراسة جمالية بيانية لأربع سور (الإسراء الكهف مريم طه) ص ١٧٠-١٧١.

٣- محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٤.





• وهذا الأسلوب الحوارى الذى يشع عاطفة وليناً ليس معناه الانجراف عن العقيدة والدين وعن المهمة الرئيسة للداعى، بل ينسجم مع الأجواء الحوارية فى القصة فى تخطيط منظم ومدرس له، حيث تعتبر العاطفة جزءاً منه، فيخضع لما تخضع له الخطة من مرونة ووعي<sup>(١)</sup>.

• وبعد تلك المحاوره الجدلية يرجعنا السياق القصصى للسرد الربانى ببيان أحداث مختصرة وموجزة قد طوي بها المكان والزمان والأحداث بصورة بديعة، ليدخلنا فى بيان لرحمات الله من هبة الأنبياء الصالحين للأنبياء والرحمة بلسان الصدق بين الناس، ونيل الرحمة الواسعة فى الدنيا والآخرة، وبهذا تختتم القصة بسرد موجز يدل دلالة عميقة على أهم أمر فيها.

#### ٤. النسيج القصصى فى قصص الأنبياء الثلاثة (موسى وإسماعيل وإدريس) عليهم السلام:

• تميز النسيج القصصى فى هذه القصص الثلاث باعتماده على (السرد المختزل والمكتنز) ليوضح دلالات معينة هي الأهم والأجدر بالتنبيه عليها، كونها دلالات مؤكدة على أهداف القصص السابقة، فتتلاحم بسرديتها من حيث التركيز المعنوي من خلال الجمل الموجزة مع مضامين القصص عامة لتخدم المقصود الذى تدور حوله السورة الكريمة.

• فتبدأ القصص الثلاث بالخطاب الموجه للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، بذكر قصص هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأخذ العبرة والعظة، وبعدها يبدأ السرد المؤكد بأدوات التوكيد والفعل الماضى.

• فمثلاً قصة موسى عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّبْتُهُ بِحَيَاتٍ ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ يؤكد الله تعالى على صفات النبى من الإخلاص والنبوة ب (بأداة التوكيد إنّ و الفعل الماضى: كان - نادينا - قربناه - ووهبنا) لتقدم جمعيتها الدلالة التى تحوم عليها القصة من عبادة الله الخالصة له وحده التى تقود إلى رحماته وهباته.

• وقصة إسماعيل عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾ ينطلق فيها السرد كذلك معتمداً على التأكيد ب (أداة التوكيد إنّ والفعل الماضى (كان) مبيناً سمات النبى الكريم، وأعماله التى دلت على الإخلاص التام فى الدعوة، وهذا ما اتضح لنا من دعوته لأهله، وأمرهم بالصلاة والزكاة والاصطبار عليها.

١- بتصرف، محمد حسين فضل الله: الحوار فى القرآن، ص٢٦٤.

- وقصة إدريس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٥﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٦﴾ يتركز السرد فيها بشكل مختصر جداً ليقدم لنا صفات إدريس عليه السلام من الصِّدِّيقِيَّةِ والنُّبُوَّةِ، ومكافأته بالمكان العلي العظيم عند الله عز وجل.

وبهذا يتضح لنا النسيج القصصي في هذه القصص الذي اعتمد بالدرجة الكبرى على السرد المنطوي على الوصف، الذي استطاع أن يقدم لنا دور معاضداً غيره من العناصر القصصية لخدمة مقاصد السورة وأهدافها.

## ٥. النسيج القصصي في قصص المعاندين من المشركين والكافرين:

هذه القصص ذات الاختزال المعنوي المركز نجدها تعتمد على عدة طرق للتعبير عنها هي:

- أ- الحوار غير المباشر وهو الحوار المعدول عن الجواب المواجه إلى صيغة غير مواجهة، كالأجوبة التي ساقها القرآن جواباً من الله تعالى للمعاندين بحجة أو بتهديد أو ما شاكل، من غير طريق الحوار المباشر المعروف<sup>(١)</sup>، وهو كذلك حوار حجائي عقلي واضح، اتضح وجوده لدينا في السورة الكريمة في ثلاثة مواضع<sup>(٢)</sup>:

- الموضوع الأول في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ إِذْ مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦﴾ فيكون الجواب عليه غير مباشر بقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ٦٧﴾ بالتذكير له في أصل نشأته لعله ينتبه ويتذكر.

- الموضوع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾ فكان الجواب غير مباشر عليه بقوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ٧٤﴾ لأن هذا الرد الأنسب للارتعاد والتخويف بسوء الخاتمة.

- الموضوع الثالث في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ٧٧﴾ فكان جوابه غير مباشر بقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اخْتَدَعَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٧٨﴾ لبيان قصور وضعف هؤلاء الأشخاص عن معرفة الغيب الذي لا يدركه أحد.

وفي هذه المواضع الثلاثة يقدم لنا السياق القصصي فيها جملة القول واضحة جلية في أسئلة استنكارية، محملة بالسخرية والغرور من قبل هؤلاء المعاندين فيرد الله عليهم في أجوبة مشحونة بالاستخفاف والاحتقار والوعد والوعيد من سوء عاقبتهم.

١- بتصريف، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور، ص ١٦٤-١٦٥.

٢- بتصريف، المرجع السابق، ص ١٧٣-١٧٤.





ب- كما أننا نجد حوارا مباشرا من قبل الله تعالى لهؤلاء المعاندين المفتريين على الله كذبا بقوله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ ﴾ (٨٨) فيرد الله عليهم مشنعا قولهم: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ ﴾ (٨٩) نَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ لتتضح صورة هذا الرد العنيف والقوي الذي يتناسب مع عظمة الافتراء « حيث إن التصوير بارتجاف السموات والأرض وانهداد الجبال....، يوظف من أجل التأثير العاطفي والنفسي من باب تفضيع الدعوى، والترهيب لقاتليها»<sup>(١)</sup>.

ج- إلى جانب وجود السرد التوبيخي في فريقين ذكرتهم السورة الكريمة هما:

• الخلف الضال عن الطريق المستقيم في قوله تعالى: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾

• المشركون بالله سبحانه في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

وأخيرا أختتم معالجتى للنسيج القصصي في سورة مريم، الذي تجلى بوظيفته الدلالية والجمالية العجيبة في بناء القصص القرآنية التي قد لا نجد لها في أي قصص بشرية أخرى.

## المطلب الرابع: أوعية الحدث (الزمان والمكان)

### أولاً- الزمان:

القصة المحكمة السبك هي التي تمسك بالخيوط الزمنية بكل أطرافها، وبخاصة في القصص الواقعية، حيث إن انفلاتها لعنصر الزمن يفقدها الترابط الداخلي، الذي يشترط في كل قصة ناجحة<sup>(٢)</sup>.

ولكن الزمن في القصص القرآني له شأن آخر<sup>(٣)</sup>:

• عنصر الزمن «يحظى بأهمية كبرى في القرآن الكريم، فلقد أسم الله الخالق سبحانه بعنصر الزمن في كثير من الآيات لفتاً منه للأذهان إلى حيوية وأهمية هذا العنصر في الحياة، ودوره الفاعل الرئيسي في تنظيم هذه الحياة إذا ما استغل استغلالاً صحيحاً سليماً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالصُّحُفِ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾، ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾، ﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾

١- ينظر، محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية لأربع سور (الإسراء الكهف مريم طه)، ص: ١٧٤.

٢- بتصرف، سليمان الطروانة: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص: ٢٢٣.

٣- بتصرف، المرجع السابق، ص: ٢٢٣ - ٢٢٤، وينظر، يوسف حسن نوفل: جماليات القصة القرآنية، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٤هـ.

٢٠٠٣م، ط١، ص: ١٢٢-١٢٦.

- فاهتمام السياق القرآني لعنصر الزمن داخل القصة متفاوت، إذ بعض القصص تحتفي به احتفاءً كبيراً، لأهميته في تحريك الأحداث ورسم الصورة المعطاة، كما في قصة (يوسف عليه السلام).
- والبعض الآخر من القصص قد يختفي في السياق، لعدم الحاجة إلى ذكره إذ إنه لا يزيد وجوده قيمة للهدف المقصود.
- والقصص القرآنية كذلك منها ما يستخدم الزمن تصريحاً، ومنها ما يستخدمه تلميحاً على حسب السياق وإيجاز القصة.
- كذلك الزمن في القصص القرآنية ماضٍ مطلقاً، ولكنه مائل بعبرته وعظاته متجدد مع كل زمن.
- وكذلك نجده يسهم في «إغناء مضامين القصص القرآني وشحنه بالمدلولات والإيحاءات الذهنية والنفسية التي من شأنها أن تترك الأثر المطلوب في ذهن القارئ للقرآن الكريم»<sup>(٢)</sup>.
- كذلك نجد العرض القصصي قد لا يلتزم بالتسلسل الزمني في ترتيب القصص، لأن الهدف القرآني من ذكر القصص ليس هدفاً تاريخياً بل دينياً بالدرجة الأولى، فنجد مرة يوافق التاريخ ومرة غير ملتزم به.
- و«الزمان بشكل عام يسير في القصص القرآني على الوجه الطبيعي، إذ يتحرك إلى الأمام غالباً، وكل قصة قرآنية هي مثال على تلك الزمانية المستقيمة في تدفقها، إلا ما ندر حيث نرى بعض التداخلات الزمنية أو دوران القصة في نسبة ضئيلة من القصص القرآنية»<sup>(٣)</sup>.

## ثانياً - المكان:

فالمكان هو بيئة الحدث المادية في أي قصة، «والقرآن الكريم ينظر إلى المكان في قصصه على هذا الاعتبار أو قريب منه، فهو لا يلتفت إلى المكان ولا يجري له ذكراً إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الأحداث أو يبرز ملامحها، أو يُقيم شواهد العبرة والعظة منها»<sup>(٤)</sup>.

١- فالح الربيعي: القصص القرآني، رؤية فنية، ص ٥٤.

٢- فالح الربيعي: القصص القرآني، رؤية فنية، ص ٥٩.

٣- سليمان الطروانة: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ٢٣٥.

٤- الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٩٢، ينظر، مريم السباعي: القصة في القرآن الكريم، ص ١٣٥. ينظر،

سليمان الطروانة: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ٢٤٧.



كما أن إيراد المكان في القرآن الكريم يختلف من مكان لآخر طولاً وقصراً وإجمالاً وتفصيلاً، ولذلك يأتي في القرآن على عدة صور<sup>(١)</sup>:

- قد يذكر اسم صاحب القصة مضافاً إلى مكانه كأصحاب الرس دون عرض للقصة.
  - قد يذكر المكان بصفته مثل قوله تعالى: «ربوة ذات قرار معين».
  - قد تذكر القصة دون إشارة إلى المكان مثل قصة إدريس عليه السلام في سورة مريم.
  - قد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف كالمسجد الأقصى والمسجد الحرام.
  - وقد يذكر الاسم العلم ولكن يختلف في تحديد موقعه كالجودي: جبل نوح.
- وبذلك يأتي المكان ليخدم غاية معينة ينتفي وجوده بانعدام هذه الخدمة.

### ثالثاً: الزمان والمكان في قصص سورة مريم.

#### ١. الزمان والمكان في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام:

##### أ- الزمن:

سار الزمن في القصة مترتباً متسلسلاً ومتتابعاً، منذ الحدث الأول وهو دعاء زكريا عليه السلام، وحتى النذر بالصوم عن الكلام والتسبيح، موضعاً أحداثاً قد مضت وسلفت منها (دعاء زكريا عليه السلام ومن ثم المخاوف التي اعترته وأخذت فترة تتنابه، إلى جانب الإشارة إلى انقضاء العمر حتى جاءت البشارة بالفلام الرضي، فمن خلال تلك الأحداث نستشف عنصر الزمن فيها من خلال ظهوره مرة واختفائه مرة أخرى، فمثلاً نلاحظ:

- تجاهل تلك المرحلة الزمنية ومقدارها التي دعا فيها زكريا عليه السلام.
- الإشارة إلى الزمن الختامي تلميحاً بقول زكريا (وقد بلغت من الكبر عتياً) ليدلل على انقضاء العمر وتسارع السنون وهو وحيدٌ فريدٌ.
- كذلك نلمح ذلك الوقت الذي كان فيه زكريا عليه السلام يتعبد ربه في (المحراب) فأنته البشارة باستجابة الدعاء والرزق بالفلام الرضي.
- وبعدها نجد ذلك التحديد الزمني الصريح بتحديد الله تعالى لزكريا عليه السلام فترة زمنية يمتنع خلالها عن الكلام، بعدما طلب آية وعلامة تدل على حمل زوجته بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ

١- بتصرف، مريم السباعي: القصة في القرآن الكريم، ص ١٢٧.

أَجْعَلْ لِيْءَابَةً قَالَ ءَابَتُكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ وكذلك الأمر الإلهي بالتسبيح (بكرة وعشيا) بقوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ﴿١١﴾ لتدل على أهمية هذين الوقتين وقيمتيهما الدينية في حياة المسلم، ومداومة الذكر فيهما، الذي يدفع التزام الشخص بهما إلى شمولية ذكره لربه في جميع الأوقات.

وبعد تنقل الأحداث متجاوزة الزمان والمكان للحديث عن قصة تحمل صفات ذلك الغلام الموهوب، لتنتهي بنا إلى الخاتمة التي نلمح بها زمناً غير معلوم، ولكن حُدِدَتْ معالمه الزمنية من خلال السلام الملازم بزمن ولادة يحيى عليه السلام الذي مضى، وزمن موته القادم، وزمن بعثته الغيبية عن جميع شخصيات هذه القصة والشخصيات المتلقية لها إلى أن تقوم الساعة.

## ب- المكان:

وأما بالنسبة للمكان فلم يذكر في القصة إلا مكاناً واحداً، يُقدم بذكره دوراً وظيفياً بارزاً في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ حيث تجسد لنا ذلك المكان البعيد عن أعين الناس، الذي عمَّته النفحات الروحانية والرحمات الربانية ذلك المكان الذي يمثل مكان الخلوة والعبادة وهو (المحراب).

## ٢. الزمان والمكان في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:

### أ- الزمان:

إن التصريح بالزمان في القصة قد اختفى تماماً لعدم الحاجة إليه، ولكننا نستطيع تجميع بعض من الخيوط الزمنية التي لمَّحت لها القصة بالاستنباط من معاني الجمل المذكورة، منها:

- زمن خروج الملك للسيدة مريم عليها السلام، وهو زمن خروجها للمكان الشرقي عن أهلها.
- زمن النفخ ليكون بداية لخلق الصبي المعجزة.
- زمن الحمل والذهاب للمكان القصي.
- زمن الألم والمعاناة في اللحظات الأخيرة من الولادة وما بعدها.
- ذكر الزمن في كلمة (يوم) في الأمر الإلهي: ﴿ فَكُلِّي وَأَشْرِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ ﴿١٦﴾
- توقيت الذهاب للقوم بعد ولادتها للصبي.





- التوقيت الزمني غير المحدد بتاريخ أو ساعة معلومة في حديث عيسى عليه السلام أثناء تعداده لهبات الله تعالى وذكره بأنه قد نال السلام في يوم مولده ويوم موته ويوم بعثته.
- والأزمنة التي أُشير إليها في القصتين إلى جانب أزمنة أخرى قد طواها السياق القصصي في الفجوات الفنية لعدم الحاجة إليها.

### ب- المكان:

- المكان في القصتين ذُكر لنا في موضعين صراحة، هما:
  - المكان الذي احتجبت فيه السيدة مريم عليها السلام، و فاجأها فيه الملك: (مكاناً شرقياً).
  - مكان الولادة بجنب جذع النخلة والماء الجاري: (مكاناً قصبياً).
- وفي مواضع أخرى ذكر المكان تلميحاً: وهو مكان أهلها وقومها الذي كانت فيه وذهبت إليه حاملة إليهم الوليد في المهدي.

### ٣. الزمان والمكان في قصة إبراهيم عليه السلام:

الزمان والمكان قد غُيبا في هذه القصة، لأنها تركز بالدرجة الأولى على (الصراع الحوارية والجدلي) بين إبراهيم عليه السلام ووالده، إلى جانب أننا نستشف بعض اللطائف من تغييبهما، وهو إعطاء دلالة للمتلقين على أن مضمون هذه القصة من (الصراع والمجادلة في الدعوة لله تعالى) تتكرر في أي زمان وأي مكان فهي تمثل الصراع الأعظم بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

ومن أبرز مواقع التغييب الزماني والمكاني في:

- زمن المحاوراة بالتحديد مع الوالد المعاند ومكانها.
- زمن الاستغفار من الابن الحاني لوالده ومكانها.
- زمن الاعتزال والدعاء من قبل إبراهيم عليه السلام لوالده.
- الوجهة المكانية بعد الاعتزال.

ومع ذلك فإنني ألمح توقيتاً زمنياً في إغداق الله تعالى لعبده بالهبات والرحمات وهو وقت الاعتزال عن والده ودينه.



## ٤. الزمان والمكان في قصص (موسى وإسماعيل وإدريس) عليهم السلام:

نجد الزمان في القصص الثلاث مغيباً كما هو واضح، إلا ما دلت عليه الأفعال المستخدمة في السرد القصصي المتمثلة في الأفعال الماضية لتدل على ملازمة السمات المسرودة للأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته.

- ففي قصة موسى عليه السلام:

- نتلمس تغييب زمن (النداء والتقريب الإلهي له)، غير أننا ندرك أنه قد وهب إعانة أخيه هارون عليه السلام له بعد زمن ذلك النداء الذي حوى التكليف بالدعوة وشؤونها.
- ونتلمس المكان في (الطور الأيمن) الذي كان فيه النداء والتكليف لحمل الرسالة الكبرى.

- وفي قصة إسماعيل عليه السلام:

- نتلمس الزمن في وقت أمر إسماعيل عليه السلام أهله بالصلاة والزكاة في أوقات بعينها معروفة لديهم جميعاً.
- وأما المكان فلقد غُيبَ نهائياً لعدم الحاجة إليه هنا، وذلك لتركيز القصة على سمات الشخصية وأفعالها، التي تُدعم الموضوع الرئيس للقصة والسورة عامة.

- وفي قصة إدريس عليه السلام نجد:

- الزمان قد اختفى تماماً.
- وأما المكان فإننا نتلمسه في قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً علياً» مكاناً معنوياً لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

وهنا في هذه القصة يسهم المكان بدور قوي في ترسيخ معنى الهبة والرحمة والفضل من الله تعالى لعباده المخلصين الصديقين وبيان عظمتها.

## ٥. الزمان والمكان في قصص المعاندين من المشركين والكافرين بالله تعالى:

لقد غُيبَ الزمان والمكان في قصصهم تماماً، إلا ما جاء في التعقيبات الإلهية في جواب الله تعالى على أسئلتهم الاستنكارية أو معتقداتهم الضالة من التحديد الإشاري للأزمة والأمكنة التي تشمل زمن عقابهم المستقبلي في الدنيا والآخرة، ومكانهم النهائي الذي سيؤولون إليه جميعاً، وهو (نار جهنم) خالدين فيها.





وهذا التغييب لعنصر الزمان والمكان كان مُتعمِّداً في القصص داخل السورة الكريمة، في حين أنه قد يُذكر العنصران في القصص نفسها في سور أخرى، وذلك لاختلاف الأهداف وتنوعها، غير أنه في هذه السورة كان التركيز الأساس في القصص هو بيان مواقف ومشاهد و أفكار و معتقدات أولئك النفس بالدرجة الأولى، التي تخدم مقاصد السورة الكريمة وتتسجم معها، فلم يحتج السياق لذكر العنصرين فيها.

## المطلب الخامس: عنصر القوى الغيبية.

وتتوّج جميع العناصر القصصية في القصص القرآنية بعنصر القوى الغيبية، لأنه هو الأساس الذي يسهم بدور مصيري وحاسم في تشكيل الأحداث وتغييرها، وأحيانا يقلبها رأساً على عقب، وعادة ما يكون العنصر الفجائي تابعا معه، سواء كان متمثلاً في عذاب أو إمداد أو لطف أو معجزة خارقة<sup>(١)</sup>.

لذلك أجد هذا العنصر الغيبي أكثر العناصر جذبا للقارئ وشدا للانتباه، «فالقارئ عندما يتلو مثل هذه الآيات القرآنية التي تفجأه بدخول العامل الغيبي إلى ساحة الأحداث يستيقظ في نفسه ذلك الشعور الذي يلازمه دائماً وهو يتابع القصص القرآني ألا وهو: اليقين من واقعية الأحداث<sup>(٢)</sup> وصدقها ووقوعها فعلا، مثل هذا الشعور من شأنه أن يجذب القارئ إلى أحداث القصة إلى أبعد الحدود، كما ومن شأنه أيضاً أن يمنح الأحداث حركة عنيفة، يملؤها بالصراع والتحركات التي تخرج النص من حالة الرتابة والروتينية»<sup>(٣)</sup>.

- وأما بالنسبة لوجود العامل الغيبي في قصص سورة مريم فلقد أشرت لملاحه في مطالب سابقة ولكنني أذكره في هذا المقام مختصراً كالآتي:

### أولاً - ما تمثل في الإمداد واللفظ والمعجزة الخارقة في:

- قصة زكريا عليه السلام: إجابة الدعاء والرزق بالولد الرضي.
  - قصة يحيى عليه السلام: أعطي مواهب و صفية منذ الصغر قد لا ينالها من في عمره إلا أنبياء الله وخاصته.
  - قصة مريم وعيسى عليهما السلام:
- السيدة مريم عليها السلام رزقت: (بالغلام الزكي دون أب - الماء الجاري - الرطب الجني

١- بتصرف، فالح الربيعي: القصص القرآني، رؤية فنية، ص ٦٦.

٢- خلافاً للقصص البشرية التي إن أدخلت هذا العنصر في قصصها، فإن القارئ دائماً ما ينظر إليها بعين الشك والريبة، ويعدّها من الأساطير أو المبالغات أو الخرافات، ينظر، المرجع السابق، ص ٧١.

٣- المرجع السابق، ص ٦٨.

- التأييد من الله).

- عيسى عليه السلام رزق بمواصفات معجزة من (النطق في المهد - التأييد من الله - السمات الخاصة).

• قصة إبراهيم عليه السلام: رزق ب (الأبناء الصالحين على الكبر - الرحمة الدنيوية المتتالية - لسان الصدق عند الناس).

• قصة موسى عليه السلام: (المناداة عند جانب الطور - التقريب الإلهي له - مساعدة أخوه له ليكون معيناً ومؤيداً).

• قصة إسماعيل عليه السلام: (رزق بالذرية الصالحة - وجعل مرضيا عند الله ومن ثم عند نفسه و الناس)

• قصة إدريس عليه السلام: رُفِعَ في مكان عليّ.

## ثانياً - العامل الغيبي المتمثل في العذاب والنقمة والسخط:

والذي يدل على بدلوه في إعطاء الترهيبات واقعية ومصداقية شاملة، لأنها صادرة من الله ففي:

• قصة الخلف الطالح: الوعيد لهم بأنهم سيصلون غيا.

• قصص منكري البعث والنشور واليوم الآخر، والمستهزئين بالصالحين المتقين: الوعيد لهم بالعقاب الدنيوي قبل الأخروي، أو الإمداد الدنيوي والتأجيل العقابي في الآخرة.

• قصة عبدة الأوثان والمشركين بالله، وقصة القائلين بأن لله ولدا: والوعد والوعيد لهم بالعقاب المرير يوم القيامة.

وهكذا أدركنا مدى قيمة ووظيفة العامل الغيبي في إضفاء الحركة والحيوية والواقعية والصدق في مجمل عناصر القصة القرآنية.

وبنهاية هذا العنصر نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا المبحث، الذي عنوناه: (بالعناصر القصصية) لقصص سورة مريم، التي دلت على عظم واضعها، وإبداع محكمها، فها هو الإبداع المتقن والمعمارية القصصية الجميلة، التي تكشف عن تلك الهندسة البديعة، وتلك الأحداث المنقحة، وتلك المواقف التي تدبُّ بالحركة والنشاط والحيوية، وتلك الشخصيات الواقعية التي كانت أنموذجاً للقدوات والتحذيرات، وتلك الانفعالات التعبيرية المصورة الصادقة، وتلك الأساليب التشويقية المؤثرة، التي تترابط فيما بينها لتتعاقد وتتألف في تساق مرسوم وخطه موضوعة لتكوّن معمارية قصصية فريدة



من نوعها، تخدم المقاصد الكبرى والغايات الدينية العظمى التي أرادها الله أن تصل لعباده من خلال هذه السورة.

ولا يملك الدارس أو الأديب أو الناقد أو أيُّ مُتناول لها أياً كان قدر ثقافته وحنكته وخبرته، إلا أن يخضع لها مطأطئاً رأسه وقلبه خضوعاً وتواضعاً وإكباراً لهذا الأسلوب المعجز، ولا يكون في نهاية المطاف إلا تلميذاً يرجع لهذه النماذج البديعة، والهندسة المحكمة، فيقتبس منها مواضعه، ويلم بها فوائده، ويعدّل بواسطتها مفاهيم الجمال لديه، بشكل لن يجد له مثيلاً في أي نص آخر، قد يعتقد فيه معادلته أو مضاهاته، فسبحان الله متقن الأمور ومُحكّم التدبير.





## المبحث الثاني

أدوات المعمار الجمالي والأسلوبي في السورة



٢٦٩

المعمار القصصي في سورة مريم





كما تجلت الوحدة الفنية بإشعاعاتها الجمالية والفنية المتناغمة مع الهدف والمقصود من السورة في العناصر القصصية السابقة، نجدها كذلك تتجلى في الأدوات والأساليب اللغوية والتعبيرية والبديعية والتصويرية والصوتية معاً، لتقدم لنا قمة التحدي والإعجاز في الأثر الجمالي والفني في نفس المتلقي، وتضفي على القصص القرآنية في السورة تلاحماً معمارياً متيناً شكلاً ومضموناً، بما ترصفه من وحدات دلالية وفنية صغرى يدعم بعضها البعض، ويبني بعضها على بعض، لتكون وحدات كبرى تتناسق وتتناسب جمالياً وفنياً فيما بينها، لتخدم الهدف والمقصود من القصص الذي يتساقق بدوره مع الهدف والمقصود من السورة الكريمة ككل.

فما أهم تلك الأدوات والأساليب؟ وكيف وظفت في قصص سورة مريم؟ وهل كان لها دور جمالي في خدمة المعمارية القصصية في السورة؟ هذا ما سيتم معالجته من خلال المطالب الآتية:

## المطلب الأول: الأدوات اللغوية والأسلوبية:

القرآن الكريم يحقق بأساليبه المتنوعة وتعبيراته اللغوية المتعددة الغاية في التلاؤم والتناسق والانسجام، حيث يمثل جمالاً يفضي إلى النفس تواصلاً بصورة لا نجد له نظيراً ولا مثيلاً في أي أسلوب آخر، فكان لزاماً علينا معرفة كيفية هذا التواصل البحث في الأساس التعبيري المتمثل في اللغة والأسلوب.

### أولاً: الألفاظ ودورها في تلاحم معمارية القصص:

يقول الجرجاني: «اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أخلق وكان السمع له أوعى والنفس إليه أميل»<sup>(١)</sup>.

ويقول كذلك: «وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟»<sup>(٢)</sup>.

١- ثلاث رسائل في الإعجاز، الرسالة الثالثة، ص ١١٧.

٢- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٩.



لذلك نجد للألفاظ مكانة خاصة تتسجم بدقتها ودلالاتها انسجاماً تاماً مع السياق الذي ترد فيه، بحيث لو أبدلت بغيرها لاختل السياق، وانتقص المعنى<sup>(١)</sup>.

ولهذا سأتناول الألفاظ بالدراسة التطبيقية من عدة جوانب لنذكر مميزات وخصائصها التي أسهمت في ترابط وتناسق وتلاحم البنيات اللغوية الصغرى في معمارية القصص في السورة ومنها: (الدقة في اختيار الألفاظ، القول بالترادف اللفظي، الاشتراك اللفظي، التعريف والتكثير، الأفراد والجمع).

## ١. الدقة في اختيار الألفاظ وإيحاءاتها:

فمثلاً أجد عدة ألفاظ كانت مثالا للدقة العالية والتساقق المتناسق مع السياق القصصي

في قصة زكريا عليه السلام (نداء - وهب - عتيا - الرحمن - نديا - بغيا)، فلماذا فضلت هذه الألفاظ في القصص بدلاً عن غيرها؟ هذا ما ستوضح الإجابة عنه من خلال معالجتها.

- المثال الأول: لماذا فضلت لفظة (نداء) في القصة بدلاً من (دعاء)؟
- ❖ النداء معناه: «رفع الصوت بطلب الإقبال، ويطلق النداء كثيراً على الكلام الذي فيه إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي الكلام، فلذلك سميت الحروف التي يفتح بها طلب الإقبال حروف النداء»<sup>(٢)</sup>، وأما الدعاء فهو «طلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء، لأن شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهراً، أي تضرعاً لأنه أوقع في نفس المدعو»<sup>(٣)</sup>.
- ❖ النداء اتجاه كلي يصاحبه رغبة قوية لنيل المطلب والمقصد، مع بيان لافتقار المنادي وقوة حاجته للأمر المطلوب، كما أن في النداء يشعر المنادي بشدة قربته لله تعالى مع إحساسه بسرعة إجابة النداء وقرب تحققه، وهو ما لاحظناه في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ بإضافة الرب إلى الضمير ليدل على شدة القرب والتيقن بتحقق ما طلبه<sup>(٤)</sup>.
- ❖ والنداء غالباً ما يكون في الشدة والكرب، لذلك وافقت كلمة النداء الجو والظروف التي كان فيها سيدنا زكريا عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَأُتُوْكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ الرَّحِيْمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُوْمٌ﴾<sup>(٥)</sup>.

١- ينظر، وليد قصاب: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دارالقلم، الإمارات، دبي، ط١، ١٤٢١، ٢٠٠٠م، ص٥٠.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد ٧، ج١٦، ص٦٢.

٣- المرجع السابق، ج١٦، ص٦٢.

٤- ينظر، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ص٧٦.

٥- سورة الأنبياء، آية ٨٢.

٦- سورة القلم، آية ٤٨.



في حين أننا نجد كلمة الدعاء استخدمت في مواضع معينة في القرآن تدل على الدعاء في السعة أو الكرب، كقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (١)، وكذلك قول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (٢).

❖ كما أن معاني الدعاء عديده ومختلفة مثل الاستغاثة والعبادة، والرغبة إلى الله (٣)، في حين أن النداء تتركز معانيه في رفع الصوت بطلب الأمر (٤)، ومع ذلك نجد النداء في قصة زكريا عليه السلام قد انتقل من رفع الصوت إلى خفضه لكونه أدخل في الإخلاص مع رجائه لله تعالى وتجنباً للرياء في العبادة واليقين في سمع الله له، وقد يكون لكبر سيدنا زكريا عليه السلام وهرمه بحيث لا يصدر غير صوت خفي (٥).

- المثال الثاني: لفظة (وهب) في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (٦)، فلماذا اختيرت لفظة (وهب) دون غيرها من الألفاظ من مثل: (أعطني أو اجعل لي) لتكون في هذا الموقع؟

بالطبع نجد الاختلاف واضح، حيث إن الهبة هي: «العطية الخالية من الأعواض والأغراض» (٧)، وهي تعني: «أعطني من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية» (٨).

في حين أن (العطاء والعطية) تكون بمعنى التناول والمناولة للشيء الموجود (٩)، والجعل يعني: «ما يجعل للإنسان بفعله» (٨).

وأما بالنظر لحال زكريا عليه السلام فإن الأنسب لحاله لفظة (الهبة) لتوافقها معه، بعدما انقطع رجاءه في أسباب الحصول على الولد، الذي يزيد من معنى هذا اللفظ لفظة أخرى هي (لدنك) لتفيد الفضل الواسع الذي يملكه الله وحده دون غيره، وأن الهبة عنديّة خاصة من الله فتكون كرامة له، ومن ثم ناسبنا كلتا اللفظتين الحال والظرف فحسن موقعهما (٩).

١- سورة الأنبياء، آية ٩٠.

٢- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، دعا، مجلد ٥، ص ٢٦٦-٢٦٧.

٣- ينظر، المرجع السابق، ندي، مجلد ١٤، ص ٢٢٧.

٤- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٦٢-٦٣، والرازي: التفسير الكبير، مجلد ١١، ج ٢١، ص ١٥٢، والألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٥٩.

٥- ينظر: لسان العرب، وهب، مجلد ١٥، ص ٢٨٨.

٦- الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٦٢.

٧- ينظر، لسان العرب، جعل، مجلد ١٠، ص ١٩٦-١٩٧.

٨- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، جعل، ص ١٠١.

٩- ينظر، ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٦٧.





- المثال الثالث: لفظة (عتيا) إذ نجدها في القصة تقوم بدور فاعل في بيان حالة زكريا عليه السلام دون غيرها من الألفاظ الأخرى المقاربة معها في المعنى من مثل (شخت أو كبرت) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَكُنْ لِي زَوْجَةٌ وَكُنْتُ أَنَا ذَكَاةً وَأَقْرَبٌ وَتَلَىٰ مِنَ الْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ عِتْيًا ﴾ (٨) فالعتي: يأتي بمعنى «المبالغة في الكبر أو بيس العود أو شيب الرأس»<sup>(١)</sup> وهي مشتقة من الفعل عَتَا، «وعتَا الشيخُ عَتِيًا وَعِيتِيَا، فتح العين: أسن وأكبر وولى»<sup>(٢)</sup> ومن معانيها كذلك التمرد وتجاوز الحد والخروج عن السيطرة<sup>(٣)</sup>، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَزَعُنَّكَ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْبُهَا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتْيًا ﴾ (١٦) «ولا توجد حالة ينطبق عليها هذا المعنى من التمرد على رغبات الإنسان، والخروج الكامل عن إراداته، أكثر من حالة الهرم هذه، إذ هي خارجة عن سيطرة الإنسان وتحكمه، ولو ترك له الخيار ما شاخ ولا هرم، ولكن أنى له ذلك»<sup>(٤)</sup>.

- المثال الرابع: لفظة (الرحمن)<sup>(٥)</sup> وهي صفة لله تعالى قد تكررت في أغلب القصص، وأدت معنى لا تؤديه أي صفة أخرى في نفس المكان.

ف (الرحمن) صفة مشتقة من الرحمة بمعنى الرقة، والمغفرة والتعطف<sup>(٦)</sup>، ولقد ناسبته هذه الصفة الجو العام الذي ساد القصص في القسم الأول من السورة، إلى جانب مناسبتها للجو العام ككل، التي تدل على أن كل لفظة في القرآن الكريم قد اختصت بمكانها الذي لا يمكن أن ينوب عنها غيرها، والذي يدل على قدرة واضعها الذي لا يملك حيالها الإنسان إلا السجود إكباراً له.

والسياق القرآني قد استخدم لفظة (الرحمن) دون غيرها من الصفات والأسماء من مثل صفته (الرحيم) في مواضعها المحددة المتناسبة لها، التي تدل على هندسة لغوية ومعنوية مرسومة، كالاتي:

❖ الصفتان «اسمان مشتقان من الرحمة»<sup>(٧)</sup> (الرحمن) صفة تدل على المبالغة، تعني المنعم بجلال النعم، بينما (الرحيم) هو المنعم بدقيقها<sup>(٨)</sup>.

❖ و(الرحمن) اسم لله تعالى لا يدعى بها غيره، في حين كلمة (الرحيم) صفة «يوصف به غير الله تعالى فيقال رجل رحيم ولا يقال رحمن»<sup>(٩)</sup>.

١- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٣م، ج ٤، ص ٦.

٢- ابن منظور: لسان العرب، عتا، مجلد ١٠، ص ٣٢.

٣- المرجع السابق، ص ٣٢.

٤- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، (رسالة ماجستير) جامعة النجاح الوطنية، وكلية الدراسات العليا، فلسطين، ٢٠٠٣م، ص ٦٤.

٥- تكررت في السورة ست عشرة مرة من أصل سبع وخمسين مرة وردت في القرآن الكريم.

٦- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، رحم، ص ١٠٠٢.

٧- محمد راتب النابلسي: موسوعة أسماء الله الحسنى، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ط ٥، ص ٦٣٧.

٨- ينظر، موسى عسيري: الرحمة في القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، (د، ط)، ص ١٩٨.

٩- ابن منظور: لسان العرب، رحم، مجلد ٦، ص ١٢٥.

❖ وقيل: إن الله رحمن في الدنيا ورحيم في الآخرة وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وأما في الآخرة فإنه يختص بالمؤمنين فقط<sup>(١)</sup>.

وإذا رجعنا للقصص في السورة لنأخذ بعضاً من أمثلة انتقاء اسم (الرحمن) دون غيره من الألفاظ نجد السياق يعبر عنه في عدة أشكال منها:

- التعبير عن شدة خوف مريم ومفاجأتها بظهور الملك لها، بقولها: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾، حيث استخدمت اسم الرحمن في استعاذتها لعدة أسباب هي: طلب الإعانة والإغاثة ممن تعودت منه الحفظ والرحمة، إذ هو مالك زمام الخلق جميعاً في قدرته ومشيئته وحكمته، كما أنه تذكير لهذا الشخص الذي قطع خلوتها بالله، ومحاولة لإثارة مشاعر الرحمة والتقوى في قلبه.

- كما أننا نجد اسم (الرحمن) يطرق مسامعنا في حوار إبراهيم عليه السلام مع والده حيث عبر عنه السياق القصصي بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ لَّا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ فاختيار صفة (الرحمن) في هذا الموقع دون غيرها جاءت للتشبيه على: «أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته»<sup>(٢)</sup>.

- وكذلك نجد اسم (الرحمن) يتكرر على لسان إبراهيم عليه السلام في حوارهِ، فقدم لنا اللفظ بهذا ميزة في الإشارة: «إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحل به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة، عبر عن الجلالة بوصف الرحمن للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون لفظاً جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته»<sup>(٣)</sup>، وعلى شاكلة هذه التناسبات الدقيقة تجري جميع مواقع اسم (الرحمن) في الأماكن والمواضع التي وضعها السياق القصصي في السورة.

- المثال الخامس: لفظة (نديا) في قصة المستهزئين بالصالحين والمنتقمين، في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَإِذَا نُنَادِيَهُمْ أَيْنَنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾ «لفظ (الندي) معناه: المجلس والمجتمع، ولذلك سُمِّيَتْ دار الندوة بهذا الاسم لأن المشركين كانوا يتشاورون في أمورهم فيها»<sup>(٤)</sup>.

فلنحظ من خلال مصطلح اللفظة تناسباً مع السرد القصصي بشكل عجيب، قد لا تؤدي لفظاً أخرى من مثل (مجلساً أو محفلاً أو مجتمعاً) بنفس المعنى والدلالة، فلفظة (ندي) تدل على قوة

١- ينظر، الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، رحم، ص ١٩٨.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١١٧.

٣- المرجع السابق، ج ١٦، ص ١١٧.

٤- ينظر، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٢٥.





الأواصر والعلاقة بين المجتمعين، إلى جانب ما ينبثق منها من «طاقات تعبيرية كبيرة، إذ تلمس فيها معنى المجلس الذي يضم الأهل، والمعنى الصوتي المتمثل بالنداء، والصورة المخيلة المتحركة لقوم يكثر عند سماعهم النداء، فهذه لذلك أكثر حيوية، وأنسب للتعبير عن غرض التقاخر والتباهي»<sup>(١)</sup>.

- المثال السادس: لفظة (بغيا) في قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام، ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك في قول القوم ومخاطبتهم لها بقولهم: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾<sup>(٣)</sup> فالبغي: «هي الفاجرة التي تبغي الرجال»<sup>(٤)</sup>، وهي أيضاً: «المجاهرة المنبهرة في الزنا فهي طالبة له»<sup>(٥)</sup>.

فلم يأت التعبير بالقول: (ولم أك زانية) وذلك لأنها لا تقي بالمقصود والمطلوب فهي تدل على ارتكاب الزنا فقط، ولكن (بغيا) قد اشتملت على دلالات أخرى من حيث أنها: تدل على الظلم وتجاوز الحد، وفي التعبير عن الزنا بالبغي، إصدار للحكم عليه، ووصمه بأنه بغي وتجاوز الحد، لا ينبغي الاقتراب منه»<sup>(٤)</sup>، كما تدل على الفساد والتماذي فيه، وتثير في النفس إيجاءات متعددة تحمل في طياتها صفات مذمومة وأفعال محذورة<sup>(٥)</sup>.

وبهذه المعاني نجد أن لفظة (بغيا) قد وضعت في مكان قد انسجمت به مع السياق من ثلاث جهات<sup>(٦)</sup>:

- تناسبها مع المعنى الأساس (في تجاوز الحد).
  - تناسبها للمعنى التطبيقي وهو (الزنا).
  - تناسبها للمضمون العاطفي الانفعالي من (التنفير من هذا الفعل).
- وهكذا عرضت لبعض أمثلة الدقة في اختيار وانتقاء الألفاظ ومدى تناسبها مع السياق القرآني والقصصي في السورة كلبينات صغرى قد رُصف له رصفا من واضعها.

## ٢. الترادف بين الألفاظ:

وأقرب التعريفات للترادف هو: «ما اختلف لفظه واتفق معناه، أو أنه التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ»<sup>(٧)</sup>.

١- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٦٥.

٢- الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ٩.

٣- أبو محمد عبد الحق الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ٤، ص ٩.

٤- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٦٥.

٥- بتصريف، المرجع السابق، ص ٦٦.

٦- بتصريف، المرجع السابق، ص ٦٦.

٧- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٧٧.

ولقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في ترادف ألفاظ اللغة، بين منكر ومؤيد لوجودها<sup>(١)</sup>، غير أن الدراسة في ألفاظ القرآن بالربط بين الدقة في اختيارها داخل السياق القرآني وبين الترادف اللفظي فيها يتنافى وجوده، وذلك لأن كل لفظة كما اتضح لنا من خلال الأمثلة السابقة لها استعمالها الدقيق ومعناها الذي قد اختير بعناية قدسية، لا يؤديه أي معنى آخر لللفظة أخرى.

كما أن اللفظة القرآنية تمتاز: «عن سائر مترادفاتنا بتطابق أتم مع المعنى المراد، فمهما استبدلت بها غيرها، لم يسد مسدها ولم يغن غناها، ولم يؤد الصورة التي تؤديها»<sup>(٢)</sup>.

وبالتالي يمكن القول أنه: «لا مرادف في القرآن، ولا يوجد لفظان يؤديان معنى واحداً، من حيث الإحكام والدقة، ولا يوجد أسلوب يؤديه الأسلوب الآخر»<sup>(٣)</sup>.

ويتضح معنى هذا القول في عدة نماذج برزت لنا في سورة مريم، فعلى سبيل المثال:

❖ نأخذ اللفظتين (يبعث وأخرج) فالأولى في قوله تعالى في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾ والثانية في قوله تعالى على لسان منكري البعث والحشر: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ١٦﴾ فالظاهر لنا من أول وهلة هو أن بين اللفظتين ترادفاً، ولكننا عندما نسبر أغوارهما، نجد عكس ذلك فأصل (البعث) «إثارة الشيء وتوجيهه، يقال بعثته فانبعث....»<sup>(٤)</sup>، وأما الخروج فمن خرج، خروجاً: برز من مقره أو حاله سواء كان مقره داراً أو بلداً أو ثوباً<sup>(٥)</sup>، و(الخروج) في الآية معناه الخروج من المقابر، وهي مرحلة ينكرها ذهن الكافر ويستحيلها، لذلك اختير الحديث عنها بلفظ (الخروج) لما يراه الكافر من استحالة إحياء العظام بعد ترممها، وعدم إمكانه<sup>(٦)</sup>.

في حين أن (البعث) في الآية: «هو النشور يوم القيامة، وهي عملية أشمل، وليس الخروج إلا جزءاً منها، وتحديدًا لإحدى مراحلها التي تبدأ بالخروج وتنتهي بتلقي الجزاء المتمثل بالجنة أو النار، فالعلاقة بين البعث والخروج، هي إذن علاقة تضمين لا علاقة ترادف، بمعنى أن الخروج يقع ضمن البعث، وبالتالي يكون البعث ضامناً ومحتوياً للخروج»<sup>(٧)</sup>.

❖ وكذلك نلاحظ عدم الترادف في لفظتي (غلام و ولد)، حيث جاءت اللفظتان في موقعهما

١- ينظر، المرجع السابق، ص ٧٧-٧٨-٧٩. إذ احتوى الكتاب على أدلة وبراهين الفريقين بشكل واضح.  
٢- محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د، ط)، ١٩٩٦، ص ١٣٩.  
٣- محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، (د، ط)، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، ص ٢١١.  
٤- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، بعث، ص ٦٣.  
٥- المرجع السابق، خرج، ص ١٥١.  
٦- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٧٩.  
٧- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٧٩-٨٠.





المناسب بشكل لا يمكن استبداله، إذ وردت لفظة (غلام) في قوله تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا تُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۗ﴾ (٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرًا قَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۗ﴾ (٨) وفي قوله تعالى على لسان الملك مخاطباً مريم عليها السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۗ﴾ (١١) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ۗ﴾ (٢٠) وأما لفظة (الولد) فلقد وردت في قوله تعالى معقباً على قول عيسى عليه السلام في أثناء محاورته مع القوم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۗ﴾ (٢٥) وقوله كذلك في قصة الكافرين المعاندين مشنعاً قولهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ﴾ (٨٨) فأما (الغلام) فهو: «الطار الشارب، يقال غلام بين الغلومة والغلومية»<sup>(١)</sup>، فلذلك «يطلق على من أوشك على الإدراك والبلوغ»<sup>(٢)</sup>.

وأما (ولد) فمعنى: «الولد المولود... قال أبو الحسن: الولد الابن والابنة والوَلَد هم الأهل والوَلِد»<sup>(٣)</sup>.

فوردت لفظة (الغلام) في قصتي زكريا ومريم عليهما السلام لتناسبها مع السياق القصصي لما تحمله من معنى أدق وبشرى أرحب من بشرى الولد من جانبين:

**الجانب الأول:** الزيادة في المعنى من حيث بشرى الإخبار لزكريا ومريم عليهما السلام بأنهما سيرزقان بغلامين سيتسمان بمواصفات خاصة.

**الجانب الثاني:** فيها إخبار بأنهما سيعيشان ويكبران حتى يصبحا غلامين طاريي الشارين، ففيها (مجاز مرسل)، أي نبشرك بمولود أو طفل سيكبر ويكون في المستقبل غلام، ولو قال: إنا نبشرك بولد لاقتصر البشرى على إعطاء الولدين فقط، دون البشارة بكبرهما، لذلك نجد قيمة هذا اللفظة في السياق في إعطائه البشرى المضاعفة<sup>(٤)</sup>.

وأما لفظة (ولد) في الآيتين التي وردت فيهما، فهي تدل على نفي نسبة الولد لله تعالى، «فلا يجوز القول: ما كان لله من غلام، لأنه ليس له ولد حتى يكون له غلام، أي ليس له سبحانه ولد حتى يعيش وينمو ويكبر ويصبح غلاماً»<sup>(٥)</sup>.

وفي السورة الكثير من الألفاظ التي يوحي شكلها الخارجي بالترادف، في حين أنها ليست كذلك ومن هذه الألفاظ: (أحصاهم وعدهم) (البشر و إنسيا) (إدا و فريا)، (فأتت وجئت) (عصيا و

١- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، غلم، ص ٣٦٦.

٢- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٨٠.

٣- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ولد، ٥٤٧.

٤- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٨١.

٥- معين رفيق أحمد صالح، دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٨١.

شقياً) وغيرها.....، مما يحتاج تفصيل القول فيها إلى دراسة مستقلة قد لا نستطيع التعمق فيها هنا<sup>(١)</sup>.

### ٣. المشترك اللفظي:

ويعني المشترك اللفظي: «وجود لفظ واحد بمعانٍ مختلفة»<sup>(٢)</sup>، وله العديد من المزايا في الاستعمالات اللغوية، لما يقدمه من جعل الكلمات أكثر حيوية في أداء وظائفها السياقية، إذ إن وجوده يساعد في السياق على دعم معاني سياقات أخرى<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما سأضرب عليه الأمثال للوصول إلى الوظائف البلاغية والمعنوية في بعض قصص سورة مريم<sup>(٤)</sup>:

المشترك اللفظي	الغرض	الدلالة والمعنى
١- لفظة (آية) في الآيات (١٠ - ٢١ - ٥٨) - ٥٨ - ٧٢ - ٧٧)	إكساب اللفظة درجة عالية من الحجّة والبرهان.	لفظة (آية) جاءت: في الآية (١٠) بمعنى العلامة والإشارة الدال على الحمل، وفي الآية (٢١) بمعنى علامة دالة على نبوة ودلالة على الإعجاز، وفي الآيات (٥٨ - ٧٢ - ٧٧) بمعنى كلام الله أو آيات القرآن وبهذا فأيات الله تعالى معجزة بيانية لا بد من التفكير والتدبر فيها، كما يفعل المتقين والصالحين الذين يخرون للأذقان سجداً وبكياً بمجرد سماع آيات الله.
٢- لفظة (دعا) وتصريفاتها في الآيات (٤ - ٩ - ٤٨)	التنويه على خطورة الفعل وأهميته	ولفظة (دعا) جاءت: في الآية (٤) بمعنى الطلب والرجاء من الله تعالى في قضاء الحوائج، وفي الآية (٩١) بمعنى أن هؤلاء المشركين نسبوا لله ولداً، وفي الآية (٤٨) بمعنى تعبدون من دون الله تعالى، واللفظة كما لاحظنا وردت على معاني متعددة، دلت على خطورة هذا الفعل وأهميته في العقيدة والإيمان.

١- ينظر، المرجع السابق، ص ٨١-٨٦-٩٣..

٢- المرجع السابق، ص ٨٦.

٣- ينظر، أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٥، ص ١٤٧.

٤- ينظر، معين رفیق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٨٦ - ٩٣.



<p>فلفظة خرّ جاءت: في الآية (٥٨) بمعنى السجود عند تلاوة آيات الله تعالى (١)، وفي الآية (٩٠) بمعنى السقوط والانهداد للجبال استعظماً لقول المفترين على الله باتخاذهم ولداً، وتصويراً لمدى فطاعت قولهم وأثره على العقيدة (٢). وعلى الرغم من تباين المعنيين فإنهما دالا على التوافق والانسجام المتمثل في: السبب الأصلي في الفعل وهو عبادة الله وخشيته. الإيحاء بعظم فعل المتقين لمشابهته فعل الجبال الشامخة العالية.</p>	<p>الدلالة على انسجام عناصر الكون مع المؤمنين في عبادة الله تعالى.</p>	<p>٢- لفظة (خرّ) في آية (٥٨ - ٩٠)</p>
<p>١- بتصريف، الرازي: التفسير الكبير، ج١٦، ص٢٠٠. ٢- بتصريف، المرجع السابق، ص٢١٧.</p>		

## ٤. التعريف والتكثير في الألفاظ:

ومن الظواهر الأسلوبية والبلاغية المميزة في سورة مريم أسلوب التعريف والتكثير، الذي تقتضيه أحوال المخاطبين، حيث إنهما أسلوبان يورثان فوائد بلاغية جمّة نستفيدها من خلال وجودهما في السياق.

### أ. التعريف:

التعريف في الألفاظ هو: «ما دلت على شيء بعينه»<sup>(١)</sup>، ولقد ذكر النحويون أن المعارف ستة أقسام هي: (الضمائر والأعلام والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة ثم المعرف بـ«أل» ثم المضاف إلى واحد من هذه المعارف)، وهذه الأدوات تختلف فيما بينها، فلكل واحدة منها استعمال خاص بها و«لكل أداة من أدوات التعريف طعماً ومذاقاً يختلف عن الآخر، والذي يُحدد الاختلاف ثقل الكلمة، ومكانها، وقيمتها عند المخاطب، فالضمير غير اسم الموصول، غير التعريف بـ«أل»»<sup>(٢)</sup>.

ولقد وردت الكثير من الألفاظ المعرفة في سورة مريم، أخذ بعضاً منها على سبيل المثال لنذكر

١- الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي: كتاب الطراز، مراجعة وضبط وتحقيق، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م، ط١، ص٢٠٨.

٢- منير السلطان: بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣ م، ط٢، ص٣٧. وينظر أحمد بدوي: بلاغة القرآن، نهضة مصر، ٢٠٠٧ م، ط٢، ص١٠٤-١٠٨، وفضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفتانها، علم المعاني، دار الفرقان، عمان، الأردن ١٤١٨ هـ-١٩٩٨ م، ط٥، ص٢٩٧.



مدى التناسب الهندسي في الألفاظ مع سياق القصص:

## - التعريف بأل:

فمثاله: (النخلة) في قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾<sup>(١٣)</sup> فتعريف النخلة هنا له عدة دلالات بلاغية يمكن أن نستنتجها من خلال السياق والتأمل على النحو الآتي:

❖ إما أن يقصد من تعريفها (الجنس) أي يكون المراد بها واحدة النخل دون تعيين أي جذع هذه الشجرة خاصة<sup>(١)</sup>.

❖ أو يراد بها من «تعريف الأسماء الغالبة فإذا قيل النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل»<sup>(٢)</sup>.

❖ وقد يراد بها (أل العهد) لدلالاتها على نخلة معينة، حيث يكفي لتعيينها تعيينها في نفس مريم عليها السلام، وإن لم يعلمها المخاطب بالقرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup>، أو قد يراد بتعيينها على أساس أنه: «لم يكن في تلك البلاد الباردة وغيرها، فكانت كالعالم لما فيها من العجب»<sup>(٤)</sup>.

ولقد زاد من تعريف النخلة ذكر السياق معها لفظة (جذع) فلقد أعطت للنخلة تعريفاً آخر وتحديداً واضحاً، حيث يعني ذلك الجذع ما بين العرق ومنتشعب الأغصان من الشجرة، حيث استندت عليه السيدة مريم، وأمسكت به في حال تعبها وبُعْدِها عنه فهزته ليسقط عليها الرطب الجني<sup>(٥)</sup>.

وبهذه الآراء جميعها ندرك القيمة التناسبية للتعريف في هذه اللفظة وفي هذا الموقع من القصة، كما نجد الحكمة من اختيار النخلة دون غيرها من أنواع الشجر، لمشابهة حالها بحال مريم عليه السلام فهي لا تحمل إلا بالقاح من ذكور النخل، فحملها بمجرد هزها وإثمارها بالرطب الجني في وقت ليس بوقت نضوج، ما يبس الجذع وجفافه، لهو أقرب لحال إتيان مريم بولد من غير والد، فهذا هو تستند على الجذع وتهزه لتأكل منه الرطب الجني الذي قيل أنه خير طعام للنساء<sup>(٦)</sup>.

١- ينظر، الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ١٣.

٢- المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣.

٣- ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٨١.

٤- البقاعي: نظم الدرر، المجلد ٤، ص ٨٢٥.

٥- ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٨١-٨٣.

٦- ينظر، البقاعي: نظم الدرر، ص ٥٢٨ - ٥٢٩، والألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٨١، الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ١٣.



## - التعريف بالعلم:

كما في بداية كل قصة من القصص المذكورة في السورة في قوله تعالى: ﴿ذَكَرْ حَمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾ ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ فالعلمية في الآيات تدفع المتلقي لاستحضار أصحاب هذه الأسماء المتحدث عنهم، والنظر إلى سبب تمييزهم واصطفاؤهم بالذكر دون غيرهم، ومدى ما قدموه من إخلاص وصبر في تحمل أعباء الدعوة فتالوا بها رضا الله ورحمته، بشكل قد لا نجد فيه هذا التودد والترحيب في قصص المعاندين والكافرين الذين لم تذكر أسماءهم بل اتصلت بهم (ال) التعريف بلفظ (الإنسان) لتدل على جمع الكفار في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٣٦﴾، وذلك لوجود قرينة دلت عليهم بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٣٨﴾، حيث أفادت (ال) الجنسية هنا، استغراق جميع الناس وإن لم يكونوا كلهم قائلين لذلك، إذ «لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم، صح إسنادهم إلى جميعهم»<sup>(١)</sup>، كما أن هذه «المقولة قائلتها صنوف كثيرة من البشر في عصور مختلفة، فكأنما هي شبهة للإنسان واعتراضه المتكرر في جميع الأجيال»<sup>(٢)</sup>.

وقد يراد بهذا التعريف في القول بالمجاز، بأن يطلق جنس الإنسان والمراد بعض أفرادها<sup>(٣)</sup>، وقيل قد يراد بأل العهد المراد به أحد هؤلاء الأشخاص، فيكون لفظ (الإنسان) من قبيل العام الذي أريد به الخاص، أو جماعة معينة وهم الكفرة المنكرون للبعث<sup>(٤)</sup>.

## - التعريف بالصلة:

الأسماء الموصولة تحتاج لصلات تبيينها وتوضيحها، لذلك تأتي متصلة بغيرها من الجمل، وأفادت في السورة العديد من المعاني البلاغية، مثل: (التعظيم والتهويل، واستهجان ذكر ما دلت عليه الصلة، والإشعار بعلّة الحكم والدلالة على العموم)<sup>(٥)</sup>.

ومن أمثلتها ذات التناسب الجميل ذلك التقليل لشأن صاحبها في قصة إبراهيم عليه السلام، حيث رد على والده في نهاية حوارهما معه بقوله تعالى على لسانه: ﴿وَأَعْرَضْنَاكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا أَعْرَضْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩﴾ حيث نجد العدول عن ذكر الأصنام إلى الصلة (وما تدعون وما يعبدون) ليدل على

١- الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ٣٢.

٢- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣١٧.

٣- ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١١٦.

٤- ينظر، المرجع السابق، ص ١١٦.

٥- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٤٢.

استهجان ذكر ما دلت عليه، فلم يرد في القرآن ذكر أصنامهم تحقيراً لها وخطاً من شأنها، إلى جانب ما تفيدُه الصلة إلى عموم عباداتهم التي يعتزلها جميعاً<sup>(١)</sup>.

## - التعريف بالضمير:

إن أهم فائدة يعطينا إياها التعريف بالضمير هو: الاختصار وعدم الحاجة إلى التكرار، حيث تستبدل الضمائر بالألفاظ الظاهرة<sup>(٢)</sup>.

ومن أمثلته في القصص ما ورد في قصة مريم عليها السلام في رد الملك نيابة عن الله تعالى على سؤالها التعجبي في كيفية هبتها بالغلام الزكي قائلاً لها: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾<sup>(٣)</sup> فقوله: (هو عليّ هين) «أغنى الضمير هنا عن جملة بكاملها، فمعناه أن خلق عيسى من غير أب أمر هين عليّ»<sup>(٤)</sup>.

## - التعريف باسم الإشارة:

ويأتي التعريف بالإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز، وله الكثير من الأغراض البيانية منها: (التعظيم، وتمييز المشار إليه في ذهن المتلقي، ولتدليل على أن المشار إليه جدير بالخبر المذكور بعده)<sup>(٥)</sup>.

ونأخذ الاستدلال على تناسق هذا التعريف مع السياق القصصي في السورة بتناول غرض من أغراض اسم لإشارة وهو: (التعظيم) كما في قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام ﴿ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوَدَّعًا ﴾<sup>(٦)</sup> فالملقود ب (هذا): «الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت»<sup>(٧)</sup>، إذ عبرت عن آلامها باسم الإشارة القريب ليدل على عظم مصابها حتى كأنها خيل لها أن ما أصيبت به شيء محسوس<sup>(٨)</sup>.

## - التعريف بالإضافة:

إن من أهم أغراض التعريف بالإضافة هو: (التعظيم) مثل: إضافة كلمة (الرب) إلى الضمير المخاطب في قوله تعالى في قصة مريم على لسان الملك: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾<sup>(٩)</sup> فدلّت الإضافة على المواساة والتسلية في هذا الابتلاء.

١- بتصريف، المرجع السابق، ص ١٤٣-١٤٤.

٢- بتصريف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٣٩.

٣- المرجع السابق، ص ١٣٩.

٤- ينظر، المرجع السابق، ص ١٤٤.

٥- البيهقي: نظم الدرر، ج ٤، ص ٥٣٢.

٦- بتصريف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٤٥.





وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْرَضْنَاكُمْ وَمَا دَعُوتُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ إضافة الرب لياء المتكلم دلالة على «الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك»<sup>(١)</sup>.

هذه بعض النماذج لتعريف ألفاظ سورة مريم، والتي أسهمت في تحقيق نوع من التلاحم بين جزئياتها الصغرى التي تخدم الهدف والمقصود من القصص من جهة والسورة من جهة أخرى.

## ب. التنكير:

النكرة في الألفاظ هي: «ما دلت على شيء لا بعينه»<sup>(٢)</sup>، وتكون الاستفادة من اللفظة المنكرة من خلال موقعها في السياق حيث يحدد معناها وقيمتها، فكأن المقام هو الذي يصف النكرة ويهبها المعاني المتعددة<sup>(٣)</sup>.

لذلك نجد لها عدة أغراض بلاغية نتلمسها في الآيات من مثل: (التعظيم والتكثير والتحقير والتقليل والدلالة على العموم).

ونأخذ هنا بعضاً من هذه الأغراض مثل:

❖ التعظيم في قوله تعالى تعليقاً على قول عيسى عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَمَ مِنْ وِلْدَانِهِ سِخْنَةً ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣٥﴾ ف (أمراً) نكرة تدل على أنه مهما يكن الأمر عظيماً فهو يحدث بمجرد قضاء الله بهدوئه<sup>(٤)</sup>.

❖ وكذلك نجد التكثير في دلالة التنكير للفظه شيباً في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤١﴾ لتدل على غزارته وكثرتة<sup>(٥)</sup>.

❖ وكذلك نتلمس دلالة الاستغراب وتعظيم الجرم في استنكار قوم مريم عليها السلام لها إحضار الطفل بقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً ۚ قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٧﴾ أي أتيت بشيء عظيم مستغرب، لا يليق بامرأة في مكانك<sup>(٦)</sup>.

إلى غيرها من الألفاظ المنكرة التي أسهمت في تقوية معاني ومقاصد القصص.

١- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٢٣.

٢- العلوي: كتاب الطراز، ص ٢٠٨.

٣- ينظر، أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ١٠٢، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفانها، (علم المعاني)، ص ٣٢٩.

٤- ينظر، الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ١٨.

٥- ينظر، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦.

٦- الألوسي، روح المعاني، ج ١٦، ص ٨٧.

## ٥. الإفراد والجمع:

إن للأفراد والجمع في القرآن الكريم معاني لطيفة، وكنةً بلاغيةً جليلةً كلاً يؤدي وظيفته في موضعه في السياق، و ينسجم به مع مضمون الآيات ويلتحم معها<sup>(١)</sup>، ومن أمثلة معانيها:

### أولاً: معاني الإفراد اللفظي في قصص السورة<sup>(٢)</sup>:

المفردة	الغرض	الدلالة والمعنى
١- (العظم) في الآية (٤).	الدلالة على الجنس.	حيث دلت على جنس العظام الذي به قوام الجسد، ولو جمع لقصد إلى معنى آخر وهو ضعف عظامه كلها دون استثناء (٢).
٢- (ضداً) في الآية (٨٢).	إظهار الوحدة والانسجام.	حيث دلت اللفظة على الوحدة والاتلاف فعلى الرغم من كثرة معبودات الكافرين من غير الله فستصبح عليهم يداً واحدة، كالشيء الواحد، لفرط تضامنهم وتوافقهم (٤).
٣- (فرداً) في الآية (٩٥).	تأكيد على المسؤولية الفردية وتجسيد الإحساس بالوحشة.	فالإفراد هنا يدل على الوحدة فلا أعوان ولا أنصار لهذا الشخص في يوم القيامة.
٤- (ولداً) في آية (٩١).	زيادة النكير	لتدل على زيادة الإنكار وإثارة الانتباه لكبر الجريمة وشناعتها.
٥- (عليّ هين) في الآية (٩).	التهوين والسهولة	لأنه في أغلب الآيات استخدم الله ضمير المتكلم (نحن) للتعظيم، غير أنه في هذه الآية جاء الضمير مفرداً للدلالة على سهولة تكوين الخلق دون أسباب ظاهرة.

١- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٢٥.

٢- المرجع السابق، ص ١٢٥.





حيث جاءت رحمتنا بالإفراد دون الجمع بـ (رحماتنا) لتدل على التعظيم، فإن كانت هذه واحدة وكان لها الأثر الكبير فكيف في الآخرة عند ظهور رحمت الله الكبرى.	التعظيم والتفخيم	٦- (رحمتنا)، في الآية (٥٠)، (٥٢).
٢- ينظر، الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ٦. ٤- ينظر، المرجع السابق، ج ٣، ص ٤٢.		

### ثانياً: المعاني التي أفادها الجمع<sup>(١)</sup>:

للجمع معانٍ سواء كانت اللفظة في صورة كلمة ظاهرة أو ضمير، ومن أبرز اللطائف والمعاني التي أفادها الجمع الآتي:

اللفظة الدالة على الجمع	الغرض	الدلالة والمعنى
١- (إنّا نبشرك - لم نجعل) في الآية (٧).	التعظيم	لقد جاءت معظم ضمائر المتكلم في السورة عائدة على الله تعالى، وذلك حينما يتكلم عن نفسه مباشرة بصيغة الجمع للتعظيم والتفخيم.
٢- (وأتيناه - لدنا) في الآية (١٢-١٣).	التعظيم	ضمير المتكلم جاء ليظهر ضخامة نعم الله على عباده الصالحين، فالتعبير بالجمع يدل على سعة عطاء الله تعالى.
٣- (آلهتي) آية (٤٦).	زيادة النكير	حيث استخدم والد إبراهيم عليه السلام صيغة الجمع للآلهة، لتذكير ابنه بمدى خطورة موقفه إزاء كفره بالآلهة المتعددة.
٤- (عباده) في الآية (٦١) و(عبادنا) في آية (٦٣).	الرفعة والتكريم	اختار القرآن كلمات الجمع التي تتناسب مع السياق وتتسجم مع معانيه، ففي السورة استخدم كلمة (العباد) في وصفه للمتقين والمسلمين، في حين يستخدم جمع (عبيد) في وصف الكافرين (٥)، وهذا ما ورد في سور أخرى مثل: «وما ربك بظلام للعبيد» (٦).
٥- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٢٢. ٦- سورة فصلت، آية ٤٦.		

١- ينظر، معين رفيع أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٣١.

إلى غيرها من الأمثلة التي تدل على معاني بلاغية مقصودة لها دور كبير في خدمة المقصود والهدف في القصص داخل السورة.

وهكذا عرضت نماذج من أمثلة الألفاظ وأشكالها ودلالاتها وإيحاءاتها، التي دلت على هندسة لغوية وتعبيرية صفت لبناتها في منتهى الدقة والإبداع، وبشكل لم توضع به عبثاً أو اعتباطاً، بل رسم لها رسماً في تنظيم وتخطيط محكم، لا يستطيع أحد مضاهاتها لتسهم جميعها في تلاحم السياق التي وردت فيه.

## ثانياً: الجملة القرآنية وأساليبها التعبيرية:

الجملة: كلمات تتألف لتدل على معنى، أو هي اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها<sup>(١)</sup>، وإن خير ما توصف به الجملة القرآنية في قوله تعالى: ﴿الرَّكَتُبُ أَحْكَمُ أَبْنَاءِ اللَّهِ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

«فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضوعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئاً.. تمضي الجملة القرآنية، وقد كونت كلمات قد اختيرت، ثم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليفه، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب»<sup>(٣)</sup>.

لهذا كله تبرز لنا الجملة القرآنية في سورة مريم لتقدم لنا عدة أساليب وأشكال لها الدور الكبير في إحكام وتلاحم بنياتها اللغوية والدلالية والجمالية المتمثلة في البنيات الكبرى التي تحويها المعمارية القصصية في السورة فما أهم هذه الأشكال التعبيرية؟ وما أهم أساليبها؟

إن من أهم الأشكال التعبيرية للجملة القرآنية: (الجملة الاسمية والفعلية) و(الجملة الخبرية والإنشائية)، ومن أهم أساليبها: (التقديم والتأخير، الإيجاز والإطناب، التكرار، القصر، الشرط) إلى غيرها من الأساليب التي قد لا أتمكن من تناولها جميعاً لطبيعة البحث، لذلك سأتناول بعضاً من الأمثلة على كل ما سبق، لتكون نماذجاً مميزاً موضحاً لنا مدى دور الجملة القرآنية في تلاحم المعمارية القصصية في السورة، كلبنات صغرى ضمت لغويات ومفردات متعددة الأشكال والأنواع.

### ١. الجملة الفعلية والاسمية:

استخدم القرآن الكريم نوعي الجملة في كثير من المواقع في الآيات القرآنية باعتبارها أساس التركيب التعبيري، ولدلالات استدعاها السياق، ولعان فرضتها مواضيع ومقاصد السورة، لذلك اهتم

١- ينظر، منير سلطان: بلاغة الكلمة والجملة والجمل، ص ٨٢.

٢- سورة هود، آية (١).

٣- أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ٨٥ - ٨٦.



علماء البلاغة بتتبع هذا الاستخدام ومدى مميزاته وفوائده وأغراضه البلاغية والسياقية، فوجدوا أن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، والاسمية تفيد الثبوت والاستقرار، إلى جانب إضافات أخرى سنتعرف عليها من خلال المعالجة<sup>(١)</sup>.

### أولاً: الجملة الاسمية ودورها:

الآية	الدلالة والإفادة
<p>١- قوله تعالى: ﴿ذَكَرْهُمْ رَبُّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾<sup>(٢)</sup></p> <p>٢- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾<sup>(٣)</sup></p>	<p>بدأ السياق القصصي بالجملة الاسمية ممّا أفاد: (٧)</p> <p>فائدة جمالية: مناسبة المصدر (ذكر) لمقدمة السورة، ولحال المتلقي من الهدوء والسكون الذي يحتاج إليهما قبل الدخول في أي أمر، وليكون تمهيد للتأثير والتفاعل فيما بعد ذلك.</p> <p>وفائدة معنوية: لدالتها على الثبات والدوام لرحمة الله تعالى الشاملة لعباده في أي زمان ومكان، وبيان مدى تميز زكريا عليه السلام بحسن عبادته وصدق إخلاصه.</p> <p>اختيرت الجملة الاسمية هنا دون الفعلية لبيان أن هذا القول وهذا الخبر هو القول الحق المعبر عن الحقيقة الواقعة التي لا نقاش فيها (٨).</p>
<p>٧- ينظر، باجودة: تأملات في سورة مريم، ص ٢٤-٤٢.</p> <p>٨- ينظر، الرازي: التفسير الكبير، ج ١٦، ص ١٠٢.</p>	



١- ينظر، عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج ١، ص ١٥٦-١٥٧.



## ثانياً: الجملة الفعلية ودورها:

الآية	الدلالة والفائدة
١- قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۗ ﴾	ضمت الجملة أفعالاً ماضية تدل على قدرة الله تعالى ومشيبته، فلقد اتخذ قراره ولا مجال للتساؤل والحيرة بعد ذلك.
٢- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۗ ﴾	جاءت الجملة الفعلية الأولى مبتدئة بالمضارع، لتدل على أن هذا القول يرد باستمرار، وفيها إعلام بأن قضية البعث والنشور ستكون موطن إنكار وتكذيب على مر الأزمنة والأمكنة، وتفيد كذلك استحضار تلك الأقوال المنكرة، وتلك الصورة الغريبة لذلك الكافر (٩). وجاءت الجملة الفعلية الثانية مبتدئة بفعل المضارع دالة على المستقبل، لاحتوائها على أداة من أدوات الاستقبال هي: (سوف) والجملة هنا تفيد الدلالة على المعاودة في الإنكار مراراً وتكراراً لهذه القضية الغيبية، واستحالة تحققها في ذهن قائلها على الزمن البعيد.
٣- قوله تعالى في بدايات كل قصة من القصص الخمس (اذكر في الكتاب).	حيث دلت الجملة الفعلية المبتدئة بفعل الأمر هذا على تجديد الانتباه لتحقيق الانفعال والإثارة في كل مرة تسرد بها قصة جديدة، وتدل كذلك على طلب الاستمرار في تذكرها لأخذ العبرة والعظمة والقدوة منها فتهون الابتلاءات وتُسرى القلوب بها من الأحزان.
٩- بتصرف، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١١٧.	





## ٢. الجملة الخبرية والإنشائية:

قسم العلماء اللغويون والبيانون الكلام إلى قسمين خبر وإنشاء<sup>(١)</sup>: فالخبر لغة: يأتي بمعنى النبأ، والجمع منه أخبار، والخبر، العلم بالأشياء، والإخبار الإعلام<sup>(٢)</sup>، وفي الاصطلاح قد تعددت تعريفاته منها: «ما تركيب من جملة أو أكثر وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنية»<sup>(٣)</sup>، وقيل هو: تقدير أمر من الأمور والإخبار عن قضية من القضايا<sup>(٤)</sup>، وقيل: «الخبر ما لا يتوقف تحققه ووجوده على قول المتكلم»<sup>(٥)</sup>.

وأما الإنشاء ففي اللغة هو: الابتداء، والمنشئ: الذي يجيد استنباط المعاني وتأليفها والتعبير عنها بكلام بليغ<sup>(٦)</sup>، واصطلاحاً هو: «ما سوى الخبر مما أفاد طلباً أو قسمة»<sup>(٧)</sup>، وقيل: «إنه ما يتوقف تحققه ووجوده على تلفظ المتكلم به»<sup>(٨)</sup>.

### - أغراض الجملة الخبرية:

وللجملة الخبرية الكثير من الأغراض التي نلحظ بعضها في قصص سورة مريم منها:

- ❖ فائدة الخبر، وهي من أهم الأغراض الرئيسة للجملة الخبرية لما يقدمه المتكلم من إعلام لمضمون عبارته، وإخبار السامع لمحتواها الذي يجهله<sup>(٩)</sup>.
- ❖ وهناك أيضاً غرض خبري رئيسي يسمى (لازم الفائدة) وهو: الخبر الذي يخبر به المتكلم السامع يريد به بيان معرفته بهذا الخبر وكونه ليس خافياً عليه<sup>(١٠)</sup>.
- ❖ إلى جانب أغراض أخرى تخرج الجملة إليها عن الغرضين السابقين بواسطة القرائن والدلائل، وأمثلة لجميع ما سبق في الجدول الآتي:

١- ينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ط١، ص١٠٧، ومحمد محمد أبو موسى: دلالات التركيب (دراسة بلاغية)، مكتبة وهبة، دار التضامن، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ط٢، ص١٨٥.

٢- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٥، ص١٠، والخبر، ص١٠، والفيروز آبادي: القاموس المحيط ص٣٤٤-٣٤٥.

٣- ناصر الخنين: النظم القرآني في آيات الجهاد، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ط١، ص٥٥٣.

٤- بتصرف: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفتانها: ج١، ص٩٩.

٥- المرجع السابق، ص١٠٠.

٦- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مجلد ١٤، نشأ، ص٢٥٢-٢٥٣.

٧- ناصر الخنين: النظم القرآني في آيات الجهاد، ص٢٥٣.

٨- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفتانها (علم المعاني، ج١، ص١٠٠).

٩- بتصرف، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفتانها، (علم المعاني)، ص١٠٦-١٠٧.

١٠- بتصرف، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفتانها، (علم المعاني)، ص١٠٧.

الآية	الغرض	الدلالة والفائدة
١- قوله تعالى على لسان الملك مخاطباً مريم عليها السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩﴾	فائدة الخبر	حيث جاء هذا الرد الإخباري بعد استعاذة مريم عليها السلام من الملك التي تمثل لها على هيئة رجل، فأخبرها وأعلمها عن سبب وجوده الذي يدفع عنه كل تهمة وخوف، وهكذا فوجئت السيدة مريم عليها السلام بأمر لم تكن تتوقعه أو تحسبه.
٢- قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۝٤٤﴾	لازم الفائدة	حيث طرح إبراهيم عليه السلام هذا القول على والده قاصداً به إشعار والده بأنه عالمٌ بهذه الآلهة التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر.. وأنها عاجزة تماماً عن فعل أي شيء، فأبراهيم هنا لا يفيد حكماً أو خبراً جديداً فهو ووالده عالمان بحقيقة الأمر.
٣- قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾	إظهار الضعف	فالمراد هنا هو إظهار زكريا عليه السلام لحاله الذي وصل إليه، فيكون موضع استرحام وعطف من الله تعالى، فيرزقه الغلام الرضي.
٤- قوله تعالى: ﴿ فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَأَةٌ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝١٧﴾ بِتَأَخُّتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۝١٨﴾	التوبيخ والتأنيب	حيث أطلق القوم كلماتهم المنكرة والمتعجبة في توبيخ السيدة مريم عليها السلام للفاعل العجيب والغريب الذي جاءت به، وبخلق يناقض ما عرفوه عن أهلها.



فالتطمين بالنداء لها سواء كان من الملك أو من ابنها يريح روحها، كما أن وجود الماء والإخبار عنه ينشط من استعدادها الجسدي الذي أرهق بآلام الحمل والولادة، فهي محتاجة للماء لتروي ظمأها وتريح نفسها.	التطمين والتشريط	٥- قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي تَحْتِكَ سَرِيًّا﴾ (٢٤)
أفادت الجملة الخبرية هنا التشنيع والتعريض بقول هؤلاء المفترين على الله الكذب.	التعريض والسخرية	٦- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨)
أفادت بيان صفات الاصطفاء والرضا من الله تعالى ليكون أنموذجاً يحتذى به.	للمدح والتشريف	٧- قوله تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ لِمَسْجِدٍ أَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (٥٥)

- ويتبع علماء البلاغة في أغلب دراستهم (أسلوب التوكيد) بالجملة الخبرية لشدة علاقته بها، لذلك سأتناوله بالمعالجة باعتباره غرض من أغراض الجملة الخبرية، فالتوكيد: «تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره»<sup>(١)</sup>، لذلك نجد يسهم في:
  - تثبيت وتعميق الفائدة من الإخبار في نفس المتلقي، بما يستخدمه من أدوات توكيدية للجمل الاسمية والفعلية المخبر عنها.
  - كما أنه يسهم في تدعيم الأفكار الرئيسة التي تدور حولها مقاصد القصص والسورة.
- ولقد وردت أدوات التوكيد بكثرة في سورة مريم منها: مؤكدات للجملة الاسمية مثل: «إِنَّ وَأَنَّ ولام الابتداء ولكنَّ وكانَّ وأما وألا وضمير الفصل) واو العطف»<sup>(٢)</sup>، ومؤكدات للجملة الفعلية (قد ونونا التوكيد والسين وسوف ولن)<sup>(٣)</sup>، وأقتصر في هذا الموضوع بذكر بعضاً من أمثاتها، منها:

١- ينظر، العلوي: كتاب الطراز، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ط١، ص ٢٨٧.

٢- ينظر، محمد حسين أبو الفتوح: أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، مكتبة لبنان، (د، ت)، (د، ط) ص ١٣١-١٥٥.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ١٥٧-١٧٧.

المعنى المؤكد عليه	الغرض منه	أداة التوكيد	أسلوب التوكيد
التأكيد على قدرة الله تعالى وعظمته التي بها يخرج الأمر من قوانينه الكونية، فيورث في قلب زكريا عليه السلام الاطمئنان لإجابة دعائه.	إظهار العظمة والاطمئنان.	(قد) مع الجملة الفعلية.	١- قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيَّ هِينٌ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾
جاء رد عيسى عليه السلام لقومه بتأكيد عبوديته المطلقة لله تعالى ودفع جميع التهم والافتراءات التي ألقيت على الله وعليه وعلى أمه من قبلهم.	فائدة الخبر (١٠).	(إن) مع الجملة الاسمية.	٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكَتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾
لم يكن رد إبراهيم عليه السلام على غلظة والده إلا أن يعده بأن يستغفر له ربه، فقامت أداة التوكيد المستقبلية (السين) دورها لبيان قرب تنفيذ هذا الوعد. (١١)	إظهاراً للتأسف والتعطف.	(السين مع الجملة الفعلية)	٣- قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ۝٤٧﴾

١٠- ينظر، صفحة ٢٥٢ من البحث.

١١- ولقد كان هذا الوعد بالاستغفار قبل نزول تحريم الاستغفار والدعاء للمشركين، حيث نلاحظ من السياق القرآني وفاء إبراهيم عليه السلام بمعده بقوله تعالى على لسانه: ﴿ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٦﴾ سورة الشعراء آية ٨٦، ثم تركه للاستغفار بقوله: ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ ۝١١٤﴾ سورة التوبة ١١٤، ثم جاء التحريم في القرآن بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَدْمًا تَبَيَّنَ لِمَنْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٣﴾ سورة التوبة آية ١١٣.

وبالتأمل في السورة وخاصة القصص نجد أن التركيز على التوكيد له بعض الدلالات منها:

- مناسبة لحقيقة دعوة الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لأقوامهم.



٢٩٣



- مناسبته وعد الله سبحانه لعباده المتقين بالجزاء الدنيوي والأخروي الحسن.
- مناسبته وعد الله عز وجل لعباده الضالين بالجزاء الدنيوي والأخروي الأليم.
- كما أنها أعطت جو القصص واقعية وصدقا أكثر في ذهن المتلقي، للتأكيد على المقصد الرئيس في السورة، سواء كان هذا المتلقي هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه الصالحين، أو كان المتلقي هم المتخبطين من الكافرين والمشركين والمفتريين في كل زمان ومكان.
- **الجملة الإنشائية أنواعها وأغراضها:**

الجملة الإنشائية تنقسم إلى: طلبية وغير طلبية، فالطلبية هو: استدعاء الكلام الذي يقال أمراً غير حاصل عند النطق، مثل: (الأمر، الاستهزاء، النداء، النهي، التمني)<sup>(١)</sup>.

وغير الطلبية هو: الذي لا يستدعي أمراً حاصلاً عند الطلب مثل: (التعجب والمدح والذم والدعاء وصيغ العقود، والقسم، وبعض أفعال المقاربة، وهي: كاد وكرب، وأفعال الرجاء وهي: عسى، وحري، واخلولق)<sup>(٢)</sup>.

ولقد اهتم علماء البلاغة بدراسة الإنشاء الطلبية أكثر لتعلقه بالمباحث البلاغية والنكات البيانية<sup>(٣)</sup>.

لذلك سأركز على بعض أمثلته في دراستي، لنرى مدى الدور الجمالي والدلالي الذي يسهمه في تحقيق الوحدة الفنية كبنية صغرى داخل المعمار القصصي في السورة، وبكونه أساس من أسس التركيب اللغوي فيها<sup>(٤)</sup>.

## أولاً- أسلوب الأمر:

وهو: «طلب الفعل على جهة الاستعلاء»<sup>(٥)</sup>، ولقد ورد أسلوب الأمر<sup>(٦)</sup> في السورة بما يقارب من أربعة وعشرين موضعاً، منها ثمانية عشر موضعاً تركز في القسم القصصي الأول، ومن أمثلته في هذه المواضع:

- ١- بتصرف، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم المعاني) ص ١٤٧.
- ٢- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٤٧.
- ٣- ينظر، المرجع السابق، ص ١٤٨، أبو موسى: دلالة التركيب (دراسة بلاغية)، ص ١٢٢.
- ٤- ينظر، محمود السيد حسن مصطفى: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٤٠١هـ، ١٩٨١، ط ١، ص ٢١١.
- ٥- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم المعاني) ص ١٤٩، ينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١١٦.
- ٦- ويأتي على عدة صيغ أشهرها: "فعل الأمر وهو أشهر الصيغ- المضارع المقرون بلام الأمر- اسم فعل أمر- المصدر النائب عن فعل الأمر)، وقد يخرج الأمر من الحقيقة إلى المجاز ليدل على مقاصد متعددة ومنها: (التهديد، الإباحة، الدعاء، الالتماس، التمني، الاستهزاء، الاحتقار، التهكم....) وغيرها من المعاني المفادة من هذا الأسلوب. ينظر فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، ص ١٤٩- ١٥٠- ١٥٣.

أسلوب الأمر	الغرض منه	فائدته ودلالته
<p>١- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أهلكها مكاناً شَرْقِيًّا﴾ (١٦) وكذلك الأمر في بدايات القصص في القسم الأول من السورة.</p>	<p>إرشاد وترغيب وتشريف وتشويق.</p>	<p>ورد أسلوب الأمر في هذه المواضع على طلب الأمر من (الأعلى إلى الأدنى) لدلالة على: ترغيب الناس في اتباع هؤلاء النماذج البشرية النادرة. تسلية لقلب النبي عليه السلام لما يلاقه من عناد وتكذيب من قبل قومه. التشويق لمعرفة صفات وخصائص هؤلاء الذين وصلوا لدرجة التشريف والتكريم.</p>
<p>٢- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَى مِنْ وِرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ (٥) وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ (١٠) قَالَ آيَاتِكَ إِلَّا تَكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيْسَ سَوِيًّا﴾ (١٠)</p>	<p>غرضه للدعاء</p>	<p>جاء أسلوب الأمر صادراً من (أدنى إلى أعلى) في قصة زكريا عليه السلام مفيداً الدعاء في ثلاثة أفعال (فهب واجعله واجعل لي) التي تدل على الثقة المطلقة بهبات الله وفضله وعطاؤه.</p>
<p>٢- قوله تعالى على لسان والد ابراهيم: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلهتِي يَا بَرَهَيْمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦)</p>	<p>غرضه التهديد</p>	<p>قد ضمت صيغة الأمر في هذا الرد معنى التهديد والإنذار من قبل هذا الوالد المعاند لابنه، مما يدل على إصراره على الضلال والشرك وعدم الرجوع عنه.</p>

وبهذه الأمثلة نجد أسلوب الأمر كان يحوم بدلالته الفكرية و الفنية على الهدف الرئيس من السورة، مدعماً المقصد في لزوم العبودية وتوحيد الله تعالى، والسير على خطا الصالحين والمتقين الذين ساروا على نفس هذا الطريق من طلب العون من الله تعالى دون سواه.



## ثانياً - أسلوب الاستفهام:

هو «طلب الفهم، وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به»<sup>(١)</sup>، ولقد جاء الاستفهام<sup>(٢)</sup> في السورة في ثلاثة عشر موضعاً تقريباً، ثمان منها في القسم القصصي، ومن أمثلته:

أسلوب الاستفهام	نوعه و غرضه	دلالاته وفائدته
١- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَكُورٌ لِي عُلْمٌ وَكَانَتِ آمْرًا قَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾	استفهام (بأنى) و غرضه التعجب و طلب الاطمئنان.	جاء الاستفهام بـ (أنى) التي تأتي بمعنى: (كيف ومن أين ومتى) (١٢)، للتساؤل التعجبي الذي يهدف فيه الرغبة إلى الاطمئنان في كيفية تحقق هذا الأمر، الذي يخرج عن العادة، فعلى الرغم من يقينه بقدرة الله تعالى ومشيتته، فإن الطبيعة البشرية تثير هذه التساؤلات في كيفية الخروج عن قوانين الكون ومسبباتها. والتساؤل نفسه نجده على لسان مريم عليها السلام عن كيفية رزقها بالغلام وهي ليست متزوجة وليست ببغي.
٢- قوله تعالى على لسان قوم مريم عليها السلام: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾	استفهام بـ (كيف) للإنكار والتعجب والتوبيخ	فقوم مريم عليها السلام استغربوا من ردها عليهم بالإشارة إلى الطفل ليجيب بالنيابة عنها من بعد سؤالهم عنه، فردوا عليها مستنكرين ومتعجبين منها هذه الإشارة وهي المتسمة عندهم بالعقل والعفة.



١- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم المعاني) ص١٦٨.

٢- وله عدة أدوات منها: حرفان هما: (الهمزة و هل) وتسعة أسماء هي: (من ما متى أين أيان أنى كيف- كم أي)، ولكل أداة معنى يناسبها، وقد تخرج هذه الأدوات عن أغراضها إلى أغراض أخرى تفهم من السياق، ومن أهم الأغراض الاستفهامية (التقرير الإنكار الاستفهام التوبيخ التشويق التعجب الوعيد والتخويف الأمر التهكم النهي الاستبعاد التهويل التعظيم النفي التنبه التحقير، إلى غيرها من الأغراض) ينظر، المرجع السابق، ص١٦٨-١٩٩-٢٠٢. و الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص١١٢-١١٥.



<p>الاستفهام (بالهمزة) إذا كان قبل فعل الرؤية فإنه يفيد التنبيه والتعجب وتوجيه الأذهان للمتحدث عنه، غالباً كما يمهد لأسلوب استفهامي جديد يأتي بعده (١٣).</p> <p>ونطاق أقصوصة هذا المنكر تدور حول اعتقاده ومفهومه الخاطئ الذي بلغ به مبلغاً يدعو للتعجب من قوله في قسمه أن يكون من أهل المال والولد في الآخرة.</p> <p>وجاء الرد من الله تعالى له على إصراره بالاستفهام التوبيخي لإنذاره وتوبيهه هو وأمثاله على عواقب هذا القول الذي يكشف عن شدة التكبر.</p>	<p>(الاستفهام بالهمزة)</p> <p>- الاستفهام الأول إنكار واستهزاء والتعجب.</p> <p>- الاستفهام الثاني لتعجب والتوبيخ.</p>	<p>٣- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ﴾ (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾</p>
<p>(أي) تأتي للسؤال عما يميز أحد المشاركين في أمر يعمهما (١٥).</p> <p>وجاء الاستفهام هنا ليوضح بتساؤلهم التقريري والتهكمي للمؤمنين على جهلهم وضلالهم وفتنتهم بالدنيا ومظاهر الترف والنعيم، فغابت عنهم الحقيقة فتخطوا في غفلتها ومتاهاها.</p>	<p>الاستفهام ب (أي) وغرضه استفهام التقرير والتهكم (١٤).</p>	<p>٤- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ لَئِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأُفْرِيقَيْنَّ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۗ﴾ (٧٣)</p>
<p>١٢- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١١٢-١١٥.</p> <p>١٣- ينظر، عبد العليم السيد فودة: أساليب الاستفهام في القرآن، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، (د-ت)، (د-ط)، ص ٣٤.</p> <p>١٤- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٥٤.</p> <p>١٥- ينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١١٠.</p>		

مررنا على بعض أسرار القرآن الجمالية في استخدام الأسلوب الاستفهامي، الذي ساعد على الإثارة والانفعال وشد الانتباه للمواضع الفكرية والدلالية، التي تُعد المركز والأساس الذي تحوم حوله

مواضيع القصص داخل السورة الكريمة<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً - أسلوب النداء:

وهو «طلب إقبال المخاطب»<sup>(٢)</sup>، ولقد ورد أسلوب النداء<sup>(٣)</sup> في أربعة عشر موضعاً تقريباً في السورة مكتفياً بالدرجة الأولى داخل القصص، من أمثلته كالآتي:

أسلوب النداء	الأداة والغرض	دلالاته وفائدته
١- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَاؤِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ <sup>(٤)</sup> وكذلك في الآيات (٦-٨-١٠).	أداة النداء هنا هي: يا المحذوفة، غرضه التعظيم ورفع الشأن والاستغاثة.	تكرار النداء خمس مرات بحرف النداء المقدر (يا) لأسرار بلاغية ودلالية منها: أهمية اللجوء إلى الله تعالى في جميع الأمور صغيرها وكبيرها وهذا ما تلمسناه في دعاء زكريا عليه السلام لربه، الذي عبّر عن حالته النفسية والجسدية المتعبة. الدلالة على المتعة والتلذذ بالنداء من قلب عبد قد أخلص وأيقن بربه فعلق الآمال والرجاء فيه. تدل على الشعور بقرب الله تعالى ودنوه منه.
٢- قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ <sup>(٥)</sup>	أداة النداء (يا) وغرضه إثارة الانتباه والتودد والتعجب.	النداء تكرر في أقصوصة إبراهيم عليه السلام مع والده أربع مرات حملت في طياتها معاني عدة من التوبيخ والاستعطاف والتعجب والإنذار، واستخدام النداء ب (الياء) التي تدل على بعد المنادى لها عدة مقاصد منها: إثارة الانتباه والإنذار، إذ كان أبوه غافلاً ساهياً عنه وبعيدا عن الحقيقة. بيان شدة البعد النفسي بين إبراهيم عليه السلام ووالده، لاختلاف عقائدهما.

١- ينظر، يوسف حسن نوفل: جماليات القصة القرآنية، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ط١، ص ١٠٥-١٠٦-١٠٧.

٢- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، علم المعاني، ص ١٦٢..

٣- وحروفه ثمانية: (يا الهزمة أي أي أيا هيا وا آ)، وأشهرها (ياء) وهي الوحيدة التي تدخل على لفظ الجلالة وقد تحذف أحياناً، ولأسلوب النداء أغراض متعددة مثل: (بيان المكانة والقدرة - الاستغاثة - التعجب - الندبة - الاختصاص - التحسر والتوجع - الإغراء والتحذير - الزجر والملامة..). ينظر، المرجع السابق، ص ١٦٢-١٦٥-١٦٧.



وأدوات النداء بشكل عام في القرآن تقدم لنا بيانا للأسس السليمة التي يقوم بها الدين في الدعوة لعبادة الله بالحكمة والموعظة الحسنة، سواء مع علاقة الإنسان بربه، أو بأهله، أو بالمجتمع الذي يحيا فيه، ولا يخفى علينا إلى جانب ذلك الدور الجمالي المؤثر الذي يضفيه على عنصر الحوار في القصص.

## رابعاً - أسلوب النهي:

ومعناه: «طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة وهي المضارعة مع (لا) الناهية»<sup>(١)</sup>.

ولقد ورد<sup>(٢)</sup> أسلوب النهي في السورة ثلاث مرات، ومثاله:

أسلوب النهي	غرضه	الفائدة والدلالة
١- قوله تعالى: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي ۚ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنُكَ سِرًّا ﴿٢٤﴾﴾	التسليية والصبر	النهي بعدم الحزن حمل في طياته عدة معان منها:- السلامة والاطمئنان وتهدة الروح والتنبية على فرج الله ونصرته. - الدلالة على قرب الله منها وتشريفها واصطفائها، كما هو واضح في قوله تعالى: (قد جعل ربك) فذكر الرب مضافاً له (كاف الخطاب) للدلالة على هذه المكانة العظيمة.
٢- قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَّبِعْ لَّا تَعْبُدَ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾	الإرشاد	البر بالوالدين والإخلاص في الدعوة يدفعان إبراهيم عليه السلام إلى أن يرشد والده للطريق الحق قبل فوات الأوان، فينذره بالأسلوب الحاني، والطريقة الحكيمة لعله يتأثر ويلين، فيرجع لله تعالى تائباً خاضعاً.

١- فضل حسن عباس: البلاغة فنونه وأفنانها، (علم المعاني)، ص ١٥٤.

٢- وقد يخرج أسلوب النهي عن معناه الحقيقي إلى معاني مجازية أخرى يدل عليها السياق، ومنها: (الإرشاد - التهديد - التوبيخ - التمني - التحقير - التسليية - التصبير....) فضل حسن عباس: البلاغة فنونه وأفنانها، (علم المعاني)، ص ١٥٤.



يخاطب الله تعالى نبيه محمداً عليه السلام بأن يتمهل عليهم، فإنما هي أيام قلائل وسوف يرون ما أنذروا به.	تهديد وتقريع	٣- وفي قوله تعالى في القسم الخطابى ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ <sup>(١٤)</sup>
---	-----------------	---

وبهذا نجد أن هذه المواضيع الثلاثة لأسلوب النهي في السورة قدمت لنا مع جمالياتها دلالات تنويرية تتلاحم مع القصص والسورة بشكل عام، لتدور حول ثلاثة معانٍ لا بد أن ينتبه لها كل إنسان هي:

١. (عبودية الله تعالى وتنزيهه عن الشريك) فالشيطان عدو لكل من رفع هذا اللواء وسار تحته وهذا ما تلمسناه في النهي بقول إبراهيم عليه السلام: «لا تعبد الشيطان».
٢. (النعيم والتأييد والرحمة التي يجنيها) الإنسان بفضل هذه العبادة وهذا ما تلمسناه في النهي في قوله تعالى: «ألا تخزني».
٣. (العذاب والمصير المؤلم) للذين يزلون عن الطريق السوي فما هي إلا أيام قليلة، وهذا واضح في أسلوب النهي في قوله تعالى: (فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً).

### خامساً - أسلوب التمني:

التمني هو: طلب حصول الشيء المحبوب، وقد يكون ممكناً أو مستحيلاً<sup>(١)</sup>، وأداته (ليت).

ولقد ورد أسلوب التمني<sup>(٢)</sup> في السورة مرة واحدة في قصة مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾<sup>(١٣)</sup> حيث جاء تمنيتها هنا بالأداة (ليت) لأمر محال، وهو موتها قبل حدوث أي شيء، وذلك من شدة ما شعرت به في لحظتها من آلام (جسدية ونفسية عنيفة)<sup>(٣)</sup>.

كما أننا نرى استخدام حرف النداء (يا) الذي ساعد على إفراغ الشحنات المؤلمة من التأوهات والأحزان التي تختلج في قلب السيدة مريم عليها السلام.

ويكفي هذا المثال لندرك مدى الدور الجمالي والدلالي الذي يضيفه أسلوب التمني في هذا الموقع، فالآلام الولادة حقيقة تعبر عن أعظم ألم وقوة طبيعية قد تمر بها المرأة، فلا تستطيع حيالتها

١- بتصريف، فصل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم المعاني)، ص١٥٦، وينظر، أبو موسى: دلالات التراكيب (دراسة بلاغية) ص١٩٤-١٩٥.

٢- ويلحق بها أدوات أخرى خرجت عن أصل وضعها، وهي: (لعل هل لو)، ويأتي التمني أحياناً لعدة أغراض منها: (بيان استحالة وقوع الأمر إمكانية الوقوع الندم والحسرة....)، ينظر، أبو موسى: دلالات التراكيب (دراسة بلاغية)، ص١٩٤ إلى ٢٠٢، حيث ضم ملاحظات قيّمة للفرق بين أدوات التمني من حيث الأغراض والمعاني.

٣- ينظر ص ٢٧٣- ٢٧٤ من البحث.

تقدماً أو تأخيراً، ولا يستطيع أحد أن يقدم لها إعانة بتخفيف أو تثقيل إلا الله عز وجل ملجأ كل محتاج ومستغيث وملهوف، فكيف انضم إليه ألم آخر وهو كيفية مواجهة القوم بآبن مولود من غير زوج، ومن امرأة قد اتسمت بالعفة والطهر، ألا إذن فهو البلاء العظيم.

وأسلوب التمني إن كان يدل على شيء هنا، فإنه يدل على أن الشخص قد يبتلى بأمر، تُسد عليه المخارج، وتقفل عنه الأبواب، فلا يجد ملجأ ولا منجى إلا لخالقه وبارئته الذي يخرج من أزمته، فليتعظ هذا الإنسان الضعيف الذي خلق في كبد، وليرجع عن غروره وتكبره، وليفتح قلبه وعقله للتيقن والفهم والاستيعاب للحقائق الواضحة والآيات الساطعات.

وبعد عرض سريع للأساليب الإنشائية بمضمونها الطلبي اتضح لنا ذلك الدور الجمالي البديع وذلك المعنى الدلالي المحكم، اللذان يجتمعان معا في هذه الأساليب على الرغم من تنوعها واختلاف أغراضها لتحقيق الوحدة الفنية في المعمار القصصي، التي كان لها الأثر الفاعل في نفس المتلقي إذ إنها تأسره وتستحوذ عليه بما تقدمه من جماليات دلالية وفنية تثير عقله وقلبه معا.

### ٣. أسلوب التقديم والتأخير:

إن سياق القرآن الكريم سياق معجز ومحكم للغاية، في جميع مفرداته وآياته ومقاطعها، فكل كلمة تستدعي أختها وكل آية تتناسب مع الأخرى، وكل مقطع يتوافق مع المقاطع السابقة واللاحقة فيه، بشكل لا نستطيع فصله أو استبداله بمن ينوب عنه.

والتقديم والتأخير في أسلوب القرآن الكريم أداة فاعلة تسهم في هذا الإحكام الرصين والنظم البديع، فكل كلمة قدمت لسبب، وأخرت الأخرى لسبب آخر<sup>(١)</sup>.

فالتقديم والتأخير يُعرف بأنه: «تبادل في المواقع، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها أخرى، لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤدي لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي»<sup>(٢)</sup>.

ولقد وضع الزركشي أهميته بقوله: «هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»<sup>(٣)</sup>.

١- ينظر، خلدون سعيد صبح: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص ١٩٧.

٢- منير سلطان: بلاغة الكلمة والجملة والجم، ص ١٠٨.

٣- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢، و ينظر، عبد القاهر الجرجاني: دلال الإعجاز، ص ٧٦-٧٧.



ولقد ظهرت بعض استعمالاته البلاغية<sup>(١)</sup> في سورة مريم، سأحاول أخذ بعض أمثله كما في الجدول الآتي:

الفائدة والدلالة	الغرض	جملة التقديم والتأخير
قدم الجار والمجرور (في الكتاب) على المفعول به هنا لبيان أهمية الكتاب والقرآن الذي به صلاح وهداية الأمم في كل زمان ومكان.	بيان الأهمية	١- في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١١) وكذلك في الآيات (٤١ - ٥١ - ٥٤ - ٥٦).
تقدم الجار والمجرور (من أهلها) على المكان الشرقي، لتدل على حرصها على العبادة والخلوة، والانفراد حتى عن أقرب الناس إليها.	للتخصيص	٢- قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١١)
حيث «قدم المتعلق تشويقاً إلى المفعول ليكون أوقع في النفس» (١٦)، فالمتعلق (لك) تقدم على المفعول (غلاماً) لبيان شدة الإنعام التي ينالها عباده المخلصين من الاصطفاء والاختيار والتبشير والتشويق التي تعطي للنفس نشاطاً وحيوية في آن واحد.	للتشويق	٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩)
تقدم الخبر (أراغب) على المبتدأ (أنت) لأهمية الفعل، وشدة وقعه على الوالد المعاند متعجباً مستنكراً على إبراهيم عليه السلام هذا الموقف (١٧).	لبيان الأهمية	٤- قوله تعالى على لسان والد إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلَّمْتُكَ لِسَانَ الْبُحْرَيْنِ لَنْ تَنبِتَهُ إِلَّا جُحْشًا مَخْبَرًا﴾ (٤٦)

١- ويأتي التقديم والتأخير لأغراض متعددة على حسب استعماله في السياق القرآني ومنها: (التعظيم التشويق إفادة التخصيص التعميم التنبيه التفاضل - بيان الأهمية - والسببية.....) ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢، وفضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقناتها، ص ٢٠٧-٢٤٢. وعبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج ١، ص ٩٠ لى ١٠٨، والسيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٥، وخذون سعيد صبح: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص ١٩٨.

<p>فلقد قُدمتُ صفة (الإخلاص) على (الرسالة والنبوة) لبيان أهميتها وأثرها على الشخص وخاصة في مراقبته لله تعالى، ولقد شرف بها موسى باعتبارها سابقة في خلقه من قبل الرسالة والنبوة، ومركزة على المحور الرئيس الذي تدور حوله القصص من الإخلاص في العبودية.</p>	<p>هنا تقديم وتأخير معنوي يدل على التشريف والأهمية.</p>	<p>٥- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٥)</sup></p>
<p>قدم الله تعالى (نداؤه ليحيى عليه السلام) قبل أن يتحدث عنه بكلمة وذلك: «لأن مشهد النداء رائع عظيم يدل على مكانة يحيى وعلى استجابة الله لذكرك في أن يجعل له من ذريته ولياً، يحسن الخلافة بعده في العقيدة والعشيرة» (١٨).</p>	<p>تقديم معنوي للتشويق.</p>	<p>٦- وفي قوله تعالى: ﴿يَبْحَثُ خُدَّ الْكِتَابِ بِقُوِّ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾<sup>(٦)</sup></p>
<p>١٦- البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٢٧.          ١٧- بتصرف، الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٢٢.          ١٨- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣٠.</p>		

وهكذا سار هذا الأسلوب في قصص سورة مريم ليعطي جمالاً وتفاعلاً له أبلغ الأثر في نفس المتلقي، حيث تقدم كلمة وتؤخر أخرى لنكت بلاغية، تدور حولها أهداف القصص.

وهو حقاً كما قال الجرجاني: «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يُفْتَرُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»<sup>(١)</sup>.

#### ٤. الإيجاز والإطناب:

يعد الإيجاز والإطناب نوعاً من أنواع البلاغة وحسن الأداء، حتى عده بعضهم من أعظم هذه الأنواع وأدقها<sup>(٢)</sup>، ولكل منهم موقع خاص لا يليق بالآخر.

١- عبد القاهر الجرجاني: دلال الإعجاز، ص ٧٦.

٢- ينظر، السيوطي: الإتيان في البلاغة، المجلد الثاني، ص ١٣٦، وفضل حسن عباس: البلاغة فنونها وافنانها (علم المعاني) ص ٤٥٤.



فلقد قال أبو هلال العسكري: «إن الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضوع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»<sup>(١)</sup>.

أ- الإيجاز: ويعرف بمعنى: «قصد اللفظ مع وفاء المعنى»<sup>(٢)</sup>.

ولقد عرض القرآن الإيجاز في عدة مواقع لها أبلغ الأثر في تركيز المعنى للإمام بالمقاصد الكلية للسورة القرآنية، وبخاصة أن هذا الأسلوب في الخطاب ناسب ما تعود عليه الجاهليون أن ذلك من الحفظ واختصار القول، لأنه أدعى لتذكر والاستيعاب وبخاصة أنهم قوم لا يعرفون القراءة والكتابة، بل كانوا يعتمدون على صفاء ذاكرتهم وقوة حافظتهم<sup>(٣)</sup>.

«الإيجاز قسمان: وجيز بلفظ ووجيز بحذف»<sup>(٤)</sup>، وأما بالنسبة للسورة الكريمة فلقد برز فيها إيجاز الحذف<sup>(٥)</sup> بشكل ملحوظ لذلك سأعرض لبعض أمثله بتطبيقها على قصص السورة كما في الجدول الآتي:

موضوع إيجاز الحذف	الغرض	دلالاته وفائدته
١- حذف حرف النداء (ياء) في خمس مواضع في قصة زكريا عليه السلام، مثاله: ﴿يَرْثِي وَيَبْتَئِنُّ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ <sup>(٦)</sup>	التفخيم والتعظيم والسرعة (١٩)	مناسبة الحذف لحال زكريا عليه السلام من عدة وجوه: استشعاره قرب الله تعالى وعظمته وقدرته. حالة الاستعجال التي مر بها زكريا عليه السلام لكبر سنه وضعفه وخوفه من الموالي، ورغبته في تحقق الدعاء قبل فوات الأوان.

١- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص ٢٠٩.

٢- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها (علم المعاني)، ص ٤٥٧، وينظر، العلوي: الطراز، ص ٢٤٥.

٣- ينظر، عبد العزيز عتيق: علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (د-ط)، ص ١٧٣.

٤- فالوجيز باللفظ " أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة، وسبب جنسه أن يدل على التمكن من الفصاحة، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أوتيت جوامع الكلم) " والوجيز بالحذف: " هو ما يكون بحذف، والمحذوف إما جزء جملة أو جملة أو أكثر من جملة " الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٢٠ - ٢٢١، وينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٤٥، والسيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ١٢٧.

٥- ويتطرق إليه لعدة أسباب منها: (الاختصار والاحتراز، التنبيه، التفخيم والتعظيم، التخفيف، شهرته، صيانة عن ذكره تشريفاً أو تحقيراً، قصد العموم رعاية الفاصلة، قصد البيان بعد الإبهام).

ينظر السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ١٤٦-١٤٧-١٤٨.



٢- حذف الحرف في فعل الكون وهذا ما وجدناه في:

- مخاطبة الله تعالى لذكريا: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۗ ﴾ وقول مريم عليها السلام: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۗ ﴾

الاختصار  
والسرعة  
والتخفيف

ففي هذه المواضع حذف النون لداعي السرعة.

ففي مخاطبة ذكريا عليه السلام: إشعار المتلقي بسهولة الخلق، وتهوينه أمام قدرة الله تعالى.

بيان شدة التشوق في قلب ذكريا عليه السلام لسماح البشارة، فجاء الكلام مختصراً متناسباً لحالته (٢٠).

وأما في رد مريم عليها السلام فيدل على السرعة وشدة الخوف والارتباك والرغبة في معرفة كيفية هذا الرزق والراحة من ألم التصور الذي سيطر عليها.

٣- حذف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۗ ﴾

لبيان الأهمية والتبنيح عليه

والتقدير في الجملة (هذا ذكر) فجاء حذف المبتدأ وتقديم الخبر في بداية مطلق السورة، لبيان الأهمية له والعناية به، فيكون أول ما يطرق السمع هو (الذكر).

٤- حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۗ ﴾

إفادة العموم

وتقدير الجملة: واشتعل شعر الرأس شيباً، فيدل الحذف على تناول الشيب لجميع شعر الرأس وهو بيان لشدة كبره.



<p>حيث تجاوز السياق القصصي ما بين ذلك لعدم تعلق الغرض به، ولدلالة السياق عليه، والإشارة إلى تحقق البشارة وإنجاز الوعد، وتحويلها من القول إلى الفعل، والتقدير: قلنا يا يحيى خذ الكتاب (٢١).</p>	<p>الاختصار والسرعة في الإخبار</p>	<p>٥- ويوجد إيجاز حذف للجمل وهو الغالب في قصص القرآن، ومنها الانتقال من قصة زكريا عليه السلام إلى مخاطبة يحيى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ وَيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَانِئْتَهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾</p>
<p>١٩- ينظر، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ١٦٦. ٢٠- ينظر، البقاعي: نظم الدرر، مجلد ٤، ص ٥٢٨. ٢١- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٧٥.</p>		

هذه بعض أمثلة إيجاز الحذف التي أسهمت في تقوية جماليات الأسلوب القصصي بما يثيره في ذهن المتلقي من تداعيات معنوية.

**ب- الإطناب:** ويعرف بأنه: «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة»<sup>(١)</sup>.

ولقد حوت سورة مريم موضوعات متعددة للإطناب<sup>(٢)</sup>، أعرض بعض أمثله من خلال الجدول الآتي:

دلالته وفائدته	الغرض	موضع الإطناب
<p>حيث جاء قولها (لم يمسنني) مفيداً المساس عن طريق النكاح والزنا على سبيل التغليب، فقدم العام وبعدها خصص بقولها (ولم أك بغيا) حيث نقت عن نفسها تهمة البغاء. فدل الإطناب هنا على محاولة إقناع السامع بالبراءة والنزاهة والتأكيد عليها (٢٢).</p>	<p>إطناب بذكر الخاص بعد العام</p>	<p>١- قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ۝٢٠﴾</p>

١- ضياء الدين نصر الله ابن الأثير الجزري: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩م، ١٩٩٨م، ط ١، ص ١٠٩.

٢- ويأتي لأغراض متعددة منها: (الإيضاح بعد الإبهام - ذكر الخاص بعد العام التكرير لفائدة الإيغال التذييل التتميم الاعتراض - وضع الظاهر مكان المضمحل.....)، ينظر، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، علم المعاني، ص ٤٨١ إلى ٥٠٥.

<p>الفائدة هنا هي: التودد والتقرب بإظهار المحبة والعطف للسامع المنادي، لعله يلين فيتأثر ويخشع قلبه للحق، وهذه سمة الدعوة لله تعالى.</p>	<p>إطناب بالتكرار لفائدة</p>	<p>٢- تكرار لفظة (يا أبت) في قول إبراهيم عليه السلام أربع مرات خلال نداءه لوالده المعاند.</p>
<p>إذ إن (هذا صراط مستقيم) جاءت تذييلاً لما قبلها التي دلت على بيان طريق النجاة وهو العبودية لله وحده (٢٤).</p>	<p>الإطناب بالتذييل (٢٣)</p>	<p>٣- في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦)</p>
<p>لقد احترس السياق القصصي بقوله تعالى: «نداءاً خفياً» مظنة أن يتوهم القارئ كون النداء بصوت مرتفع (٢٦)، إلى جانب ما يلوح له السياق من بيان أهمية عبادة الله سرا وعلانية، ودعوته في جميع الأوقات فهو الخالق والسامع للنجوى.</p>	<p>الإطناب بالاحتراس (٢٥)</p>	<p>٤- في قوله تعالى: ﴿ذَكَرْتُمْ رَبَّكُمْ عَبْدُهُ، زَكْرِيَّا﴾ (٢٤) إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا (٢٥)</p>
<p>فجملة (إنه كان صديقاً نبياً) «جملة معترضة بين المبدل منه والمبدل فإن (إذا) اسم زمان وقع بدلاً من إبراهيم، أي اذكر ذلك خصوصاً من أحوال إبراهيم، فإنه أهم ما يذكر فيه لأنه مظهر صديقيته إذ خاطب أباه بذلك الإنكار» (٢٨).</p>	<p>الإطناب بالاعتراض (٢٧)</p>	<p>٥- في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِي الْكُتُبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢)</p>
<p>٢٢- ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٧٨.          ٢٣- التذييل هو: تعقيب جملة بجملة أخرى متفقة معها في المعنى تأكيداً على الجملة الأولى، ينظر، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ص ٤٩٢.          ٢٤- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتوير، ج ١٦، ص ١٠٥.          ٢٥- الاحتراس ويسمى التكميل وهو: «أن يؤتى في كلام يومهم خلاف المقصود بما يدفعه»، الخطيب القرظيني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٥٦.          ٢٦- ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٥٩.          ٢٧- الاعتراض هو: «أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب» المرجع السابق، ص ١٥٩، وينظر فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ص ٤٩٢.          ٢٨- ابن عاشور: تفسير التحرير والتوير، ج ١٦، ص ١١٢.</p>		

وأكتفي بهذه الأمثلة ليتضح لنا تلك الجمالية الفريدة في الأسلوب القرآني، وليتضح لنا مدى أهمية الإطناب الذي ساعد على بيان القضايا الرئيسية التي عالجتها السورة من خلال قصصها وهي:

- بيان عبودية الله تعالى.
- بيان رحمة الله لعباده المتقين.
- بيان أصناف أهل الكفر والشرك والرد على أقوالهم.
- بيان أحوال وجزاءات الفريقين في الدنيا والآخرة.

## ٥. أسلوب التكرار:

لأهمية هذا الأسلوب الذي يدرجه أغلب العلماء تحت الإطناب ارتأيت أن أفرد به بالمعالجة في السورة بشيء من التفصيل:

فالتكرار في القرآن يأتي على نوعين:

❖ تكرر القصص والأخبار: وهو تكرر القصص بإعادة بعض حلقاتها، بحيث يكون الجزء المكرر مناسباً للسياق الذي ورد فيه، ومنسجماً مع الموضوع العام، بما يسهم في خدمة الغرض الديني<sup>(١)</sup>.

وإعادة القصة الواحدة بعبارات جديدة وبأسلوب مغاير يظهر بلاغة القرآن وحسن تصرفه في فنون القول، وهذا بحد ذاته يعتبر تحدياً كبيراً أمام المعاندين بأن يأتوا بشيء من هذه البلاغة المحكمة في القصة الواحدة المكررة على عدة أشكال أسلوبية<sup>(٢)</sup>.

ولكننا لا نجد هذا النوع من التكرار القصصي في سورة مريم لذلك أتجاوز به إلى النوع الثاني

وهو:

❖ تكرر الألفاظ والعبارات الذي نجده بكثرة في السورة الكريمة، والمقصود به: «إعادة الكلمة نفسها، أو العبارة ذاتها، في السياق نفسه، أو في سياق آخر من السورة»<sup>(٣)</sup>.

ويأتي بمعنى: «دلالة اللفظ على المعنى مردداً، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى

مردد، واللفظ واحد»<sup>(٤)</sup>.

١- بتصريف، سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٥٥-١٥٦-١٧١.

٢- بتصريف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٠٢.

٣- المرجع السابق، ص ١٠٢.

٤- ابن الأثير: المثل السائر، ج ٢، ص ١١٠.

و يعد التكرار المفيد جزءاً من الإطناب: «فأما الذي يأتي لفائدة فإنه جزء من الإطناب وهو أخص منه»<sup>(١)</sup>، ولكن الذي يأتي لغير فائدة فإنه يعد من قبيل التطويل المذموم الذي يعده النقاد ضعفاً وعبثاً<sup>(٢)</sup>.

وكل التكرارات التي وجدت في القرآن من النوع الذي تصحبه الفائدة سواء أكانت ظاهرة جليلة للعيان، أو بحاجة إلى تأمل وتدبر للكشف عنها<sup>(٣)</sup>، حيث إنه يأتي لأغراض متعددة منها<sup>(٤)</sup>: (بيان العظمة التأكيد للحث والشكر للتحسر لطول الفصل لبيان الأهمية والتنبيه، للتطمين والتهديئة....).

وللتكرار دور فني قوي في تثبيت المقصد في النفوس والتأثير على عقول المتلقين، وذلك كون المكرر ينطبع في تجايف الملمات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فيبقى أثر المكرر حياً نشطاً في قلب وعقل المتلقين، يبني عليه قواعده ومفاهيمه وأحكامه<sup>(٥)</sup>.

ونجد سورة مريم قد زخرت بهذا الأسلوب البديع، أذكر بعض أمثله من خلال الجدول الآتي:

#### أ - ما كرر من الألفاظ:

الألفاظ المكررة	الغرض	الدلالة والفائدة
١- تكرار أَلْفَاظ (الرحمن والرحمة ووهبنا والسلام).	للفت الانتباه والتعظيم والتطمين	إشاعة ظلال من الرحمة والعطاء والرضا والرزق والسلام لعباد الله المخلصين في جو القصص والسورة.
٢- تكرار فعل (كون) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ <sup>(٥١)</sup> وقوله ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ <sup>(٤٤)</sup> وغيرها من الآيات التي جاء فيها الفعل.	تأكيد المعنى وتثبيته	فللفعل دور في (٢٩): تأكيد وتثبيت الصفات والخصال سواء كان للأنبياء أو للشيطان، والتزام أخلاق الإيمان والبعد عن أعمال الرذائل والعصيان.
٣- تكرار كلمة (الرب) و(العبد) في قصص السورة.	تأكيد المعنى وتثبيته	التأكيد على العبودية المطلقة وتوحيد الله تعالى وتنزيهه.

١- ابن الأثير: المثل السائر، ج ٢، ص ١٠٩.

٢- بتصريف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٠٤.

٣- بتصريف، المرجع السابق، ص ١٠٤.

٤- ينظر، المرجع السابق، ص ١٠٤ إلى ١٢٤، وفضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقناتها، ص ٤٨٧-٤٨٨.

٥- بتصريف، أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ١١٢.



نستشف من التكرار هنا عدة أمور: فيها تأكيد اختصاص الأنبياء بالنبوة والرسالة. وفيها ترسيخ لأهم أسس العقائد الإسلامية وهي الإيمان بجميع الرسل والأنبياء. وفيه تنبيه لنبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بدعاً من الرسل إنما هو خاتم الأنبياء يدعو بما دعوا (٣٠).	التأكيد والثناء	٤- تكرار كلمة (نبيا ورسولا) في القصص.
فيها بيان لقدرة الله تعالى التي لا تحد وقضائه الذي لا يرد والذي لا يخرج عن حوله وقوته.	ليبيان العظمة	٥- تكرار الأفعال من مثل: (قضى) في الآيات (٣٥ - ٣٩ - ٢١ - ٧١)
هنا نفيد من التكرار في إحداث نوع من المقارنة بين صفتين متباينتين في لفظ واحد، الأول: الابن الولي لله الرضي لربه ووالديه، والثاني: الولي للشيطان المعاون له، فيثير التكرار هنا ذهن المتلقي لاختيار الموقف الأفضل لحاله.	التنبيه بعقد المقارنة	٦- تكرار لفظ (ولي) في سياقين مختلفين الأول في قول زكريا عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِن وَّرَآئِي وَكَاثِبٌ أَمْرًا نِّي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥٠ ﴾ والثاني في قوله إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥ ﴾
٢٩- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١١٠ - ١١٧. ٣٠- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٠٥.		

## ب- ما كرر من العبارات:

العبارات المكررة	الغرض	الدلالة والفائدة
١- تكرار عبارة (واذكر في الكتاب) خمس مرات في بدايات قصص السورة.	التأكيد	لم تختص أي سورة بزيادة (في الكتاب) بعد (واذكر) إلا سورة مريم، وهنا جاءت العبارة للتأكيد على مرجعية القرآن وحده في معرفة أخبار الرسل (٣١).

<p>فإننا بالربط بين معاني الكتاب في قوله تعالى: «واذكر في الكتاب..» مخاطباً به محمد صلى الله عليه وسلم، والكتاب في نداء يحيى عليه السلام وهو التوراة، والكتاب في قول عيسى عليه السلام وهو الإنجيل، لإشارة على تنزيلها من رب واحد وهو الله تعالى فكان هذه الكتب كتاب واحد في تعبيرها عن العقائد والمعاني والدعوة نفسها (٣٢).</p>	<p>التأكيد</p>	<p>٢- تكرار كلمة (الكتاب) منفردة في قوله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ﴾ (١٢) وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۗ﴾ (٣٠)</p>
<p>هنا يوضح التكرار (٣٣): حجم الانفعال وعمق التأثير الذي سيطر على زكريا عليه السلام، فالله ليس بحاجة إلى معرفة هذا الأمر لعلمه المسبق به. بيان لمحاولة زكريا عليه السلام استيقان هذه البشارة، وتصور قدرة الله التي تتلاشى حيالها الأسباب والمسببات. الفرح والسعادة والتذكير لنفسه بهذه النعمة الكبرى، التي توجب الشكر.</p>	<p>للاسترحام والاستعطاف</p>	<p>٢- تكرار عبارة (وكانت امرأتى عاقراً) مرتين في الآيتين (٥ - ٨)</p>
<p>فالعبرة الأولى كانت موجهة إلى زكريا عليه السلام بالاطمئنان على استجابة الدعاء، والتذكير والتنبيه بالمسألة البديهية وهو أن الإيمان بالخلق الأول يستلزم الإيمان بالإعادة، وذلك لأن الإعادة أهون من البدء فيما يقرره العقل» (٣٤).</p>	<p>للتطمين والتذكير</p>	<p>٤- تكرار عبارة (هو عليّ هين)، في الآيتين (٩ - ١٢).</p>
<p>٢١- بتصريف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١١٩. ٢٢- ينظر، الرازي: التفسير الكبير، ج ٢١، ص ١٦٢-١٨٢، ومعين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١١٩-١٢٠. ٢٣- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم ص ١٢١، والزمخشري: الكشاف، ج ٢، ص ٨. ٢٤- البوطي: من روائع القرآن، ص ٢٨٥، ينظر، الرازي: التفسير الكبير، ج ٢١، ص ١٦١، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٢٢.</p>		

إلى غيرها من الأمثلة التي تمتد إلى آخر السورة والتي تدل على مدى الوظيفة الجمالية والدلالية التي يقدمها أسلوب التكرار، ومدى الأهمية الكبيرة له في التأثير على المتلقي قلباً وعقلاً مما يساعد

على إحكام الوحدة الفنية في القصص خاصة والسورة عامة.

## ٦. أسلوب القصر:

ومن الأساليب البلاغية التي يستدعيها المقام هو أسلوب القصر، ويعرف بأنه: «تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص»<sup>(١)</sup>. وللقصر أربع طرق مشهورة هي:

(القصر بإنما، القصر بالنفي والإستثناء بـ(إلا)، العطف بـ(لا - بل - لكن)، تقديم ما حقه التأخير).

وبالتأمل في سورة مريم، نجد السياق القرآني قد اعتمد على طريقتين، هما: (القصر بإنما)<sup>(٢)</sup>، والقصر بالنفي والاستثناء<sup>(٣)</sup>.

ولقد كثر استعمالهما في القسم الثاني من السورة ويفسر ذلك لطبيعتهما في توضيح الحقائق وتبيين الأمور الخاصة بمخاطبة المعاندين والمشركين، وبيان الجزاءات الأخروية للمتقين والكافرين.

❖ ومن أمثلة القصر في القسم القصصي الأول: قوله تعالى على لسان الملك مخاطباً السيدة مريم عليها السلام بعد استعاذتها منه: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلْمًا زَكِيًّا ﴾<sup>(٤)</sup> حيث أفادت عدة أمور منها<sup>(٤)</sup>:

- قد تكون (إنما) جاءت لخبر لا تجهل مصدره السيدة مريم عليها السلام، وذلك بدليل أنها قد تعودت الفضل والكرامات منذ صغرها، ولكنها قد جهلت أو غفلت عن كُنْه حقيقية رزقها بالغلام لعدم إفصاح الملك عنه في حين كان أولى بها في تلك اللحظة الحاسمة أن تستشعر معية الله سبحانه لها، الذي لم يكن ليضيعها لحظة، وكيف وهي المرأة العابدة الزاهدة المصطفاة، ولكن الطبيعة البشرية قد تسبق أحياناً، فجاء القصر للتعريض بتذكير مريم عليها السلام باستمرارية الإغداق عليها بالأرزاق والرحمات فلا تخاف ولا تجزع<sup>(٥)</sup>.

- جاءت (إنما) لتنفيذ المسارعة في إزالة خوف مريم عليها السلام وتطمينها بتعريف الملك عن نفسه وكشف أستار المجيء إليها.

١- هاشم ابن الريب: أسلوب القصر في محكم النظم، دار الطباعة المحمدية، ١٤٠١هـ - ١٩٩٠ م، ط١ ص٧.

٢- وهذه الطريقة: "تجئ لخبر لا يجله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة" وتعتبر هذه الطريقة أقوى الطرق وأعلقها في القلب، عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٢١٦، كما أننا نجد إنما: "تستعمل في حصر المعاني القريبة الواضحة التي من شأنها ألا تجهل ولا تنكر"، هاشم ابن الريب: أسلوب القصر في محكم النظم، ص٢٨٧.

٣- وغالباً ما تجيء هذه الطريقة مع مخاطب يعتقد فيه أنه مخطئ، فتأتي هذه الطريقة لتصحيح الاعتقاد بإثبات عكس تصوره، والنفي (بلا) أفواها دلالة على التخصيص، ينظر، هاشم ابن الريب: أسلوب القصر في محكم النظم، ص٢٨٢.

٤- ينظر، حسن محمد باجوة: تأملات في سورة مريم، ص٤٨.

٥- ينظر، عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٢٢٨.





- أفادت نفي كل ما قد تتصوره أو تعتقده في نفسها بشأنه من شدة هول المفاجأة.

- فيها إفادة قصر الموصوف على الصفة، حيث قصر الضمير (أنا) الراجعة للملك على صفة الرسالة التي أرسل بها بأمر الله ليهب لها غلاماً زكياً.

- فيها توضيح وبيان لسببية هذا المثل والمجيء، وهو تبشيرها بالولد الزكي الذي قضى الله أن يخلق وترزق به.

❖ ومن الأمثلة المشابهة لهذا القصر قوله تعالى في تعقيبه على قصة مريم وعيسى عليهما السلام: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٥﴾﴾ فالله تعالى يقرر هنا معنى العبودية الكاملة، وانتفاء الولد عنه، وبيان أن عيسى عليه السلام عبد من عباد الله تعالى وخلق من خلقه، فيأتي أسلوب القصر في هذا الموقع ليبين الجملة السابقة ويوضحها ويبطل بها شبهة النصرى في عيسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذي نتوصل به إلى عدة أمور منها:

- تأكيد النفي التام في اتخاذ الولد بتقديم التعليل البين على هذا النفي، وهو السرعة والسهولة على الله تعالى في خلق الخلق، وهذا ما نستدل به فنيا باستخدام فعل الأمر المتلو بالفاء التعقيبية المتصلة بالفعل المضارع مباشرة دون تراخ.

- كما أن معاني ما سبق ذكره تتناسب مع دلالات (إنما) التي تعطينا نوع من الهدوء والانسيابية لاستيعاب المقصد والمدلول من سهولة الخلق على الله عزوجل، وعدم تأثره بأقوال المفتريين.

- كما يفيد القصر في هذا الموقع من الوجهة البلاغية (التعريض) ببطلان أقوال وأدلة هؤلاء المنكرون الكافرون.

❖ وكذلك من أساليب القصر في النصف الثاني من السورة قوله تعالى في إنذاره ووعيده للكافرين المشركين الذين اتخذوا مع الله شريكاً آخر، و مخاطباً به النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾ فالقصر (إنما) في هذا الموقع أفاد عدة أمور:

- قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً، إذ إن معناه إنما نعد لهم أيامهم فلسنا بغافلين عنهم كما يظنون ويحسبون بل هي أيام قلائل ويأتيهم الوعيد<sup>(١)</sup>.

- كذلك جاء القصر ليعطي معنى التعليل لسببية نهي الله تعالى لنبيه الكريم بعدم التعجل<sup>(٢)</sup>.

١- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٧٥.

٢- ينظر، هاشم بن الربيع: أسلوب القصر في محكم النظم، ص ٢٥٨.





- كما أن في القصر تعريض بقرب آجال هؤلاء القوم بسوء ما سجل عليهم من عذاب وسخط.  
ومن أمثلة أسلوب القصر الذي جاء في النصف الثاني من السورة، وأفاد كذلك تدعيم الفكرة والمضمون التي تدور عليها القصص في السورة: قوله تعالى بشارة للمتقين: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلْمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١٦) فالله تعالى في السياق القرآني يستخدم أسلوب القصر بـ (إلا) ليدل على<sup>(١)</sup>:

- الانتفاء التام لمنقصات السمع والقلب ومكدراتها من فضول الكلام الذي لا طائل منه وإن قل قدره.

- تأكيد السلام المطلق الذي لا عطب فيه ولا عيب ولا نقص وهو: «مجاز من تأكيد الشيء بما يشبه ضده»<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذه الطريقة تسير باقي أساليب القصر في السورة لتضفي عليها جماليات أسلوبية ملفتة للناظر وممتعة للسامع ومؤثرة في المتدبر.

## ٧- أسلوب الشرط:

يعرف أسلوب الشرط بأنه: «جملة مركبة تشتمل على جملتين متلازمتين مسبوقتين بأداة شرط لا يتم معنى أولاهما إلا بالثانية»<sup>(٣)</sup>.

ويكون دائماً أسلوب الشرط في الجمل الفعلية التي تنحصر دلالاتها على الاستقبال<sup>(٤)</sup>، وللشرط أدوات كثيرة منها الجازم ومنها غير الجازم ومنها الحروف ومنها الأسماء<sup>(٥)</sup>.

ولقد ورد في معمارية القصص في عدة مواضع، ولقد قدم لنا بمعانيه الكثير من الدلالات والفوائد التي تدعم المقصد وتساعد على تلاحمه مع غيره من المقاصد، ومن أمثلته:

١- قوله تعالى: على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (١٨) إذ جاء أسلوب الشرط بالأداة (إن)<sup>(٦)</sup> على لسان مريم عليها السلام، بجواب محذوف بدلالة السياق

١- بتصرف، البقاعي: نظم الدرر، ص ٥٤٧، وابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٢٧.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٢٧.

٣- مهدي المخزومي: في النحو العربي (نقد وتوجيه)، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤ م، ط ١، ص ٥٧، وفضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها (علم المعاني)، ص ٣٣٩.

٤- وفضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها (علم المعاني)، ص ٣٣٩.

٥- ومنها: (إن - إذا - من ما مهما متى أيان أين حيثما أنى كيف أي أما لولا لو - لوما) ينظر خليل عطية، قواعد اللغة العربية، دار الشروق، عمان، الأردن، ٢٠٠٢ م، ط ١، ص ١٩٢ - ١٩٤.

٦- (إن) وهو حرف يعتبر أكثر أدوات الشرط استعمالاً في القرآن الكريم، والذي يتميز بمرونته، إذ إنه يتركب مع غيره من الحروف أو الأسماء في صور متعددة كازدواجيته مع لام الابتداء، ومع أداة النفي (لا)، ومع الأداة (ما)، كما أنه يستعمل: "إذا كان المتكلم غير جازم بوقوع الشرط"، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، علم المعاني، ص ٣٣٩.

وتقديره: (إن كان يُرجى منك أن تتقي الله وتخشاه) ليقدم لنا وظيفة دلالية و فنية معا هي:

- تذكير الملك المتمثل بهيئة البشر بالتقوى، الذي يجب أن يلتزمه إن كان ممن يخشى الله تعالى.
- مناسبتها السياق بدلالتها على الشك وعدم التحقق من نوايا هذا الشخص.
- كما أن استعمال السياق للفعل الماضي (كان) الدال على كون التقوى مستقرة في الشخص، ليعد من أبلغ الوعظ والتذكير والحث على التقوى<sup>(١)</sup>.

٢- ومن أساليب الشرط كذلك نجده في قصة إبراهيم عليه السلام، حيث يقول الله تعالى على لسان والده المعاند: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتَى يَتِإِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ نَنْتَه لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ (٤٦) حيث تأتي أداة الشرط (إن) بعد اللام الموطئة بالقسم، مؤكدة التهديد والوعيد الناتج عن شدة غضب الأب المعاند، ومصورة انفعاله القوي، وردة فعله الشنيعة أمام هذا الابن الحاني، معلناً للجميع أنه إن لم ينته عن كفره بألتهته وعن دعوته له ليرجمه على فعلته<sup>(٢)</sup>.

### كما أننا نفيد من اختيار (أداة الشرط) هنا عدة أمور فنية ودلالية منها:

- مرونتها في الاشتراك مع غيرها من الأساليب مثل أسلوب القسم في (اللام)، وأسلوب التوكيد الذي تمثل في جواب الشرط (لأرجمنك) والذي اتصل بلام التوكيد ونون التوكيد المثقلة<sup>(٣)</sup>، حيث «يدخل كل منهما على الآخر فإن تقدم القسم، ودخل الشرط بينه وبين الجواب كان الجواب للقسم، وأغنى عن جواب الشرط، وإن عكس فبالعكس، وأيهما تصدر كان الاعتماد عليه والجواب له»<sup>(٤)</sup>، ولهذا فالفعل (نتته) فعل الشرط، وجملة لأرجمنك جواب القسم سدت مسد جواب الشرط.

- كما أن الأداة ناسبت الحال الحقيقي للأب المعاند، حيث إنه حينما كان يقسم بشرطه كان غير جازم بتحقيق وقوعه من انتهاء إبراهيم عليه السلام عن كفره بألتهتهم أو الدعوة إلى عبادة التوحيد، لما رآه من ابنه من إصرار وتحمل وتصبر، فتوافقت الأداة مع الحالة النفسية التي سيطرت على الأب المعاند.

وعلى هذا النهج سارت باقي الأمثلة على أسلوب الشرط من بيان وتوضيح وتأکید و انسجامية رائعة مع مقاصد القصص وأهدافها الموضوعية والفنية داخل السورة.

١- بتصريف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١٦، ص٨١، ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج١٦، ص٧٦-٧٧.

٢- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١٦، ص١١٩، الألوسي: روح المعاني، ج١٦، ص٩٩.

٣- ينظر، عبد السلام المسري ومحمد الهادي الطرابلسي: الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (د-ط)، ص٢٨.

٤- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٤٦.





وفي ختام هذا المطلب أشير إلى أنني لم أتوسع في معالجاتي له بالشكل التفصيلي بل اكتفيت بضرب الأمثلة التي تعيننا على إدراك تلك الجمالية اللغوية والتعبيرية التي سادت السورة<sup>(١)</sup>، في حسن انتقائها للألفاظ ودقة استعمالها للتراكيب ومدى تناسق وانسجام الأساليب مع المقاصد والأهداف في السورة، وما يضيفه الجميع من بهاء وجمال في عمارة القصص، الذي بدوره ساعد على التحام وحداتها ولبناتها بنسيج لغوي وتعبيري عجيب، بلغ الغاية في الإتقان والإحكام والجمال.

## المطلب الثاني: الأدوات البديعية والتصويرية.

حفل القرآن بالكثير من الصور البديعية والبيانية التي مثلت الإعجاز البلاغي في قمة الروعة والإبداع، وأسهمت بدورها في توصيل القيمة الفكرية والجمالية إلى ذهن المتلقي فتملكت عليه جميع أفكاره، واجتذبت لها جميع حواسه بما أسهمته من دور بارز في تحقيق الوحدة الفنية الجمالية في السور.

ولقد حفلت سورة مريم بخضم زاخر من هذا الإعجاز الرائع، ساعد عليه تجسيد كل صورة بديعية وبيانية وحدة جمالية صغرى محكمة كل واحدة على حده، ومن ثم تلاحمها جميعاً في وحدات جمالية كبرى تتناسق وتتسجم مع بعضها البعض، بما يجمع بينها من نسيج جمالي واحد في القصص ومن ثم رصفها جميعاً في صورة هندسية داخل السورة الكريمة.

فما أهم الأدوات البديعية والبيانية التي يمكننا أن نقف عليها تحديداً في قصص السورة الكريمة؟ وكيف تجلت القيمة الجمالية في كل منها لتحقيق الوحدة الفنية في المعمارية القصصية؟

هذا ما سيتم معالجته بالتطبيق على بعض النماذج الواردة في السورة.

## أولاً - الأدوات البديعية ودورها في المعمارية القصصية:

البديع يحتل مكانة مرموقة عند العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة<sup>(٢)</sup>، فالبديع يجمع كل معاني الجدة والبراعة<sup>(٣)</sup>، وهو علم: «يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة»<sup>(٤)</sup>.

ولقد مثل القرآن له تمثيلاً راقياً ترفع به عن الكفلة والصنعة التي زخرت وتزينت بها قصائد الشعراء وخطب الخطباء وكتب الأدباء والبلغاء، بل قدم لنا بأسلوبه المعجز نماذج أصيلة تتسم بالوفرة في المعنى، والاقتصاد في اللفظ، والجمال في الوقع، والتلاحم في الصياغة، مما جعله مثلاً يُقتدى به

١- الدراسة في هذا المطلب تحتاج لدراسة أخرى مفصلة بالنظرية والتطبيق لدقة النسيج اللغوي والتعبيري في السورة.

٢- أحمد أحمد فشل: علم البديع (رؤية جديدة)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٩٦ م، (د، ط) ص ٢٥.

٣- ينظر، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفانها، (علم البيان والبديع) ص ٢٧١.

٤- ينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٥٩.

ونموذجاً يُحاكى على منواله لكل من طلب (الجمال مع الإحكام).

ولقد قسم العلماء البديع من حيث الحسن إلى قسمين<sup>(١)</sup>:

أ. المحسنات المعنوية وهي: ما يرجع الجمال فيها إلى المعنى.

ب. المحسنات اللفظية وهي: ما يرجع الجمال فيها إلى اللفظ.

والآن سأحاول جاهدة بيان مواضع الحسن البديعي في قصص سورة مريم من خلال عرض بعض من النماذج البديعية فيها، ودورها الوظيفي في تحقيق الوحدة الفنية داخل المعمارية القصصية، دون التفصيل الموسع بحصر هذه المواضع البديعية إلا ما دعت له الضرورة.

### أولاً - المحسنات المعنوية:

لقد حفلت سورة مريم بألوان متعددة من المحسنات المعنوية ومنها: (الالتفات والتجريد والتفريع والتميم والتقسيم وتشابه الأطراف والمبالغة والطباق والمقابلة).

#### أ. الالتفات:

اختلف العلماء في تحديد مفهومه إلى عدة تعريفات نجد أوسعها تعريفاً هو: «نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى مطلقاً»<sup>(٢)</sup>، وله عدة مجالات موسعة مثل الالتفات في: (الصيغ والعدد والضمائر والأدوات والبناء النحوي والمعجم)<sup>(٣)</sup>.

ومن فوائده: - إحداث نوع من المتعة واللذة، لأن نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب جديد له تأثير في النفس، ولذة بالتأمل فيه<sup>(٤)</sup>.

- كما أنه يحمل المتلقي إلى التفكير في المعنى وإلى سببية الانتقال.

١- ينظر، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع) ص ٢٧٢.

٢- حسن طيل: أسلوب الالتفات في البلاغة العربية، دار الفكر العربي، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، (د، ط)، ص ٥٥.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ٥٥.

٤- ينظر، وليد قصاب: البلاغة العربية (البيان والبديع)، دار القلم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، ط ١، ص ٣٥٨.



ومن أمثلته في قصص سورة مريم:

أسلوب الالتفات	نوعه	دلالاته وفائدته
في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ ﴾	الالتفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم	حيث تم الانتقال من ضمير الغيبة في قوله (قال ربك) إلى ضمير المتكلم في قوله (هو علي هين) التفتاً، ومقتضى الظاهر: هو عليه هين (٣٥). ولقد أفاد التعظيم بشأن المخاطب وهو الله تعالى الذي بقدرته يخلق ما يشاء.
٢- وفي قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾	الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب	إذ إن الله تعالى أراد التوبيخ والتشنيع لقول أولئك القوم الذين افتروا على الله تعالى، فأخبر عنهم بقوله: (لقد جئتم شيئاً إداً)، «لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له، وزيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه» (٣٦).

٢٥- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٧٢.

٢٦- سهام صياد: البديع في سورة مريم، دراسة جمالية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص ٢٢، ينظر، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٢٩.

هذان مثالان من عدة أمثلة داخل السورة، أكتفي بعرضهما لندرك مدى تأثير النفس بهما وبحث العقل عن سببية انتقالهما من حالة لحالة أخرى.

## ٢. التجريد:

التجريد هو: «أن ينتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله من تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه»<sup>(١)</sup>، ولقد ورد مثال واحد عليه في القصص إذ جاء في قصة زكريا عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾، ولقد قيل في تحديد المحسن فيه: «هذا هو التجريد، وذلك أنه يريد: وهب لي من لدنك ولياً، يرثني منه وارث من آل يعقوب، وهو الوارث نفسه، وكأنه جرد منه

١- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٨٠، ومن تعريفاتها: "إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد نفسك لا المخاطب نفسه"، سعاد صياد، البديع في سورة مريم ص ٢٤.

وفائدته «في الأساليب أن يمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره، إذ يكون مخاطباً بها غيره، يكون أعذر وأبرأ من العهدة، فيما يقوله غيره محجور عليه»<sup>(٢)</sup>.

### ٣. التفریع:

يعرف التفریع بأنه: «ضد التأصيل وهو أن يصدر الشاعر، أو المتكلم كلامه باسم منفي (بما) خاصة، ثم يصف ذلك الاسم المنفي بأحسن أوصافه المناسبة للمقام إما في الحسن أو في القبح، ثم يجعله أصلاً يفرع منه شبه جملة من جار ومجرور، متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو نسيب أو غير ذلك، ثم يخبر عن ذلك الاسم (بأفعل التفضيل) فتحصل المساواة بين الاسم المجرور (بمن) وبين الاسم الداخل عليه (ما) النافية»<sup>(٣)</sup>.

ولقد ورد في سورة مريم مرتين:

١. التعقيب الذي عقب به السياق القرآني بعد قصص الأنبياء بقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادِهِ ۗ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾﴾ فالتفریع موجود في «فاعبده واصطبر لعبادته» فمنهم من يرى التفریع راجع على:

❖ صدر الآية حيث إن المعنى هنا يكون: «إذ كنا لا ننتزل إلا بأمر الملائكة وقد نزلنا عليك هذا الكلام المتضمن للدعوة إلى عبادته فالكلام كلامه، والدعوة دعوته وحده فاعبده، لأن ليس هناك من يسمي رباً غير ربك حتى لا تصبر على عبادته، وتنتقل إلى عبادة ذلك الغير الذي يسمي رباً فتكتفي بعبادته عن عبادة ربك أو تشرك به»<sup>(٤)</sup>.

❖ وقيل إن الجملة تفریع على قوله تعالى: «وما كان ربك نسياً» أي لم ينسك ربك فاعبده»<sup>(٥)</sup>.

٢. ويرد التفریع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إذ إن التفریع موجود في: «أفرأيت» وهو أسلوب استفهامي تعجيب، اتصلت به فاء التفریع الراجعة على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ و «ما اتصل بهذا القول من

١- جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد الجحوي، دار الفكر العربي، (د، ت) (د، ط) ج ١، ص ٣٩٧.

٢- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ١، ص ١٧٠.

٣- تقي الدين أبي بكر على المعروف بابن حجة الحموي: خزنة الأدب ونهاية الأرب، شرح: عصام شعيتوا، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ص ١٩٨٧، ط ١، ج ٢، ص ٢٨٥، ينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٨٧.

٤- سهام صياد: البديع في سورة مريم، ص ٢٧، ينظر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٤٢.

٥- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م، ط ١، ج ١٤، ص ٨٢.





الاعتراض والتفريعات، والمناسبة أن قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه وهو غرور إحالة البعث»<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد للتفريع مهمة في ربط الآيات بعضها بعضاً، فيعطي اتساعاً للمعنى وقدرة في الوقت نفسه على حسن الانتقال من معنى إلى معنى بحسن تخلص سلس ولطيف<sup>(٢)</sup>.

#### ٤. التتميم:

ومفهوم التتميم هو: «أن يتم الكلام فيلحق به ما يكمله، إما مبالغة أو احترازاً أو احتياطاً»<sup>(٣)</sup>، ولقد ورد في سورة مريم مرتين:

❖ معقباً به على قصة أولئك الكافرين المغرورين الذين غرتهم الحياة الدنيا وزينتها فأخذوا يتكبرون على الناس فقال الله تعالى متوعداً لهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾<sup>(٧٥)</sup> فالتتميم موجود في قوله تعالى: «من هو شر مكاناً وأضعف جنداً» والآية: «تتميم لوعيد الكفار، وكلاهما تنمة قوله: «فليمدد له الرحمن مداً»، الواقع جواباً عن قولهم، أي الفريقين، وتحقيقه أن الكفار لما ذكروا الخيرية على زعمهم، أتى بها في الجواب مشاكلة مع ما فيه من الوعيد والتهمم بهم، فتحصل منه أن التفضيل إما للزيادة المطلقة، أو لزيادة الثواب في بابه على العقاب، أو يعد العقاب خيراً تهكماً بهم أو الخيرية في المفضل عليه خيرية ما لهم في الدنيا في نظرهم القاصر»<sup>(٤)</sup>.

❖ كما أننا نجد التتميم في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلْقَيْتُ الصَّلِحَتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾<sup>(٧٦)</sup> ففيها تتميم بالإجابة عن سؤال أهل الشرك والضلالة في قولهم: «أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً» بما تقدمه الآية المتممة من تسليية للمؤمنين وترويح لقلوبهم عما يعترهم من استياء نتيجة سخرية أهل الكبر والغرور<sup>(٥)</sup>.

و بهذا نجد أن التتميم يسهم في ربط القصص وما تلاها من تعقيبات برابطة قوية محكمة.

١- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٥٨.

٢- ينظر، المرجع السابق، ج ١٦، ص ١٤٢.

٣- ويأتي بمعنى آخر: "عبارة عن الإتيان في النظم والنثر بكلمة إذا طرحت من الكلام ناقصه حسنه ومعناه"، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٧٠.

٤- شهاب الدين محمد بن محمد بن عمر الخفاجي: حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي، على تفسير البيضاوي ضبط وتخريج عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ط ١، ج ١٦، ص ٣٠٩.

٥- ينظر، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ١٢٩.



## ٥. التقسيم:

وهو: «استيفاء أقسام الشيء الموجودة، لا الممكنة عقلاً»<sup>(١)</sup>.

ولقد ورد التقسيم في سورة مريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾<sup>(٦٤)</sup> أي له ما هو أمامنا وما هو وراءنا وما بين الأمام والخلف فاستوعب جميع الجهات، كما استوعب جميع الكائنات في تلك الجهات إلى جانب استيفائه لأقسام الزمان الثلاثة من فعل ماض ومضارع وأمر دلالة على أنه هو المدبر لنا فيها<sup>(٢)</sup>.

وبالتقسيم في هذه الآية نستطيع التأمل في جمال النظم وإحكامه الفني ودوره في بيان قدرة الله تعالى، وسيطرته على جميع أجزاء الكون، بما يستلزم العبودية المطلقة والتوحيد له منزهة عن الشريك.

## ٦. تشابه الأطراف:

وهو: «أن يُختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى»<sup>(٣)</sup>، ولقد عده علماء البلاغة من مراعاة النظير الذي يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد<sup>(٤)</sup>.

وبالتأمل في سورة مريم نجد بعض الآيات الكريمة قد أظهرت لنا بعضاً من تشابه الأطراف المعنوي دون اللفظي، لذلك سأعرض لبعض أمثلته في القصص منها:

❖ قوله تعالى: ﴿ يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبُشْرُكَ بَعْلَمِ اسْمُهُ يَجِيءُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾<sup>(٧)</sup> فتشابه الأطراف واقع في أول الآية وآخرها، ففي أولها تحبيب وتودد وإعلان بالبشارة، وهذا واضح من خلال النداء واستعمال الفعل المضارع المؤكد: «يا زكريا إنا نبشرك» وفي آخرها تكريم وتشريف لهذا الابن المدعو به بتسميته اسماً لم يسم به أحد من قبل: «لم نجعل له من قبل سمياً»، وجميع الآية تدل على جو الرحمة ونفحاتها المخيمة على زكريا عليه السلام وآل بيته<sup>(٥)</sup>.

❖ وقوله تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾<sup>(١١)</sup> فالتشابه بين الأطراف واقع بين قوله تعالى: «قال كذلك قال ربك»، الدال على انتهاء أمر الخلق وبين قوله تعالى: «وكان أمراً مقضياً» الدالة على نفاذ الأمر وجميع الطرفين الأول والأخير من الآية تدل على القدرة العامة والمشيتة المطلقة

١- السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٢٤٤.

٢- بتصرف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٤٠، والسيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٢٤٤.

٣- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٦٦.

٤- بتصرف، المرجع السابق، ص ٢٦٥.

٥- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٦٩.



التي لا يفيد مع نفاذها إلا التسليم بها<sup>(١)</sup>.

ولا يخفى على الجميع أهمية هذا النوع البديعي في تحقيق النظم وتلاحم الأجزاء مضمونياً وفضياً في القصص.

## ٧. المبالغة:

وهي: «أن يذكر المتكلم وصفاً يزيد فيه، حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده»<sup>(٢)</sup>، وتأتي على ضربين<sup>(٣)</sup>:

❖ مبالغة في الوصف: بأن يخرج إلى حد الاستحالة كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُونُهُمْ لِيُبْدِيَ وَيَا كَأَنَّ لَوَ تَمَسَّهُ نَارٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

❖ مبالغة في الصيغة مثل: (فعالان فاعيل فاعول فاعل فاعلى فاعل).

وبالنظر في قصص السورة نجد استعمال السياق القرآني لصيغتين من صيغ المبالغة هما: صيغة (فاعيل فاعلان).

١. صيغة فاعيل: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> إذ جاءت (صديق) على وزن فاعيل، قد بولغ فيها لتدل على شدة صدق هذين النبيين في معاملاتهم مع ربهم ومع الناس.

٢. صيغة فعالان: ولقد تجلّى اسم من أسماء الله الحسنى على هذه الصيغة وهو (الرحمن)<sup>(٥)</sup> في عدة مواضع من السورة ومن ضمنها القصص كما في الآيات: (١٨ - ٤٤ - ٤٥ - ٥٨ - ٦١ - ٦٩ - ٧٥ - ٧٨ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٩ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٦)، إذ إن صفة (الرحمن) في جميع الآيات صفة مختصة لله وحده لا يجوز أن يوصف بها أحد غيره<sup>(٦)</sup>.

فمثلاً بالنظر في قصة أولئك المفتريين الذين ادعوا لله ولداً نجد الله تعالى يشنع بأقوالهم ببيان سعة رحمته التي ضمت الجميع، فتكرير صفة (الرحمن) أربع مرات بقوله تعالى في السرد القصصي:

١- ينظر، المرجع السابق، ج ١٦، ص ٦٩.

٢- السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٢٤٤.

٣- ينظر، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٥٨.

٤- سورة النور، آية ٣٥.

٥- لقد ذهب البرهان الرشيدى إلى: "أن صفات الله التي على صيغة المبالغة كلها مجاز لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها، لأن المبالغة أن تثبت للشيء أكثر مما له، وصفاته تعالى متناهية في الكمال، لا يمكن المبالغة فيها، وأيضاً: فالمبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان، وصفات الله منزهة من ذلك"، السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٢٥٩.

٦- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ١٩٨، وينظر، محمد راتب النابلسي: موسوعة أسماء الله الحسنى، دار المكتبي، دمشق سوريا ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م، ط ٥، ص ٦٣٧ ٦٥٦.



﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِحِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴿ جاءت «إيماءً إلى أن وصف الرحمن الثابت لله وحده والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله وإن أنكروا لفظه، ينافي ادعاء الولد له، لأن الرحمن وصف يدل على عموم الرحمة وتكرها.. ومعنى ذلك شاملة لكل موجود مفتر إلى رحمة الله تعالى. ولا يتقوم ذلك إلا بتحقيق العبودية فيه، لأنه لو كان بعض الموجودات ابناً لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالبنوة مساوياً له، في الإلهية المقتضية الفنى المطلق، ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له، وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة»<sup>(١)</sup>.

وبهذا المثال يتأكد لنا الدور المهم الذي تقدمه المبالغة من تثبيت المعنى، حتى يصبح متمكناً ومتقراً في النفس<sup>(٢)</sup>.

## ٨. الطباق:

ويعرف بأنه: «الجمع بين متضادين في الجملة»<sup>(٣)</sup>، وللطباق قيمة دلالية وفنية من حيث إيضاح المعنى وتقريب الصورة والتأثير النفسي للمتلقى.

لذلك نجد هذه القيم قد انطبقت في قصص سورة مريم من حيث تركيز السياق على الألفاظ المتضادة في بعض المواضع القصصية التي تهدف إلى الترغيب والترهيب، فيزداد المؤمنون إيماناً، وأهل الكتاب خوفاً، والمشركين عظة وعبرة.

ومن خلال التأمل نجد الطباق ظهر لنا فيما يقارب من أربعة عشر موضعاً في السورة كما في الجدول الآتي:

القيمة الفنية	الطباق في الآيات
تأكيد أهمية الذكر ودوامه في هذه الأوقات، وشموليته لليوم واللييلة.	١- (بكرة وعشياً) في الآية (١١)
تأكيد أهمية تقوى الله.	٢- (تقياً و عصياً) في الآيتين (١٣-١٤)

١- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٧٢.

٢- ينظر، سعاد صياد: البديع في سورة مريم، ص ٢٨.

٣- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص ٢٦٠.





٣- (ولد و يموت- أويموت و حيا) في الآية (١٥) تأكيد قضية الإحياء والإماتة، وسلامة يحيى عليه السلام في المراحل الثلاث.	
٤- (أبوك و أمك) في الآية (٢٨) بيان أهمية دور الوالدين وأثرهما على الذرية.	
٥- (ولدت و أموت أو أموت و حيا) في الآية (٢٣) تأكيد حقيقة الإحياء والإماتة والسلام لعيسى في هذه المواضع.	
٦- (بكرة وعشياً) في الآية (٦٢) تدل على النعيم التام بدوام الرزق والطعام دون انقطاعه لأهل الجنة.	
٧- (السموات والأرض) في الآية (٦٥) بيان لقدرة الله وسعتها في الكون.	
٨- (مت و حياً) في الآية (٦٦) بيان مدى سخرية المشركين واستهزائهم بقضية البعث والنشور.	
١٠- (كفروا و آمنوا) في الآية (٧٣) بيان موقف الفريقين وحالهما، والتنبيه على تجنب أفعال الكافرين واتباع أفعال المتقين.	
١١- (شر و خير) و (الضلالة و هدى) في الآيتين (٧٥-٧٦) بيان وتأکید على عاقبة الفريقين كلا من جنس عمله.	
١٢- (السموات والأرض) في الآية (٩٠) بيان لعموم عبادة الكائنات كلها لله عزوجل، ومدى تأثيرها بأقوال المفتريين على الله كذبا.	
١٣- (السموات والأرض) في الآية (٩٣) تأكيد عموم قدرة الله وشمول ملكه.	
١٤- (تيسر و تبشر) في الآية (٩٧) تأكيد هدف الرسالة ومضمونها.	

وبالتأمل نجد بعض الألفاظ المتطابقة قد كررت أكثر من مرة مثل:

(بكرة وعشياً مرتين - الحياة والموت ثلاث مرات- والسموات والأرض ثلاث مرات) لتدل على أهمية الوقت والذكر الدائم، وأهمية الإيمان واليقين بحقيقة الموت والحياة، وإدراك أن هذا الإنسان فرد من مجموعة كائنات في السموات والأرض التي تمثل جميعها خلقاً من خلق الله تعالى، يدخلون جميعهم ضمن قدرته وعلمه ومقاديره.

## ٩. المقابلة:

وهي: «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها أو يقابلها، على الترتيب»<sup>(١)</sup>.

- دور المقابلة ووظيفتها:

للمقابلة أثر قوي في توليد التوازن والجمال بين الكلمات والمعاني، ولقد استخدمه القرآن كأداة فنية مؤثرة في النفوس، وطريقة من طرق التصوير التي تتسق المعاني التي ترسمها الألفاظ، فتثير بفضلها انتباه العقول، وتوجهها الوجهة السليمة لاختيار الحال الأنسب للمتلقين<sup>(٢)</sup>.

كما أن المقابلة قد أسهمت بدور فاعل في سورة مريم وبخاصة في معمارية القصص الجمالية والموضوعية والعضوية، لما قدّمته من تحديد لوجهة السير البنائي الهيكلية في التقابل القصصي بين الشخصيات الصالحة والشخصيات الطالحة من أول السورة إلى آخرها.

ولهذا الدور البارز ساقوم بوضع نماذج من أمثلة المقابلة على مستوى الجملة ومن ثم على مستوى السورة بأكملها.

### أولاً- على مستوى الجمل نلحظه من خلال الأمثلة التالية:

المقابلة	القيمة الفنية
١- بين (شر مكاناً وأضعف جنداً) وبين (خير مقاماً وأحسن ندياً) في الآيتين (٧٣-٥٧)	باعتبار أن المكان هو المقام والجندهم الندي للبيان والتأكيد على حال كل فريق منهم.
٢- المقابلة بين (يكونون عليهم عزا) و (يكونون عليهم ضداً) في الآيتين (٨١-٨٢)	التأكيد على العاقبة السيئة، فكما طلبوا العزة من غير الله فسيأتي هؤلاء الذين عبدوهم من دون الله فيكونون أصدقاء لهم، وأعداء بدلا من أن يكونوا أعوانا ومساعدين.
٣- بين (لم يمسنني بشر) ولم (أك بغيا) في الآيتين (٢٠)	إذ بينهما تقابل معنوي فالأولى تدل على عدم النكاح الحلال والثاني تدل على عدم الفعل المحرم (الزنا).

١- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٦٣. ينظر، السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

٢- ينظر، صفحة ١٨٥-١٩٦-٢١٠ من البحث.



٤- (التوديع بالسلام والاستغفار من قبل الابن البار) في مقابل (الرد العنيف الشديد الخالي من العطف من الأب المعاند) في حوار إبراهيم عليه السلام لوالده في الآيات (٤٢ إلى ٦٤)

بيان وتوضيح بالمقارنة بين حال المتقي والمشرک، والتأكيد على خلق الصالحين الذين يقابلون السيئة بالحسنة والإعراض بالإقبال.

## ثانياً- على مستوى السورة

هذه بعض الأمثلة على مستوى الجمل نستشف منها معاني المقابلات التي يعمها التأكيدات والتوضيحات المؤثرة، التي تثير المتلقي في عقد المقارنات والموازنات من خلال الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وذكر صفات المتقين والكافرين.

ولقد تناولنا هذه الجزئية بنحو من الإجمال في معالجتنا للبنى الخطابية في القسم الثاني من السورة وتقابلها مع القسم القصصي الأول منها، ولكن لا بأس أن نعطي إشارة له في هذا الموضع لضرورته في بيان مدى إسهام هذا المحسن في بناء البنيات الكبرى في السورة.

الآيات	المتقون والمؤمنون	وجه المقابلة	الكافرون والمشركون والمفترون	الآيات
( ٤ - ١١ - ١٣ ) ١٤ - ٣٠ - ٣١ ٣٢ - ٤١ - ٤٧ ٤٨ - ٥١ - ٥٤ ( ٥٦ - ٦٠ - ٦٥ )	(الدعاء) - الإخلاص - العبودية - التقى - البر - الصلاة - الزكاة - الصدق - النية - الطيبة - الرقابة - العظة - الخشية - الرجاء - اتباع أوامر الله - القناعة - الرضا - الصبر - التقرب من الله)	الأعمال والصفات	(الكفر - الشرك) - العناد - الافتراء بادعائهم أن لله ولداً - الجحود والاستهزاء - السخرية - اتباع الشیطان - التخلف عن الصلاة والزكاة - الغفلة والنسيان - اتباع الشهوات (والملاذات)	(٣٧ - ٣٨ - ٤٢) ٤٤ - ٤٦ - ٥٩ ٦٦ - ٧٣ - ٧٧ ٨١ - ٨٨ - ٨٩ - ٩١)

<p>(٤٥ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٩ - ٨٣ - ٨٤ - ٩٧ - ٩٨)</p>	<p>(التخبط - الضلال - الإمداد - السخط - الاغترار بالصحة والعافية استدراجاً - تخبط الشياطين لهم - العقاب باستمرارية الضلال والغفلة - إقفال قلوبهم وأبصارهم عن الحق)</p>	<p>الجزاء الديني</p>	<p>(التأييد - والنصرة - إجابة - الدعاء - الرحمة - الهبات في العطايا والرزق - البشائر بإنجاب الذرية الصالحة - السمعة الطيبة - الطمأنينة والسكينة - الاصطفاء والاجتباء - الثبات على الهداية - السلامة)</p>	<p>(٥-٧-١٢-١٣- ١٥-١٩-٢١- ٢٤-٢٥-٢٦- ٣٣-٤٩-٥٠- ٥٢-٥٣-٥٧- ٥٨-٧٦-٩٧)</p>
<p>(٣٩ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٨٠ - ٨٢ - ٨٦ - ٨٧ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥)</p>	<p>(سيصلون غيا - وصليا - وسيكونون في النار جثياً - يحل عليهم غضب من الله - وويلات من العذاب والهلاك - ستكون الشياطين ومعبوداتهم عليهم ضداً)</p>	<p>العافية الأخروية</p>	<p>(الجنة - الرضا - السعادة - الطمأنينة - المكان العلي - منزلة - الصديقية - لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً - الأمن)</p>	<p>(٦١-٦٢-٦٢- ٧١-٧٢-٨٥- ٨٧-٩٣-٩٥- ٩٦)</p>

ولإدراك التقابلات السابقة يمكن مراجعة السورة آية آية من أولها إلى آخرها للتدبر والتفكير والوصول بعدها إلى هذه البنية البنائية والجمالية الرائعة، التي تخدم القضية الكبرى من إيراد القصص في السورة الكريمة، وتدل على أهمية وقيمة هذا المحسن البديعي الفريد، ودوره الفاعل في تقديم التوكيدات والتشبهات التي تعمل عملها في عقل وقلب المتلقي معا، بدفعها إياه لعقد الموازنات والمقارنات، ومن ثم اختيار أصلحها وأنفعها منها لواقعه، فيتنبه ويتعظ، ومن بعدها يهتدي للطريق الحق، الذي يبدأ أولاً بإخلاص العبودية لله تعالى وتنزيهه عن الشريك، وينتهي بفتح أبواب الكرامات

و الرحمت من عنده سبحانه.

وبهذا يتضح لنا معنى تعريف بعضهم للتقابل الجمالي في النص القرآني بشكل واسع الأبعاد متعدد الرؤى قائلاً هو: «بنية تقابلية لغوية بلاغية إيقاعية نسقية، تجسد بنية نقدية وفنية وجمالية تستند إلى علاقة المواجهة والتناسب والموازاة والتناغم في جملتين أو أكثر على جهة الائتلاف أو الاختلاف لتحقيق وظيفة من الوظائف تتجه إلى هدف ما في كل زمان ومكان لإفادة المتلقي وإمتاعه»<sup>(١)</sup>.

## ثانياً - المحسنات اللفظية:

ومن أهم المحسنات اللفظية التي زخرت بها سورة مريم: (الجناس - المماثلة - السجع) لذلك سنتناول كل محسن على حدة بالمعالجة:

الجناس:

وهو «تشابه اللفظتين في اللفظ»<sup>(٢)</sup>، ولقد أكثر العلماء في تعريفاتهم للجناس كلاً على وجهه نظره، ولكن تعريفاتهم جميعها تنصب في معنى واحد وهو: «تشابه اللفظة أختها في الحروف ولكن المعنى مختلف»<sup>(٣)</sup>.

### - القيمة الفنية للجناس<sup>(٤)</sup>:

- ❖ إن اللفظة المشتركة إذا حملت على معنى ثم جاءت اللفظة الأخرى لمعنى آخر، كان لمعرفة أبعادهما تشوقاً للنفس.
- ❖ كما أن الجناس في السياق القرآني يخالف الجناس التأليفي البشري، فالجناس في القرآن يأتي على سجيته متألماً متناغماً على وتيرة واحدة، وفي غاية من الإحكام والإبداع، ويبتعد فيه عن الكلفة والتصنع الذي يعتري البشر.
- ❖ كما أن الجناس يعطينا صوتاً منغماً باتساقه مع الكلمات الأخرى التي تجانس معها، مما يضيف على السمع جرساً موسيقياً مؤثراً تميل له الأذن بالإصغاء، ويميل القلب له بالاستمتاع

١- حسن جمعة: التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة جمالية فكرية أسلوبية) منشورات دار النمير، دمشق، ٢٠٠٥م، ط١، ص٩٠.

٢- السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص٢٤٧.

٣- سهام صباد: البديع في سورة مريم، ص٥٤، لقد تعددت آراء العلماء في أنواعه فمنهم من يزيد، ومنهم من يقل ولكننا نوجز الأنواع بتقسيمها على الأشهر: × الجناس التام: " أن يتقفا في أنواع الحروف، وأعدادهما، وهيئاتهما، وترتيبهما " أي تشابه اللفظتين وتماثلهما مع اختلاف المعنى.

× الجناس الناقص: " أن تختلف الكلمتان في نوع الحرف أو شكله أو عدده أو ترتيبه "، وله عدة أنواع، ينظر، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٢٩٤-٢٩٨، وليد قصاب: البلاغة العربية، ص٣٨٠.

٤- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفتانها (علم البيان والبديع)، ص٣٠١، ينظر، وليد قصاب: البلاغة العربية، ص٣٨١.





لحسن نسقه وانسيابيته على اللسان والنفس.

ومن أمثلته التي وردت في قصص سورة مريم وتعقيباتها:

الجناس	نوعه
١- (نادى نداء) في الآية (٢)	جناس ناقص - اشتقائي (٣٧)
٢- (نسيا منسيا) في الآية (٢٣)	جناس ناقص - لزيادة حرف
٣- (خلف خلف) في الآية (٥٩)	جناس ناقص - لاختلاف الحركات
٤- (لنحشرنهم لنحضرنهم) في الآية (٦٨)	جناس ناقص - لاختلاف حرف
٥- (تؤز أزا) في الآية (٨٣)	جناس ناقص - اشتقائي
٦- (نعد - عدأ) في الآية (٨٤)	جناس ناقص - اشتقائي
٧- (وفدا وردا) في الآية (٨٥-٨٦)	جناس ناقص - اختلاف حرف
٨- (عدهم عدا) في الآية (٩٤)	جناس ناقص - اشتقائي
٣٧- جناس الاشتقاق: «هو توافق الكلمتين في الحروف الأصول مع الاتفاق في أصل المعنى» ويسمى المقضب، الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٤٩، ينظر، السيوطي: الإقتان في علوم القرآن، المجلد ٢، ص ٢٤٩.	

وبعد هذه الأمثلة ندرك تفوق القرآن على الكلام البشري إذ إنه جمع بين (الحسن والأداء والإقتان) الذي أبعده عن التكلف والصنعة، فها هو عبد القاهر الجرجاني يشترط للإتيان بالتجنيس في الكلام شروطاً قد استسقاها من أسلوب القرآن وطريقته، قائلاً: «فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملاءمته وإن كان مطلوباً، بهذه المنزلة وفي هذه الصورة»<sup>(١)</sup>.

### ٣. المماثلة:

وتعرف المماثلة ب: «أن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظ تكون موضوعة لمعنى آخر، إلا أنه ينبئ إذا أورد عن المعنى الذي أراد كقولهم: (فلان نقي الثوب) يريدون به أنه لا عيب فيه»<sup>(٢)</sup>.

١- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ١٢-١٣.

٢- أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ٣٥٣.



ولقد وردت المماثلة في سورة مريم في آية واحدة، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾﴾ إذ نلاحظ المماثلة موجودة في (سمياً) أي «أن أصل (السمي) المشارك في الاسم وذلك يقتضي (المماثلة)، ونفي السميّ حينئذ يجوز أن يراد به نفي المشاركة، لأن الكفار وإن سمّوا أصنامهم آلهة لكنها تسمية باطلة لا اعتداد بها، لأن اسم الله مختصاً به فقط دون غيره من الموجودات»<sup>(١)</sup>.

وكذلك «فإن المشركين لم يسموا شيئاً من أصنامهم باسم الله بلام، وإنما يقولون للواحد منها (إله) فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمة باسمه كناية عن اعتراف الناس بأن لا مماثل له في صفة الخالقية، لأن المشركين لم يجترئوا على أن يدعو لآلهتهم الخالقية»<sup>(٢)</sup>.

## ٢. السجع (رعاية الفواصل):

وهو «تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد»<sup>(٣)</sup>.

ولقد اختلف العلماء فيما بينهم في حكم إطلاق كلمة سجع في فواصل القرآن بين مؤيد ومعارض، فها هو الرماني (٢٨٦هـ) ينفي السجع في القرآن ويعدّه عيباً بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب، وذلك لأن الفواصل تابعة للمعاني وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»<sup>(٤)</sup>.

ويرد عليه ابن سنان الخفاجي (٤٤٦هـ) بقوله: «فأما قول الرماني: أن السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط، لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابِعاً للمعنى وكأنه غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف فذلك عيب والفواصل مثله، وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف، كذلك يعرض في الفواصل عند تقارب الحروف، وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب»<sup>(٥)</sup>.

ولست بصدد تتبع الآراء حول هذه الموضوع، غير أنني أرى أن الاختلاف بين العلماء كان شكلياً في إطلاق المسمى أكثر منه في المسميات، ومع هذا فإنهم جميعاً متفقون على نفي مجيء السجع في

١- سهام صبياد: البديع في سورة مريم، ص ٤٨.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦ ص ١٤٢.

٣- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٣٠٢.

٤- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن: ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د، ت) ط ٤، ص ٩٧.

٥- أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي الجليبي: سر الفصاحة، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، مصر، ١٣٥٠هـ ١٩٣٢م، ط ١، ص ١٦٦.

القرآن الكريم على حساب المعنى، والجميع ينظرون إلى القرآن الكريم نظرة تقديس، وينفون عنه مشابهته لكلام البشر<sup>(١)</sup>.

لذلك أفضل استعمال كلمة الفاصلة في تعاملي مع القرآن مع عدم منافاتي لإطلاق كلمة السجعة فيه، باعتبار أن السجعة شكل من أشكال الفاصلة التي تدرج تحتها، وذلك من باب الحرص على قداسته وتمييزه عن الكلام النثري البشري.

والفواصل موجودة بكثرة في القرآن الكريم حتى أننا نجد السورة الكاملة مسجوعة كلها، أو بعضها كسورة الرحمن مثلاً.

وأما سورة مريم فلقد وُجد فيها الكثير، حيث تنوعت فواصلها محدثة نغماً موسيقياً له أثر على نفس المتلقي والسيطرة على سمعه.

لذلك نُؤجل المعالجة للفاصلة هنا إلى مطلب لاحق في معالجة الأدوات الصوتية والموسيقية في السورة، لتفصيل القول في أمثلتها وأشكالها ودورها الصوتي بشكل أفضل وأوسع.

وفي ختامنا للمحسنات البديعية في السورة أُلقت النظر إلى أن من بلاغة القرآن وبديعه احتواءه على مختلف أنواع هذه المحسنات البديعية، وقدرته على الجمع بينها في عدة مواضع بطريقة أسلوبية بليغة يمثل الجمال والحسن في أبهى حلله، وأجمل صورته.

وأجمل ما تكون الأنواع البديعية «حين لا تقصد لذاتها، وإنما يجري بها الكلام دون تكلف، فمتى عمد إلى استجلابها، كُدّر صفوها، وانطفأ بريقها»<sup>(٢)</sup>.

وسورة مريم مثلت لنا هذه الحقيقة بقدرتها على توظيف الأنواع الجمالية في الوحدة الفنية ذات الأثر الجمالي العميق في نفس من يتلقى السورة، فتأسر قلبه حسناً وبهاء، وتقنع عقله دليلاً وبرهاناً.

## ثانياً - الأدوات التصويرية ودورها في المعمارية القصصية:

للتصوير جماليته الفنية التي تؤثر على العقل والقلب معاً، وتخاطب الذهن بأرقى عملياته الفكرية والإدراكية، وتخترق كوامن الوجدان في أجمل هيئاته وأشكاله.

فما مفهوم الصورة الفنية؟ وكيف تجلت بأشكالها وأنواعها في القرآن؟ وما وظيفتها الفنية والجمالية التي تمثلت في قصص سورة مريم؟ وكيف أدت دورها الجمالي في الوحدة الفنية داخل المعمار القصصي؟

١- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٥٠-٥١، وسعاد صياد: البديع في سورة مريم، ص ٦٢-٦٣-٦٤.

٢- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٠٢.



## ١. تعريف الصورة الفنية:

في العمل الأدبي عدة تعريفات قد تضاربت بها أقوال العلماء كلاً على حدة يضيف وينقص، يوسع ويقيد، على وجهة نظره للصورة الفنية، ولست هنا بصدد تناول أقوالهم فيها غير أنني أخلص إلى أن القدماء لم تتعد أقوالهم في الصورة، ووسائلها الفنية، أو أشكالها البلاغية المجازية من (تشبيهه وكناية استعارة) التي عولجت في إطار من الجزئية والانفصال بين أجزاء القصيدة وعناصرها<sup>(١)</sup>.

وأما **المحدثون** فلم يعدوا الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح، بل وجدوا إضافة عليها أنها قد تخلو من المجاز أصلاً، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال، فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب<sup>(٢)</sup>.

وهناك من **جمع بين الرأيين** ليبلور تعريفاً جديداً يعبر عن الصورة الفنية بقوله: «بنية لغوية تتخذ منها الكلمات نسقاً معيناً في إطار من العلاقات المتميزة وفقاً لأحاسيس المبدع وأفكاره، فيخرجها في شكل يتجاوز المؤلف ويغالب الدلالة الحرفية»<sup>(٣)</sup>.

وهذا التعريف يخدمنا في هذه المعالجة باعتبار التصوير لبنة من اللبنة الجمالية التي تكوّن مع بعضها البعض لبنات كبرى مترابطة في إحكام مغلف بنسيج تصويري بديع في السورة القرآنية.

## ٢. التصوير في القرآن:

ونجد التصوير هو «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها فقد استوت لها كل عناصر التخيل»<sup>(٤)</sup>.

١- ينظر، بلحسيني نصيرة: الصورة الفنية في القصة القرآنية (قصة سيدنا يوسف عليه السلام، نموذجاً، دراسة جمالية) رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان الجزائر، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص ١٦ - ٢٧.

٢- ينظر، المرجع السابق، ص ٢٧ - ٣٦.

٣- محمد طول: الصورة الفنية في القرآن الكريم - أطروحة دكتوراه - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، ١٩٩٥م، ص ٢٠.

٤- سيد قطب: التصوير الفني، ص ٧١.

### ٣. وظيفة التصوير في القرآن:

أ- إثارة النفس: «إن الصورة تكون جديدة بهذا الاسم عندما تخلق الاستجابة الانفعالية، وإن لم تخلقها كنا أمام بلاغة فقط، وليس أمام صورة»<sup>(١)</sup>، لذلك لها دورها في الترغيب بالترزين و الترهيب بالتقبيح.

ب- تحويل «الواقع الحسي القاسي، والأفكار التجريدية الجامدة إلى روح نابضة بالحياة والعاطفة والشعور ينصهر في الإحساس بالجمال مع الإحياءات العميقة»<sup>(٢)</sup>.

ج- إثارة العقل بتحريكه نحو التخيل الحسي والتجسيم الفني والتناسق الإبداعي<sup>(٣)</sup>.

د - تهيئة المتلقي لتلقي المطلب الديني والغرض العقدي في صفاء وجمال بالإقناع والإمتاع.

### ٤. التصوير في قصص السورة:

انسجم التصوير في قصص سورة مريم، بدرجة قوية قد تجلى بدقته وصدقته وجمالة، مما جعلها تتطبع في النفوس وتؤثر على العقول، لتورث في العقل والقلب أفكاراً وأهدافاً قصدها القصص قصداً لترسم طريق الحق والهداية أمام المتلقين.

لذلك نجد الصورة قد ألفت على عناصر القصص أنوار وظلالاً، وأعطت الأحداث حياة ونشاطاً، ورسمت شخصياتها بكل صراحة وحقيقة، فكشفت عن ملامحها وسماتها، ورصدت خواطرها وانفعالاتها، وبثت فيها جمالاً بديعاً لا نعلم سره من أول وهلة، بل لابد من تدقيق واستقراء وتدقيق لنصل بعدها إلى جزء بسيط جداً من أسرارها البلاغية والجمالية والأسلوبية المعجزة.

ومن أهم هذه التصويرات في معمارية القصص: [التصوير بالتشبيه - التصوير بالمجاز الذي اندرج تحته التصوير بالاستعارة والمجاز المرسل - التصوير بالكناية - التصوير بالاعتراض - التصوير بالحقيقة].

### أولاً - التصوير بالتشبيه:

يعرف التشبيه بأنه «دلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»<sup>(٤)</sup>، وله عدة أركان هي: (المشبه والمشبه به وأداة الشبه ووجه الشبه)<sup>(٥)</sup>.

١- محمد طول: الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص ٢٤.

٢- بلحسيني نصيرة: الصورة الفنية في القصة القرآنية، ص ٤٢.

٣- ينظر، المرجع السابق، ص ٤٦ - ٥٨.

٤- الخطيب القرويوني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٦٥.

٥- فضل حسن عباس: البلاغة فتونها وأقنانها (علم البيان والبديع)، ص ٢٢.





وللتشبيه قيمة فنية جمالية، إذ إنه «يضي على المعنى شرفاً ووضوحاً ويزيده قوة وتأكيداً، ويرفع من قدر الكلام فتفهو النفس له، ويتحرك القلب إليه، لأنه ينتقل بنا من المعنى الأصلي إلى صورة تشبيهه، وكلما جلا التشبيه المعنى وزاده قوة ووضوحاً، كان أملك للنفس وأبعد للتأثير»<sup>(١)</sup>.

ومن بعض مواطن التشبيه في قصص السورة:

مواطن التشبيه	الغرض	القيمة الفنية والجمالية
١- قوله تعالى في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنَا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ ﴾ ومثلها قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام في الآية: (٢١)	- التأكيد والتطمين على تحقق الوعد. - إظهار العظمة لله وهوان كل الأسباب والمسببات أمام قدرته.	إذ ترد الملائكة على تعجب زكريا عليه السلام في إمكانية الإنجاب، ببيان قدرة الله المطلقة، باستخدام أداة التشبيه (كذلك) لبيان أن خلق يحيى عليه السلام كخلق أبو البشر آدم عليه السلام من العدم، ووجه الشبه: هوان وسهولة الأمر على الله تعالى (٢٨).
٢- في قصة مريم عليها السلام قال الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ ﴾	- التوضيح للهيئة والطمأنينة.	حيث جاءت كلمة (بشراً) حال من ضمير الفعل (تمثل لها) الراجع على الملك، وهو حال على معنى (التشبيه البليغ) (٣٩)، إذ «صار جبريل عليه السلام وهيئة البشر كالمشئ الواحد» (٤٠) ولكن على الرغم من ذلك الجمال والحسن في هذه الهيئة نجد مريم تتعوذ ورعاً وزهداً (٤١).

١- عبد القادر حسين: القرآن والصورة البيانية، دار المنار ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ط١، ص ٩٨، وينظر، أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص ١٤٥-١٦٢.

<p>(تشبيهه بليغ) إذ «شبه الاعتقاد الحق في كونه موصلاً للهدى بالصراط المستقيم في إيصاله إلى المكان المقصود باطمئنان بال» (٤٢).</p> <p>وبالتأمل في التشبيه نجده يدل على صحة السير والوصول إلى الغاية بأقصر الطرق، إذ إن الخط المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين والقوم كانوا يعيشون في الصحراء لا يعرف السفر فيها إلا الخبير فجاءت هذه الصورة ملاسمة لأعماقهم وعقولهم، فبمجرد الحياد عن الطريق الصحيح لهُو دليل على التيه والضياع (٤٢).</p> <p>والتعبير باسم الإشارة (هذا) دلالة على التقريب والوضوح كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (٤٤).</p>	<p>التوضيح و التأكيد على لزوم الطريق الحق</p>	<p>٢- في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام مع قومه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦)</p>
<p>(تشبيهه بليغ) حيث شبه قرب موسى عليه السلام من ربه لمناجاته «بمن قربه بعض العلماء للمناجاة حيث كلمه من غير واسطة ملك» (٤٥).</p>	<p>- للبيان والتوضيح - التأكيد على علو الشأن</p>	<p>٤- في قصة موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (٥٢)</p>
<p>٢٨- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٧٢. ولقد رأى بعضهم أن الآية خالية من التشبيه وأن «أنت لتوكيد المعنى وتثبيتته، ينظر أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ١٦٥.</p> <p>٢٩- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٨٠.</p> <p>٤٠- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧١.</p> <p>٤١- ينظر، الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ١٠.</p> <p>٤٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: ج ١٦، ص ١٠٥.</p> <p>٤٣- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧١.</p> <p>٤٤- سورة الأنعام، الآية ١٥٣.</p> <p>٤٥- الزمخشري: الكشاف، ج ٢، ص ٢٥.</p>		



ومن خلال ما سبق من الأمثلة ندرك «أن التشبيه في القرآن يصب اهتمامه كله على اقتراب الصورة من النفس، وقوة تأثيرها ووضوحها، بالإضافة إلى أنه ليس طرفاً إضافياً للعبارة ولكنه جزء هام متمم للمعنى»<sup>(١)</sup>.

وندرك كذلك مدى دوره المهم في تعميق الهدف والغرض داخل القصص القرآنية، وما يضيفه من جمال نفسي في ثنانيا معمارية القصص للسورة الكريمة.

## ثانيا - التصوير بالمجاز:

المجاز ضد الحقيقة والمقابل لها، ولكي نتعرف على المجاز لابد من معرفة الحقيقة، والحقيقة لغة هي: الشيء الثابت<sup>(٢)</sup>، واصطلاحاً هي: «اللفظ المستعمل فيما وضع له»<sup>(٣)</sup>.

وأما المجاز في اللغة: من جاز الشيء جوازاً إذا تعداه، وجاز الطريق مجازاً أي سلكه<sup>(٤)</sup>، واصطلاحاً: «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي»<sup>(٥)</sup>.

## وينقسم المجاز في البلاغة إلى قسمين هما<sup>(٦)</sup>:

- المجاز العقلي: وهو إسناد الشيء لغير ما هو له، ويكون مرجعه العقل للحكم عليه، ويسمى (مجازاً حكماً).
- المجاز اللغوي: وهو استعمال الكلمة لغير ما وضعت له ويكون مرجعه اللغة.

## أ - المجاز العقلي:

للمجاز العقلي: أثر كبير في المجال الفني إذ هو «كنز من كنوز البلاغة، مادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجئ بالكلام مطبوعاً لا مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الإفهام»<sup>(٧)</sup>.

١- بلحسيني نصيرة: الصورة الفنية في القصص القرآنية، ص ٦٤.

٢- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٤، حقق، ص ١٧٦-١٧٧-١٧٨.

٣- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم البيان والبيدع) ص ١٢٨.

٤- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٣، جوز، ص ٢٢٨-٢٣٩.

٥- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم البيان والبيدع) ص ١٢٨.

٦- المرجع السابق، ص ١٣٦.

٧- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٩٣.



ومن بعض مواضعه في قصص سورة مريم كالتالي:

القيمة الفنية والجمالية	الغرض	موطن المجاز العقلي
فالمجاز العقلي في كلمة (لأهب) بهمزة المتكلم بعد لام التعليل، ومعناها أن جبريل عليه السلام، قد أسند الهبة إلى نفسه حين أن الهبة من الله تعالى، إذ إنه أراد تبرير سبب وجوده في هذا المكان، ويدل المجاز هنا على مدى قرب جبريل عليه السلام من الله تعالى (٤٦)، ومسارعة في تخفيف أثر المفاجأة التي اعترضت مريم عليها السلام.	- التوضيح والطمأنينة. - التأكيد على تنفيذ الأمر.	١- قول الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (١٩)
«لم يكن والد إبراهيم عليه السلام يعبد الشيطان، وإنما كان يعبد الأصنام، ولكن إبراهيم عليه السلام نسب العبادة إلى الشيطان لأنه هو سببها فهنا مجاز عقلي علاقته السببية» (٤٧) ليضع إبراهيم عليه السلام والده في حقيقة أمره بأن هذه العبادة أصلاً من تتبع هوى الشيطان وغوايته فلا بد من الكف والانتباه للحقيقة (٤٨).	- التوضيح والتأكد على سوء هذه العبادة.	٢- قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَتَّابِتْ لَّا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (٤٤)

٤٦- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٧٩.

٤٧- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧٨.

٤٨- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١١٦، والأوسى: روح المعاني، ج ١٦، ص ٩٧.

(ب) المجاز اللغوي: ويأتي في اللغة مع المفرد والمركب وينقسم إلى قسمين<sup>(١)</sup>:

(المجاز المرسل - الاستعارة).

❖ المجاز المرسل: وهو «مجاز لغوي علاقته غير المشابهة، وسمي مرسلًا، لأن الإرسال هو الإطلاق،

١- ينظر، الخطيب القرظيني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٠٦-٢٠٩.



٣٣٧



فهو مطلق في علاقاته أي ليس له علاقة معينة كما هو الشأن في الاستعارة<sup>(١)</sup>.

ومن أمثله في قصص السورة الكريمة:

المجاز المرسل في الآيات	القيمة	الدلالة
١- قوله تعالى في تعقيبه على قصة عيسى عليه السلام وأمه: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢١)	التوكيد التعظيم	حيث وصف الله عيسى عليه السلام كونه (قول الحق) والأصل: <b>وُلِدَ</b> بقول من الحق سبحانه وتعالى وبكلمة منه، و«القول عيسى نفسه، كما أطلق عليه في غير هذا الموضع (كلمة) من تسمية المسبب باسم السبب» (٤٩) (فهو مجاز مرسل) علاقته السببية.
٢- تكرار كلمة (الرحمة) في عدة مواضع من مثل قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (٢) وقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (١١) وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ (٥٥) وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (٥٣)	تكريم وتشريف	فالرحمة هنا (مجاز مرسل) لكل هبة ورزق ومكانه ورفعة وطمأنينة ورضى وخير. - فالرحمة لذكريا عليه السلام: إجابة دعائه في الولد الرضي. - والرحمة لعيسى عليه السلام: بأنه رحمة وهداية للناس إلى الحق. - والرحمة لإبراهيم عليه السلام: نيله هو وذريته النبوة الأرزاق والكرامات. - الرحمة لموسى عليه السلام: إعانته بأخيه في الدعوة لله.
٣- قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ (٥٥)	تكريم وتشريف	استخدم السياق السردى في القصة (اللسان) بكونه مجازا يدل على الذكر الحسن والثناء، باعتبار أن اللسان آلة الكلام (٥٠).

٤٩- كما في قوله تعالى معبراً عن عيسى بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنِّي﴾ سورة النساء آية ١٧١، البقاعي: نظم الدرر: مجلد ٤، ص ٥٢٢، وينظر، معين رفيق احمد صالح دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧٩.  
٥٠- ينظر، معين رفيق احمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧٩.

١- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفتانها (علم البيان والبيدع) ص ١٤٩.

وأكتفي بهذا القدر لندرك مدى جمالية هذا النوع من المجاز.

## ❖ الاستعارة:

هي «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»<sup>(١)</sup>.

- **والغرض من الاستعارة:** «إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»<sup>(٢)</sup>.

وتتعدد أنواع الاستعارة وأقسامها وتفرعاتها بحيث لا أستطيع الاستفاضة فيها في هذا الموضوع<sup>(٣)</sup>.

## - التطبيق على قصص السورة:

وبالنظر إلى قصص سورة مريم نجد الكثير من الاستعارات التي أسهمت في التصوير والبيان والتأثير، ومن أشهرها وأظهرها في السورة الكريمة:

❖ في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾<sup>(٤)</sup>، فلقد تعددت الشروحات البيانية عند العلماء والبلاغيين في هذه الآية، لما احتوتها من لطائف بلاغية متنوعة، ومن هذه الشروحات القيمة:

١- عدت استعارتين مبنيتين على تشبيهين واقعين في قوله تعالى: «اشتعل الرأس شيباً» وهما<sup>(٥)</sup>:

- الاستعارة الأولى: (مكنية تخيلية تبعية) في تشبيه الشيب بشواظ النار في البياض والإنارة.  
- والاستعارة الثانية: (تصريحية تبعية) في تشبيه الشيب باشتعال النار في سرعته وعمومه وشموله لكافة الرأس.

٢- ومنهم من وضح بلاغة الصورة في كونها «استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس، فالمستعار منه هو (النار)، والمستعار له (الشيب) والوجه: هو الانبساط ومشابهة ضوء النار لبياض الشيب، وكل ذلك محسوس، وهو أبلغ مما لو قيل: (اشتعل شيب الرأس) لإفادة عموم الشيب لجميع الرأس»<sup>(٥)</sup>.

١- عبد القادر حسين: القرآن والصورة البيانية، ص ١٩٣.

٢- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص ٢٩٥.

٣- ينظر فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها، (علم البيان، والبدیع)، ص ١٦١ - ٢٢١، وليد قصاب: البلاغة العربية، ج ١، ص ١٥٤.

٤- ينظر، المرجع السابق، ص ١٧٥، الألوسي: روح المعاني، ج ١٦ ص ٦٠. الزمخشري: الكشاف ج ٢، ص ٦، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ٤٣٥.

٥- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مجلد ٢، ص ١١٠.





٣. ومنهم من فسرها على أساس التخيل قائلاً: «ولون من التخيل يتمثل في الحركة الممنوحة لما في شأنه السكون كقوله: «اشتعل الرأس شيباً» فحركة الاشتعال هنا تُخيل للشيب في الرأس حركة كحركة اشتعال النار في الهشيم، فيها حياة وجمال»<sup>(١)</sup>.

٤. ومنهم من يرى فيها تشبيهاً مركباً تمثلياً قائلاً «وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شي لامع في جسم أسود، تشبيهاً مركباً تمثلياً قابلاً لاعتبار التصريق في التشبيه، وهو أبداع أنواع المركب، فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار عن طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل (اشتعل).

وأسند الاشتعال إلى الرأس وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب، لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالباً، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن.

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي، لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب، فلما جاء باسم الشيب تميزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية (التفصيل بعد الإجمال)، مع إضافة تذكير (شيباً) من التعميم فحصل إيجاز البديع، وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس»<sup>(٢)</sup>.

٥. ومنهم من فسرها على أساس أنها نكتة جمالية: «إن النكتة الجمالية لاستخدام الأول ونعني به (الرأس شيباً) هو تعمييق لدلالة الكبر أو الهرم إلى أقصى مداها، حيث إن الاشتعال يرمز إلى فناء المادة المشتعلة، أي فناء العمر وهو بلوغ العمر منتهاه، حيث لا تصور أبعد من ذلك، من هنا كانت هذه الاستعارة لها وظيفتها الجمالية المزدوجة وهي أنها ترمز أو تشكل في الواقعة دالاً لأقصى العمر ومن حيث كون تلك اللغة معدولة أو انزياحية أو لغة مجازية، ومن ثم كون ذلك في سياق الأفضوية تشكل ملمحاً خارجياً له علاقته العضوية بالموقف ألا وهو طلب زكريا الذرية، وهناك نكته جمالية أخرى تضاف إلى ما تقدم ونعني بها النكتة المرتبطة بما يسمى في اللغة القصصية بالاسترجاع التكراري، ألا وهي المعادل الدلالي الذي أشرنا إليه عبر قوله تعالى (بلغت من الكبر عتياً) أن المسوغ الفني للتكرار وتبديل صيغته الأول أي الاشتعال وتبديل ذلك بالعتي هو أن وحدة اللغة الأولى يتطلبها الموقف بالنسبة إلى استجابتنا نحن كمتلقين حيث إننا لو جئنا أولاً بفقرة: (بلغت من الكبر عتياً) لما تبين لنا بجلاء حجم العمر بقدر ما تحصل لدينا معرفة مجملة بطول العمر، بينما يستهدف النص القصصي بأن العمر قد بلغ أقصى مداه بحيث لا يسمح بإمكانية الإنجاب. وهذا ما لا يمكن أن تحققه صورة بلغت من الكبر عتياً، بل تحققه جملة اشتعل الرأس شيباً من حيث كونها ترمز إلى فناء العمر أي الاشتعال فيما ليس

١- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٧٨. ينظر، بكرى شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن الكريم، ص ٢٠٣.

٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٦٤.

بعد الاشتغال إلا الرماد. ومن هنا جاء المسوغ الجمالي لتقديم صورة و(اشتعل الرأس شيباً) حتى يكشف المتلقي أن العمر بلغ منتهاه<sup>(١)</sup>.

٦. ومنهم من يرى أن الجمال البلاغي في الآية لا يقتصر على الاستعارة فقط كما قال بذلك أهل البلاغة بل يتعداه إلى النظم بقوله: «إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته...»<sup>(٢)</sup>.

إلى غيرها من أقوال العلماء والبلغاء التي كلما قلبنا الصورة في ملاحظاتهم ونظراتهم تكشف لنا جماليات مستورة ولطائف مخبوءة، وهو يدل على بلاغة القرآن وإعجازه في العبارة الواحدة بل اللفظة الواحدة، إذ يحتوى على عدة جماليات لغوية وأسلوبية وتصويرية وموسيقية يعجز البلغاء والفصحاء محاكاتها أو الإتيان بمثلاها.

وإلى جانب هذه الصور الفنية البديعة ننتقل إلى صور استعارية أخرى لا تقل جمالاً عن سابقتها. وألخص بعضاً من أمثلتها الخلاصة في الجدول الآتي:

الإيحاء والدلالة	نوع الاستعارة	الاستعارة في القصص
فالاستعارة هنا تدل على الضعف والهوان والشعور بالجفاف واليبس المؤذن بانتهاء الأجل، فالعتي هو: «اليبس والجساسة في المفاصل والعظام كالعود القاحل، يقال: عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية» <sup>(٥١)</sup> . فكما يبس العود بعد أن كبر، فكذلك يبست عظام زكريا عليه السلام بعد أن طعن في السن «شبه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة المكنية، وإثبات وصف العتي لها استعارة تخيلية» <sup>(٥٢)</sup> .	استعارة مكنية تخييلية (تجسيم)	١- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرًا تِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

١- محمود البستاني: دراسات في علوم القرآن الكريم، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

٢- ينظر، عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٧٢.



<p>نتلمس في هذه الصورة «هزة اللهجة الأمرة، وقوة الجملة الحازمة» (٥٣).</p> <p>إذ إن الأخذ هنا: «مستعار للتفهم والتدبر، كما يقال أخذت العلم عن فلان، لأن المعنى بالشيء يشبه الأخذ» (٥٤)، والقوة «يراد بها قوة معنوية، وهي العزيمة والثبات» (٥٥) فهنا (استعارة تصريحية تبعية) طرفها الأول معنوي والثاني حسي، جاءت للتأكيد على أهمية الكتاب وفهمه والعمل به، ويسرح الخيال أمام هذه الصورة لتخيّل يحيى عليه السلام وهو يتلقى الأمر الصارم والمباشر، والقرار الحازم في أخذ الكتاب، وما فيه من الحق بكل قوة واقتدار وعزيمة دون تكاسل في حملة أو تطبيقه (٥٦).</p>	<p>استعارة تصريحية تبعية (تجسيم)</p>	<p>٢- قوله تعالى مخاطباً يحيى عليه السلام: ﴿يَبْحِثْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾</p>
<p>- فالأولى في: تشبيه إبراهيم عليه السلام بالهادي الخبير الذي يدل على الطريق الصحيح وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه.</p> <p>- والثانية في «تشبيه الاعتقاد الموصل إلى الحق والنجاة بالطريق المستقيم المبلغ إلى المقصود» (٥٧).</p>	<p>-استعارة مكنية (تشخيص) - استعارة تصريحية (تجسيم)</p>	<p>٣- قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً والده: ﴿يَتَابَتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾</p>
<p>فالمكان العلي هو «شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى» (٥٨)، فشبهت الآية المكانة والمنزلة التي وصل إليها إدريس عليه السلام عند ربه بالمكان العلي الذي لا يعرف كنهه إلا الله، والصورة هنا تدل على مدى قربته من الله تعالى والزهد عما في الدنيا، والرفعة والطهارة عن كل ما يخدش دينه (٥٩).</p>	<p>استعارة تصريحية (تجسيم)</p>	<p>٤- قوله تعالى في قصة إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾</p>

٥- قوله تعالى في قصة الكافر المستهزئ بيوم الآخر: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهِ قَوْلًا فَجَاء بِظُلْمٍ أَعْجِبَ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) ﴿﴾

-استعارة تصريحية (تجسيم)  
- استعارة مكنية (تجسيم)

- الاستعارة الأولى: في قوله تعالى (أفرأيت) «فالرؤية مستعارة للعلم بقصته العجيبة، نزلت القصة منزلة الشيء المشاهد بالبصر لأنه من أقوى طرق العلم» (٦٠).  
- والاستعارة الثانية: في قوله تعالى «أطلع الغيب» وهي صورة «تلقى في الروع إحساساً بضخامة هذا الغيب وعظمته» (٦١).  
و(أطلع) «من قولهم: أطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه...ويقولون: مرّ مطلعاً لذلك الأمر، أي عالياً له مالكا له، ولاختيار هذه الكلمة شأن، يقول أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار» (٦٢).  
فشبه الغيب المجهول بالجبل الشامخ العالي الذي لا يبلغ مداه أو أعلى منه، سخرية واستهزاء بحقارة هذا الشخص.

٦- قوله تعالى في وعيده للكافرين: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوذُّهُمْ وَأَلْقَى﴾ (٨٣) ﴿﴾

استعارة مكنية (تجسيم)

فلاستعارة هنا ترسم لنا مشهدا من مشاهد عقاب الكافرين الذي امتلئ وشحن اضطرابا وانفعالا وقلقا وضجيجا و«الأز والهز والاستفزاز الباطني مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتد غليانه، شبه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاف أكاديبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقة وسكون، فهو استعارة» (٦٣).



- ٥١- الزمخشري: الكشاف: ج٢، ص ٨  
 ٥٢- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١٦، ص ٧١.  
 ٥٣- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧٣.  
 ٥٤- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١٦، ص ٧٥.  
 ٥٥- المرجع السابق، ص ٧٥.  
 ٥٦- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧٤.  
 ٥٧- المرجع السابق، ص ١١٦.  
 ٥٨- الألوسي: روح المعاني، ج١٦، ص ١٠٥.  
 ٥٩- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم ص ١٧٤  
 ٦٠- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١٦، ص ١٥٩.  
 ٦١- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٧٥.  
 ٦٢- الزمخشري: الكشاف، ج٢، ص ٤٠.  
 ٦٣- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١٦، ص ١٦٥.

هذه بعض أمثلة الصورة الفنية المتمثلة في الاستعارات التي تعمّدتنا ضرب الأمثلة المتعددة فيها، لتوضيح دورها البارز في رسم أجواء القصص من (صوت ولون و حركة) يسهل على متأملها تذوقها واستخراجها، وبث الخيال والحيوية في أركانها وإدراك قيمتها الجمالية التي ساهمت في تحقيق الوحدة الفنية داخل القصص.

وهكذا تنتقل من المجاز الذي تناولته قصص سورة مريم إلى شكل آخر من أشكال التصوير الفني وهي الكناية.

### ٣. التصوير بالكناية:

وهي «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردّفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه»<sup>(١)</sup>.  
 وللكناية دور في توضيح المعنى، وهي أبلغ من التصريح في الدلالة عليه<sup>(٢)</sup>.

وكما أنها تجمع بين الإمتاع والإقناع إذ إنها لا تأتي بالدعوى إلا ومعها دليلاً، «ألا ترى أن قولهم كثير الرماد، التي يكون بها عن الكرم إنما جاءت دليلاً محسوساً لإثبات هذا الكرم، وكذلك كل كناية إن تأملتها، تجد أنها جاءت دليلاً على المعنى المراد منها»<sup>(٣)</sup>.

١- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥١

٢- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم.

٣- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقنانها (علم البيان والبديح) ص ٢٦٦.



ومن مواطن الكناية في قصص سورة مريم كالآتي:

الكناية في القصص	النوع والقيمة	الإيحاء والدلالة
١- قوله تعالى في قصة زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣)	- كناية عن صفة للموصوف للتشويق إلى معرفة ماهية النداء. - ولتشريف هذا النوع من العبادة.	الدعاء الخفي جاء كناية عن الإخلاص والبعد عن الرياء، وهي دلالة على عظم هذه العبادة وأثرها على البعد وسبباً في القرب من الله تعالى(٦٤).
٢- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٤)	كناية عن صفة للموصوف وتقيد التأكيد والتوضيح.	(وهن العظم) كناية عن الضعف والشيخوخة، وبيان أنه قد بلغ مبلغاً يرثى عليه.
٣- قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٥)	كناية عن صفة للموصوف للإشارة والتلميح.	ففي قوله تعالى: (ولم يمسنني بشر) «جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه» (٦٥)، ثم جاءت الجملة الثانية نافية البغاء والزنا بتاتاً و «الكلام كناية عن التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب. والمعنى: ما كنت بغياً فيما مضى أفأعد بغياً فيما يُستقبل» (٦٦). ويأتي توظيف الكناية تعبيراً عن أدب الخطاب الذي هو طريقة القرآن الدائمة في البعد عن استخدام الألفاظ البذيئة والفاحشة(٦٧).





<p>فالكناية واقعة في (جنيًا) إذ عبّر عن الرطب بأنه طريّ لين طازجٌ شهّي، ف «الجني: فعيل بمعنى مفعول، أي مجتني، وهو كناية عن حُدتان سقوطه، أي طراوته، ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل، لأن الرطب متى كان أقرب عهداً بنخلته كان أطيب طعماً» (٦٨).</p>	<p>كناية عن صفة للموصوف للتشويق</p>	<p>٤- قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ جُنُوحَ الْأَخْلَاقِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٥٥)</p>
<p>ف (قرة العين): «كناية عن السرور وقرة العين تشمل هنا العيش وتشمل الأُنس بالطفل المولود، وفي كونه قرة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه» (٦٩).</p>	<p>كناية عن صفة للموصوف جاءت للتشويق</p>	<p>٥- وقوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَوَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرْضَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٦٦)</p>
<p>(فالرجم) في الآية كناية عن القتل بطريقة الرجم بالحجارة، وفيها إيحاء عن شدة قسوة وعنف والد إبراهيم عليه السلام.</p>	<p>كناية عن صفة للموصوف للتهديد والإنذار</p>	<p>٦- قال تعالى على لسان والد إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمَتِكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٦٦)</p>
<p>٦٤- ينظر، الألويسي: روح المعاني، ج ١٦، ص ٥٩. ٦٥- الزمخشري: الكشاف، ج ٢، ص ١١. ٦٦- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٨٢. ٦٧- والمتبع لأساليب القرآن يجده دائماً يترفع عن تصوير الفحش والرذيلة و يتجاوزها سريعاً، حتى أنه كنى مواضع كثيرة في (الجماع) بالرفث والمباشرة والغشيان والحرث والإفضاء، ينظر: معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٨١. ٦٨- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٨٨. ٦٩- المرجع السابق، ص ٨٩.</p>		

ولقد تتابعت الكنايات في القصص والسورة بأكملها لتسهّم بوظيفة فاعله في توضيح المعنى، وتحقيق الهدف والمقصود بتأثيرها في النفس إمتاعاً وإقناعاً.

## ٤. التصوير بالتعريض:

لقد تباينت آراء البلاغيين في التعريض، فمنهم من ذهب إلى<sup>(١)</sup>:

- كون الكناية والتعريض شيء واحد.
- ومنهم من جعل التعريض قسماً من الكناية.
- ومنهم من رأى أن التعريض يختلف عن الكناية.

ولكنني أميل للرأي الثالث لوجود فوارق بسيطة بين التعريض والكناية.

فالتعريض لغة: خلاف التصريح، من عرّض، يقال عرضت لفلان وبقلان<sup>(٢)</sup>.

وإصطلاحاً: هو «اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»<sup>(٣)</sup> فهو يتحقق حين يطلق الكلام ولا يراد به ظاهره، وإنما يُشار به إلى معنى آخر يفهم من خلال السياق على سبيل التلميح والإشارة<sup>(٤)</sup>.

ومن أمثله في قصص السورة:

التعريض في القصص	دلالاته وفائدته
١- في قوله تعالى على لسان قوم مريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ <sup>(٢٧)</sup>	تعريض من القوم للسيدة مريم عليها السلام بكبر الأمر المنكر والمعجب الذي جاءت به (٧٠).
٢- في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ <sup>(٣٣)</sup>	جاء السلام على عيسى عليه السلام في المواضع الثلاثة: «تعريضاً باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود» (٧١)، الذين رموها بالزنا والفحش، وتعريضاً ببراءة عيسى عليه السلام من كل أقاويلهم واقتراءاتهم في ألوهيته، إذ إنه بشر يجري عليه ما يجري عليهم من حياة وموت وبعث.

١- ينظر، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأقناتها (علم البيان والبدیع)، ص ٢٥٥.

٢- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مجلد ١٠، مادة عرض، ص ١٠٨، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٣٣٤.

٣- ابن الأثير: المثل السائر، ج ٢، ص ١٥٧.

٤- ينظر، رفيق معين أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٨٤.





٣- ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ تعريضا للنصارى وتشنيعاً بأقوالهم وافتراءاتهم التي أطلقوها على الله كذبا .(٧٢).	٧٠- منهم من يرى التعريض هنا (كناية) بكونه نوع من أنواعه، ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٩٦. ٧١- الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ١٨. ٧٢- ينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٦٩.
---	--

وأكتفي بهذه الأمثلة للتعريض لندرك مدى جمالية استعماله في السياق القصصي وبخاصة في تثبيت المقصد الأساسي فيها.

## ٥. التصوير المعتمد على الحقيقة:

للتصوير المعتمد على الحقيقة جمال ورونق لا يقل عن التصويرات البلاغية السابقة، بل هو يتكامل معها ليرسم لوحة فنية بديعة تمتد في مشاهد متعددة ذات أبعاد متنوعة، ولقد برز في قصص سورة مريم على شكلين<sup>(١)</sup>:

❖ من خلال مشاهد الوعيد.

❖ ومن خلال الحوار التصويري.

### أ- مشاهد الوعيد:

١- فبتأملنا في رد الله تعالى على ذلك الإنسان الذي أنكر البعث والنشور بقوله عز وجل: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾<sup>(٦٨)</sup> ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِينًا ﴾<sup>(٦٩)</sup>

نجد (صورة حسية مخيفة ومفزعة) قد رسمها (السرد القصصي) لحال أولئك المشركين يوم القيامة وهم قد اقترنوا بشياطينهم، محشورين جميعهم عند ربهم، ثم يحضرون مقهورين مرغمين، قد جثت ركبهم على الأرض من شدة خوفهم وذلمهم<sup>(٢)</sup>، ثم يُنزعون بعنف وشدة كما في لفظة (لننزعن)، الذي برز فيها الـ «تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع، تتبعها صورة القذف في النار، وهي الحركة التي يكملها الخيال»<sup>(٣)</sup>.

٢- كما أننا نرى السياق التعبيري يُؤثر التصوير عن المعاني المجردة بطريقة عجيبة، ففي تهديد

١- بتصرف: معين رفيق صالح أحمد: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٨٦.

٢- بتصرف، المرجع السابق، ١٨٦ - ١٨٧.

٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣١٧ - ٢٣١٨.

الله تعالى لذلك الكافر المعاند الذي كان نموذج للكفر والعناد والاستهزاء باليوم الآخر قائلاً: ﴿كَأَنَّ سَنَكْتَبُ مَا يَقُولُ وَمُدَّةُ مَنْ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٧)﴾ نجد السياق يؤثر استخدام كلمة (سَنَكْتَبُ) التي جاءت بمعنى: «نحفظه عليه حفظ من يكتبه لنوبخه به، ونعد به عليه بعد الموت»<sup>(١)</sup>، «للتعبير عن علم الله الذي لا يغفل شيئاً، الذي لا تحوجه الكتابة ليحيط بأقوال الكافرين»<sup>(٢)</sup>، فالتعبير هنا «تعبير تصويري للتهديد، وإلا فالمغالطة مستحيلة، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة، ونمد له من العذاب مداً، فتزيده منه ونطيله عليه ولا نقطعه عنه»<sup>(٣)</sup>، وهكذا ندرك طريقة القرآن التي تؤثر التصوير في المعاني المجردة ليكون التهديد أكثر تأثيراً.

## ب- الجدل التصويري:

جاءت معظم الصور الفنية في السورة في إطار النموذج الجدلي الذي يعتمد على أسلوب الجدل والمناظرة مع المخالفين، ومقارعتهم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ليبين لهم الحق وقيم عليهم الحجة<sup>(٤)</sup>.

ولقد حوت السورة الكريمة مشاهد اتسمت بالحيوية والحركة والجدل وخاصة تلك المشاهد الحوارية في قصص المكذبين والمعاندين والمفترين على الله الكذب إذ كانت طريقة القرآن في هذه القصص تنفيذ أقوال أولئك المشركين، من خلال السرد القصصي ثم الرد عليهم بالاستعانة بطريقة التصوير التخيلي مع توظيف تلك الحقائق البديهية الخالدة التي لا يجادل في صحتها عاقل ومنها<sup>(٥)</sup>:

١. في قصة إبراهيم عليه السلام نجد الجدل الحواري التصويري الذي صور لنا بطريقة الإقناع والتأثير ذلك الحوار العنيف والقياسي من جهة الأب المعاند والحوار الهادئ اللين من جهة الابن البار العطوف، فالحوار كان واقعياً وحقيقياً، مثل حقائق وأدلة وبراهين ساطعة لا مجال للإنكار فيها، ولكن طريقة التعبير القرآنية أظهرته بأسلوب تصويري مؤثر، باستخدام كلمات لها أبعاد تخيلية في ذهن المتلقي مثل:

- (يا أبت) للدلالة على الحب الواسع والرحمة العميقة المتشربة قلب الابن.
- (لا يسمع ولا يبصر - ولا يفني): للدلالة على الجمود والسكون وعدم النفع أو الضرر.
- (إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك): للدلالة على العلم اليقيني الواسع الذي وصله، ولم يصل إليه أبوه المشرك.

١- البيهقي: نظم الدرر، ج ٤، ص ٥٥٥.

٢- معين رفيع أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم ١٨٧.

٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢٠.

٤- بتصرف، معين رفيع صالح أحمد: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ١٨٧.

٥- بتصرف، المرجع السابق، ص ١٨٧ - ١٨٨.





- (فاتبعني أهدك صراطاً سوياً): فالهداية فعلاً تقود للصراط السوي، ولكن هنا يفتح الحوار لنا أبعاداً تخيلية لتخيل كيفية هذه الهداية وكيفية السير على الصراط السوي.
- (إني أخاف أن يمسهك عذاب من الرحمن): في الحوار هذا حسن انتقاء للألفاظ التجريدية بتحويلها إلى صور بديعة، لتثير في ذهن المتلقي تساؤلاً عن كيفية هذا المس من العذاب، وكيفية صدوره من الرحمن لعباده.
- وينطلق كذلك من خلال الحوار آفاق تخيلية أخرى عن كيفية فتح أبواب الهداية والتوبة والرجوع لله تعالى تجاه المخطئين والمذنبين، إلى غير هذه المعاني التصويرية التي قد نستشفها من المعاني التجريدية.
٢. وكذلك نجد الجدل التصويري في قوله تعالى في سرده لقصة من ادعى من المشركين أنهم أهل حظوة من الله وأنهم أفضل عيشاً وترفاً من المتقين بقوله: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾
- ورد الله تعالى عليهم متوعداً بطريقة التصوير التي تفتح للعقل خيالاً يسرح فيه قائلاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مَن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ٧٤﴾ فواقعيه الجمل واضحة، ولكن أبعادها المعنوية التي تعانقت مع معاني الألفاظ المنتقاة جعلت المتلقي يتخيل مشاهد متعددة، منها:
- مشهد أولئك القوم المجتمعين في النوادي الفخمة، والمجامع المترفة وتلك القيم الفاسدة التي يتعامل بها أولئك القوم فيما بينهم.
- ومشهد أولئك الفئة من المتقين والصالحين الذين كانوا في تواضع من العيش في المسكن والمظهر، وتلك القيم الخلقية الحميدة التي تواصلوا فيما بينهم عليها.
- ومن ثم تخيل المشهد المنبعث من ذلك الاستهزاء والسخرية وما تصاحبه من انفعالات نفسية لدى الطرفين بالإيجاب والسلب.
- ثم نجد ذلك التعقيب القوي الرادع والقاطع لكل هوى ضال، ولكل متعة متمادية ليذكر الله تعالى هؤلاء القوم المتكبرين بمصارع تلك الأقسام السابقة الذين عاشوا في ترف ونعيم، ولكنهم لم يعطوا دينهم وعبادتهم لله حقها، فأهلكوا جرأ أعمالهم فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً.
٣. ومن أجمل التصويرات الجدلية كذلك ذلك التصوير الذي يوضح انتفاضة الكون لأقوال المفترين في أقصوة الذين ادعوا أن لله ولدا بقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطَرْنَ مِنْهُ

وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿١٠﴾ فلشدة شناعة ما قالوه على الله كذباً وافترافاً، نتخيل هذا التصوير البديع للغضبة الكونية إذ «يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر، ويغضب الكون كله لبارئته، وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته وتجا في ما وفر في ضميره وما استقر في كيانه، وتهز القاعدة العامة التي قام عليها واطمأن إليها»<sup>(١)</sup>.

وبعد تلك الأمثلة التطبيقية لدور التصوير في قصص السورة ندرك تلك المسحة الفنية التي سادت القصص لتنسج عليها جمالية العمق والدقة والصدق في أصغر لبنة فيها إلى أكبرها، فتبقى أمام المتلقي حرية الاختيار بعد تلك التأثيرات والانفعالات العقلية والحسية والنفسية التي أثارها فيه طريقة القرآن وتصويراته في الاستجابة أو الإعراض لما يقرأ ويسمع من آيات وسور..

## المطلب الثالث: الأدوات الإيقاعية والصوتية:

### أولاً - مفهوم الإيقاع:

الإيقاع لغة: من إيقاع اللحن والغناء وهو أن يوقع الألحان وبيئتها<sup>(٢)</sup>، كما يمكن القول: «إن الإيقاع هو إحداث صوت أو جرس خافت أو رفيع»<sup>(٣)</sup>.

وإصطلاحاً: هو «نظام تتوالى بموجبه المقاطع الصوتية»<sup>(٤)</sup> أو «تلك الموسيقى التي تظهر في الارتباط المتناسق بين الألفاظ ومعانيها حيث يتلاقى جرس حروفها مع إيقاع مدلولها»<sup>(٥)</sup>.

### ثانياً - أهمية الدراسة الإيقاعية والصوتية

إن الدراسة الصوتية لأي نص أدبي لتحتمل الصدارة في خطواته لتحليل والاستقراء للوصول إلى مكان الجمال والفن فيه، إذ له الأثر الأكبر في كشف الجوانب النفسية والانفعالات العاطفية التي تسيطر على العمل الأدبي، التي تدفع صاحبها لاختيار أصوات وإيقاعات بعينها دون غيرها ليعبر بها عن أفكاره: «وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرج فيه مدأ أو غنة أو لينا أو شدة»<sup>(٦)</sup>.

كما أنه يكمن في الصوت إمكانيات تعبيرية هائلة تساعد على التعبير عن مضمون العمل الأدبي

١- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢١

٢- ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مجلد ١٥، (وقع)، ص ٢٦٢.

٣- عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، ص ٢١٥.

٤- سهام صياد: البديع في سورة مريم، ص ٧٢.

٥- المرجع السابق: ص ٧٢، ومنها يلحق بلفظة الإيقاع ألفاظ أخرى شاعت عند الأدباء والبلاغين والنقاد من مثل: الفصاحة، الجزالة، حسن الرصف، الفخامة، وشدة الأسر، وصفاء الديباجة والسلاسة، والجرس الموسيقي، ينظر، عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها (الجرس اللفظي)، ص ٢.

٦- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ص ١٤٩.



وأهدافه ومقاصده، ولا يستطيع أحد فهم هذه الحقيقة إلا من طرق أبواب أسرارها وتلمس جوانب حقيقتها.

### ثالثاً- الجمال الإيقاعي في أسلوب القرآن

وإذا رجعنا قليلاً إلى عصر التنزيل فإننا نجد أن «أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يحدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه أنا بعد أن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إذا كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء ثم إلى حد الإملاط في التكرير فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهدى لها بتلك السهولة في منشور كلامها، سواء منه المرسل أو المسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه»<sup>(١)</sup>.

إن الإيقاع الصوتي للقرآن ليعد سر من أسرار الإعجاز الفني فيه، إذ يحفه الكثير من الغموض في ماهية تلك القدرة التي بفضلها يسيطر على المتلقي قلباً وقالباً، ولقد قيل قديماً عند الفلاسفة: «الموسيقى حكمة، عجزت النفوس عن إظهارها في الألفاظ، فأظهرتها الأصوات البسيطة، فلما أدركتها عشقتها، فاسمعوا من النفس حديثها»<sup>(٢)</sup>.

لذلك تحتاج هذه الظاهرة الصوتية في القرآن إلى المعالجة الفنية الدقيقة في مباحث طويلة تتسم بالاستقراء والتفصيل والتطبيق إلى جانب تمرُّس وخبرة باحثها في هذا العلم.

ولقد قدّم علماء الأدب واللغة والبلاغة مباحث قيمة في الإيقاع الموسيقي للقرآن<sup>(٣)</sup>، لا يسعني المجال هنا لعرضها أو تفنيدهم وملحوظاتهم، لذلك أكتفي بتطبيق بعض من فنيّاتها على قدر المؤونة التي تتوفر لي لمعالجة هذا المطلب من البحث.

١- محمد عبد الله دراز: النبا العظيم، ص ١٣١-١٣٢.

٢- ينظر، عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٠م، (د، ط)، ص ٢٢٥. كما أنه من الملحوظ والمجرب أن بقراءة القرآن مجوداً يزيد المستمع عجباً ودهشة سواء كان من يفهم العربية أم لا، إذ تتبع من كل مقاطعه ومن كل جملة وكلمة وحرف نظام صوتي ورنين إيقاعي يسلب القلوب والأسماع سلباً، فكم هي تلك القصص التي قرئت وسمعت عن أولئك الأشخاص ممن لا يتكلم العربية ولا يفهمها قد تأثروا بها، واقتشعرت لها أبدانهم، وسالت بها أعينهم دمعاً، لا يُعلم من سر ردود أفعالهم سوى تأثرهم بالجرس الإيقاعي والموسيقي لأيات القرآن الكريم، فمثلاً شهدت سيدة يوغسلافية كانت شديدة التأثر بسماعها لصلاة الجمعة أقامها المسلمون على أحد السفن المحملة بالركاب بقولها: "إن الموضوع الذي لفت حسي هو أن الإمام كانت ترد في أثناء كلامه بهذه اللغة الموسيقية فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه، نوع أكثر موسيقية وأكثر إيقاعاً، هذه الفقرات الخاصة التي كانت تحدث في رعدة وقشعريرة، إنها شيء آخر، كما لو كان الإمام مملوء من روح القدس" ينظر، أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص ٢٤٩.

٣- ينظر، أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص ٢١٥، الرافي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٤٧، محمد عبد الله دراز: النبا العظيم، ص ١٢٧، أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، ص ٧٥، محمد الحسنواي: الفاصلة في القرآن، دار عمار، عمان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠، ط ٢، ص ١٧٥ ٢٨٤.



## رابعا - التطبيق في السورة:

تعد سورة مريم من النماذج البديعة التي برز فيها الإيقاع الصوتي بتجلياته على عدة مستويات: مستوى (الحروف والمدود والألفاظ والجمل والفواصل) إذ مثلت أسلوباً معجزاً في تناغم وتناسق هذه المستويات جميعها في الوحدة الفنية التي انسجمت مع الوحدة العضوية والموضوعية لتشكل لنا معمارية قصصية فريدة داخل عمارة السورة الكريمة.

### ١. الإيقاع الصوتي للحروف:

❖ للحرف في القرآن الكريم دور كبير في إعطاء الكلمة جماليتها ورونقها من حسن تأليف وجمال جرس وانتظام أصوات بشكل ملفت للنظر، يدعو من يتأمله إلى التساؤل عن خصائص حروفه ومخارج أصواته، لذلك: «توجد ثلاث خصائص للحروف وأصواتها يرجع إليها الإيقاع في القرآن الكريم:

• **حلاوة الجرس:** أي أن الحروف تمتلك حساً أليفاً، محبباً في القلوب ورنه حسنة ذات وقع جميل في الأذن.

• **الانسجام:** ليست ثقيلة في النطق ولا يتعثر بها اللسان.

• **التجاوب والتناغم:** أي أن الحروف في ترتيبها وصياغتها تتداخل ويأخذ بعضها برقاب بعض وكأنما يطلب أحدهما الآخر أو يجذبه»<sup>(١)</sup>.

لذلك نجد القرآن الكريم ينتقي حروفه لتناسب المقام، وينظمها في انسجام واتساق لتناسب المقال، ونتيجة لذلك نجد خصائص وصفات للحروف تتلاءم مع الجو الذي وردت فيه.

### ❖ انتقاء أصوات الحروف في القصص:

ففي قصص السورة الكريمة نجد عدة (مجموعات صوتية) منها:

(الأصوات المفخمة والأصوات الصفيرية والأصوات الانفجارية والأصوات الذلقية) التي توافقت وتلاءمت مع الجو الذي اختيرت فيه، فأضفت على السياق القصصي دلالات جمالية وفنية رائعة.

### أ- الأصوات المفخمة:

يعرف التفخيم بأنه: «ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى قليلاً في اتجاه الطَّبَق اللِّين، وتحركه إلى

١- نعيم الياحي: حروف القرآن (دراسة دلالية في علمي الأصوات والنغمات) مجلة الفيصل، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد ١٠٢، السنة ٩، ذو الحجة ١٤٠٥ هـ سبتمبر ١٩٨٥، ص ١٠٤.





الخلف قليلاً في اتجاه الحائط الخلفي للحلق»<sup>(١)</sup>.

وينقسم إلى نوعين<sup>(٢)</sup>: الأصوات المطبقة وتشمل أصوات: (الضاد والصاد والطاء والظاء) وهي أصوات كاملة الترخيم، وفيها مع استعلائها إطباق.

و الأصوات ذات الترخيم الجزئي، وهي أصوات لا إطباق فيها مع استعلائها وتشمل أصوات: (الخاء والغين والقاف).

ولهذه الأصوات ذات الإيقاعات المفخمة دور كبير في مصاحبة المعاني، وتمثيل الأغراض والأهداف التي قصدتها قصص السور، مثلت لبعضها في الجدول الآتي:

الشاهد من القصص	الحروف المفخمة	الغرض	الايحاء والدلالة
١- قوله تعالى في تعقيبه على رد عيسى عليه السلام لقومه: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ <sup>(٣٢)</sup>	صوت (القاف) مكررا مرتين.	تجسيد ضخامة الحدث وإعطائه نوعا من المبالغة (٧٣)	الرد القوي من الله لبيان الحق الذي شك فيه النصارى واختلقت فيه اليهود، فتزويد الأحراف من ثقل الكلمات لبيان الحق.
٢- قوله تعالى في رده على من قال بأن الله قد اتخذ ولدا: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَجَرُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ <sup>(١٠)</sup>	صوت (الطاء) المشددة والضاد والحاء والقاف، والراء المخففة	تجسيد ضخامة الحدث وكأن أصواتها وصدائها تسمع للعيان.	نسمع صدى الانفعال الكوني ونرى مشاهدته بتساوق هذه الحروف مع الجو العظيم الذي سيطر على الأقصوصة إزاء من ادعى على الله افتراء.
٣- قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ <sup>(١٥)</sup>	صوت الخاء في (النخلة) والقاف والطاء في (تسقط.. رطبا).	تفيد المبالغة والتعظيم	حيث أعطتنا هذه الحروف أصوات «صورة الانهماك الشديد للربط» (٧٤)، وضخامة هذه المعجزة التي احتاجتها مريم عليها السلام لتكون سببا لتطمينها وتهدئة نفسها.

١- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، ط١، ص٢٨٣، ينظر: عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان - دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤١٢هـ، ٢٠٠٠م، ط١، ص١٤٥-١٤٦.

٢- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص٣٤.

<p>إذ أعطت هذه الحروف بُعداً تعظيماً لإرادة الله النافذة في خلقه.</p>	<p>للتعظيم</p>	<p>حرفا القاف والضاد في (قضى) والقاف في (يقول)</p>	<p>٤- في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾</p>
<p>جسدت الأصوات عظمة غيب الله كما أن كلمة (أطلع) أعطت بالهمزة الاستفهامية ثقلاً في النطق لتدل على استحالة هذا الإطلاع وصعوبته، وكذلك نلمس العظمة في حرف الغين في كلمة الغيب، ونشعر بصعوبة هذا الأخذ للعهد الذي يأمله الكافر ولن يناله (٧٥).</p>	<p>عظمة وضخامة غيب الله واستحالة الوصول إليه</p>	<p>حرف الطاء المضعف في (أطلع) المسبوق بالهمزة. وحرف الغين الاستعلائي في كلمة (الغيب). وحرف الخاء المسبوق بالتاء المضعفة.</p>	<p>٥- قوله تعالى في رده على المستهزئ باليوم الآخر: ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾</p>
<p>٧٢- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٢٤. ٧٤- المرجع السابق، ص ٣٦، وينظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٨٩. ٧٥- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٢٧.</p>			

## ب- الأصوات الصفيرية:

وهي الأصوات التي إذا نطق بها: «لا ينجس الهواء بشكل تام عند نقطة معينة أو يسد مجراه، لكنه يضيق بدرجات متفاوتة النسبة بحيث تسمح بكمية الهواء المصنعة للصوت بالمرور محدثة احتكاكاً مسموعاً»<sup>(١)</sup>.

وتشمل أصوات (السين والشين والزاي والصاد)، وهي تنتمي إلى عائلة الأصوات الاحتكاكية التي تضم أيضاً أصوات (ذ-ث-ط - ف-ه - ح-خ-ع) التي اصطلح العلماء القدامى بتسميتها الأصوات الرخوة<sup>(٢)</sup>.

١- عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٤١٨ هـ ١٩٨٨ م، ط ١، ص ١٤٤، ينظر، عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ص ١٥٧  
٢- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٤٠.





وعند النطق بهذه الأصوات في الألفاظ: «يكون مجرى الصوت الصفيري عند المخرج أضيق من بقية الأصوات، ويترتب على ذلك أن النفس في أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعاً من الصفيير، ولذا تمنح الأصوات الصفييرية بروزاً متميزاً للألفاظ التي ترد فيها فتبدو أكثر لفتاً للانتباه وأشدّ جلباً للأسماع»<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلتها في قصص السورة الكريمة:

الآية	الأحرف الصفييرية	الغرض	الدلالة
١- في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۗ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۗ﴾	السين، والصاد والزاي في (إسماعيل، صادق، رسولاً، الصلاة، الزكاة).	إثارة الانتباه وبيان الأهمية	حيث ساعدت الحروف على ظهور هذه الكلمات بشكل بارز فكل كلمة تمثل جانب مهم قصده السياق بالتناول، ف (إسماعيل) شخصية نموذجية يقتدى بها، (صادق) صفة عظيمة لها قدرها عند الله، (الصلاة والزكاة) ركنان أساسيان في الإسلام لا يستقيم الدين بدونهما (٧٦).
٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۗ﴾	حرف الشين المكرر ثلاث مرات، وحرف السين.	تجسيد معنى التنشي والانتشار (٧٧)	حيث يعتبر حرف الشين من حروف التنشي الذي انسجم مع معنى اللفظة في سرعة انتشار الشيب وتنشيه في الرأس.

١- معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٤٠.

<p>حيث انسجم تكرار هذا الصوت مع معاني الكلمات في السياق القصصي ليعطينا إحساس بالراحة والسكينة والطمأنينة كما في خطاب الله ليحيى وعيسى عليهما السلام. وكذلك نشعر بالعطف والحنو والهدوء في كلام إبراهيم عليه السلام مع والده من خلال نفس الصوت.</p>	<p>الترقيق والتطمين والشفقة</p>	<p>حرف السين المهموس والمرقق (٧٨)</p>	<p>٢- في قوله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْتَذَرُ حَيًّا﴾ (١٥) وقوله على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧)</p>
<p>٧٦- بتصرف، المرجع السابق، ص ٤٠. ٧٧- ينظر، المرجع السابق، ص ٤٢. ٧٨- ينظر، سعاد صياد: البديع في سورة مريم، ص ٧٥.</p>			

### ج- الأصوات الانفجارية:

وتسمى أيضاً الأصوات الوقفية، والصوت الوقفي «هو صوت يوقف قبل نطقه تيار النفس ثم يطلق، ويصاحب تسريح تيار النفس انفجار خفيف»<sup>(١)</sup>، وهذه الأصوات تتفاعل مع الجو المسيطر على السياق من حيث الانفعال فإن عرضت في سياق التهديد والوعيد، فإنها تضاعف من وتيرتها، وإن عرضت في سياق العواطف والرحمة، فإنها تضاعف من تأثيرها، ومنها حرفا (الداال والباء)<sup>(٢)</sup>.

ومن أمثلتهما في السورة:

الدلالة	الغرض	الأصوات الانفجارية	الشاهد من القصص
<p>أشاع الحرف بانسجامة مع الجو المسيطر عليه من (التهديد والوعيد) انفعالا أكثر حدة وتوترا، ليعبر عن غضب الله على هذه الفئة من الناس الذين أخذهم الغرور كل مأخذ.</p>	<p>التهديد والوعيد</p>	<p>حرف الداال</p>	<p>١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥)</p>

١- محمد علي الخولي: الأصوات اللغوية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠م، (د، ط) ص ٢٧.

٢- ينظر، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٤٢-٤٤.



أعطى الحرف بانسجامه مع الجو تقاعلاً مع نفحات الرحمة والبشائر والرضا، ليعطينا صوتاً معبراً عن الراحة والطمأنينة بوفاء الله تعالى بعهد.	البشارة والتطمين	حرف الدال	٢- قوله تعالى في وعده للمؤمنين: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (١١) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١١)
---	------------------	-----------	---

### ب- الأصوات الذلقية:

وهي الأصوات التي تتقارب في مخارجها وفي نسبة وضوحها السمعي العالي إذ تُعد: «أوضح الأصوات الصامتة في السمع، ويسمى البعض أشباه الأصوات الصائتة»<sup>(١)</sup> وهي: صوت (النون والميم واللام والراء).

ومن أمثلتها في قصص السورة:

المعنى والإيحاء	الغرض	الحروف الذلقية	الشاهد من القصة
أعطى التكرار الحر في لصوت (النون) وضوحاً سمعياً عالياً، يضيف للمتكلم قوة في الطرح وثقة بالنفس أمام الآخرين، وهذا ما تناسب مع السياق الذي احتاجته مريم عليها السلام للرد على القوم لأنها على الحق ومؤيدة من ربها سبحانه (٧٩).	الوضوح السمعي	النون	١- قوله تعالى: ﴿فَكَلِمَةٍ وَأَشْرَفِي وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٦٦)

١- عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص ١٧٣.

<p>أعطى الحرف بياناً ووضوحاً تناسب مع حقيقة الأمر في تسليط الضوء على أهمية المحراب ودوره في العبادة، وأهمية دعوة القوم بالتذكير، فجاء الصوت بإيقاع محبب ومريح ومنسجم مع السياق (٨٠).</p>	<p>الوضوح السمعي</p>	<p>الميم</p>	<p>٢- قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (١١)</p>
<p>جاء صوت الحرف منسجماً مع الدعاء إذ أعطاه إيقاعاً واضحاً في الرغبة في طلب الولد دون غموض في اللفظ أو تردد في المعنى، أو الشك فيمن يدعو.</p>	<p>الوضوح السمعي</p>	<p>اللام</p>	<p>٣- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (٥)</p>
<p>قد تأتي (الراء) مخففة كما ذكرنا سابقاً، وقد تأتي مخففة كما في هذا المثال، لتدل على التردد الصوتي الذي يشعر بانتشار ذكر الرحمة وتردد صداها في الآيات لتستوعب الخلق جميعاً (٨١).</p>	<p>الوضوح والبيان والانتقال السريع</p>	<p>الراء</p>	<p>٤- قوله تعالى في بداية السورة ﴿ ذُكِّرْ حَتَّىٰ رَأَيْكَ عَبْدَهُ، زَكْرِيَّا ﴾ (٢)</p>
<p>٧٩- بتصريف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم ص ٣٠. ٨٠- بتصريف، المرجع السابق، ص ٢١. ٨١- بتصريف، المرجع السابق، ص ٢٢.</p>			

هذه بعض النماذج الدالة على دقة أسلوب القرآن في انتقائه وتخييره للحروف، ومدى تلك الجمالية المقصودة بوظيفتها لتوصيل الغرض للمتلقي وإحاطته بجميع أبعاد الأجواء المسيطرة على المشاهد والمواقف في السورة، التي تولدت من حسن الرصف، وحسن النظم، للدلالة على المعنى المقصود.

## ٢ - الإيقاع في المدود:

للمدود دور كبير في إضفاء الإيقاع الصوتي المعبر عن انفعالات الكلمة والسياق الذي يُختار فيه، كما له أثر كبير في إثارة نفوس المتلقين للمشاركة في أجواء المواقف والمشاهد.

ويستخدم القرآن المقاطع الممدودة للتعبير عن معانٍ كثيرة تفتح مساحات متعددة من: (التأوه

والتشكي - المبالغة والتعظيم - التهديد والوعيد - الاستبعاد والتعجب - السكينة والطمأنينة) ونعرض لبعض أمثلتها كما في الجدول الآتي:

الآية	المد	الإيحاء والدلالة
١- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ آمْرًا قِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥٥﴾	مد الألف و الياء	يعطي المد فرصة للتأوه والتشكي وتفرغ الشحنات السلبية من النفس في طلب تحقق الرجاء وإجابة الدعاء.
٢- قوله تعالى: ﴿فَأَنخَذْتَ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧﴾	مد الألف	المد أعطى تعظيماً لأمر الله والرسول المرسل إلى السيدة مريم عليها السلام، وزاد من التعظيم والمبالغة اتصال الكلمات الممدودة بضمير الجماعة (أنا) الراجع على الله في (أرسلنا روحنا).
٣- في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢﴾	مد الألف	يعطي (المد) دلالة صوتية تدل على البعد، فيزيد من دلالة كلمة (المكان وقصياً) الدالتان على البعد في الآية.
٤- قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِوْعِ النَّحْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ٢٣﴾	مد الألف والياء	الكلمات الممدودة فيها تنفيس عن المشاعر المضطربة، والانفعال النفسي القوي، الذي سيطر على السيدة مريم عليها السلام.
٥- قوله تعالى في نقل محاورة إبراهيم عليه السلام مع والده: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلُوِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٢﴾	صوت المد في الألف والياء	أشاعت حروف المد الهدوء والسكينة والعطف في المحاورة التي دلت على العاطفة الحانية للابن البار.
٦- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦﴾	مد الألف	دل المد بالألف على الاستبعاد والتعجب الذي سيطر على هذه الفئة من البشر المنكرين ليوم البعث والنشور.





أعطت المدود هنا إيقاعاً صوتياً يفرغ فيه التهديد والوعيد، وتتخم من خلالها نبرة الغضب والعذاب المنتظر لهؤلاء القوم.	مد الألف والواو والياء	٧- قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٦﴾ وَنُرْثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾
---	------------------------------	--

هذا بالنسبة لبعض أمثلة المدود وأصواتها، ومدى تحقق الانسجام التام بينها وبين معاني الألفاظ في السياق، لتعبر عن الموقف القصصي والسياق القرآني المذكورة فيه بكل دقة صوتية وشعورية.

### ٣. الإيقاع الصوتي في الألفاظ:

لقد وظف السياق القرآني الألفاظ المعبرة توظيفاً دقيقاً<sup>(١)</sup>، وعبر بإيقاعها عن معان وأغراض مقصودة ومتعمّدة، لتتناسب مع نفوس المخاطبين وتأسر قلوبهم وتثير انفعالاتهم، فها نحن نجد ألفاظ القرآن: «إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب»<sup>(٢)</sup>.

فكما اتضح لنا مدى قدرة أصوات الحروف على التأثير في اللفظة لتتسجم مع معناها، فكذلك نجد قدرة إيقاع اللفظة في التأثير على جو السياق، لينسجم مع الجو العام لمقاصد وأهداف السورة. فمثلاً في قصص سورة مريم أجد تكرار الألفاظ يقدم دوراً قوياً في إعطاء الإيقاع الصوتي المقصود لينسجم مع جو الأغراض المطروحة فيؤدي الهدف منه، كما في الأمثلة الآتية:

الشاهد من القصص	الألفاظ	الإيحاء الموسيقي والدلالي
١- قوله تعالى واصفاً يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ وكذلك مع عيسى عليه السلام.	تكرار (يوم)	يعطينا تكرار (يوم) نوعاً من الموسيقى اللينة إذ تشيع في الآية العذوبة والسهولة والليونة لتناسب جو الهدوء والسلامة.

١- ينظر، صفحة ٢٢٧ من البحث.

٢- الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٢.



<p>لفظتان تتميزان بسهولة مخارجهما وليونتتهما، وخاصة مع حرف السين الصفيري إذ نجد خفة اللفظتين متناسبا مع خفة معنيهما (٨٢).</p>	<p>(نسيا-منسياً)</p>	<p>٢- قوله تعالى على لسان مريم: ﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ۝٢٣﴾</p>
<p>حرف الدال يعطي للفعل ومصدره نوعاً من تجسيد هذا (المد) ووضوحه وكيفيته، ودلالته على الاستدراج بالتطويل والامتداد وإغراقه في الضلال أكثر فأكثر.</p>	<p>(فليمدد- مدا)</p>	<p>٣- قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّعَاءَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۝٧٥﴾</p>
<p>يشعر حرف الدال المشدد بصوت تدفق هذا العذاب وشدته وعدم انقطاعه أو إقلاله، مبالغة في التهديد والوعيد.</p>	<p>(نمد - مداً)</p>	<p>٤- وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٨﴾</p>
<p>ففي الآيتين أحدث تكرار اللفظتين فيهما انسجاماً موسيقياً وتألماً إيقاعياً بين الكلمات، بالإضافة إلى ما في هذا الترديد من تأكيد على إتمام عملية العد وشمولها (٨٣). كما أننا نجد في الآية الأولى: بطئاً وتأنياً في الإيقاع ظاهر من خلال الفصل بحرف الجر بين اللفظتين، فأعاق من سرعة الاتصال، وهذا مناسب لسياق الآية الواردة فيه من إمهال الله تعالى للكافرين، وأما الآية الأخرى: نجد سرعة وعجلة في الإيقاع تتناسب مع سرعة تحقق الوعيد بإحضار الله الكافرين والتعجيل في عدّهم لينالوا العقاب الأليم (٨٤).</p>	<p>تكرار لفظة (عدّ) المشددة في كل آية مرتين.</p>	<p>٥- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾ وقوله ﴿ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾</p>
<p>٨٢- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٤٧. ٨٣- بتصرف، المرجع السابق، ص ٤٦. ٨٤- بتصرف، معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص ٤٦.</p>		

وهناك ألفاظ كثيرة دلت على مدى انسجامها وتناغمها مع معانيها فمثلاً:

- كلمة (هين) تدل بإيقاعها على معناها: فلفظة (هين) تدل على معناها من السهول والضعف والرخاوة لما فيها من أحرف هامية (الهاء والياء والنون).
  - لفظنا (يتفطرن، تنشق) في الآية (٨٨ - ٩١) تدل على القوة والشدة والإيقاع الجرسى المضطرب الذي عم جو السورة.
  - الألفاظ: (رضيا، سرىا، حفيا، نجيا، تقيا، زكيا) التي تدل على الراحة والرضا والطمأنينة والسكينة، ويصحبها جرس موسيقي يمشي على نفس الوتيرة من الرخاوة.
  - الألفاظ (هدًا، ضدًا، إدا، هزًا، ركزا، عزا، أزا) التي تدل على الشدة والقوة والعنف، التي انسجمت مع جو التهديد والوعيد والعقاب والغضب من الله تعالى.
- وهكذا تبين لنا دقة اختيار القرآن للألفاظ، ليس في معانيها فقط بل في جرسها الموسيقي وإيقاعها الصوتي الذي يدل على الإتقان المحكم لسور القرآن الكريم.

#### ٤- إيقاع الجمل والفواصل القرآنية:

إن الجملة القرآنية قد أحكمت وأتقنت وفصّلت تفصيلاً بيانياً وبلاغياً عجبياً، ورصفت في هيكلية بناءية بديعة، ونظّمت فيما بينها تنظيمًا مرسومًا، فكأنما كل واحدة خلقت لمكانها دون غيرها، لتؤدي وظيفتها السماوية الكبرى في التأثير على متلقيها دينياً وفتياً وجمالياً فتأسره بإعجازها وينظمها، فتبارك الله الذي أحسن كل شيء صنعه.

#### أولاً- إيقاع الجمل:

#### أ- الإيقاع الظاهري للجمل:

فكل جملة من جمل القرآن وفي كل سورة من سوره، تشع بإيقاعها الصوتي الدال على الموضوع والغرض الذي نظّمت له، وهذا ما ظهر لنا جلياً في قصص سورة مريم، التي تميزت بقصر جملها الذي أضاف على السورة جرساً إيقاعياً رناناً.

❖ فمثلاً جمل قصص النصف الأول من السورة أعطتنا جرساً هادئاً واضحاً سلساً مناسباً لجو الرحمات والهيات والأرزاق، وتتناسب كذلك مع سمات الشخصيات ذات الأنموذج الصالح الممثل في الأنبياء والسيدة مريم عليها السلام.

❖ وأما بالنسبة لقصص النصف الآخر من السورة، فأعطتنا جملها إيقاعاً آخر قد سيطرت





عليها نعمة التهديد والوعيد والغضب والعذاب، وأعطتنا كذلك جرساً قلقاً ومضطرباً، قد امتلأت به قصص المعاندين والمشركين والكافرين عدا تلك النبرات الصوتية الهادئة للجمل التي مثلت الوعد الحق من الله لعباده المتقين بالرضا والطمأنينة ودخولهم في رحمته وجنته.

## ب- الإيقاع الداخلي للجمل:

نجد في كثير من الكلمات المتجاورة في الآيات توافقاً وانسجاماً وتشابهاً في الحروف و الوزن، يزيد من التماسك النغمي والصوتي في السورة قوة وتأثيراً، إذ إن السامع يجذب لكل صوت متجانس ومكرر في تآلف وتناسق، ومن أمثلته:

الآيات	الجرس الصوتي الداخلي
١- قوله تعالى: ﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾	(أرسلنا روحنا) في حرف النون الممدودة فكأن الثانية صدى للأولى.
٢- قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِذِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ تَسْبِيحًا مَنسِيًّا ﴿٢٣﴾	(النخلة- قالت - ليتني - مت - كنت) تكرار التاء أعطانا انسجاماً رقيقاً يتناسب مع حال السيدة مريم عليها السلام من التعب والضعف.
٣- في قوله تعالى: ﴿ يَتَّابَتْ إِلَىٰ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾	(الرحمن الشيطان) الاتفاق الصوتي في الوزن والحرف الأخير من اللفظتين، فالأولى صفة الله يسمع من جرسها الرحمة والهدوء والراحة مع التعظيم، والثانية يسمع من صوتها الشدة والضعف والهوان.
٤- قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيْطَانَ ثُمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿١٨﴾	(لنحشرنهم ولنحضرنهم) اتفقتا الكلمتين في الوزن والصوت والدلالة على الجمع بالاتصال بنون التوكيد المثقلة، والذي أعطانا اتفاقهما على هذه الهيئة جرساً قوياً، انبثق منه التهديد والوعيد.

هذه صورة مصغرة من أمثلة كثيرة مثلت قيمة الإتقان الصوتي والإحكام الإيقاعي بين الكلمات المتجاورة.

## ب- الفواصل القرآنية:

تُعد الفاصلة القرآنية أسلوباً من أساليب القرآن الفريدة، التي فاقت كل كلام منظوم وسجع منثور، والفاصلة هي: «حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني»<sup>(١)</sup>.  
وتُعرف كذلك بأنها: «كلمة آخر الآي كقافية الشعر وسجعة النثر»<sup>(٢)</sup>.

ولقد تناولت في مطلب سابق الإشارة إلى اختلاف العلماء في اعتبار فواصل القرآن سجعاً، ولكنني اخترت التعبير عن توافق حروف الآيات في القرآن بالفاصلة ليكون ذلك ترفعاً عن كل شبهة قد يختلف بها العلماء، وأما ما كان غير القرآن فلا بأس أن يتردد معنى السجع في «تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرف واحد»<sup>(٣)</sup>.

وانطلاقاً من هذا المبدأ نجد «أن الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة من الوقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية»<sup>(٤)</sup>.

وللفاصلة دراسات دقيقة قد لا تسعفني أدواتي لتناولها بدقة لذلك سأعتمد على المعالجة الشاملة والظاهرة التي ألاحظها في فواصل سورة مريم<sup>(٥)</sup>:

### ١. تنوع الفواصل وانسجامها مع المعاني العامة

إن التنوع في الفواصل كان مطلباً مقصوداً في السورة ليقدم وظيفته الفنية في التعبير عن المواضيع والمعاني والأغراض، فالسياق القرآني بنظمه يتخير أفضل الأساليب المناسبة لعرض أفكاره وأغراضه وهذه أحد أساليبه.

فها هي السورة الكريمة تتكون من أربعة مقاطع مركبة، اثنان منها متفقان<sup>(٦)</sup>:

١. **المقطع الأول:** من الآيات (١-٢٣) وروياها الياء المختومة بالألف الذي ابتداء بالإيقاع الصوتي للأحرف المقطعة ذات المدود الملحوظة، ثم تلاها قصة زكريا ويحيى عليهما السلام في جو إيقاعي هادئ ومريح، ينم عن جرس عميق ورخو معبر عن الدعاء والرجاء، ثم قصة مريم وعيسى عليهما السلام على نفس الوتيرة من الياء الممدودة، التي أسعفت الموقف لبث الهموم والأحزان والآلام، ومن ثم البشائر والرحمات التي أظهرت لنا إيقاعاً جرسياً واضحاً ومعلنًا.

١- السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج٢، ص٢٦٦.

٢- محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص٢٩.

٣- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٠٢.

٤- محمد حسن شرشر: البناء الصوتي في البيان القرآني، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ط١، ص٧٤.

٥- ينظر، الدراسة التفصيلية للفاصلة القرآنية لكتاب محمد الحسناوي.

٦- ينظر، محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص٢١٥، و سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٣٠.



٢. **المقطع الثاني:** الآيات من (٣٤-٤٠) ورويهما النون أو الميم المردوفة بواو أو ياء، فهنا يبدأ إيقاع جرسي جديد يخالف سابقه من اللين والرخاوة، لاختلاف الموضوع مما أثار لفتاً للانتباه إذا انتقلت الفاصلة إلى إيقاع ثائر وقوي، يطول فيه الصوت ليعبر عن التعقيب الإلهي في قضية مولد عيسى عليه السلام، التي اختلف الكثير فيها وبمجرد الانتهاء من تقرير كشف الحقائق ينتقل السياق لجو مماثل لبداية السورة من الياء الرخية.

٢. **المقطع الثالث:** الآيات من (٤١-٧٤) ورويهما الياء المتحركة بالفتح، ما عدا أربعة مواضع تخللتها فاصلة الهمزة هي: (٩-٤٢-٦٠-٦٧) والتي أسهمت فيها الفاصلة الرخية في بيان السمات والهبات في قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، ومن ثم نجد نفس الفاصلة تعبر عن العنف والشدة بالمقارنة بين الخلف والسلف وقصة المكذبين بحقيقة البعث والنشور.

٤. **المقطع الأخير:** ويتكون من الآيات (٧٥-٩٨) ورويهما الدال المختومة بمد الألف، ما عدا ثلاث آيات جاءت فواصلها بالزاي الممدودة (٨١، ٨٣، ٩٨) وهنا جاء التغيير الثاني للفاصلة، لينسجم مع تغير الموضوع وليعبر بإيقاعه القوي عن أقاصيص إنكار واستهزاء وافتراء المكذبين والكافرين، فاعتمدت الفاصلة على حرف الدال الانفجاري الذي يعبر عن الشحنات المضطربة والانفعالات المتأججة، كما أسهم قصر الآيات ووجود الشدة على الفواصل في تكوين جرس يتميز بالعنف والشدة المناسبين لسياق التهديد والوعيد والعذاب.

ولا يخفى على المتلقي دور التنوع في حروف الفواصل من إثارة للنفس، وانسجامها مع الدفقات الإيقاعية المتجانسة في المعاني، والأغراض المتعددة، التي تجذب النفوس والآذان معاً.

### ٣. انسجام الفواصل مع أفكار الآيات:

أسلوب القرآن فريد في طريقته، فهو يعمد إلى انتقاء فواصل بعينها دون غيرها لتعبر عن الدلالات الفكرية المتضمنة للآيات فجاءت الفواصل: «ممكنة في مكانها مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضوعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقة معناها بمعنى الكلام كله، تعلقاً تاماً، بحيث لو طُرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم»<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلتها في قصص السورة الكريمة:

الآية	الفاصلة	الدلالة والإيحاء
١- قوله تعالى في قصة زكريا عليه السلام: ﴿إِذ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣٦)	خفياً	فالفاصلة جاءت منسجمة مع نوع الدعاء الخفي المستور الذي لا يعلم به إلا الله، فانسجم الإيقاع الصوتي بخفته وهدوئه مع الجو القصصي.
٢- قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٤١)	شقياً	فكلا النبيين أرادا التعبير عن حسن ظنهما بالله وسعادتهما بتعودهما على إجابة دعائهما طوال حياتهما كما هو مفهوم من الآيات، فجاء النفي بالفاصلة (شقياً) مناسبة لهذا الجو، والشقي هو الذي أصابته الشقاوة، وهي ضد السعادة أي: الحرمان وضلال السعي، لذلك إطلاقها يدل على ضدها وهي السعادة (٨٥).
٣- قوله تعالى: ﴿فَرَجَّ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١)	عشياً	استدعى المعنى الوارد في الآية الفاصلة، فذكر (بكرة) يستلزم استدعاء (عشياً) من باب تقارنهما معاً في الدلالة على الوقت، كما أن ضرورة الاتفاق الإيقاعي مع باقي الفواصل يدعو السياق لاستخدام (عشياً) بدلاً من مساءً مثلاً، لتوافق فاصلتها فاصلة الياء الممدودة.
٤- قوله تعالى في وعيده لمنكري البعث والنشور: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (١٨)	جثياً	تناسبت الفاصلة مع معنى الآية من حال أولئك الكافرون الذين وصلتهم العظات والعبر ولكن لم يأبهوا بها، فحق دخولهم النار في ذلة وجثي، والجثي جمع جاث ووزنه فعمل وهو: المبارك على ركبتيه وهي هيئة الخاضع الذليل (٨٦). كما أن حروف الفاصلة يتضح فيها البروز وإثارة الانتباه لحال هؤلاء القوم.

٨٥- بتصريف، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٦٥.

٨٦- ينظر، المرجع السابق، ج ٦، ص ١٤٧، والراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٩٥.



### ٣. انتقاء صيغ الفواصل لتحقيق الانسجام الإيقاعي

لقد عمد السياق القرآني في انتقاء فواصله في السورة إلى اختيار صيغ خاصة بدلاً من أخرى جاءت في سور القرآن الكريم، لتكون أكثر انسجاماً وتناسباً مع الوزن الإيقاعي للفواصل التي تضمنت السورة المقصودة.

❖ ففي فواصل سورة مريم نجد السياق القرآني يختار مصدر فعل (عتياً) الذي استعمله القرآن بصيغتين<sup>(١)</sup> وهما: «عتواً وعتياً»، ف (العتو) نجد استعماله في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿أَمْ نَهَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ لَنَا أَنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾<sup>(٣)</sup>، و(عتياً) جاءت في سورة مريم بقوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَكَانَتِ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾<sup>(٤)</sup> فجاءت هذه الصيغة متناغمة مع فواصل السورة الباقية فحسن موقعها الصوتي في هذا الموقع.

❖ استعمال (أزاً) في فاصلة الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّوهُمْ أَزًّا﴾<sup>(٥)</sup> في حين أن (أز) لها مصادر أخرى مثل أزيز بفتح الهمزة<sup>(٦)</sup>، إلا أن السياق القرآني فضل (أزاً) لانسجامها الصوتي مع فواصل الآيات الأخرى، إلى جانب التصوير الحسي لهذه الصيغة التي تعطي نوع من العنف والقوة والاضطراب.

### ٤. تكرار الفواصل وانسجامها مع المعنى.

من الظواهر البارزة في السورة الكريمة هو تكرار فواصلها التي تضيف جمالاً لفظياً متناغماً وتأكيداً معنوياً قوياً، وب تأملنا لفواصل السورة نجدها قد تكررت في عدة مواضع منها، ودارت منسجمة مع معانٍ مقصودة استهدفها السياق القرآني، ونحصرها في الجدول الآتي:

الفاصلة	تكرارها في الآيات	انسجامها مع جو الآيات
شقياً	تكرار ثلاث مرات في الآيات (٤ - ٢٢ - ٤٨)	إيقاع عنيف يدل على استنكار تفضي هذه الصفة.
وليّاً	مرتين في الآيات (٥ - ٤٥)	إيقاع هادئ يناسب الولاية بالتقرب من الله تعالى.

١- ينظر، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، أز، ص ٣٢٤.

٢- سورة الفرقان، آية ٢١.

٣- سورة الملك، آية ٢١.

٤- ينظر، الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، أز، ص ٢٥-٢٦، وابن منظور: لسان العرب، أز، مجلد ١، ص ١٠١-١٠٢.



سمياً	مرتين في الآيات (٦٥ - ٧)	إيقاع سمعي واضح يدل على حقيقة عدم المماثلة.
شيئاً	أربع مرات في الآيات (٦٧ - ٦٠ - ٤٢ - ٩)	إيقاع يفيد التفشي و ينسجم مع قدرة الله الواسعة في كل شيء.
عشيئاً	مرتين في الآيات (٦٢ - ١١)	جرس إيقاعي سلس و واضح ينسجم مع سلاسة الأرزاق المحملة في هذا الوقت وسعتها.
صبيئاً	مرتين في الآيات (٢٩-١٢)	إيقاع قوي ومفخّم ينسجم مع أهمية هذه المرحلة في حياة يحيى عليه السلام.
تقيئاً	ثلاث مرات في الآيات (٦٣-١٨-١٢)	صوت مفخم يتناسب مع قدر هذه الصفة وأهميتها.
عصيئاً	مرتين في الآيات (٤٤-١٤)	إيقاع مفخم قوي ينسجم مع صفة العصيان.
حيئاً	أربع مرات في الآيات (٦٦-٣٣-٣١-١٥)	جرس هادئ ينسجم مع حقيقة الحياة.
بغياً	مرتين في الآيات (٢٨-٢٠)	إيقاع مفخم يتناسب مع استنكار هذا الفعل.
مقضيئاً	مرتين في الآيات (٧١-٢١)	إيقاع مفخم ينسجم مع تعظيم أمر الله وقضائه.
نبيئاً	سبع مرات في الآيات (٤١ - ٣٠ - ٤٩ - ٥١ - ٥٢ - ٥٤ - ٥٦)	إيقاع سمعي واضح يتناسب مع مواقف الإعلان والمصارحة والتشريف.
عليئاً	مرتين في الآيات (٥٧-٥٠)	جرس قوي يثير الانتباه وينسجم مع تعظيم المكانة والمنزلة.
جنيئاً	مرتين في الآيات (٧٢-٦٨)	إيقاع مفخم يتناسب مع جو التهديد والوعيد.

مدّاً	مرتين في الآيات (٧٥ - ٧٩)	فيه إيقاع قوي ينسجم مع جو التهديد والإندار.
عدّاً	مرتين في الآيات (٨٤ - ٩٤)	إيقاع قوي ينسجم مع جو الوعيد والإندار.
ولداً	ثلاث مرات في الآيات (٧٧ - ٨٨ - ٩٢)	جرس واضح وبارز يتناسب مع حقيقة الأمور المصرّح بها.
عدّاً	مرتين في الآيات (٨٤ - ٩٤)	إيقاع قوي ينسجم مع جو الوعيد والإندار.
فرداً	مرتين في الآيات (٨٠ - ٩٥)	إيقاع سمعي قوي ينسجم مع حقيقة الصمدية لله تعالى.
عهداً	مرتين في الآيات (٧٨-٨٧)	إيقاع قوي وواضح ينسجم مع حقيقة الموقف الذي ذكر فيه.

ومن خلال ما سبق نستنتج عدة دلالات صوتية وإيقاعية مثلت بعض قوانين الإيقاع التي وضعها الأدباء<sup>(١)</sup>:

### أولاً- التكرار:

١- جاءت فواصل السورة الكريمة كلها ما عدا (٨ آيات) منتهية بحركة الفتحة الطويلة، التي أسهمت بتكرارها في تحقيق الانسجام الإيقاعي لأصوات الفواصل.

### ولحركة الفتحة عدة مميزات<sup>(٢)</sup>:

- قدرتها الإيقاعية على تغطية اختلاف حروف الروي في المخارج والصفات.
- وفرتها التي تأتي بعد وفرة الوقف على السكون، على حين تندر حركات الكسر والضم.
- ٢- جاءت معظم آيات السورة وعددها (٦٢ آية) متماثلة في فواصلها على الياء المصحوبة بصوت الفتحة الطويلة، وإحدى وعشرين مرة بفاصلة الدال المصحوبة بصوت الفتحة الطويلة، وخمس مرات بفاصلة النون الساكنة، و مرتين بفاصلة الميم الساكنة، و ثلاث مرات بفاصلة الزاي المصحوبة بصوت الفتحة الطويلة.

١- وهي: (النظام، التغير، التساوي، التوازي، التوازن، التلازم، التكرار) ولتطبيق هذه القوانين بصورة تفصيلية في السورة يحتاج لمباحث طويلة في دراسة أخرى لا يسع المقام للتعمق فيها، ينظر: محمد الحساوي: الفاصلة القرآنية، ص١٦٨-١٦٩.

٢- بتصرف، محمد الحساوي: الفاصلة القرآنية، ص٢٧٢.

٢- تكرار كلمات بعينها في مواضع معينة لخدمة الأغراض والمعاني التي قصدتها القصص في السورة، ولقد وضَّحنا أسبابها من خلال الجدول السابق في مدلولاتها.

٤- أتمس تكرار عدة أوزان عروضية، أعطت جرساً موسيقياً قوياً، ولقد جاءت كالاتي:

• (فعلون) في تسع وسبعين فاصلة في آيات المقطع الأول (١-٢٣) والمقطع الثالث (٤١-٧٤) وفواصل متفرقة في الجزء الأخير.

• (فعل) سبع فواصل في الآيات (٣٤-٤٠).

• (فَعَلْنَ) و (فَعُلْنَ) ثلاث عشرة فاصلة في نصف المقطع الأخير.

وبهذا التنوع المسموع وهذا التكرار الملحوظ ندرك بهما حقيقة الانسجام الجمالي الذي يمكننا تطبيق مقاييسه الموضوعية على الإيقاع الصوتي للفاصلة القرآنية، ف «لأهمية قانون التكرار في علم الجمال يجعله بعض الدارسين قسيماً لقوانين الإيقاع الأخرى (من نظام وتساو وتواز وتوازن وتلازم) فيدرجونه تحته، ما عدا قانون (التغير)، ويرون أن عنصر الجمال يدور على الانسجام وأن الانسجام كله، مداره على التنوع والتكرار»<sup>(١)</sup>.

**ثانياً- التغير** وهو: ما عالجه في تنوع الفواصل على حسب المعاني والأفكار وما أثاره من انتباه وقرع لأسماع المتلقين بالانتقال بين الفواصل المتنوعة.

**ثالثاً- التوازن** وهو: ما روعي «في فاصلتين القريبتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منهما»<sup>(٢)</sup>، مثل الآيتين: (٨٣-٨٤) (أزاً عدأ).

**رابعاً- المتوازي** وهو: «رعاية الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي»<sup>(٣)</sup> وهو ما ساد في أغلب فواصل السورة الكريمة مع حرف الياء الممدودة بصوت الفتح مثل: (خفياً شقيّاً وليّاً.....).

وهكذا أختم معالجتني للفاصلة القرآنية في سورة مريم، لندرك مدى أهميتها في إحداث الانسجام الموسيقي المشحون بالتوافق المعنوي والتلاؤم الصوتي، ومن ثم فإننا من خلال هذا المطلب الذي عنوانه ب: (الأدوات الإيقاعية والصوتية) تكشف لنا وجود ذلك التوازن والتناغم الإيقاعي المحكم والمقصود في السورة وقصصها، الذي أسهم بوظيفته في تحقيق الأثر الجمالي داخلها، لتتحد بدورها مع العناصر الجمالية الأخرى للوصول إلى الوحدة الفنية في السورة الكريمة.

١- محمد الحسناوي: دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء الكهف مريم طه) ص ١٨١، وينظر عبد الله الطيب المجذوب: المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها، ج ٢، ص ٣٨.

٢- محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص ٢٤٧، ومنهم من توسع في دراسة التوازن في أشعار العرب كما في دراسة عبد الله الطيب: المرشد لفهم أشعار العرب وإيقاعاتها، ج ٢، ص ٣٠٨-١١٢-١١٣.

٣- محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص ١٤٩.



## وكلمة أخيرة أسجلها في هذا الفصل:

إن اجتماع الألفاظ الدقيقة مع العبارات التركيبية المحكمة، و الأساليب التعبيرية البديعة المغلفة بالأدوات التصويرية المؤثرة، والبديع الموسيقي المتنوع، والأصوات الإيقاعية المتناغمة، ليعد في قمة الإبداع والإعجاز الجمالي والأسلوبي، الذي يضي على السورة والقصص وحدة فنية فائقة في الجمال، فتتلاحم بفنيتها مع الوجدتين الموضوعية والعضوية في الفصلين السابقين لتكوّن لنا بناء معمارياً متقناً في قصص السورة القرآنية، وترصف لنا لبنات جمالية محكمة من جميع الجوانب والجهات، لتقدم لنا معجزة بلاغية بنائية جمالية في قمة الروعة والجمال.



٣٧٢

## الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث يجدر بي أن أختم دراستي بذكر أهم النتائج والمقترحات التي تم التوصل إليها، وأجملها في الآتي:

### أولاً - (النتائج):

- عظمة الأسلوب القصصي واحتوائه على فنون أسلوبية وتعبيرية وبلاغية متعددة قد يُتوصل لقليلها بالاجتهاد والبحث، ويبقى كثيرها في مكان الإعجاز وأساره.
- تعد القصص القرآنية مورداً يستقى منه أسس بناء فن القصة ولا يعني ذلك أن نتعامل مع القرآن أنه كتاب قصص وتسلية، بل لا بد من استيقان أن القرآن معجزة بنيت على البيان والبلاغة أساساً.
- سبق الأساليب القرآنية القصصية للقواعد والأعراف والطرق الجديدة والمتنوعة التي تدعو إليها النظريات الغربية الحديثة<sup>(1)</sup>، التي يراها الكثير من المفتونين بها بأنها صاحبة الفضل في التقعيد والتأطير والسبق، وبيان بأن القصة العربية لم تعرفها إلا بعد الاتصال بالثقافة الغربية.
- قد مثلت سورة مريم نموذجاً مصغراً من سور القرآن الكريم (للهندسة المعمارية البديعة) في معماريتها البنائية عامة ومعماريتها القصصية خاصة، قد تظهر أبعادها الهندسية أحياناً وقد تختفي أحياناً أخرى، وذلك لطبيعة القرآن المتجددة لكل عصر وزمان.
- يمكن الوصول لمعرفة بعض أسرار تلاحم القصص في السورة الواحدة، ومدى تشابكها مع مقاصد السورة وأهدافها بدراسة وحداتها الثلاث (الموضوعية والعضوية والفنية) فهي وحدات تسهم بدور فاعل في بنائية السورة وقصصها.
- إن أهم جزء تستند عليه الدراسة البنائية والعمود الفقري الذي تقوم عليه هو معرفة نوع السورة المدروسة إن كانت (مكية أو مدنية) للتوصل من خلالها إلى المحور أو المقصد الرئيس الذي تدور عليه السورة وقصصها، فالبنائية في وحداتها الثلاث السابقة تقوم على أساسها، وتتبلور بأشكالها، وتتحدد بأدواتها، لتتناسب مع الطريقة المثلى لمعالجة هذا المحور أو المقصد، وهو في سورة مريم (توحيد الله وعبوديته المطلقة التي تستلزم رحماته وهباته لعباده المخلصين).

١- وإن لم أكن قد تناولت هذه النظريات الغربية ورواها بالتناول والمقارنة والتفصيل في هذه الدراسة للحاجة إلى دراسة أخرى متسعة لهذا الموضوع.





- إن للمعمارية القصصية داخل العمارة الكلية للسورة الكريمة مسحة فنية ونفسية مقنعة ومأثرة، لها أثر كبير في انسجام وترابط الأفكار والمضامين و تلاحم الأبنية القصصية والخطابية في هيكلية متماسكة تُسخر لخدمة المقصد والهدف، التي بدورها تجعل كل الألفاظ والأساليب والأدوات والآليات والعلاقات والأصوات تسخر لها بشكل متقن ومحكم في ترابط وتناغم وتساوق عجيب، لا نجده في إحكام وإتقان أرقى وأرفع النصوص البشرية المصطنعة.
- إن تلاحم المعمارية القصصية مع هيكلية مقاطع السورة الكريمة يقدم هدفاً قرآنياً متعمداً هو (التغذية الراجعة) للمتلقى، التي تعطيه جرعات معلوماتية متنوعة المقاصد ومتعددة الأدوات في دقات شعورية، وقناعات عقلية، تتناسب مع كافة المستويات الثقافية للمتلقين، وطاقتهم التأثيرية التي تسخر جميعها لخدمة المقصد الرئيس في السورة.
- للمعمارية المحكمة في قصص السورة محاسن إيجابية، تعمل على عرض الموضوعات المتنوعة و المقاصد المتشابهة، فتربط بينها دون أن ينحرف المتلقي عن الطريق المرسوم له في السورة، ودون أن يتزعزع في استقباله لأي حقيقة كانت، وبالتالي يتم توصيل المقاصد السامية والأغراض الدينية دون أن ينتاب هذا التوصيل أي خلل أو سوء فهم، فتستطيع السورة الكريمة فنياً رسم منهج معين وبناء مخصوص في ذهن المتلقي، لا يستطيع أيّاً كان أن يفسده أو يخل بنظمه وطريقته، وهكذا سيتم وضع حاجز أمان في ذهن المتلقي أمام المفرضين من أعداء الإسلام الذين يشككون في القرآن وطريقة عرضه للسورة وآياتها.
- قد تتفاوت قدرة المتلقين وكيفية استقبالهم وتلقيهم لهذه الهندسة المعمارية القصصية في السورة، فكلما منهم يدركونها على حسب قوة تركيزهم وثقافتهم ووعيهم لفهم النص، ومدى قدرتهم في فهم روابطه الموضوعية والعضوية وأبعاده الفنية.

## ثانيا- المقترحات:

تُقدم (البنائية المعمارية) على صعيد القصص أو السور القرآنية أثراً كلياً ينتج عن استجابة المتلقي لمجموع البنيات المتلاحمة والمتراصة جميعاً لخدمة الهدف الرئيس، بشكل لا يتحقق معه هذا الأثر في قراءة آية واحدة أو عدة آيات، وهكذا نتضح لنا سبب جمع الرسول عليه السلام للآيات في سورة واحدة، وسببية دعوة القرآن إلى تدبره والتفكير في معانيه كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أََمْ عَلَيَّ قُلُوبٌ أَفْأَلْهَا ﴾ (٢٤) (١) إذ بالتدبر والتفكير في آياته ومقاطععه يُعين على تحقيق استجابة متعمقة في النفس، جامعة وشاملة لكل الأهداف والمقاصد المنشودة في السورة القرآنية، بعكس لو كان قارئ القرآن يعتمد على النطق بالآيات والنظر في رسمها الخطي فقط، فهو لا يعدو حينئذٍ سوى قارئ

قد أجهد لسانه بالتحريك دون فائدة معنوية يجنيها، مع أن من فضل الله وعطائه على عباده أن يثيب قارئه وإن لم يدرك معانيه، فكيف إن أصاب الاثني؟!

## لهذا كان لابد من:

- تقديم دراسات متعددة لمعرفة أبعاد التأثير القرآني سواء كان في أصغر بنياته أو أكبرها.
- كما أن الدراسة المعمارية وضّحت لنا أهمية الوظيفة الدلالية للألفاظ والعبارات التي تُبرهن على أن لكل منها مواقع ومعاني وأساليب هي أليق من غيرها للتعبير عنها والحلول في مواقعها، لذلك كان لابد من التوسع الدلالي في هذا المجال الذي أشرت إليه في البحث إشارات بسيطة لم يتسع لها المقام بالتناول والتفصيل.
- كما أن للوحدة العضوية والفنية عدة وسائل وأساليب وأدوات وآليات متعددة، لم أستطع جمعها كلها، أو توظيف ما ذكر منها بطريقة مثلى، وذلك بسبب أن الموضوع يحتاج لرصيد علمي فائق في المعرفة والخبرة والتطبيق من عدة جوانب تعبيرية وأسلوبية وعدة أبعاد لغوية وصرفية ونحوية ووبائية وبديعية وصوتية قد لا يسعني رصيدي المعرفي والثقافي للإلمام بها، لذلك كان لابد من دراسات تفصيلية لأصحاب العلم في معرفة الأبعاد السابقة، ومدى دورها في تلاحم القصص أو السورة في أجزائها وأشكالها المتنوعة.
- كما أن لدراسة الجانب التصويري والإيقاعي في السورة الكريمة كنوزا غزيرة من الأسرار القرآنية المعجزة التي أودعها الله فيها لم يُنجم عنها بعد، فأغلب الدراسات التي اطلعت عليها لم تكن جامعة لأبعادها وأنواعها على حسب ظني، ولقد وجدت في هذين الجانبين فضاء رحبا للدراسة المنهجية ذات الجودة العالية، وبخاصة في الاستعانة بآليات العصر ومستجداته التي تعطي الباحث مفاتيح تفتح أبواب من الأفكار والطرائق في كيفية كشف أسرار هذه الجوانب وكيفية قدرتها على السيطرة على المتلقين بدرجة لا يفهمها المتلقي نفسه.
- كما أنني أدعو إلى تطبيق هذه الدراسة في كل سورة على حدة من سور القرآن الكريم لتزداد وتزخر مكتبة الزمن بهذا النوع من الدراسة، وبخاصة في زمن يطلب قاطنيه المعلومة الكلية الشاملة على طبق من ذهب.
- كما أنني أقترح بعضا من المواضيع التي أرى فيها كنوزا من المعارف والفوائد لابد أن تُستخرج مثل:

● الوحدة العضوية وآلياتها المتنوعة في السورة القرآنية.





- الوحدة العضوية في الجزء الثلاثين (دراسة بنائية جمالية تطبيقية).
- عمارة السورة القرآنية وأبنيتها المتعددة (دراسة بنائية جمالية).
- الألفاظ وفضاؤها المعماري في السور القرآنية.
- البنية الإيقاعية وفضاؤها المعماري في سورة مريم (دراسة بنائية جمالية تطبيقية).
- الوحدة الفنية في سورة مريم، (دراسة بنائية جمالية).
- التكرار (اللفظي والمعنوي والصوتي) ودوره في سورة مريم، (دراسة جمالية).
- قصة مريم بين (سورة آل عمران وسورة مريم) دراسة في البناء والموضوع.
- الصورة السينمائية في قصص القرآن (دراسة بنائية بيانية جمالية).
- الجمال الفني في قصص القرآن ودوره الوظيفي.
- المعمار ودوره في تأسيس نظرية تلقي قرآنية<sup>(١)</sup>.

وفي ختام بحثي أشير لآية عظيمة قال الله تعالى فيها: ﴿فَلَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُمَّتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كُفْمْتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾<sup>(٢)</sup>، فهي حقيقة توضع نصب أعين الباحثين قبل خوض غمار الدراسات القرآنية بأشكالها وأنواعها، فالقرآن «كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن.. والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدييره في الاجتماع ما يكشف حقائقها، ويكولون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم»<sup>(٣)</sup>.

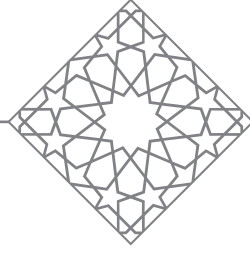
وفي آخر المطاف أدعو كل من قرأ البحث واطلع عليه ووجد فيه أي اعوجاج أن يقومه أو نقص فيتممه بما يرى فيه الصلاح والإفادة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

١- ومن ألفت الإشارات لهذا الموضوع مقالة بعنوان (نحو تأسيس نظرية تلقي قرآنية) للأستاذ مؤيد عزيز، جامعة الموصل، العراق، ينظر، مجلة (آفاق الثقافة والتراث) مجلة فصلية ثقافية تراثية، تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمرکز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد ٢٥-٢٦، السنة السابعة، ربيع الأول ١٤٢٠هـ - يوليو ١٩٩٩م.

٢- سورة الكهف، آية ١٠٩.

٣- عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٢م، ط١، ص ٤١١.





# الفهارس

- ثبت المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات



٣٧٧

المعمار القصصي في نسوة مريه



## ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

(أ)

٢. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ط١.

٣. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن الكريم (دراسة في النظم المعنوي والصوتي)، منشورات كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٢م، (د-ط).

٤. أحمد عبد اللطيف بدر: الفتوحات الربانية في الربط بين السور القرآنية، مطبعة دار التأليف، شارع يعقوب، المالية، (د.ت)، (د،ط).

٥. أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر، ٢٠٠٣م، ط-٣.

٦. أحمد محمد البسيلي التونسي: التقييد الكبير في تفسير الله المجيد، تحقيق عبد الله طوالة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ط١.

٧. أحمد مختار عمر: - علم الدلالة: عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٥.

- دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، ط١.

٨. أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتبي، سورية، (د،ت)، (د،ط).

٩. الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء ١٥-١٦، (د-ط)، (د-ت).

١٠. إنعام عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ط١.



٣٧٩

## (ب)

١١. باجودة، حسن محمد: تأملات في سورة مريم، دار الاعتصام، (د-ت)، (د-ط).
١٢. باحاذق، عمر محمد عمر:
  - أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ط١.
  - سياحة إيمانية في رحاب سورة مريم، دار المأمون للتراث، دمشق، (د-ت)، (د-ط).
١٣. باديس، عبد الحميد: مجالس التذكير، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٢م، ط١.
١٤. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق: عبد العزيز عبد الله بن باز، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الوليد، طرابلس (د-ت)، (د-ط).
١٥. البستاني، محمود:
  - التفسير البنائي للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٢٣هـ، ط١.
  - دراسات في علوم القرآن الكريم، مدينة العلم، إيران، قم، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م، ط١.
  - قصص القرآن الكريم دلاليا وجماليا، الجزء الأول، مؤسسة السبطين العالمية، إيران، ١٤٢٨هـ، ط٢.
  - المنهج البنائي في التفسير، دار الهادي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، ط١.
١٦. البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرازق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ط٣.
١٧. بكري، شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين بيروت لبنان، (د-ت)، ط٧.
١٨. البوطي، محمد سعيد رمضان: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزوجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، (د-ط).



١٩. البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي: تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» مع حاشية الخفاجي، ضبطه وخرج أحاديثه وآياته: عبد الرازق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ط١.

٢٠. بيوض، إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن «تفسير سورتي مريم وطه» جمعية التراث، القرارة، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، (د-ط).

### (ت)

٢١. تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ط٢.

٢٢. التهامي، نقرة: سيكلوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧١م، (د-ط).

٢٣. ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (أبو العباس): التفسير الكبير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ت)، (د-ط).

### (ث)

٢٤. ثروت أباضة: السرد القصصي في القرآن الكريم، دار نهضة مصر، (د-ت)، (د-ط).

### (ج)

٢٥. جابر عصفور: النقد الأدبي، مفهوم الشعر «دراسة في التراث النقدي»، دار الكتب المصرية، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ط١.

٢٦. الجرجاني، عبد القاهر:

- أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، (د-ط).

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ط١.

### (ح)

٢٧. ابن حجة الحموي، تقي الدين أبي بكر علي، خزانة الأدب ونهاية الأرب، شرح عصام شعيتوا، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، (د-ت)، (د-ط).





٢٨. حجازي، محمد محمود: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، مصر، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م، (د-ط).
٢٩. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي: تفسير البحر المحيط بـ «هامشه النهر الماد»، دار الفكر، ١٤٠٢هـ-١٩٨٣م، ط٢.
٣٠. حسن طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، (د-ط).
٣١. حسين جمعة: التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة جمالية فكرية وأسلوبية)، منشورات دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (٢٠٠٥)، ط١.

### (خ)

٣٢. الخالدي: صلاح عبد الفتاح:
- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، الأردن، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ط١.
- القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، (د-ط).
٣٣. الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ط١.
٣٤. الخفاجي، شهاب الدين محمد بن محمد بن عمر: حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي، على تفسير البيضاوي، ضبط وتخريج: عبد الرازق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ط١.
٣٥. خلدون سعيد صبح، التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٢م، ط١.

### (د)

٣٦. داود غطاشة و حسين راضي: قضايا النقد الأدبي قديمها وحديثها، دار القدس، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، ط١.
٣٧. دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٧-٢٠٠٠م، ط٢.

(ن)

- ٣٨٣  
المعمار القصص في سورة مريم
- ٣٨
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ط٢.
- ٣٩
- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ضبطه وراجعه: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ط٤.
- ٤٠
- الرافعي، مصطفى صادق: إجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، (د-ط).
- ٤١
- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ط١.
- ٤٢
- رشاد صبري رشدي: فن القصة القصيرة، المكتب المصري الحديث، (د-ت)، ط٥.
- ٤٣
- رفعت فوزي عبد المطلب الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، دار السلام، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ط١.
- ٤٤
- الركيبي، عبد الله خليفة: القصة الجزائرية القصيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٧٧م، ط٢.
- ٤٥
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى: النكت في إجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إجاز القرآن) للرماني والخطابي والباقلاني، تحقيق محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د-ت)، ط٤.
- ٤٦
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان: خصائص القرآن الكريم، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط١٥.

(ز)

- ٤٧
- الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، (د-ط).
- ٤٨
- الزحيلي، وهبة: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر - دمشق، سورية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ط١.



٤٩. الزركلي دمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ط١٥.
٥٠. الزمخشري، أبي القاسم محمد بن عمر الخوارزمي: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢١-٢٠٠١م، ط٢.
٥١. أبوزهرة، محمد: المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، (د-ط).

### (س)

٥٢. السامراني، فاضل: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ط٢.
٥٣. سعيد حوى: الأساس في التفسير، دار السلام، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ط١.
٥٤. السلامي، عمر: الإعجاز الفني في القرآن، نشر وتوزيع مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٠م، (د-ط).
٥٥. ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد: سر الفصاحة، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، مصر، ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م، ط١.
٥٦. سيد قطب:
- التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ٢٠٠٧م، ط١٩.
  - في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ط٢١.
  - مشاهد القيامة في القرآن، دار المعارف، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ط١٦.
٥٧. السيد محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، دار الملاك، لبنان، ٢٠٠١م، ط٦.
٥٨. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر:
- الإتيان في علوم القرآن، حققه وعلق عليه وعمل فهارسه: عصام فارس الحرستاني، خرج أحاديثه: محمد أبو صغيليك، دار الجيل، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ط١.
  - قطف الأزهار وكشف الأسرار، تحقيق: أحمد الحمادي، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ط١.
  - معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد اليحاوي، دار الفكر العربي، (د-ط)، (د-ط).



## (ش)

٥٩. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، خرج آياته و أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي، المجلد الرابع، مكتبة المعارف، الرباط، المملكة المغربية، (د-ط)، (د-ت).
٦٠. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ط٣.

## (ص)

٦١. الصعدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (د-ط).
٦٢. صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث، ١٩٩٤م، ط١.

## (ط)

٦٣. الطبرسي، أبوعلي الفضل ابن حسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي وفضل الله الطباطبائي، دار المعرفة، ١٩٨٦م، (د-ط).
٦٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، ١٩٨٣م، (د-ط).
٦٥. الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ط١.
٦٦. الطروانة، سليمان: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ط١.
٦٧. طهماز، عبد الحميد: التوحيد والتنزيه في سورة مريم، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ط١.

## (ظ)

٦٨. الظواهري، كاظم: بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم، دار الصابوني، دار الهداية، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ط١.



٦٩. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، (د-ط)، (د-ت).
٧٠. عبد الباسط عطايا: مع القرآن، دار العلاء، شبين الكوم، مصر، (د-ط)، (د-ت).
٧١. عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٤١٨ هـ - ١٩٨٨ م، ط١.
٧٢. عبد السلام المسري، ومحمد الهادي الطرابلسي: الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
٧٣. عبد العزيز عتيق: علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، (د-ط).
٧٤. عبد العليم السيد فودة: أساليب الاستفهام في القرآن، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، والعلوم الاجتماعية، (د-ت)، (د-ط).
٧٥. عبد القادر حسين: القرآن والصورة البيانية، دار المنار، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ط١.
٧٦. عبد القاهر أبو شريفة، حسين لافي قزق: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٥ م، ط١.
٧٧. ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٣ م، (د-ط).
٧٨. عبد السلام المسري ومحمد الهادي الطرابلسي: الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، (د-ط).
٧٩. العلواني، طه جابر: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ط١.
٨٠. العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة وضبط وتحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ط١.



٨١. علي عبد الخالق علي: الفن القصصي (طبيعته- عناصره - مصادره الأولى)، دار القطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، (د-ط).

٨٢. علي مرashedة: بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني)، جدار للكتاب العالمي، عمان، الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٦م، ط١، ص ٧٩-٨٠.

### (غ)

٨٣. الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير: البرهان في ترتيب سور القرآن، تحقيق: محمد شعبان، وزارة الأوقاف المغربية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (د-ط).

٨٤. الغزالي، محمد:

- خطب الشيخ محمد الغزالي، إعداد: عبد الحميد قطب، مكتبة رحاب الجزائر، (د-ت)، (د-ط).

- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، دار بغداد للطباعة، الرويبة، الجزائر، (د-ت)، (د-ط).

### (ف)

٨٥. فالح الربيعي: القصص القرآنية (رؤية فنية)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ط١.

٨٦. الفراهي، عبد الحميد: دلائل النظام، الدائرة الحميدية، ١٩٦٨م، ط١.

٨٧. فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني - علم البيان - علم البديع) دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ط٥.

- أبو الفضل عبد الله محمد الصديق: جواهر البيان في تناسب سور القرآن الكريم، عالم الكتب، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ط٢.

٨٨. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (د-ط).

### (ق)

٨٩. القرطبي، أبو عبد الله الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب، القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، (د-ط).





### (ك)

٩٠. ابن كثير، إسماعيل القرشي الدمشقي: قصص الأنبياء، اعتنى به وخرج أحاديثه: ماجد محمد، دار عالم الثقافة، عمان، الأردن، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ط١.
٩١. الكرمانى، محمود بن حمزة: أسرار التكرار في القرآن، المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، (د-ط)، (د-ت).

### (ل)

٩٢. لاشين، عبد الفتاح أحمد: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، (د-ط).

### (م)

٩٣. المراغي، أحمد مصطفى: تفسير المراغي، دار الفكر، ١٩٧١م، (د-ط).
٩٤. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم، سينا للنشر، مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٩م، ط٤
٩٥. محمد الحسن اوي: - دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء الكهف، مريم، طه) دار عمار، سورية (د-ت)، (د-ط).
- الفاصلة في القرآن، دار عمار، ٢٠٠٠م، ط٢.
٩٦. محمد حسن شرشر: البناء الصوتي في البيان القرآني، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ط١.
٩٧. محمد حسين أبو الفتوح: أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، مكتبة لبنان (د-ت)، (د-ط).
٩٨. محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، دار الملاك، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ط٦.
٩٩. محمد الدالي: الوحدة الفنية في قصة القرآنية، (د-دار نشر)، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ط١.
١٠٠. محمد السيد حسين مصطفى:

- الإعجاز اللغوي في قصة القرآنية، مؤسسة الشباب، شباب الجامعة، (د-ط)، (د-ت).
- روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، (د-ت)، (د-ط).
١٠١. محمد شديد: القصة في القرآن، شركة مكتبات عكاظ، الرياض، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ط١.
١٠٢. محمد علي الخولي: الأصوات اللغوية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠م، (د-ط).
١٠٣. محمد فاروق الزين: بيان النظم في القرآن الكريم، دار الفكر، بدمشق، ١٤٢٦-٢٠٠٥م، ط١.
١٠٤. محمد قطب:
- دراسات قرآنية، دار الشروق، بيروت، القاهرة، (د-ت)، (د-ط).
- من جماليات التصوير في القرآن الكريم، الهيئة المصرية، ٢٠٠٦هـ، ط٢.
- نظرات في قصص القرآن، دعوة الحق، سلسلة شهرية تصدر في كل شهر عربي، إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد (٥٩)، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، ط٦.
١٠٥. محمد يوسف نجم: فن القصة، دار صادر، بيروت- دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م، ط١.
١٠٦. محمد محمد داود: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٨م، (د-ط).
١٠٧. محمد محمد أبو موسى: دلالات التركيب (دراسة بلاغية)، مكتبة وهبة، دار التضامن، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ط٢.
١٠٨. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط٣.
١٠٩. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، ط٤.
١١٠. منير سلطان: بلاغة الكلمة والجمل والكلمة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ط٢.
١١١. مهدي مخزومي: في النحو العربي «نقد وتوجيه»، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤م، ط١.



١١٢. موسى عسيري: الرحمة في القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، (د-ط).

### (ن)

١١٣. النابلسي، محمد راتب: موسوعة أسماء الله الحسنى، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ط٥.

١١٤. ناصر الخنين: النظم القرآني في آيات الجهاد، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ط١.

١١٥. النويهي، محمد: الشعر الجاهلي «منهج في الدراسة وتقويمه» الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د-ت)، (د-ط).

### (هـ)

١١٦. هاشم ابن الريب: أسلوب القصر في محكم النظم، دار الطباعة المحمدية، ١٤٠١هـ - ١٩٩٠م، ط١.

١١٧. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، حققه وضبط نصه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ط٢.

### (و)

١١٨. وليد قصاب: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار القلم، الإمارات، دبي، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط١.

### (ي)

١١٩. يوسف حسن نوفل: جماليات القصة القرآنية، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ط١.

## (الدراسات والرسائل الجامعية)

١٢٠. بلحسيني نصيرة: الصورة الفنية في القصة القرآنية، (قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجاً)، دراسة جمالية، (رسالة ماجستير)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٢١. حدة سابق: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، (رسالة ماجستير)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٢٢. زكية محمد خالد: التشابك القصصي في سورة الكهف، دراسة في ابناء والموضوع، (رسالة ماجستير) كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، ٢٠٠٨م.

١٢٣. سارة بنت نجر بن ساير العتيبي: النظم القرآني في سورة مريم، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، البلاغة والنقد، ١٤٢٥هـ - ١٤٢٦هـ، ص ٢٢.

١٢٤. سهام صياد: البديع في سورة مريم، دراسة جمالية، (رسالة ماجستير)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٢٥. شريط أحمد شريط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧-١٩٨٥م، من منشورات اتحاد الكتاب العربي، ١٩٩٨م، (د-ط).

١٢٦. محمد طول: الصورة الفنية في القرآن الكريم، (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، ١٩٩٥م.

١٢٧. مريم السباعي: القصة في القرآن الكريم، (رسالة دكتوراه)، جامعة أم القرى، مكة، السعودية، ١٤٠٤هـ.

١٢٨. معين رفيق أحمد صالح: دراسة أسلوبية لسورة مريم، (رسالة ماجستير) جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، فلسطين، ٢٠٠٣م.

١٢٩. محمد عبد الله عبده دبور: أسس بناء القصة في القرآن الكريم، دراسة أدبية نقدية، (رسالة دكتوراه) جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالمنوفية، مصر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

### (المجلات والدوريات)

١٣٠. مجلة الفيصل، نعيم الياقوت: حروف القرآن «دراسة دلالية في علمي الأصوات والنغمات» الرياض، السعودية، العدد ١٠٢، السنة ٩، ذو الحجة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ط٢.

١٣١. مجلة (آفاق الثقافة والتراث) مجلة فصلية ثقافية تراثية، تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، مقالة بعنوان (نحو تأسيس نظرية تلقي قرآنية) للأستاذ مؤيد عزيز، جامعة الموصل، العراق، العدد ٢٥-٢٦، السنة السابعة، ربيع الأول ١٤٢٠هـ - يوليو ١٩٩٩م.



## (المواقع الإلكترونية)

١٣٢ . موسوعة وكبيديا الحرة.

١٣٣ . موقع جوجل.





## فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٩	(شكر و تقدير)
١١	مقدمة
٢١	(التمهيد)
٢٣	(مدخل إلى المعمار)
٣٧	<b>الفصل الأول:</b>
٣٧	(المعمار الموضوعي في سورة مريم)
٤١	المبحث الأول:
٤١	(بين يدي السورة الكريمة)
٤٣	المطلب الأول: اسم السورة و ترتيبها وعدد آياتها:
٤٧	المبحث الثاني:
٤٧	(تحديد موضوع السورة)
٥٣	المبحث الثالث:
٥٣	(الوحدة الموضوعية في السورة)
٥٥	المطلب الأول: موضوعات السورة الكريمة:
٦٢	المطلب الثاني: قضايا السورة و مقاصدها
٦٧	المبحث الرابع:
٦٧	(موقع السورة بين السور و تناسبها لما قبلها و ما بعدها من السور)
٧٠	المطلب الأول: تناسب سورة مريم مع سورة الكهف.
٥٢	المطلب الثاني: تناسب سورة مريم مع سورة طه.
٧٥	<b>الفصل الثاني:</b>
٧٥	(الهيكل المعماري للسورة و وحدته العضوية)



٣٩٣



٨٣	المبحث الأول:
٨٣	مقدمة السورة (الاستهلال)
٩٥	المبحث الثاني:
٩٥	(وسط السورة)
٩٧	المطلب الأول:
٩٧	(البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية)
١٠٠	أولاً- البناء الهيكل والعضوي لقصة زكريا عليه السلام
١٠٩	ثانياً- البناء الهيكل والعضوي لقصة يحيى عليه السلام:
١١٦	ثالثاً- البناء الهيكل والعضوي لقصة مريم وعيسى عليهما السلام:
١٣٤	رابعاً: البناء الهيكل والعضوي لقصة إبراهيم عليه السلام مع والده.
١٤٥	خامساً: البناء الهيكل والعضوي في قصة موسى عليه السلام:
١٥١	سادساً: البناء الهيكل والعضوي لقصة إسماعيل عليه السلام:
١٥٥	سابعاً: البناء الهيكل والعضوي في قصة إدريس عليه السلام:
١٥٨	المطلب الثاني:
١٥٨	(البنية الهيكلية الخطابية ووحدتها العضوية)
١٦١	١- البنية الدلالية الكبرى (الأولى): المقابلة بين معالم الرشد ومعالم الغي:
١٦٦	٢- البنية الدلالية الكبرى (الثانية): الرد على أمهات الكفر المسيطرة على البشرية:
١٦٧	❖ البنية الدلالية الأولى: (قضية البعث والنشور).
١٧٤	❖ البنية الدلالية الثانية: (ومضة قصصية تشير إلى عبدة الأوثان والمشركين بالله تعالى)
١٧٨	❖ البنية الدلالية الثالثة: (ومضة قصصية تشير إلى القائلين باتخاذ الله ولداً والتشنيع بهم)
١٨٣	المبحث الثالث:

١٨٣	(جسور الانتقال)
١٩٥	المبحث الرابع:
١٩٥	(خاتمة السورة)
٢٠٠	- التغذية الراجعة ودورها في تلاحم المعمارية القصصية في السورة الكريمة
٢٠٣	<b>الفصل الثالث:</b>
٢٠٣	(المعمار الفني والجمالي وخصائصه في سورة مريم)
٢٠٩	المبحث الأول:
٢٠٩	(العناصر القصصية في السورة الكريمة)
٢١٢	المطلب الأول: الحدث وبناءؤه الفني:
٢١٦	١- الحدث في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام:
٢١٧	٢- الحدث في قصة مريم بنت عمران وسيدنا عيسى عليهما السلام:
٢١٩	٣- الحدث في قصة إبراهيم عليه السلام:
٢١٩	٤- الحدث في قصة موسى عليه السلام:
٢٢٠	٥- الحدث في قصتي إسماعيل وإدريس عليهما السلام:
٢٢٠	٦- الحدث في قصة الخلف المفرط في العبادة:
٢٢١	٧- الحدث في قصة المنكر للبعث:
٢٢١	٨- الحدث في قصة المغترين بالحياة الدنيا والمستهزئين المتقين:
٢٢١	٩- الحدث في قصة المنكر ليوم الآخر:
٢٢٢	١٠- الحدث في قصة المشركين بالله من عبدة الأوثان وغيرها:
٢٢٢	١١- الحدث في قصة المفترين الذين أطلقوا لله ولدا:
٢٢٢	المطلب الثاني - الشخصيات وأنموذج القدوات والتحذيرات:
٢٢٧	أولاً- الشخصيات في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام:
٢٣٢	ثانياً - الشخصيات في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:
٢٣٦	ثالثاً - الشخصيات في قصة إبراهيم عليه السلام:





٢٤٠	رابعا - الشخصيات في القصص الثلاث:
٢٤٢	خامسا - الشخصية البشرية المنحرفة عن الصراط السوي:
٢٤٤	المطلب الثالث- النسيج القصصي (السردي والوصفي والحواري):
٢٥٢	١- النسيج القصصي لقصتي زكريا ويحيى عليهما السلام:
٢٥٤	٢- النسيج القصصي في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:
٢٥٧	٣- النسيج القصصي في قصة إبراهيم عليه السلام:
٢٥٨	٤- النسيج القصصي في قصص الأنبياء الثلاثة (موسى وإسماعيل وإدريس) عليهم السلام:
٢٥٩	٥- النسيج القصصي في قصص المعاندين من المشركين والكافرين:
٢٦٠	المطلب الرابع: أوعية الحدث (الزمان والمكان):
٢٦٢	١- الزمان والمكان في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام:
٢٦٣	٢- الزمان والمكان في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:
٢٦٤	٣- الزمان والمكان في قصة إبراهيم عليه السلام:
٢٦٥	٤- الزمان والمكان في قصص (موسى وإسماعيل وإدريس) عليهم السلام:
٢٦٥	٥- الزمان والمكان في قصص المعاندين من المشركين والكافرين بالله تعالى:
٢٦٦	المطلب الخامس: عنصر القوى الغيبية.
٢٦٩	المبحث الثاني:
٢٦٩	(أدوات المعمار الجمالي والأسلوبي في السورة)
٢٧١	- المطلب الأول: الأدوات اللغوية والأسلوبية:
٢٧١	أولاً: الألفاظ ودورها في تلاحم معمارية القصص:
٢٨٧	ثانياً: الجملة القرآنية وأساليبها التعبيرية:
٣١٦	المطلب الثاني: الأدوات البديعية والتصويرية.
٣١٦	أولاً- الأدوات البديعية ودورها في المعمارية القصصية:

٣٣١	ثانيا - الأدوات التصويرية ودورها في المعمارية القصصية:
٣٥١	المطلب الثالث - الأدوات الإيقاعية والصوتية:
٣٥٣	١- الإيقاع الصوتي للحروف:
٣٥٩	٢- الإيقاع في المدود:
٣٦١	٣- الإيقاع الصوتي في الألفاظ:
٣٦٣	٤- إيقاع الجمل والفواصل القرآنية:
٣٧٣	الخاتمة
٣٧٩	(ثبت المصادر والمراجع)
٣٩٣	فهرس الموضوعات
٣٩٩	ملخص الرسالة

